شروح الشعر الجاهلي

الجزء الثاني

مناهج الشرّاح

الدكتور أحمد جمال العمري
أستاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
١٩٨١

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ــ ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ــ ج٠م٠ع

القسم الثاني

المناهج العلمية التي احتوت الشروح:

١ ـ المنهج الالتزامي النقلي .

٢ ـ المنهج الإبداعي الفني .

٣ ـ المنهج التهذيبي التكميلي .

تقــديم

ما التفسير .. ؟ وما الشرح ؟ .. وما المناهج .. ؟

« التفسير » والجمع « تفاسير » ، والفعل « فَسَّرَ » يطلق على الشروح التي تكتب على المؤلفات العلمية ، وهو يرادف الشرح ، وتدل كلمة « تفسير » بصفة خاصة فى العلوم الإسلامية على تفسير القرآن ، وعلى علم التفسير نفسه ، الذى يعرف باسم « علم القرآن والتفسير »(١) ، أما كلمة « شرح » فتدل عادة على شرح الشعر ، فكأنهم يجعلون التفسير للقرآن ، والشرح للشعر ، هذا ما وجدناه على الدواوين ، يقولون : « ديوان كذا » . شرح فلان » (٢) :

وتلتقى مادتا « فَسَرَ » سَفَرَ فى معنى الكشف ، لكن السَّفْر : الكشف المادى الظاهر ، و« الفَسْر » : الكشف المعنوى الباطن ، والتفعيل منه « التفسير » أى كشف المعنى وإبانته »(٣) ، أو كشف المراد عن اللفظ المشكل والشرح كذلك — معناه الكشف ، يقال : شرح فلان الأمر أى وضحه ، وشرح مسألة مشكلة : بَيَّنَها قال ابن الأعرابى : « الشرح : الحفظ ، والشرح البيان ، والشرح الفهم(٤) .

ويقدر الأقدمون أن مثل هذه المعارف فى اللغة والتفسير ، ليست علوماً بالمعنى المعروف فى العلوم العقلية ، فيرى بعضهم ألا يتكلف للتفسير حَدّاً ، ولا بيان موضوع ومسائل ، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة عن مزاولة القواعد ، كغيره من العلوم التى استطاعت أن تشبه العلوم العقلية ، فيكفى فى

---

(١) كارا دى ڤو : مقالة بدائرة المعارف الإسلامية (مادة : تفسير) ٥-٣٤٧ .

(٢) مثال ذلك : ديوان زهير بشرح ثعلب ، ديوان النابغة بشرح ابن السكيت ، أوشرح ديوان الحطيئة لابن السكيت .

(٣) لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٣٦١ (مادة : فسر) .

(٤) لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ (مادة : شرح) .

تعريف التفسير (القرآنى) بأنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها(١) » .
ويكفى فى تعريف شرح الشعر ، بأنه الموضح لألفاظه ومعانيه . لذلك يرى القدماء أن تفسير القرآن وشرح الشعر ، لابد وأن يشمل أقداراً من علوم أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن أو الشعر .. كاللغة والصرف والنحو والبيان (٢) إلى غير ذلك من العلوم .

أما المنهج أو المنهاج .. فهو لغة المذهب والطريقة والاتجاه (٣) وقد جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لكلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً » وفى رأيى أن المناهج تضم هذه المفاهيم والمصطلحات الثلاثة مجتمعة .. أى مذاهب الشراح الفنية ، وطريقتهم فى فهم النصوص وشرحها ، والاتجاهات العلمية التى كانوا يقصدونها حين يتصدرون لشرح الشعر .

وهذه المناهج – كما رأينا – متباينة متطورة ، يسلم كل منها إلى الآخر ، بفعل عوامل التطور .. والبيئة .. والثقافة .. وطبيعة العصر .. فلا حد يفصل منهجاً عن الذى يليه ، بل كل منهج يؤدى إلى ما بعده .. ليواصل مسيرته ويكمله ويطوره ، تبعاً لموجهات الحياة العلمية ومقدراتها .. وهكذا شأن العلوم جميعاً ..

وهذه المناهج التفسيرية تعد من الأصول الكبرى التى يندرج تحتها كثير من طرائق التفسير واتجاهاته الجزئية ، حسبما فهم ذلك الأقدمون .. مثل التفسيرات اللغوية والنحوية والتاريخية والبلاغية والنقدية .. وليس يصح – فيما أرى – أن أتحدث عن هذه الاتجاهات ، كل اتجاه بمعزل عن الآخر ،

---

(١) أمين الخولى ، مقالة بدائرة المعارف الإسلامية (مادة : تفسير) ٥-٣٤٨ .
(٢) أمين الخولى ، المقالة السابقة .
(٣) المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ٩٦٥ (إصدار مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١ م) .
(٤) سورة المائدة الآية ٤٨ – وأنظر معجم الألفاظ القرآن الكريم ، ج ٢ ، ص ٧٦٥ (إصدار هيئة الكتاب ، سنة ١٩٧١ م) والمنهاج وفق مصطلحات العلم الحديث : الخطة المرسومة ، ومنه منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم .

لنتبين أثرها فى توجيه فهم الشعر ، أو أثر اتصالها بالشعر فى حياة العلوم نفسها – اللغوية وغير اللغوية – إلا بعد أن يكتمل لنا العثور على أكثر ما يمكن من دراسات فى أنواع الشروح المختلفة ، ثم تنسيقها ودرسها فى روية وإتقان ، درساً يهيء لمثل هذا القول الشامل فيها .

أضف إلى ذلك أن هذه الاتجاهات على اختلاف أنواعها ، لم تنفرد يوماً بنفسها عند عالم واحد ، ولم تستقل عن غيرها من الاتجاهات الأخرى ، ولكنها كانت دائماً تجتمع معاً متآلفة متآزرة ، متكاملة – أو غير متكاملة – لتندرج تحت منهج علمى من المناهج التفسيرية التى استخلصناها وحددناها فى هذا الباب ، وإن كانت هذه العناصر التفسيرية – كما يصح أن نسميها – تختلف فى المنهج الواحد ، من شرح لآخر ، من حيث الظهور أو الخفاء ، من حيث الكثرة أو القلة ، من حيث العمق أو السطحية ، وذلك حسب شخصية الشارح وميوله ، واهتماماته ، ثم طريقته فى فهم النصوص ، ثم مدى التزامه أو عدم التزامه ، ومدى قدرته على الاجتهاد ، وأثر الثقافة فى عقليته وتطوير علمه ، وأخيراً طبيعة عصره وظروف معاصريه ، بمعنى أن الشارح الذى يتصدى لتفسير نص أدبى ، غالباً ما يلون هذا النص وفق فهمه له ، ويحدد بشخصيته المستوى الفكرى له .. وهو الذى يعين الأفق العقلى الذى يمتد إليه معناه ومرماه ، يفعل ذلك كله وفق مستواه الفكرى .

فبهذا المفهوم إذن يتضح لنا أن أى منهج من المناهج العلمية فى شرح الشعر يضم تحت أعطافه مجموعة من العناصر التوضيحية ، تختلف كماً وكيفا ، من منهج لآخر ، ومن عالم لآخر ، كما يتأثر بشخصية الشارح ذاته .

هذا ما أردنا أن نحدده ..

ومن دراستنا للمناهج العلمية التى واكبت شروح الشعر – فى الفترة التى حددناها فى بحثنا – نستطيع أن نحدد ثلاثة مناهج واضحة :

الأول : المنهج الالتزامى النقلى : ويرتبط أكثر ما يرتبط بتفسير النقل والرواية .

والثانى : المنهج الإبداعى الفنى : ويرتبط أكبر ما يرتبط بتفسير العقل والدراية .

والثالث : المنهج الانتخابى التهذيبى التكميلى : الذى يعتمد على المنهجين السابقين ويمزج بينهما .

وخير من يمثل المنهج الأول : ابن السكيت ، ويمثل المنهج الثانى : المرزوقى ، أما المنهج الثالث فيمثله : التبريزى .. فهؤلاء العلماء الثلاثة هم أبرز من يمثلون هذه المناهج العلمية فى شرح الشعر .

الفصل الأول

المنهج الإلتزامى النقلى

أول مناهج التفسير نشأة .. تفسير الرواية ، التفسير النقلى ، ذلك التفسير الذى جعلت تتناقله الطبقات شفاها ، ثم تدويناً ، حتى أفردت له المؤلفات الخاصة ، واستمر ذلك حقبة طويلة من الزمن ربما تصل إلى القرن الثالث ..

وسندرس ابن السكيت (١٨٩ – ٢٤٦ هـ) بوصفه خير ممثل لهذا المنهج . منهج النقل والرواية ، أو كما أطلقنا عليه « المنهج الالتزامى النقلى » .

وقبل أن نحدد مفهومنا لهذا المنهج .. وخصائصه ، وعناصره نتعرف أولا على الرجل ؟

ابن السِّكِّيت ١٨٩ – ٢٤٦ ﻫ

اسمه ونسبه :

هو « أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت »(١) المعروف «بابن السِّكِّيت أجمعت على ذلك المصادر الأدبية والتاريخية القديمة ، وإن اختلفت فيما بينها من حيث الطريقة التي قدمته بها . فذكرته بعض المصادر باسمه واسم أبيه(٢) ، وذكرته بعضها الآخر بكنيته ونسبته إلى أبيه(٣) ، ووهم ابن الأثير – فخلط بين الإسم والكنية ، فقال : « يعقوب بن اسحاق ابن يوسف المعروف بابن السكيت(٤) » . وواضح تصحيفه فى كلمة(ابن) الثانية ، وهى فى الأصل « أبو يوسف » .

أما لقبه ، فلم يكن له لقب مستقل ،وإنما ارتبط لقبه بلقب أبيه « السكيت» فقالوا : « ابن السكيت » ، وإن كانوا أحياناً يقولون « البغدادى »(٥) نسبة إلى موطنه ومقامه ، أو « اللغوى » (٦) نظراً لاهتماماته اللغوية ، أو النحوى(٧) بوصفه آخر نحاة الكوفة(٨) .

ويذكرون أن لقب أبيه « السكيت » اشتق من أبرز صفة من صفاته ، وهى السكوت والصمت الطويل(٩) .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ، وفيات الأعيان ٥-٤٣٨ .
(٢) الفهرست ، ص ١٠٧ ، بغية الوعاة ، ص ٤١٨ .
(٣) نزهة الألباء ، ص ١٢٣ ؛ شذرات الذهب ٢-١٠٦
(٤) الكامل فى التاريخ ٧-٥٥ .
(٥) الفهرست ، ص ١٠٨ .
(٦) نزهة الألباء ، ص ١٢٣ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤١
(٧) شذرات الذهب ٢-١٠٦ .
(٨) تاريخ الأدب العربى – جورجى زيدان ٢-١٣٦ .
(٩) الفهرست ، ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٠ .

وأما كنيته ، فهى باتفاق الجميع « أبو يوسف » ، لم يشذ عن ذلك أحد .

وابن السكيت أحد العلماء الموالى المسلمين ، المنتمين إلى العروبة ولاءً ولغة ، كان أبوه خُوزِيًّا من قرية دَوْرَق بالأهواز(١) ، لم يستح حين سأله الفراء — يوم جلس على كرسى الأستاذية خلفاً للكسائى — من أن يذكر ذلك ، بينما استحى الفراء نفسه — من السؤال — واعتكف فى بيته أربعين يوماً لا يغادره ، فلما سئل عن سبب ذلك قال : « سبحان الله ، أستحى من السكيت لأنى سألته عن نسبه فصدقنى فى ذلك ، وفيه بعض القبح »(٢) ، ويبدو أن هذا القبح الذى أحرج الفراء ، كان ناشئاً عن أمور قديمة ترجع إلى ما قبل دخول الإسلام فى هذه المناطق بزمن طويل(٣) إلا أن تأثيرها ظل عالقاً بأذهان القوم ، مسيطراً على أفهامهم .

هذا ما ذكره القدماء عن نسب الرجل ، بينما انفرد بروكلمان بزعم آخر(٤) ، قال : « إن ابن السكيت انحدر من أصل أرامى » . دون أن يذكر مستنده أو مصدره فى هذا الزعم ، وإن كان من المعتقد أنه توصل إلى هذا الرأى — لاعتبارات تتصل بالبيئة الجغرافية ، واستناداً إلى أن موطنه كان موطن الآراميين فى سالف الأيام ، خاصة وأن المصادر الأدبية والتاريخية متفقة على نسبة الرجل إلى خوزستان ونواحى الأهواز بين فارس والبصرة وواسط وجبال اللور المجاورة لأصبهان وأن أهالى خوزستان ، كانوا يتكلمون لغة خاصة ، ليست بهندية ولا أوروبية ولا سامية »(٥) فاعتقد بروكلمان

---

(١) أنباه الرواه ١-٢٢٠ ؛ الفهرست ، ص ١٠٧ (خوزى : منسوب إلى خوزستان ، وهى البلاد التى بين فارس والبصرة من كور الأهواز ، ودورق ناحية منها » .

(٢) الفهرست ، ص ١٠٧ ؛ وفيات الأعيان ٥-٣٤٩ (ويعلل ياقوت سبب هذا القبح ، أنهم كانوا معروفين بالبخل والحمق وسقوط النفس ، وأنهم كانوا « ألأم الناس وأبخلهم ، ويروون أن « دورق » التى ينتسب إليها الرجل ، كانت معروفة بقبح فى صفات أهلها) .

(٣) أنظر معجم البلدان ٣-٤٨٧ ، طبع مطبعة السعادة (خبر كسرى) .

(٤) تاريخ الأدب العربى ٢-٢٠٥ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : خوزستان ، ٩-٣٨ .

اعتماداً على ذلك ، أنه لابد أن يكون آرامياً . ومهما يكن من شيء .. فإن ابن السكيت ، وإن لم يكن عربى الأصل ، فهو عربى اللغة والمنشأة والمربى والثقافة ، كانت له أياد بيضاء على اللغة والأدب ، تفخر بأعماله ومصنفاته المكتبة العربية .

مولده ونشأته :

ولد ابن السكيت ببغداد(١) ، وبها نشأ ، فى كنف أب كان يؤدب الصبيان بدرب القنطرة ، ولم يذكر مؤرخوه شيئاً عن تاريخ مولده .. كما لم يمدونا بشيء يذكر عن طفولته ونشأته . وقد دل البحث على أنه ولد فى أخريات العقد التاسع من القرن الثانى ، وبالتقريب سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩ هـ) (٢) ، لأننا نرى صورة لشبابه فى بغداد ، وتردده على مجالس الأدباء والعلماء مثل ابن الأعرابى(٣) ، واللحيانى (٤) (٢١٥ هـ) وغيرهما من علماء اللغة ، الذين كانوا يملأون ساحات المساجد ، ومجالس العلم المختلفة .

وإذا كان المؤرخون المترجمون لحياته ، لم يذكروا شيئاً عن سنة مولده ، أو طفولته فإنهم لم يتحدثوا أيضاً عن ظروف هذه النشأة أو منابع علمه .. ولكننا نعرف أن بغداد — فى عصره — كانت موئل العلم والعلماء ، وقبلة الأدباء والشعراء ، ومطمع النابهين والنبغاء ، فكان ولا شك يجد فى مسقط رأسه — خير بيئة ، وأصلح منبت لنمو موهبته المبكرة المتعطشة للعلم والمعرفة .

ومن المؤكد أن ابن السكيت ، وهو ابن عالم لغوى(٥) ، نشأ نشأة علمية

---

(١) تاريخ بغداد ١٤-٢٧٣ .

(٢) ذكر الأزهرى — وهو أقرب المترجمين لعصره ، أن ابن السكيت قتل قبل المتوكل بسنة ، وأيده فى ذلك ابن النديم ، حيث يذكر أنه قتل سنة ٢٤٦ هـ ، وذكر البغدادى وابن خلكان أن ابن السكيت يوم قتل كان قد بلغ ثمانية وخمسين سنة ، ومعنى ذلك أن ابن السكيت ولد حوالى سنة ١٨٩ هـ .

(٣) مجالس العلماء ، ص ٤٤ .

(٤) تاريخ بغداد ١٤-٢٧٣ ؛ نزهة الألباء ص ١٢٢ .

(٥) الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ؛ نزهة الألباء ص ١٢٣ .

تقدس العلم وتقدر الأدب ، حيث غرس فيه أبوه حب العلم ، والصبر على البحث ، ورسم له الطريق وحدده ، شأنه فى ذلك شأن الصبيان الذين كانوا فى كتّابه .. فتعلم القرآن الكريم وحفظه ، والحديث النبوى الشريف وفهمه ومبادىء القراءة والكتابة .. مع أنداده من صبيان جيله ، حتى شبَّ ، ونمت موهبته ، ثم انتظم فى الحلقات العلمية والدينية التى كانت تقام فى ساحات المساجد ، لينهل منها ما يروى ظمأه .. وتشير المصادر الأدبية القديمة ، إلى أن أباه تعهده بالرعاية والصقل ، والتوجيه والتسديد ، حتى تستقيم له لغته وتنمو فيه تلك الموهبة المبكرة التى لمسها فيه ، حتى لقد أشركه معه ردحاً من الزمان فى تعليم الصبيان ، فكانت هذه الرعاية ، وهذا التوجيه ، هما الدعامة الأساسية فى حياته العلمية ، وفى تفتيح مواهبه .

أسرته :

يبدو أن المترجمين القدماء ، لم يكونوا يعيرون تاريخ العلماء والأدباء التفاتاً إلا بعد موتهم ، حينئذ يبدأون فى تسجيل وتدوين كل شىء عنهم ، ويصنفونه ذاكرين كل ما يمكن ذكره عنهم . بيد أن هذا الالتفات أحياناً يكون متأخراً ، بعد أن يكون قد ضاع كثير من هذه المعالم والمعلومات ، وطمست أمور كثيرة ، وعناصر جمة من سيرهم وتاريخهم ، من ذلك — أنهم فى النادر ما يتحدثون عن آسر هؤلاء العلماء ، ومكوناتها وظروفها المعيشية ، إلى غير ذلك من المعلومات ، ربما كان ذلك إيماناً منهم بأن ما يهم الناس هو معرفة العالم وآثاره ومكانته الأدبية ، ومركزه العلمى ، وما قدمه للبشرية من علم أو أدب ، بصرف النظر عن مكانة أسرته وظروفها الاجتماعية والمعيشية .

لذلك حين بحثنا عما يتصل بأسرة ابن السكيت ، لم نجد إلا شذرات قليلة ، حقيقة تعين على المعرفة ، ولكنها لا تشفى نهم الباحث أو ترد على تساؤلاته . فلم تذكر لنا المصادر شيئاً عن أبيه ، سوى أنه كان رجلا فاضلا عالما(١) ،

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ؛ نزهة الألباء ص ١٢٣ .

هادىء الطبع ، كثير السكوت ، صاحب الكسائى(١) فترة ، ثم انخرط فى صحبة الفراء(٢) . وعلى الرغم من أنه كان عالماً باللغة والشعر ، وتتلمذ عليه جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة الدينورى(٣) (٢٧٦ هـ)، فإنه لم يكن مشهوراً ، ولم يكن له حظ فى هذا الخضم الواسع بين أفذاذ عصره ، ويبدو أنه لم يجد وسيلة للعيش إلا أن يفتتح كتّاباً يعلم فيه الصبيان ، قانعاً بما يدره عليه من دخل متواضع ، يستعين به على مطالب الحياة . ونحن لا نعرف لإسحق السكيت إبناً آخر غير يعقوب هذا ، وأغلب الظن أن يعقوب بن السكيت كان وحيده ، لأنهم يروون أنه كان يشركه معه فى تعليم الصبية ، وأنه كان يعلق عليه الآمال ، وحج البيت الحرام مرة ودعا الله أن يبارك له فى ولده هذا وأن يلهمه السداد والتوفيق ليقوم بالمهام ، ويحقق ما عقده عليه من آمال(٤) .

أما أمه فقد أغفلت المصادر ذكرها ، وأغلب الظن أنها لم تكن عربية ، بل خوزية ، وكل ما نعلمه عن هذه الأم ، أنها عاشت المأساة الإنسانية ، ورأت مصرع إبنها من قبل المتوكل ، وتسلمت ديته(٥) ، لتظل بقية حياتها تتجرع كأس الألم .

ولقد تزوج ابن السكيت ، لكننا لا نعرف عن زوجه شيئاً ، ولا عن أصلها أو هويتها ، هل كانت عربية أم غير ذلك ، كل ما حفلت به المصادر – فى هذه الناحية – أنها ذكرت . أنه أنجب منها عدة أولاد(٦) ، لم تحدد

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(٢) نزهة الألباء ، ص ١٢٣ .

(٣) الفهرست ، ص ١٠٨ .

(٤) نزهة الألباء ، ص ١٢٣ .

(٥) بغية الوعاة ، ص ٤١٨ ، وإن كانت بعض المصادر قد ذكرت « أن الدية أرسلت إلى أولاده » شذرات الذهب٢-١٠٦ » كما ذكرت بعضها الآخر – « ان الدية ارسلت إلى أهله » . (معجم الأدباء ٢٠-٥٢) .

(٦) شذرات الذهب ٢-١٠٦ .

عددهم ، ولا كم عاشوا ، من هؤلاء الأولاد ، يوسف بن يعقوب الذى كان عالماً راوية(١) ، وانخرط —كأبيه — فى سلك البلاط العباسى ، ليتولى منادمة الخليفة المعتضد بالله(٢) (حكم ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ردحاً من الزمان ، وخص به .

وقد ترجم الأنبارى(٣) — لأحمد بن السكيت — ووصفه بأنه أحد العلماء النحويين ، الذين صنفوا كتباً كثيرة فى النحو واللغة ، بيد أنه لم يشر إن كان يمت بصلة القرابة أو النسب إلى ابن السكيت ، وإن كنا نعتقد أنه ابن آخر له يؤيد ذلك الفارق الزمنى وحدود العصر(٤) ، ونوع اهتماماته .

شيوخه :

تتلمذ ابن السكيت لمجموعة كبيرة من العلماء بصريين وكوفيين(٥) . . كان لهم شأنهم فى علوم اللغة فى عصره . من هؤلاء :

١ — الفـــراء (٢٠٧ هـ)(٦) :

أبو زكريا يحيى بن زياد ، أعلم علماء الكوفة بعد الكسائى — قال عنه ثعلب : « لولا الفراء لما كانت اللغة ، لأنه حصلها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية ، لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب »(٧) .

٢ — أبو عمرو الشيبانى (٢١٠)(٨) :

اسحاق بن مرار ، أعلم الكوفيين باللغة ، وأكثرهم أخذاً عن ثقات

---

(١) أنباه الرواه ٢-١٥٨ .

(٢) الفهرست ، ص ١٠٨ .

(٣) نزهة الألباء ص ١٦٤ .

(٤) وضعه الأنبارى فى جيل السكرى (٢٧٥ هـ) والأشناندانى (٢٨٨ هـ) ، وأحمد بن عبيد بن ناصح (٢٧٣ هـ) .

(٥) وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ .

(٦) نزهة الألباء ص ١٢٣ .

(٧) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ص ٨٦ ؛ ونزهة الألباء ص ٦٦ .

(٨) معجم الأدباء ٢٠-٤٠ ؛ نزهة الألباء ، ص ١٢٣ .

الأعراب ، كما كان عالما بأيام العرب ، جامعا لأشعارها ، وهو صاحب كتاب الجيم والنوادر وهما كتابان جليلان(١) .

٣ – **ابن الأعرابى (٢٣١ هـ)(٢) :**

أبو عبد الله محمد بن زياد ، تلميذ المفضل وربيبه ، سمع منه الدواوين وصححها وكان من أحفظ الكوفيين للغة والنوادر ، وقد جمع إلى علم الكوفيين علم البصريين ، وأخذ عن أبى زيد وجماعة من الأعراب وقوم لا يثق بأكثرهم البصريون(٣) .

٤ – **الأثرم (٢٣٢ هـ) (٤) :**

أبو الحسن على بن المغيرة ، صاحب اللغة والنحو ،أخذ عن أبى عبيدة والأصمعى من البصريين ، وعن ثعلب من الكوفيين ، وكان وراقاً ، وقد عرف عنه أنه كان يختص بعلم أبى عبيدة وروايته(٥) .

٥ – **اللحيانى (٢٢٠ هـ) (٦) :**

أبو الحسن على بن المبارك من بنى لحيان ، أخذ عن الكسائى وغيره من الكوفيين ، كما أخذ عن أبى زيد ، وأبى عبيدة والأصمعى من البصريين ، إلا أن عمدته الكسائى وله كتاب النوادر (٧) .

---

(١) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ص ٨٦ ، ونزهة الألباء ، ص ٦٣ .
(٢) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ؛ نزهة الألباء ، ص ١٢٣ .
(٣) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ص ٩٢ ؛ ونزهة الألباء ص ١٠٦ .
(٤) تاريخ بغداد ١٤-٢٧٣ »؛ الفهرست ص ٥٦ .
(٥) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ص ٩٤ ؛ ونزهة الألباء ص ١١١ .
(٦) تاريخ بغداد ١٤-٢٧٣ ؛ نزهة الألباء ، ص ١٢٣ .
(٧) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ص ٩٠ ؛ نزهة الألباء ص ١٢٢ .

٦ ـ أبو نصر الباهلى (٢٣١ هـ)(١) :

أحمد بن حاتم ، أخذ عن الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ، وأقام ببغداد فربما حكى الشىء عن أبى عمرو الشيبانى(٢) .

٧ ـ قطرب (٢٠٦ هـ)(٣) :

محمد بن المستنير ، كان حافظاً للغة ، كثير النوادر والغريب ، كان كلما خرج سيبويه من بيته سحراً وجده على بابه ، فقال : إنما أنت قطرب ليل ، فأطلق عليه . يقولون إنه كان يختص بعلم يونس بن حبيب دون غيره ، وله تصانيف كثيرة(٤) .

٨ ـ الأخفش(٥) :

أبو محمد عبد الله بن محمد البغدادى النحوى ، خامس الأخافشة ، روى عن الأصمعى .

٩ ـ نصران الخراسانى(٦) :

لم تذكر المصادر شيئاً عن اهتماماته أو تخصصه العلمى ، ولكن ابن النديم ذكر « أنه قرأ شعر الكميت على أبى حفص عمر بن بكير(٧) ـ وذكر القفطى ـ أنه كان أستاذاً لابن السكيت والطوسى معاً ، وأنهما اختلفا فيما بينهما فى كتبه بعد موته ، فكانت لابن السكيت حفظاً ، وللطوسى سماعاً(٨) .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٩٧ .

(٢) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ، ص ٨٣ .

(٣) بغية الوعاة ، ص ١٠٤ ؛ معجم الأدباء ١٩-٥٣ .

(٤) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ، ص ٦٧ .

(٥) مجالس العلماء ، ص ١٦٢ (قال الزجاجى أن ابن السكيت أخذ عنه) .

(٦) أنباه الرواة ٣-٣٤٣ .

(٧) الفهرست ، ص ٧٢ .

(٨) أنباه الرواة ٣-٣٤٣ .

هؤلاء هم شيوخ ابن السكيت المعتمدون ، الذين سمع منهم ، ونقل عنهم وقد أضاف إليهم أبو الطيب اللغوى(١) شيخاً آخر هو « ابن نجدة »(٢) الذى كان من أكبر رواة العصر ، وكان يختص بعلم أبى زيد وروايته ، وذكر ابن عساكر — فيما نقله ابن خلكان(٣) واليافعى(٤) . أنه أخذ أيضاً عن محمد بن مهنا(٥) ، ومحمد بن صبح السماك الواعظ(٦) .

ولابن السكيت أساتذة آخرون غير مباشرين ، لم يلقهم ولم يسمع منهم ، ولكنه اطلع على مصنفاتهم وكتبهم ، ونقل عنهم آراءهم وأقوالهم .. وأشهرهم الأصمعى(٧) ، وأبو عبيدة(٨) ، وأبو زيد الأنصارى .. أما الأصمعى وأبو عبيدة فهما مصدران أساسيان فى كل شروحه على الشعر ، فيما صادفنا من دواوين وعليهما معظم اعتماده ، وإن كان أبو زيد لم يصل إلى نفس المستوى

---

(١) مراتب النحويين ، ص ٩٦ .

(٢) أنظر ترجمته فى مراتب النحويين ، ص ٩٤ .

(٣) وفيات الأعيان ٥-٤٣٨ .

(٤) مرآة الجنان ٢-٢٤٧ .

(٥) لم نجد فيما رجعنا إليه من مصادر أية ترجمة له .

(٦) لا شك أن فى هذا الأمر لبساً ، ذلك أن ابن السكيت ولد على الأرجح سنة ١٨٩ هـ ، فإذا كان قد توفى — كما ذكر ابن خلكان (٣-٤٢٨) — سنة ١٨٣ هـ ، فلا شك أن فى ذلك نظراً . وربما كان أحد الأسباب التى جعلت ابن عساكر يذكره ضمن أساتذة ابن السكيت ما رواه من مواعظ كقوله « من عرف الناس داراهم ، ومن جهلهم ماراهم رأس المدارة ترك الممارة » (وفيات الأعيان ٥-٤٣٨) .

(٧) أنظر على سبيل المثال : شرح ديوان النابغة لابن السكيت ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٤٧ وشرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٧ ، ٦٦ ، ١٣٥ .
وشرح ديوان عروة بن الورد ص ٤١ ، ٤٩ ، ٦٧ .

(٨) أنظر على سبيل المثال :
شرح ديوان النابغة ص ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
وشرح ديوان قيس ص ٧١ ، ٨٥ .
وأنظر فهارس الأعلام فى الدواوين السابقة .

تلاميذه :

ذكرت المصادر الأدبية القديمة — أن لابن السكيت تلاميذ كثيرين ، كان لهم شأنهم فى زمانهم وعصرهم ، بما قدموه للبشرية من علم ، وبما جمعوه وطوروه ونظموه ووضحوه من تراث السابقين. من أبرز هؤلاء التلاميذ(١) :

١ — السكرى (٢٧٥ هـ) (٢) :

أبو سعيد عبد الله بن الحسن بن الحسين ، الأديب المصنف ، صاحب كتب الأدب ودواوين الشعراء ، كان ثقة ديناً ، راوية للبصريين ، وله مجموعة ضخمة من كتب اللغات ، وعمل أشعار جماعة من الفحول .

٢ — الدينورى (٢٨٢ هـ) (٣) :

أبو حنيفة أحمد بن داود ، اللغوى الكبير ، أخذ عن ابن السكيت علوم العربية ، وإن كان مفتنا فى العلوم ، يقولون أنه أول من خلط بين المذهبين — البصرى والكوفى — وكان من أوائل من أسسوا المدرسة البغدادية . صنف مجموعة من الكتب فى اللغة والشعر والأخبار .

٣ — المفضل بن سلمة (٢٩٠هـ) (٤) :

أبو طالب الكوفى ، أحد كبار اللغويين الكوفيين ، كان كثير الرواية ، استدرك على الخليل فى كتابه (العين) وألف معجماً كبيراً سماه « البارع » إلا أنه مات دون أن يتمه ، وله كتب عدة فى معانى القرآن والاشتقاق والنحو .

٤ — التنوخى(٥) :

اللغوى النحوى ، الذى اشتهر بأنه حسن المعرفة بالعروض ، واستخراج المعانى وكان فصيحاً كثير الحفظ للأدب والأشعار .

---

(١) راعينا فى هذا الترتيب أقدمية الوفاة فقط .

(٢) أنباه الرواة ١-٢٩٢ ؛ نزهة الألباء ، ص ١٤٥ ؛ وأنظر بروكلمان ٢-١٦٣ .

(٣) الأرشاد ١-١٢٣ ، بغية الوعاة ص ١٣٧ ؛ الفهرست ص ٧٨ ؛ بروكلمان ٢-٢٣٠.

(٤) الإرشاد ٧-١٧٠ ؛ بغية الوعاة ص ٣٩٦ ؛ الفهرست ص ٧٣ ؛ نزهة الألباء ص١٣٩ بروكلمان ٢-٢٠٩ .

(٥) معجم الأدباء ١١-٩٨ — ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته .

٥ ــ الجزنبل (١) :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله عاصم التيمى ، الذى اختص بعلم ابن السكيت وروى عنه كتاب السرقات :

٦ ــ الحرانى (٢) :

عبد الله بن الحسن ، أحد تلاميذه المقربين ، لازمه ما يقرب من ربع قرن من الزمان ، تذكر المصادر أنه ظل يأخذ عن ابن السكيت منذ سنة ٢٢٥ ﻫ إلى أن قتل .

٧ ــ عبد الله بن رستم (٣) :

أحد كتابه ومستمليه ، تتلمذ عليه فترة طويلة ، وروى عنه كثير من كتب ابن السكيت (٤) . وقد عرف بأنه ثقة وصاحب فضل وعلم .

وحدث عن ابن السكيت بالإضافة إلى هؤلاء التلاميذ جماعة من العلماء منهم :

الزيادى (٢٤٩ ﻫ)(٥)

أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان الذى التقى بابن السكيت فى البصرة وسمع منه كتباً كثيرة من حفظه . يقولون أنه كان عالما بالنحو ، وأخذ عنه المبرد وغيره .

الرياشى (٢٥٧ ﻫ)(٦)

أبو الفضل العباسى بن الفرج ، أحد كبار اللغويين فى عصره ، يقولون

---

(١) الفهرست ص ٧٣ (ولم يذكر ابن النديم تاريخ وفاته) .

(٢) أنباه الرواه ١-١١٥ .

(٣) طبقات الزبيدى ص ٢٢٨ .

(٤) فى مقدمة التبريزى لتهذيب إصلاح المنطق قال : قرأت على الرئيس أبى الحسين هلال ابن المحسن ، عن أبى بكر أحمد بن محمد الجراح ، عن ابن الأنبارى ، عن أبيه عن عبد الله ابن محمد بن رسم ، عن أبى يوسف يعقوب بن اسحق السكيت ..

(٥) البغية ص ٤١٤ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٦ ؛ نزهة الألباء ص ١٤٢ .

(٦) البغية ص ٢٧٥ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٦ » ؛ نزهة الألباء ص ١٣٨ .

أنه كان يحفظ كتب الأصمعي وكتب أبي زيد جميعها ، وكان مصدر المبرد وابن دُرَيد وغيرهما في كتب اللغة .

وما دمنا نتحدث عن تلاميذه ، فلا يمكن أن نغفل تلاميذه الذين كان لهم شأنهم لا على المستوى العلمي فقط ، بل على الصعيد الديني والرسمي كذلك . من هؤلاء :

أولاد الخليفة الواثق ، ومنهم أولاد الخليفة المتوكل : المعتز بالله والمؤيد بالله وقد تولى أولهما — المعتز بالله — خلافة المسلمين ردحاً من الزمن « حكم من عام ٢٥٢ إلى ٢٥٥ هـ) .

تشيعه ومصرعه :

هل كان ابن السكيت شيعياً ؟

وهل كان التشيع — حقاً — سبباً في مصرعه ؟

أجابت بعض المصادر (١) على هذين السؤالين بالإيجاب .. وعلى الرغم من ذلك ، ففي رأيي .. واستناداً إلى الكثير من المصادر — أن هذا الأمر يحتاج إلى نظر ، ذلك أن موضوع تشيع ابن السكيت ، لم يكن معروفاً في عصره أو في العصر القريب جداً من عصره . فأبو الطيب اللغوي(٢) (٣٥١ هـ) ، والأزهري (٣) (٣٦٨ هـ) ، وابن النديم (٤) (٣٨٥ هـ) وهم أقدم المترجمين له ، لم يذكروا شيئاً عن هذا التشيع ، كما أن علماء كثيرين كأبي البركات الأنباري (٥) (٥٧٥ هـ) ، واليافعي (٦) (٧٦٨ هـ) ، والسيوطي (٧) (٩١١هـ)

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٣٨ .

(٢) مراتب النحويين ص ٩٥ (لم يذكر سبباً لمقتله ، ولم يشر إلى موضوع التشيع إطلاقاً)

(٣) تهذيب اللغة ١-٢٣ .

(٤) الفهرست ص ١٠٨ (قال ابن النديم : إن المتوكل ناله بشيء حتى مات) دون أن يشير إلى تشيعه أو سبب مقتله .

(٥) نزهة الألباء ص ١٢٥ .

(٦) مرآة الجنان ٢-١٤٨ .

(٧) البغية ص ٤١٨ .

لم يتعرضوا لموضوع التشيع هذا ، وإن كانوا قد ذكروا بعض الروايات التى تحكى قصة تفضيله لأولاد على رضى الله عنهم . وتنبه إلى هذا الأمر باحثون محدثون ، احترزوا فى قولهم ولم يذكروا شيئاً عن تشيعه ، فقال الزركلى(١) « إنه قُتل لسبب مجهول » ، وقال الدكتور عمر فروخ : « غضب المتوكل على ابن السكيت فأمر بضربه وتعذيبه فمات »(٢) .

هذا عما جاء فى المصادر القديمة والحديثة ، وإذا كان الأمر فى ذلك غير مقنع فهناك أسباب أخرى لابد أن تقنع .. أهمها ..

كيف يكون الرجل شيعياً .. وتصطنعه الدولة العباسية ، التى ترفع شعار المذهب السنىّ ، الذى عليه إجماع المسلمين ، ممثلة فى خلفائها وأمرائها ووزرائها؟ وكيف تقربه حتى يعيش فى البلاط العباسى ، ويصل فى قصورهم إلى مرتبة النديم ، والمؤدب ، وكيف يأتمنونه على دين وعقول أولياء العهد الذين سيوكل إليهم أمر المسلمين وأمر الدولة ؟

إن ابن السكيت لم يكن ليجهل أن الخلافة سنية ، بل تناهض العلويين ، وتضربهم بعنف ، حتى يذهب برجليه — إذا كان شيعياً — ليدور فى فلكهم ويعيش فى قصورهم مهدداً .

لقد كان ابن السكيت شأنه شأن الكثيرين من علماء العصر ، يعرف جيداً مدى التطاحن والتصارع ، الذى ظل قائماً بين الشيعة العلويين ، وبين العباسيين .

فليس من المعقول أن يكون شيعياً ويقربه الخلفاء العباسيون ، وليس من المعقول أن يكون شيعياً ، ويقصر حياته وعلمه على تأديب وتثقيف ومنادمة أعداء مذهبه .. وليس من المعقول أن يزج بنفسه فى عرينهم ، وهو يعلم ما قد ينتظره إن أُفشِيَ سره أو عرفت هويته .

---

(٨) الأعلام ٩-٢٥٥ .

(٩) تاريخ الأدب العربى ٢-٢٨١ ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢ م .

أقرب الأمور وأرجحها – أن ابن السكيت كان – كما ذكر اليافعي (١) – « متعاطفاً مع العلويين » شديد المحبة لهم ، والميل إليهم » منكراً ما تعرضوا له – وهم آل البيت وعترته – من الاضطهاد والتقتيل والتشريد . وفرق بين الحب والتعاطف وبين الاعتناق لهذا المذهب الشيعي بآرائه ونظرياته وتعاليمه ... إن كتب ابن السكيت التي بين أيدينا ، لم نر فيها إشارة واحدة إلى هذا المذهب ولم نر رأياً يؤيد نظرية الشيعة .. أو تمجيداً لأئمتهم .

لكل ذلك لا نستطيع أن نقطع بصحة تشيعه ، ولا نستطيع أن نقبل ما جاء فى بعض المصادر على أنه حقيقة مسلم بها . ويؤيدنى فى هذا ما سبق أن ذكرته ، وهو أن هذا الأمر لم يكن معروفاً فى عصره أو بعده بقليل .

إن الذين تحدثوا عن تشيعه ، وأنه السبب فى مصرعه هم الشيعة (٢) أنفسهم ، وقد استندوا فى تدعيم رأيهم هذا على – أن المتوكل كان العدو الأول للشيعة ، وأن عصره كان عصر البطش والتنكيل بهم ، لأنه كان يتعقبهم أينما حلّوا ، وحيثما رحلوا ، ضارباً على أيديهم ورؤوسهم بقبضات من حديد ، متوخياً تصفيتهم ، ووأد نُواحهم وعويلهم . لقد جعلوا من مصادرهم وكأنها سجلات للخالدين ، ومن صفحاتها لوحات شرف ، يفاخرون بأن منهم علماء وأدباء كان لهم شأنهم فى فروع الحياة المختلفة ، وينسبون إليهم الأقوال السديدة ، والأفعال المجيدة ، التى ترفعهم إلى مصاف القديسين والشهداء ، كل ذلك كسباً ودعماً للقيم والمبادىء الشيعية التى يعتنقها أئمتهم ودعاتهم ، فالنجاشي يقول : « إنه كان مقدماً عند أبى جعفر الثانى وأبى الحسن عليهما السلام ، وكانا يختصانه ، وله عن أبى جعفر عليه السلام رواية ومسائل »(٣) فأية رواية وأية مسائل تلك .. خاصة وأن المصادر الأدبية والتاريخية – المحايدة – لم تذكر شيئاً عن هذا ..

---

(١) مرآة الجنان ٢-١٤٨ .

(٢) مثل النجاشي فى كتابه الرجال ٢-٣١٣ ؛ والعينى فى كتابه عقد الجمان ١٣-١٧١ (مخطوطة دار الكتب رقم ٨٢٠٣ ح) .

(٣) الرجال ٢-٣١٢ .

إننا نستطيع أن نزعم أن قصة مقتله هذه – بالطريقة المسرحية التى ذكرها الشيعة فى مصادرهم ، ونقلها عنهم بعض المؤرخين – غير مقنعة البتة ، بل تكاد تكون مصنوعة موضوعة .. قالوا(١) : « إنه قتل بسبب تشيعه ، وتفضيله لأولاد على – الحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين » . وقال الذهبى (٢) : « إن مقتله كان بسبب أبيات من الشعر نظمها مشهراً ببنى العباس عامة ، والمتوكل خاصة لأنه هدم قبر الحسين .. » يقول فيها :

تا للهِإنْ كانَتْ أُميّةقَد أتَتْ ... قتْلَ ابن بنْت نبّيها مَظْلوما

فَقَد أتاهُ بَنُو أبيه بمثْلِه ... هذا ، لعَمْرِكَ قبرُهُ مَهْدوما

أسِفُوا على ألاّ يكونُوا شارَكُوا ... فى قَتْلِه فتَتَبَّعُوهُ رَميما

بيد أن هذه الأبيات ثبت عدم صحتها – فقد ذكر ابن تغرى بردى (٣) : « أنها تُرْوى وتنسب لأحمد بن على » .

كل ذلك بلا شك – يوحى بالشك – فى صحة تشيع ابن السكيت ، أو قوله الشعر هجاءً فى المتوكل خليفة المسلمين .

إذن .. فما هى الظروف أو العوامل التى تسببت فى مصرعه ؟

نريد أولا أن نوضح بعض الحقائق ، اعتماداً على أوثق المصادر ..

فقد اتفق المترجمون لابن السكيت – جميعاً – على أنه قتل فى مجلس من مجالس المنادمة(٤) ، وزاد أبو جعفر النحاس هذا الأمر توضيحاً فقال : « وكان أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحاً ثم صار جداً »(٥) لكنهم اختلفوا فى السبب الحقيقى الذى من أجله ديسَ بطنه ، أو سُلّ لسانه ، فمنهم من يقول : إن المتوكل أمر ابن السكيت أن يشتم قرشياً فلم يفعل ،

---

(١) الرجال ١-٣١٢ ، بغية الوعاة ص ٤١٨ ؛ شذرات الذهب ٢-١٠٦ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٠ .

(٢) تاريخ الذهبى : حوادث سنة ٢٣٦ هـ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢-٢٨٤ .

(٤) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٣٨ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٢٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٣ .

وأمر القرشي أن ينال منه ، فنال منه ، وأجابه يعقوب ، فلما أجابه ، قال له المتوكل : أمرتك أن تفعل فلم تفعل ، فلما شتمك فعلت(١) .. وأمر بضربه فحمل صريعاً من عنده .

وهذا الأمر غير مقنع البتة ، لسبب بسيط ، وهو أن خليفة المسلمين لا يمكن أن يسمح بمثل هذا الهراء أن يحدث في مجلسه . هذه واحدة .

وواحدة ثانية — تدعم هذا القول — أن ابن السكيت كان له من المكانة العلمية والدينية ما جعل الخلفاء والوزراء يقدرونه ، خاصة المتوكل ، الذى كان يقدره ويجزل له العطاء ، ويقدم إليه الهبات السنية فى شتّى المناسبات . يذكرون أن ابن المتوكل — المعتز — تصرف تصرفاً لا يليق مع أستاذه ابن السكيت « ذلك أنه لما جلس عنده (للدرس) ، قال له : يابنى ، بأى شىء يحب الأمير أن يبتدىء من العلوم ؟ قال : بالإنصراف .. قال ابن السكيت : فأقوم ؟ قال المعتز أنا أخف منك نهوضاً ، فقام المعتز مسرعاً ، فعثر بسراويله فسقط ، فالتفت خجلا ، فقال ابن السكيت :

يُصَابُ الفتىَ من عَثْرةٍ بلسانِهِ
وليسَ يُصابُ المرءُ مِنْ عثرةِ الرِّجلِ
فعَثْرَتُه بالقَوْلِ تُذْهِبُ رأسَه
وعثْرَتُه بالرِّجلِ تُبْرَى على مَهْلِ

فلما كان الغد ، دخل على المتوكل فقال له : قد بلغنى البيتان ، وأمر له بخمسين ألف درهم(٢) .. » فكيف يكون للرجل — عند المتوكل — مثل هذه المكانة وهذا التقدير ، ويطلب منه هذا الطلب أو أن يرضى أن يشتمه أو يهينه فى مجلسه رجل آخر ؟

زَعْمٌ آخر .. وهو أنه جرت بينه وبين المتوكل مناقشة حول تفضيل ولديه

---

(١) نزهة الألباء ص ١٢٥ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٣ .

(٢) شذرات الذهب ٢-١٠٦ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤١ .

المعتز والمؤيد — وهما تلميذاه — ذلك أن ابن السكيت كان يوما فى منادمته، « فدخل عليه إبناه المعتز والمؤيد ، فقال له : يا يعقوب أيما أحب إليك ، إبناى هذان أم الحسن والحسين ، فغضّ من ابنيه ، وذكر محاسن الحسن والحسين ، فأمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه » (١) . ولقد ذهب البعض — استناداً إلى ما ذكره الشيعة — إلى أنه كان جاف الرد ، قوى الشكيمة حتى أنه قال جهراً ، وعلى مرآى ومسمع من الحاضرين : « والله إن قُنْبُراً خادم علىّ خير منهما »(٢) .

وهذا القول أيضاً مبالغ فيه .. كيف يخاطب الرجل العالم المهذب أمير المؤمنين ولى نعمته بهذا الرد المقذع ،الذى لا ينم لا عن أخلاق عالم ولا عن أخلاق سفيه ؟ .

لاشك أن هذا من وضع الشيعة ، ومن صنع خيالهم ، إنهم يودون تجسيم الصور وتكبير الأفعال لأولئك الأعلام الذين يجدون فيهم ما يخدم مذهبهم وعقيدتهم ، بما يمجدهم ويظهرهم بمظهر البطولة والتحدى من ناحية ، ومظهر الصديقين الأبرار الأوفياء الأطهار من ناحية أخرى ، وكيف أنهم لا يبالون بما يمكن أن يتعرضوا له من الأذى والعنت ، أو يتحملوه من الشدائد والصعاب .

إذن فما هو السبب الحقيقى وراء مصرع الرجل .. إذا كنا لا نقبل هذه الأسباب ؟ إننا نستطيع أن نضع أيدينا على سبب هام ، إذا عرفنا أن للنجاح دائماً تبعات وتبعات تتدخل فيها الغيرة والأحقاد ، ويتسبب فيها التنافس العلمى ، والتسابق إلى أماكن الرياسة والحظوة عند الخلفاء ، ودليلنا على ذلك خبر صغير جاء فى بعض المصادر (٣) : « يقول أن ابن السكيت خرج إلى سُرَّ مَنْ رَأى فصيره عبد الله بن يحيى بن الخاقان إلى المتوكل ،

---

(١) بغية الوعاة ص ٤١٨ ، شذرات الذهب ٢-١٠٦ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٠ .

(٢) طبقات الزبيدى ص ٢٢٣ ؛ مرآة الجنان ٢-١٤٧ .

(٣) معجم الأدباء ٢٠-٥١ .

فضم إليه ولده يؤدبهم ، وأسنى له الرزق ، ثم دعاه إلى منادمته .. وأن عبد الله بن عبد العزيز — أو غيره(١) — نهاه عن ذلك ، فلم يقبل قوله وحمله على الحسد ، وأجاب إلى ما دعي إليه .. » هذا الخبر يبرز حقيقة هامة هي كيف كان العلماء يحسد بعضهم بعضاً على ما يصل إليه أحدهم من نعمة أو مركز ، حتى لقد كان البعض يحذر الآخر ، توهينا للعزم ، وإتاحة الفرصة ربما لنفسه لكي يكون فى المقدمة .

وقد يكون هذا الحقد — أو الحسد — مجرد عامل نفسى داخلى ، وقد يطفو فتظهر آثاره على السطح ، ويصل إلى حد الوشاية والنكاية ، وتصيد الهفوات والهنات ، وإيغار النفوس ضده ، وإطلاق الشائعات المغرضة حوله إلى غير ذلك ، ويكون نتيجة هذه الأمور مجتمعة .. زوال النعمة عن المحسود واضطهاده وتجريده ، وقد يرتفع الأمر ليصل إلى حد التنكيل والتقتيل ، بيد أن هذه الأحقاد والضغائن ، وإن نالت من الشخص فى ماله أو فى نفسه ، إلا أنها لا تنال من علمه أو مكانته . لذلك فإننا نرجح — وإن كنا لا نجزم — أن السبب فى مصرع ابن السكيت يرجع إلى المكائد والدسائس والوشايات ، التى كان يختلقها القوم ، ويطلقها بعضهم على بعض بسبب التنافس على المراكز العليا فى الدولة ، وبسبب المنافسات العلمية سواء فى مجال المناظرات أو مجال المصنفات ، خاصة وأن ابن السكيت كان من أنشط علماء عصره تأليفاً وتصنيفاً وتمكناً فى مادته وحضور بديهته ، وأنه اكتسب فى وقت وجيز ثقة مَنْ حوله فلعبت المكائد والأحقاد دورها فى ذلك الوقت ، مستغلة فى المتوكل حنقه على الشيعة ، فربط بعض المترجمين بين هذا كله برباط محكم ليصوره أنه شيعى العقيدة والمذهب ، وأنه قتل شهيد المبدأ(٢) .

وأيا ما كان الأمر فلن يغير من الوضع شيئاً أن يكون ابن السكيت شيعياً

---

(١) جاء فى وفيات الأعيان (٥-٤٣٨) أن الذى نهاه هو أحمد بن عبيد .
(٢) سماه بذلك اليافعى (٢-١٤٨) .

أو سنياً ، فمحاولتنا هذه ليس وراءها شيء سوى أننا أردنا أن نتعرف الحقيقة نتيجة لما استنطقنا به المصادر ، اعتماداً على أقربها عهداً إليه .

على كل حال — فقد أنهى المتوكل حياة الرجل . وإذا كانت المصادر القديمة قد اتفقت على تحديد يوم وشهر الوفاة ، فقالت : « توفى يوم (أو ليلة) الإثنين لخمس خلون من شهر رجب »(١) إلا أنها تباينت فى الآراء حول تحديد سنة الوفاة ، فقال بعضها : إنه توفى سنة ٢٤٣ هـ ، وقال بعضها الآخر : أنه توفى سنة ٢٤٤ هـ(٢) وانفرد ابن الأثير بقوله : أنه توفى سنة ٢٤٥ هـ واحترز البعض فقال : « أنه توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وقيل فى سنة أربع وأربعين ومائتين ، وقيل سنة ست وأربعين ومائتين »(٣) .

بيد أننا نميل إلى ترجيح ما ذكره الأزهرى عن أبى الفضل المنذرى — من أنه قتل سنة ست وأربعين ومائتين (٢٤٦ هـ) ، لأنه أكثر تحديداً ودقة ، وأقرب عهداً من عصر الرجل ، علاوة على أن ابن النديم(٤) يؤيد هذا التحديد ، قال الأزهرى .. قال أبو الفضل المنذرى : « سمعت الحرانى يقول : كتبت عن يعقوب بن السكيت من سنة خمس وعشرين (ومائتين) إلى أن قتل ، قال : وقتل قبل المتوكل بسنة ، وقتل المتوكل سنة سبع وأربعين »(٥) .

هذه هى نهاية الرجل العالم ، صورة مؤلمة تحكى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وتشجب حكم بنى العباس على الرغم مما قدمه للعلم والدين والحضارة والإنسانية من خدمات جليلة .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٣ .

(٢) طبقات الزبيدى ص ٢٢٣ ؛ شذرات الذهب ٢-١٠٦ (أحداث سنة ٢٤٤ هـ) ، ومرآة الجنان (وفيات سنة ٢٤٤ هـ) .

(٣) نزهة الألباء ص ١٢٥ .

معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(٤) الفهرست ص ١٠٨ .

(٥) تهذيب اللغة ١-٢٣ .

آثاره العلمية

نظرة فاحصة إلى آثار ابن السكيت ومصنفاته العلمية ، نرى أن الطابع اللغوى هو الغالب عليها وهذا أمر طبيعى ، نظراً لتقدم عصره ، واهتمام القوم فيه بما يتصل باللغة والشعر رواية وتدويناً : ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى قسمين أساسين :

- قسم مادته الأساسية **اللغة** ، ويسعى إلى توضيحها بالشعر ، ويشمل هذا القسم مصنفاته اللغوية .
- وقسم مادته الأساسية **الشعر** ، ويسعى إلى شرحها باللغة ، ويشمل هذا القسم شروحه على الشعر :

أولا : الكتب اللغوية

(أ) الكتب الموجودة :

١ ـ إصلاح المنطق(١) :

أكبر كتب ابن السكيت اللغوية ، وأشهرها وأكثرها شيوعاً فى الأوساط العلمية لقد أراد بهذا الكتاب أن يعالج داءاً كان قد استشرى فى لغة العرب والمستعربة وهو داء اللحن والخطأ فى الكلام ، فعمد إلى تأليف كتابه هذا ، وضمنه أبواباً يمكن بها ضبط جمهرة من لغة العرب ، وذلك بذكر الألفاظ المتفقة فى الوزن الواحد مع اختلاف المعنى ، وما فيه لغتان أو أكثر ، وما يعمل ويصحح ، وما يهمز وما لا يهمز ، وما يشدد ، وما تغلط فيه العامة(٢)

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٥٠ ، وجميع المصادر التى ترجمت له .

(٢) أنظر ما كتبه الدكتور عبد العزيز مطر عن هذا الكتاب فى بحثه « لحن العامة فى ضوء الدراسات الحديثة » ص ٥٩ وما بعدها ، وأنظر دراسة الدكتور رمضان عبد التواب لهذا الكتاب فى كتابه « لحن العامة والتطور اللغوى » ص ١٢٥ وما بعدها . وأنظر كذلك ما كتبه الأستاذ محيى الدين توفيق فى بحثه عن الدارسات والتهذيبات والمختصرات التى قامت حوله ص ١٣٣ ومابعدها.

وقد طبع الكتاب بشرح وتحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون فى سلسلة ذخائر العرب التى تصدرها دار المعارف بمصر عدة طبعات.

٢ ــ **الأضداد**(١) : وهو أحد الكتب اللغوية التى تتناول ظاهرة الأضداد فى اللغة(٢) وتفسيرها ، وقد نشر هذا الكتاب بعناية المستشرق أوغست هفنر وطبع فى بيروت سنة ١٩١٣ م مع ثلاثة كتب أخرى فى الأضداد لثلاثة من العلماء هم الأصمعى ، والسجستانى ، والصغانى .

٣ ــ **الألفاظ**(٣) :

هذا الكتاب من كتب ابن السكيت اللغوية الهامة ، ولا تقل أهميته عن كتابه « إصلاح المنطق » وقد رتبه ابن السكيت على أبواب المعانى ، مثل باب الخصب والغنى والجماعة .. وقد تأثره كثير من علماء اللغة وحاكوه ، كابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فى كتاب « أدب الكاتب » ، والهمذانى (ت٣٢٠هـ) فى كتاب « الألفاظ الكتابية » ، والثعالبى (ت ٤٢٠ هـ) فى كتابه « فقه اللغة » وابن سيده (٤٥٨ هـ) فى كتابه « المخصص » . وقد طبع هذا الكتاب أول مرة

---

(١) إيضاح المكنون ١-٩٤ ؛ الرجال ٢-٣١٣ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(٢) الاضداد من المشاكل اللغوية التى تعرض لها العلماء قديماً وحديثاً ، ذلك أن إطلاق لفظ واحد على معنيين متضادين ليس بالأمر الطبيعى فى اللغة ، إذ أن اللفظة إنما وضعت لتدل على مدلول معين ، فإذا وقعت على مضادين لم تؤد المقصود من إطلاقها ، ولكن أكثر أهل اللغة متفقون على أن الاضداد حقيقة لغوية لا سبيل إلى إنكارها ومن الذين ألفوا فى الاضداد قطرب والأصمعى وأبو عبيدة والتوزى وابن السكيت وابن ذكوان وأبو حاتم وأبو بكر الأنبارى والصاغانى والدهان ، ولم يصل إلينا من هذه الكتب إلا ستة هى كتب الأصمعى وابن السكيت والسجستانى والأنبارى وابن الدهان والصاغانى .
(أنظر الدراسة الى أفردها لهذا الكتاب الأستاذ محيى الدين توفيق ، ص ٢٣٧ وما بعدها) .

(٣) معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ــ وأنظر ماكتبه الدكتور عبد الحميد الشلقانى حول هذا الكتاب فى بحثه « رواية اللغة » ص ٢١٤ وما بعدها .
وأنظر دراسة تفصيلية لهذا الكتاب فى الباب الثانى من كتاب « ابن السكيت اللغوى » للأستاذ محيى الدين توفيق ، ص ٩٨ وما بعدها .

فى بيروت سنة ١٨٩٥ م بعناية الأب لويس شيخو عن نسخة قديمة العهد كتبت سنة ٤٠٩ ﻫ فى دار السلام على يد « هبة الله بن محمد الفارسى » وهى موجودة فى خزانة كتب ليدن بهولندا . وقرئت هذه النسخة على أبى زكريا التبريزى ، الذى تولى شرح كل الأبيات التى استشهد بها ابن السكيت وسمى هذا الشرح « تهذيب الألفاظ » وقد طبع لويس شيخو المتن والشرح وسماهما معاً « كنز الحفاظ فى تهذيب الألفاظ » .

٤ ـ **كتاب البحث**(١) .

هذا الكتاب صنفه ابن السكيت على منوال كتابه « الألفاظ » ، جمع فيه ألفاظاً كان يبحث عنها وعن معانيها فى كتب اللغة ، فالألفاظ التى شرحها وعقب عليها فى هذا الكتاب لا تجمعها صلة معينة ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم (١٣٨) لغة تيمور .

٥ ـ **القلب والإبدال**(٢) :

وهو من أوائل الكتب اللغوية التى تبرز اهتمام ابن السكيت بظواهر اللغة وأشكالها الصرفية(٣) وقد نشر هذا الكتاب ضمن المجموعة اللغوية التى نشرها هفنر باسم « الكنز اللغوى فى اللسان العربى » وتضم ثلاث رسائل لغوية لإبن السكيت والأصمعى وابن الأعرابى ، وطبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت

---

(١) إيضاح المكنون ٢-٢٧٧ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٢) الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(٣) ظاهرة القلب والإبدال من الظواهر التى اهتم بها علماء العربية قديماً ، فأفردوا لها أبواباً من موسوعاتهم اللغوية ، دونوا فيها ما سمعوه وما نقلوه عن شيوخهم من الألفاظ التى وقع فيها القلب والإبدال ، ومن هؤلاء العلماء أبو عبيد فى الغريب المصنف ، وابن دريد فى الجمهرة وغيرها . ومنهم من جرد لها تصانيف خاصة . من هؤلاء الأصمعى وابن السكيت وإسم كتاب كل منهما « القلب والإبدال » وألف فى الإبدال أيضاً أبو القاسم الزجاجى (٣٣٩ ﻫ) وإسم كتابه « الإبدال والمعاقبة والنظائر » وأبو الطيب اللغوى (ت ٣٥١ ﻫ) وكتابه « الإبدال » .

سنة ١٩٠٣ م ويشتمل المطبوع من هذا الكتاب على أبواب الإبدال وباقى الحروف الزائدة . والظاهر أن أجزاء أخرى سقطت منه ، وهى الأجزاء الخاصة بالقلب ، كما يدل عليه عنوانه(١) .

(ب) الكتب المفقودة :

٦ — الإبل (٢) .
٧ — أبيات المعانى(٣) .
٨ — الأجناس(٤) .
٩ — الأرضين والجبال والأودية(٥) .
١٠ — الأصوات(٦) .
١١ — الأمثال(٧) .
١٢ — الأنساب(٨) .

---

(١) أنظر الدراسة التى خصصها لهذا الكتاب الأستاذ محيى الدين توفيق ، ص ٢٥٤ وما بعدها وقد ذكر الأستاذ عز الدين التنوخى فى مقدمة كتاب « الإبدال » لأبى الطيب أنه يقوم بتحقيق كتاب الزجاجى .

(٢) الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٣) خزانة الأدب ١-٤٨٧ ، ٢-٣٠١ — والظاهر أنه أحد كتابيه « معانى الشعر » الصغير والكبير .

(٤) إيضاح المكنون ٢-٢٦٢ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(٥) الرجال ٢-٣١٣ .

(٦) الرجال ٢-٣١٣ ؛ المخصص ١-١٢ ؛ وأنظر ما ذكره ابن خير فى فهرسته ص ٣٨٢ .

(٧) إيضاح المكنون ٢-٢٧٣ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ .

(٨) هدية العارفين ٢-٥٣٦ ؛ طبقات ابن شهبه لوحة ٥٤٣ — مخطوط ؛ عيون التواريخ صفحة ٦١٢ (مخطوط) .

١٣ — الأنواء(١) .

١٤ — الأيام(٢) .

١٥ — الأيام و الليالى(٣) .

١٦ — البيان(٤) .

١٧ — التوسعة فى كلام العرب(٥) .

١٨ — الحشرات(٦) .

١٩ — خلق الإنسان(٧) .

٢٠ — الزبرج(٨) .

٢١ — السرج و اللجام(٩) .

٢٢ — سرقات الشعراء و ما اتفقوا عليه(١٠) .

٢٣ — طبقات الشعراء(١١) .

٢٤ — الطير (١٢) .

---

(١) هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٢) إيضاح المكنون ٢-٢٧٦ (و لعله كتاب الإيام و الليالى) .

(٣) الفهرست ص ١٠٨ ، معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٤) كشف الظنون ١-٢٦٤ .

(٥) كشف الظنون ٢-٢٣٠٦ . وذكره حاجى خليفة مرة أخرى تحت اسم « التوسعة » فقط ١-٥٠٧ .

(٦) الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٣ .

(٧) فهرسة ابن خير الأشبيلى ص ٣٨٢ — يقول : « إنه سمعه عن طريقين ينتهيان إلى أبى على القالى البغدادى عن أبى بكر بن الأنبارى عن أبيه عبد الله بن محمد ابن رستم عن ابن السكيت »

(٨) الفهرست ص ١٠٨ ؛ المخصص ١-١٢ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ .

(٩) إيضاح المكنون ٢-٣٠٢ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ، معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ، وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ .

(١٠) الفهرست ص ١٠٨ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٧ ؛ وقد ذكره ياقوت باسم « سرقات الشعراء و ما تواردوا عليه » معجم الأدباء ٢٠-٥٢ .

(١١) عيون التواريخ ص ٦١٢ (مخطوطة) ؛ طبقات ابن شهبة (لوحة ٥٤٣) .

(١٢) الرجال ٢-٣١٣ .

٢٥ ــ غريب القرآن(١) .

٢٦ ــ الفرق(٢) .

٢٧ ــ فعل وأفعل(٣) .

٢٨ ــ ما اتفق لفظه واختلف معناه(٤) .

٢٩ ــ المثنى والمبنى والمكنى(٥) .

٣٠ ــ مجاز ما جاء فى الشعر وحرف عن جهته(٦) .

٣١ ــ المذكر والمؤنث(٧) .

٣٢ ــ معانى الشعر الصغير(٨) .

٣٣ ــ معانى الشعر الكبير(٩) .

---

(١) عيون التواريخ ص ٦١٢ ؛ طبقات ابن شهبة (لوحة ٥٤٣) .

(٢) الفهرست ص ١٠٨ ؛ ابن سيده ١-١٢ ؛ فهرسة ابن خير ص ٣٨٢ .

(٣) إيضاح المكنون ٢-٣٢٠ ، الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٣ .

(٤) الرجال ٢-٣١٣ .

(٥) إيضاح المكنون ٢-٣٢٨ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٧ — وقد ذكره بعض المترجمين تحت عدة أسماء : فذكره ابن سيده باسم « المكنى والمبنى » المخصص ١-١٢ وذكره ابن شاكر الكتبى باسم « المبنى والمكنى » عيون التواريخ ص ٦١٢ ؛ أما السيوطى فقد ذكره فى مزهره باسم « المثنى والمكنى والمبنى والمؤاخى والمشبه والمنحل » أنظر ٢-١٩١ ط الحلبى .

(٦) عيون التواريخ ص ٦١٢ (مخطوط) وقد جاء ذكره فى طبقات ابن شهبه (لوحة ٥٤٣) تحت اسم (ما جاء من معانى الشعر وحرف عن جهته) ويبدو أن ابن السكيت عالج فيه موضوع التصحيف والتحريف ، فإن صح ذلك ــ كان ابن السكيت أول من ألف فى هذا الموضوع .

(٧) الفهرست ، ص ١٠٧ ؛ الرجال : ٢-٣١٣ ؛ وفيات الأعيان : ٥-٤٤٢ ؛ هدية العارفين : ٢-٥٣٧ .

(٨) الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء : ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان : ٥-٤٤٣ . وقد جاء ذكره فى المخصص (١-٢١) تحت اسم « معانى الشعر » فقط . وذكره ابن خير فى فهرسته (ص ٣٨٢) تحت اسم « معانى الأبيات » .

٣٤ ــ المقصور والممدود(١) .

٣٥ ــ منطق الطير (٢) .

٣٦ ــ كتاب النبات والشجر (٣) .

٣٧ ــ النوادر (٤) .

٣٨ ــ الوحوش(٥) .

---

(١) الرجال ٢-٣١٣ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ وفيات الأعيان ؛ ٥-٤٤٢ .

(٢) هدية العارفين ٢-٥٣٧ ؛ ولعله كتاب « الطير » السابق ذكره .

(٣) إيضاح المكنون ٢-٣٤٢ ؛ الفهرست ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وفيات الأعيان ٥-٤٤٢ وقد جاء ذكره فى المخصص (١-١١) باسم « النبات » فقط .

(٤) الفهرست ص ١٠٨ ، معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٧ .

(٥) الفهرست ، ص ١٠٨ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٥٢ ؛ وانفرد النجاشى بذكره باسم « الوحش » (الرجال ٢-٣١٣) .

ثانياً ــ شروح الشعر

دواوين الشعراء الجاهليين

أولا ــ الدواوين الموجودة :

١ ــ شرح ديوان طرفة بن العبد(١) :

طبع هذا الديوان قديماً بعناية الأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى فى فازان سنة ١٩٠٩ م . وقد نشر الديوان مرة ثانية بتحقيق الدكتور على الجندى ، وطبع بمكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨ م ، معتمداً على ست نسخ منه ، ثلاث مطبوعة ، منها نسخة الأستاذ الشنقيطى ، وثلاث أخرى مخطوطة(٢) .

٢ ــ شرح ديوان عروة بن الورد(٣) :

طبع هذا الديوان عدة مرات ، طبعه نولدكه فى جوتنجن سنة ١٨٦٣ م مع مقدمة وتعليقات وترجمة ألمانية ، ثم طبع مرة أخرى فى المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٣ هـ ، فى مجموع مشتمل على أربعة دواوين أخرى ، هى دواوين النابغة الذبيانى ، وحاتم الطائى ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق ، تحت اسم « مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب » وديوان عروة فيه مختلف فى ترتيبه عن طبعة نولدكه ، وفى أوله ترجمة عروة نقلا عن الأغانى دون إشارة إلى ذلك ، ثم طبع هذا المجموع مرة أخرى فى بيروت بالمطبعة الأهلية بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ويبدو أن هذه الطبعة منقولة عن الطبعة المصرية ، وإن يكن صاحبها يذكر فى أولها أنها « طبعة جديدة مصححة منقحة مقابلة على عدة نسخ مرتبة على الحروف ، مضافاً عليها كثير من شعره مما تفرق فى دواوين الأدب » .

---

(١) الرجال ٢-٣١٣ ؛ الفهرست ص ٢٢٤ ؛ خزانة الأدب ١-٥٠٥ ؛ ٤-١٣٩ ؛ بروكلمان ١-٩٣ ، ٢-٢٠٧ .

(٢) أنظر مقدمته على الديوان ص ٨ وما بعدها .

(٣) الفهرست ص ٢٢٤ (ذكر ابن النديم أن شعر عروة قد جمعه اثنان من العلماء الأصمعى وابن السكيت ، ولم يصلنا إلا الثانى) .

وأدرج لويس شيخو ديوان عروة مع شرح ابن السكيت فى شعراء النصرانية (من ص ٨٨٠ إلى ص ٩١٦) وأضاف إليه ما ورد فى شرح التبريزى على حماسة أبى تمام مع بعض أخبار منقولة عن الأغانى ، ثم طبعه مرة أخرى الشيخ إبن أبى شنب الأستاذ بكلية الأدب بالجزائر بمطبعة جول كربونل بالجزائر سنة ١٩٢٦ ، وأضاف إليه جملة من شعره مما لم يذكر فيه ، وشرحاً على الأبيات يكمل به شرح ابن السكيت(١) ، وقد طبع أخيراً بتحقيق الأستاذ عبد المعين الملوحى ، ونشر بدمشق بعناية وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٦ م .

٣ – شرح ديوان قيس بن الخطيم(٢) :

لم يذكر المترجمون لإبن السكيت هذا الديوان لأسباب سنتناولها بعد قليل إلا أن كوالسكى طبعه فى ليبزج سنة ١٩١٤ ، كما طبع هذا الديوان بتحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، ونشر فى دار العروبة بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .. وقد طبع هذا الديوان أيضاً بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى فى بغداد سنة ١٩٦٢ م .

٤ – شرح ديوان النابغة الذبيانى (٣) :

طبع هذا الشرح بتحقيق الدكتور شكرى فيصل فى دار الفكر ببيروت سنة ١٩٦٨ م ، وقد جعل عنوانه « ديوان النابغة بتمامة شرح ابن السكيت » .

---

(١) الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص ١٦٠ ، طبع دار المعارف ، الطبعة الثانية . وأنظر الدراسة الممتعة التى كتبها عن عروة بن الورد ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) أنظر مقدمة الدكتور ناصر الدين الأسد على هذا الديوان (ص ١٦ – ٢٠) .

(٣) الفهرست ، ص ٢٢٤ ؛ الرجال ٢-٣١٣ ؛ أنظر بروكلمان ١-٨٩ .

ثانياً — الدواوين المفقودة :

٥ — ديوان الأعشى (١) .
٦ — ديوان أعشى باهلة(٢) .
٧ — ديوان امرىءالقيس(٣) .
٨ — ديوان أوس بن حجر(٤) .
٩ — ديوان بشر بن أبي خازم(٥) .
١٠ — ديوان الحارث بن حلزة(٦) .
١١ — ديوان زهير بن أبي سلمى(٧) .
١٢ — ديوان السليك بن السلكة(٨) .
١٣ — ديوان طفيل الغنوى(٩) .
١٤ — ديوان عامر بن الطفيل(١٠) .
١٥ — ديوان عقلمة الفحل(١١) .
١٦ — ديوان عمرو بن قميئة (١٢) .
١٧ — ديوان عمرو بن كلثوم(١٣) .

---

(١) الفهرست ، ص ٢٢٤ .
(٢) الفهرست ، ص ٢٢٤ .
(٣) الرجال ٢-٣١٣ ؛ الفهرست ص ٢٢٣ .
(٤) الرجال ٢-٣١٣ .
(٥) الرجال ٢-٣١٣ .
(٦) الرجال ٢-٣١٣ .
(٧) الفهرست ص ٢٢٤ (يقول ابن النديم : وعمله ابن السكيت فجود) .
(٨) الرجال ٢-٣١٣ .
(٩) خزانة الأدب ٤-٢٤٦ .
(١٠) الرجال ٢-٣١٣ .
(١١) الرجال ٢-٣١٣ .
(١٢) طبقات ابن شهبة (لوحة ٥٤٣) .
(١٣) الرجال ٢-٣١٣ .

١٨ ــ ديوان عنترة(١) .
١٩ ــ ديوان مهلهل بن ربيعة(٢) .
٢٠ ــ المعلقات(٣) .

دواوين الشعراء المخضرمين

أولا ــ الدواوين الموجودة :

١ ــ ديوان الحطيئة(٤) :

طبع هذا الديوان بتحقيق الدكتور نعمان أمين طه فى مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٨ م عن نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة عاطف أفندى بتركيا تحت رقم ٢٧٧٧ ــ يقول عنها الدكتور نعمان : « وهى تعتبر وحيدة لا نظير لها فى مكتبات العالم ، ولم يتنبه إليها أو يعرفها أحد قبلى » . وقد اعتمد عليها الدكتور نعمان فى تحقيق الديوان مع نسختى السكرى وأبى حاتم السجستانى .

٢ ــ ديوان الخنساء(٥) :

طبع هذا الديوان بعناية الأب لويس شيخو فى بيروت سنة ١٨٩٥ م . اعتماداً على شرح ابن السكيت(٦) ، وقد أسماه « أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء »(٧) .

---

(١) الرجال ٢-٣١٣ .
(٢) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٣) هدية العارفين ٢-٥٣٧ .
(٤) الفهرست ، ص ٢٢٤ .
(٥) الفهرست ، ص ٢٢٥ .
(٦) بروكلمان ١-١٦٥ .
(٧) أنظر مقدمة شيخو على الديوان ، ص ٤ وما بعدها .

٣ ـ ديوانُ مَزَرَّد بن ضرار (١) :

هذا الديوان لم تذكره المصادر الأدبية القديمة ، بوصفه أحد مصنفات ابن السكيت لكن بروكلمان نسبه إليه ، وقال : « إنه أحد الدواوين التى اشتمل عليها المخطوط الذى أخذ منه لويس شيخو ديوان السموأل ص ٥ » .

ثانياً ـ الدواوين المفقودة :

٤ ـ ديوان تميم بن أبى بن مقبل(٢) .

٥ ـ ديوان حسان بن ثابت(٣) .

٦ ـ ديوان العباس بن مرداس(٤) .

٧ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامرى(٥) .

٨ ـ ديوان النابغة الجعدى(٦) .

دواوين الشعراء الإسلاميين

وهذه الدواوين جميعاً ـ للأسف ـ مفقودة ، عبثت بها يد القدر ، ولم يبق منها إلا اسمها أو الإشارة إليها فى المصادر المختلفة .. وهى :

١ ـ ديوان الأخطل(٧) .

٢ ـ ديوان جامع بن مرخية(٨) .

٣ ـ ديوان جرير(٩) .

---

(١) بروكلمان ٢-٢٠٧ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٣) الرجال ٢-٣١٣ .

(٤) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٥) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٦) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٧) الرجال ٢-٣١٣ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٨) الرجال ٢-٣١٣ .

(٩) الفهرست ص ٢٢٤ .

٤ — ديوان حميد الأرقط(١) .

٥ — ديوان حميد بن ثور(٢) .

٦ — ديوان سحيم بن وثيل الرياحى(٣) .

٧ — ديوان عمر بن أحمر(٤) .

٨ — ديوان عمر بن أبى ربيعة(٥) .

٩ — ديوان الفرزدق(٦) .

١٠ — ديوان القتال الكلابى(٧) .

١١ — ديوان الكميت(٨) .

١٢ — ديوان أبى النجم العجلى(٩) .

هذا الديوان لم تذكره المصادر الأدبية القديمة التى ترجمت لابن السكيت وأوردت ثبت مصنفاته . ولكن ابن خلكان والزبيدى ، ذكرا — أن هذا الديوان كان سبب شهرته وذيوع صيته وتحلق الناس حوله لسماع رواية الشعر وتفسيره .

دواوين الشعراء العباسيين

ذكرت المصادر القديمة — أن ابن السكيت لم يصنع من دواوين العباسيين إلا ديوان أبى نواس وإن كانت قد اختلفت فى تحديد حجمه ومضمونه ..

---

(١) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٣) الفهرست ص ٢٢٤ .

(٤) الرجال ٢-٣١٣ .

(٥) هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٦) الرجال ٢-٣١٣ .

(٧) الرجال ٢-٣١٣ ؛ هدية العارفين ٢-٥٣٦ .

(٨) الفهرست ص ٢٢٥ (قال ابن النديم : وعمله الأصمعى وزاد فيه ابن السكيت ورواه عن نصران أستاذه) .

(٩) وفيات الأعيان ٥-٤٤١ ؛ طبقات النحويين واللغويين ص ٢١٣ .

فقال ابن النديم(١) : « عمله ابن السكيت على غير حروف المعجم فى نحو ثمانمائة ورقة ، وجعله عشرة أصناف » . وقال ابن شاكر الكتبي (٢) : « أنه جعله إثنى عشر مصنفاً » وتابعه فى ذلك ابن قاضى شهبة(٣) . أما اسماعيل البغدادى فقد قال(٤) : « إنه فى نحو ثلاثمائة ورقة فقط » .

وقد طبع ديوان أبى نواس طبعات مختلفة ، وإن كانت لا تستند إلى عمل ابن السكيت أو صنعته .

شرح قصيدة عمار بن عقيل :

وقد ذكر بروكلمان أن لإبن السكيت شرحاً لقصيدة عمارة بن عقيل ، وأنه لا زال مخطوطاً فى القاهرة أول ٧ — ٦٥٢(٥) .

هذه هى الدواوين التى ذكرت المصادر الأدبية والتاريخية أن ابن السكيت رواها وشرحها — أو بمعنى آخر — صنعها ، وهى فى مجموعها ثلاث وأربعون ديواناً ، بالإضافة إلى المعلقات وقصيدة عمارة ..

وهنا نصل إلى نقطة هامة تدفعنا إلى التساؤل :

هل كان ابن السكيت يقصد إلى صنع هذه الشروح قصداً ، كما صنع كتبه اللغوية ؟ بمعنى هل كان يضع فى اعتباره صنع كل هذه الدواوين .. وهل كان يبغى أن يصنف كل ديوان منها على حدة ؟ ..

أغلب الظن — أن هذا لم يحدث ، والدليل على ذلك أن هناك من شروحه ما لم يكن معروفاً عند القدماء من مترجميه من أمثال ابن النديم وغيره ، مثل ديوان قيس بن الخطيم ، وديوان مزرد بن ضرار ، وديوان أبى النجم

---

(١) الفهرست ص ٢٢٨ .
(٢) عيون التواريخ ، ص ٦١٢ (مخطوطة) .
(٣) الطبقات ، لوحة ٥٤٣ (مخطوطة) .
(٤) هدية العارفين ، ٢-٢٠٧ .
(٥) بروكلمان ، ٢-٢٠٧ .

العجلى وغيرهم . بل لقد تجاهل معظم المترجمين القدماء هذه الشروح إطلاقاً فلم يذكروا إلا كتبه اللغوية فقط .

إذن .. كيف وصلت هذه الدواوين إلينا مجموعة مشروحة ؟

لقد كان ابن السكيت - كما نعرف - أستاذاً فى عصره ، وله حلقته ومجالس علمه ، حيث يتحلق حوله تلاميذه ومريدوه ، ورواة علمه ، يروى هذه الأشعار ، وهم يتولون تسجيل وتدوين ما يقوله ، مع تدوين ما يضعه على الأبيات من شروح لغوية أو غير لغوية ، حتى إذا انتهى من ديوان شاعر ، انتقل إلى ديوان شاعر آخر .. وهكذا .

فلما صُرِع الرجل فجأة ، كان هذا العلم فى معظمه مخطوطاً بين دفاتر تلاميذه ، الذين كانوا يحتفظون عندهم برواية هذه الدواوين وشروحها ، حينئذ رأوا تخليد ذكراه وإخراج علمه للناس ، فعملوا على تصنيف هذه الدواوين وإظهارها إلى الناس منسوبة إليه ، لأنها من روايته وتفسيره ، أو على حد تعبير القدماء « مِنْ صُنْعِه » أو عمله .

فالرواية والشرح لابن السكيت حقاً ، أما تصنيع الدواوين وإخراجها فمن صنع تلاميذه ، فالفضل كل الفضل فى عملية إظهار هذه الدواوين يرجع إلى هؤلاء التلاميذ الأوفياء .

وإذا كان هذا الرأى يبدو موحشاً - فلعلنا نجد فى قول صاحب مصادر الشعر الجاهلى حول هذا الموضوع ما يؤنسنا فى وحشتنا . يقول الدكتور ناصر الدين الأسد فى إثبات هذا ، مستشهداً بديوان قيس بن الخطيم(١) : « .. والمعروف فى تاريخ الرواية الأدبية أن السكرى (وهو من أبرز تلاميذ ابن السكيت) لا ينفرد برواية متميزة يختص بها وتنسب إليه ، وإنما يجمع روايات متعددة : بصرية وكوفية ، ويأخذها عن رواة من تلامذة هاتين المدرستين ، وربما أضاف إليها ما يصل إليه من غيرهم ، ولا يسند هذه الروايات المختلفة إلى أصحابها ، ومن أجل هذا لا يُقال عن هذه الدواوين

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٨ من المقدمة .

أنها من رواية السكرى ، إنما يقال من جمعه أو صنعه أو عمله(١) . وكذلك لا نعرف أن ديواناً لقيس من جمع السكرى أو عمله ، قد بقى لنا فيما بقى من آثار السكرى ، أما النسخة التي وصلت إلينا من ديوان قيس بن الخطيم ، فلا سبيل إلى القطع فى أمر روايتها ، فقد جاء فى الصفحة الأولى منها «شعر قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره» فهى إذن تجمع روايات متعددة ، ولكننا لا نعرف من الذى جمعها وصَنَعَها من رواية ابن السكيت وروايات غيره ، ولم ينص على «غيره» من هو أو من هم ؟ وابن السكيت نفسه لم يذكر فى النسخة غير مرة واحدة ، وذلك قوله(٢) : «حدثنى شيخ من أهل المدينة قال : تغنى مُغَنٍّ بحضرة النعمان ..» غير أننا وجدنا شروحاً لأبيات فى هذه النسخة لم تنسب لشارح بعينه ، ثم وجدناها فى بعض كتب اللغة منسوبة لابن السكيت بألفاظها التى وردت بها فى هذه النسخة(٣) . وكذلك وجدنا لابن السكيت فى بعض الكتب شروحاً لبعض شعر قيس مما لم تذكره نسختنا هذه(٤) . وكل ذلك ينتهى بنا إلى الاطمئنان إلى أن ابن السكيت قد قرأ شعر قيس وشرح بعضه ، وربما جمعه ورواه ، وإن أغفلت المصادر النص على أن شعر قيس مما كان جَمَعَه أو رواه ابن السكيت ، فابن السكيت روى حقيقة مجموعة كبيرة من الدواوين ، وشرح ما عَنَّ له شرحه ، ولكنه لم يكن يقصد أن يصنع من هذا الشرح كتاباً مصنفاً يتداول .. إنما تلاميذه ورواته هم الذين جمعوا أقواله وآراءه وشروحه وصنفوها دواوين ، وذكروا أنها من روايته وشرحه .. »(٥) .

فنسبة الدواوين إلى ابن السكيت — كما قلنا — ليس معناه أن هذه الدواوين

---

(١) أنظر أيضاً مصادر الشعر الجاهلي من ص ٤٩٣ — ٤٩٥ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٦٧ .

(٣) أنظر مثلا لذلك ص ٧٧ من الديوان ، هامش ١ .

(٤) أنظر مثلا لذلك ص ٧٧ من الديوان ، هامش ٢ .

(٥) أنظر ما ذكره الدكتور ناصر الدين الأسد ص ٢١ — ٢٢ من مقدمة الديوان .

صنفت من أجل التصنيف ، ولكنه رواها قصائداً وأبياتاً وفسر معانيها فى حلقات علمه ، وطلابه يكتبون ما يمليه ، حتى إذا تجمعت رواياته ، وانتقل الرجل إلى بارئه ، عملوا هم على تصنيف هذه الدواوين ، ونسبوها إليه ، اعترافاً بفضله وعلمه .

ونستطيع أن نجد أدلة كثيرة تثبت صحة هذا الرأى وتدعمه ، منها :

أن مصنف ديوان قيس بن الخطيم ، حين وجد روايات وشروحاً لبعض العلماء مثل الكسائى وأبى عمرو والأصمعى والطوسى فى مواضع متفرقة بين ثنايا روايات ابن السكيت وشروحه ، ذكر فى مقدمة الديوان عنواناً وهو « شعر قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره » دون أن يفطن إلى منهج ابن السكيت — الذى سنتحدث عنه حالا — يقوم على النقل والأخذ عن أساتذته .

ودليل آخر — على أن هذه الدواوين من صنع تلاميذه — وهو قول صانع ديوان قيس ابن الخطيم فى تفسير بيت قيس(١) :

تَقُولُ ظَعِينَتِى لمَّا اسْتَقَلَّتْ
أَتَتْرُكُ ما جَمَعْتَ صَرِيمَ سَحْرِ

« يقال : قد صَرِمت سَحْرِى منه ، أى قد يئست منه ، وأنشد : (يقصد ابن السكيت)

فلولا ابْنَا تُمَاضِرِ أن يساؤوا
وأنّى مِنْكَ غَيْرُ صَرِيمِ سَحْرِ

وثمة دليل واضح — بل لعله أوضح الأدلة كلها . « أن صانع ديوان قيس بن الخطيم أورد شرح البيت التاسع من قصيدته الهمزية(٢) بعد البيت العاشر — دون أن يفطن إلى سياق المعنى كل ذلك يثبت أن صنع الديوان ليس من عمل ابن السكيت بل من عمل أحد تلاميذه .

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٨١ ؛ وأنظر ص ٦٩ من نفس الديوان .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٨ .

ويزيد هذا الأمر توضيحاً — ما لاحظه الدكتور نعمان أمين طه ، وأشار إليه أثناء تحقيقه لديوان الحطيئة — إذ يقول عن نسبة المخطوطة لابن السكيت(١) « أما من ناحية نسبة هذا الجزء من المخطوطة إلى ابن السكيت ، فيشير إليه ذلك العنوان الذى بدأ به القسم التالى له مباشرة : « عن غير يعقوب » ، وخاتمة هذا القسم الثانى أيضاً بهذه العبارة : « آخر ما وجد من غير رواية يعقوب » وبذلك يثبت أن هذا القسم لابن السكيت برغم وجود هاتين العبارتين اللتين أثارتا الشك فى نفسى وهما : « وروى يعقوب » (ص ١١٨ السطر الخامس) ، ومثله « أنشد يعقوب » (ص ٢٦٨) . وأغلب الظن أن كلمة « غير » قد سقطت من العبارتين قبل الإسم « يعقوب » فتكون صحة العبارتين السالفتين « وروى غير يعقوب » ومثله « وأنشد غير يعقوب » وبذلك يستقيم الرأى الذى يقول : أن هذا الجزء من المخطوطة كلها ليعقوب مؤيداً بهذه العبارات « وروى غير يعقوب » (ص ١٣٢) ، و« لم يروهما يعقوب » (ص ١٤١) ، ، و« إلى ها هنا عن غير يعقوب » (ص ٢٤٩) .. » .

وكل ذلك يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم الدواوين — إن لم يكن كلها — إنما كانت من صنع تلاميذه ، نتيجة لما دونوه عنه من روايات وشروح ، رأوا تجميعها وتصنيع دواوين مشروحه منها نسبوها إليه .

---

(١) مقدمة ديوان الحطيئة ص ١٦ ؛ وانظر أيضاً ص ١٧ .

منهج ابن السكيت في شرح الشعر

وصل إلينا من دواوين الشعر الجاهلي ، التي رواها وشرحها ابن السكيت أربعة دواوين ، لأربعة شعراء هم : طرفة بن العبد ، وعروة بن الورد ، وقيس بن الخطم ، والنابغة الذبياني .

وستكون هذه الدواوين هي محور دراستنا المنهجه في الشرح ..

وقبل أن نتناول هذا الموضوع بالتفصيل ، نود أن نستعرض — وبطريقة استقرائية — بعض النماذج من شرحه ، لنتعرف على معالم الطريق ، ونحدد ملامح هذا المنهج ، حتى لا نَضِلّ في خِضَمّ مئات الشواهد التي استخرجناها من دواوين الشعر التي شرحها .

١ — بيت النابغة(١) :

مَخَافَتُهُمْ ذاتُ الإلـه ودينُهُم
قَوِيمٌ فما يَرْجُونَ غيرَ العَوَاقِبِ

شرحه ابن السكيت كما يلي : « قوله : مخافتهم ذات الإله ، يريد : يخافون أمر الله تعالى ، وذات الإله : كتابه . وروى الأصمعي : « محلتهم ذات الإلـه » أي منزلهم بيت المقدس وأرض الشام ، ومنازل الأنبياء وهي أرض القدس . وقال أبو عمرو : وروى ابن دأب «مَجَلَّتهم ذات الإلـه» يريد : كتابهم الإنجيل ، وكانوا نصارى ، وكل كتاب عند العرب مجلة ، وقويم : مستقيم .

وروى أبو عبيدة : « قويم به يَرْجون غيرَ العواقب » ، ومن روى : « فما يرجون غير العواقب » أي : ما يخافون ، وهو من قوله تعالى : « مالكم لا ترجون لله وقاراً ؛» أي : لا يخافون عظيمة غير العواقب ، أي : لا يطلبون غير عواقب أمورهم » .

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٥٦ .

لقد سلك ابن السكيت فى شرح البيت النهج التالى :

١ ــ ذكر أعلى الروايات التى ارتضاها فى المتن .

٢ ــ ذكر المقصود من الفقرة الأولى فى البيت .

٣ ــ شرح معنى « ذات الإلــه » .

٤ ــ ذكر رواية الأصمعى ، وتفسيره لها .

٥ ــ ذكر رواية أبى عمرو الشيبانى وتفسيره لها .

٦ ــ ذكر تفسيراً لفظياً .

٧ ــ ذكر رواية أبى عبيدة .

٨ ــ فسر الشطر الثانى من البيت حسب روايته العليا .

٩ ــ استشهد بآية من كتاب الله ، توضح المعنى الذى حدده .

١٠ ــ فسر الآية القرآنية التى استشهد بها .

٢ ــ بيت عروة بن الورد(١) :

ومُسْتَثْبِتٌ فى مالِكَ العامِ إنَّنِى
أَرَاكَ عَلَى أَقْتَادِ صَرْمَاءَ مُذْكِرِ

قال ابن السكيت فى شرحه : « ويروى (أقتار) ، يريد : هل أنتَ تارك ضبوءاً ومستثبت العلم فإننى أخاف عليك أن لا ترجع فإنك لا تزال يُغير فكيف تراك تَسْلَم ، وقوله « إننى أراك على أقتاد صرماء مذكر » ، أى : أراك على شفا هلكة ، أى خطر عظيم ، وإنما هذا مَثَلٌ ، فمن قال : « على أقتار » فالقُتْر : الناحية ، والصرماء : الناقة التى صُرِمت أطباؤها أى قطعت لينقطع لبنها فتشتد قوتها ، ويشتد لحمها ، والمُذْكر : التى تلد الذكور ، وهو أفظع ما يكون من نتاج العرب ، وأبغضه إليهم ، فأراد

(١) شرح ديوان عروة ص ٦٩ ــ ٧٠ (مستثبت أى ثابت ، ومقيم غير مفارق ، والاقتاد جمع قتد وهو خشب الرحل أو جميع أدواته) .

« على أقتار داهية » أي نواحيها ، أي وهي في الدواهي مثل هذه الإبل وهذا كله تشديد للداهية » .

نهج ابن السكيت في شرح البيت المنهج التالي :

١ ــ ذكر في المتن أعلى روايات البيت في رأيه .
٢ ــ ذكر رواية أخرى مخالفة في لفظ واحد .
٣ ــ رتب البيت ترتيباً يبين المعنى الذي قصد إليه الشاعر .
٤ ــ فسر الشطر الثاني من البيت حسب روايته العليا .
٥ ــ نص على أن الشطر الثاني مثل .
٦ ــ شرح الشطر الثاني من البيت حسب الرواية الثانية .
٧ ــ ذكر بعض التفسيرات اللفظية .
٨ ــ حدد الظروف والملابسات التي من أجلها صار البيت مثلا تضرب به العرب .

٣ ــ بيت النابغة (١) :

عَلَى ظَهْرِ مِبْنَاةٍ جديدٍ سُيُورها
يَطُوفُ بها وَسْطَ اللَّطِيمةِ بَائِعُ

قال ابن السكيت(١) : « ويروى « يطيف » . قال أبو عبيدة : المبناة : نطع يقول : هذا الحصير على هذا النِّطْع يطوف به بائع في الموسم ، والنِّطع يسمى مِبْنَاة لأن الصانع يَدَع عليه متاعه ، ويقال : نِطْعٌ ونِطَع ونَطْع ونَطعٌ .

وقال أبو عمرو : اللطابمة : سوق يباع فيها البَزُّ والطيب ، يقال : أعطني لطيمةً من مسك أي قطعة . وقال أبو عبيدة : اللطيمة : العيرُ التي تحمل دِقَّ المتاع وأفضله، والطيب أيضاً ، وقوله : جديد سيورها : أراد الأديم :

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٤٤ .

اتبع ابن السكيت الخطوات الآتية في شرح البيت :

١ ــ ذكر أعلى الروايات فى المتن .

٢ ــ ذكر رواية أخرى ــ تخالف الرواية العليا فى « لفظة » من الألفاظ

٣ــ نقل تفسيراً لفظياً عن أبى عبيدة .

٤ ــ ذكر تفسيراً لمعنى البيت .

٥ ــ ذكر عدة لغات للفظ « نطع » .

٦ ــ نقل عن أبى عمرو الشيبانى معنى « اللطيمة » .

٧ ــ نقل عن أبى عبيدة معنى آخر « للطيمة » .

٨ ــ ذكر تفسيراً لفظياً .

٤ ــ بيت قيس بن الخطيم(١) :

ومِثْلِكِ قد أَصْبَيْتُ ، ليستْ بكَنَّةٍ
ولا جارةٍ ، أَفْضَتْ إلىَّ حَيَاءهـا

شرحه ابن السكيت كالآتى : « أصبْيتُ » : أملتُها إلىّ ، يقال :
صبا يصبو إليه ، إذا مال إليه ، قال الشاعر :

صَبَا قَلْبِى إلى هِنْدٍ وهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِى

أَفْضَتْ إلى حياءها ، أى لم يكن بينى وبينها سِتْر ، وقال أبو عمرو : أخبرتنى بما تكتم وتستر » .

وهنا نلاحظ أن ابن السكيت انتهج المنهج **التالى فى شرح البيت :**

١ ــ ذكر فى المتن أعلى الروايات .

٢ ــ بدأ الشرح بتفسير لفظى .

٣ ــ حلل الفعل « صبا » .

٤ ــ ذكر شاهداً شعرياً يؤيد المعنى الذى ذهب إليه .

٥ ــ فسر معنى الفقرة الأخيرة من البيت .

٦ ــ ذكر لها تفسيراً آخر نقله عن أبى عمرو الشيبانى .

---

(١) شرح ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٣٢ .

من هذه النماذج وغيرها كثير ، نستطيع أن نحدد عدة أمور تتصل بشرح ابن السكيت .

أولها : الاتجاه العام للشرح .

وثانيها : منهجه فى الشرح .

وثالثها : العناصر التى يتكون منها هذا الشرح .

أولا — الاتجاه العام للشرح :

أما عن الأمر الأول — فالرجل كما هو معروف لغوى قلباً وقالباً ، فكراً وشعوراً ، كان مثالا حياً للتيار المتدفق فى عصره ، عصر تقنين اللغة وتقعيدها ، لذلك احتفل باللغة احتفالا كبيراً فى شرحه ، فهى لا تغيب عنه لحظة واحدة ، ولا يستطيع أن يخرج عن نطاق جاذبيتها حتى حين يتعرض للعناصر التفسيرية الأخرى ، حتى لقد صارت شروحه أشبه بمعاجم لغوية صغيرة ، فرواية الشعر ، ورواية اللغة — عنده — صنوان متلازمان ، يسعى إلى اللغة من أجل الشعر ، ويسعى إلى الشعر فى سبيل اللغة . من هنا كان يمثل الاتجاه السائد فى عصره ، الاتجاه اللغوى الخالص ، ذلك الاتجاه الذى يعنى باللغة من حيث جوهرها ومظهرها ، من حيث نطقها ونحوها وصرفها وتحليلها واشتقاقها ، كما يعنى بأصلها وبيئتها وخصائصها ، لكل ذلك عرف فى عصره وبعد عصره بأنه « من أكابر أهل اللغة »(١) ، و« صاحب إصلاح المنطق وتفسير دواوين الشعر »(٢) ، و« الإمام اللغوى النحوى »(٣) .

ومن المترجمين من وسَّع دائرة اختصاصه ، فقال : « كان عالماً بنحو

---

(١) نزهة الألباء ص ١٢٣ .

(٢) شذرات الذهب ٢–١٠٦ .

(٣) مرآة الجنان ٢–١٤٧ .

الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر »(١) أما الطيب اللغوى ، فقد ذكر أن « علم الكوفيين انتهى إليه »(٢) .

فمن الطبيعى أن تظهر هذه السمة اللغوية فى شروحه ظهوراً بارزاً ، وإن كانت لا تطغى على بقية الشرح . وسيتضح هذا الأمر حين نتعرض لعناصر الشرح عنده .

ثانياً – منهجه فى الشرح :

أما منهجه فى الشرح – أى طريقته فى تناول النصوص وتحليلها ، فالملاحظ أن ابن السكيت كان ملتزماً بآراء وأقوال السلف من أساتذته ، يعتمد على رواياتهم وتفسيراتهم فى جميع النواحى كان يجمع كل ما جاء على ألسنتهم أو فى كتبهم ، من روايات ، وشرح للمعانى ، وتحليل للغات ، وذكر لمناسبات القصائد .. ووضح ذلك كله جنباً إلى جنب ، وعرضه بلا أدنى تدخل أو تنسيق من جانبه ، لذلك قلنا أن ابن السكيت يمثل المنهج الالتزامى النقلى .

ونقصد به .. ذلك المنهج الذى يقوم أساساً على السماع والرواية والنقل .

ونقصد به .. المنهج الذى يقوم على تجميع أقوال السابقين – الأمناء – على اختلاف اهتماماتهم وحصرها ، ورصها جنباً إلى جنب ، ما توافق منها وما تعارض ، دون مساس بجوهر الأقوال والآراء .

نقصد به .. المنهج الموثق ، المنسوب فيه كل قول إلى صاحبه ، مهما تعددت الأقوال والآراء أو تضاربت أو جانبت الحقيقة والصواب ، ما دام صاحب الرأى مذكوراً فى صدر كلامه وشرحه .

إن أصحاب هذا المنهج – وابن السكيت إمامهم – ملتزمون بما سمعوه ، ودونوه وما نقلوه عن أساتذتهم ، ملتزمون بكل حرف فيه ، لأن كلامهم هو الثقة والصدق وهو العلم ، وإن اختلفت الآراء . أن أصحاب هذا المنهج

---

(١) بغية الوعاة ، ص ٤١٨ .

(٢) مراتب النحويين ، ص ٩٥ .

الالتزامى النقلى جامعون ناقلون صانعوع اجمين ، وشروحهم مؤلفة من لآراء التى وصلت إليهم عن أساتذتهم ، سواء بالسماع المباشر ، أو بالرواية المنقولة عن راو ثقة ، أو بما وجدوه فى كتبهم حول الشعر والشعراء .

إن الشارح – من أتباع هذا المنهج يضع على مائدة الشرح كل ما جمعه من العلماء السابقين الأساتذة ، وليس له هنا حق الاعتراض على أى منهم ، أو نقد آرائه .. إنما يعرض أقوالهم وشروحهم كما هى ، المهم أن يذكر مصدره لذلك كثيراً ما تختفى شخصيته وراء منقولاته .

هذا هو منهج ابن السكيت فى شرح الشعر ، وهذه هى دعائمه .. الالتزام الواضح والنقل الصريح عن أساتذته السابقين . لذلك يحق لنا أن نقول – إن هذا المنهج يعد أبسط صور المناهج العلمية من حيث الإبداع ، لأنه تفسير مروى منقول ، قلما تظهر فيه شخصية العالم أو مواهبه ، أنه يروى ما سمع وما قرأ وما دون عن السابقين ، ويعرض ذلك كله دون أدنى تدخل منه سوى العرض والسرد .

وقد نجد فيما سبق أن قلناه عن جيل الرجل سبباً يدعم هذا الرأى ، ذلك أن ابن السكيت من علماء الجيل الثالث ، الذين تسلموا الأمانة من علماء الجيل الثانى – جيل الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى ومن فى طبقتهم .. العلماء الأساتذة رواة الشعر ، صناع الشروح ، فكان أن وجد محصولا وافراً من الشعر ، ومحصولا أوفر من الشرح ، فأخذ على عاتقه دراسة هذا التراث الوفير من الشعر وشرحه ، ثم محاولة تجميع الشروح – على النص الواحد – ثم عرضها فى منهج جديد ، يجمع بين كل الروايات والآراء ، والأقوال والتفاسير ، اتفقت أو اختلفت ، ليوفر على القارىء – أو السامع – مشقة معرفة رأى كل فرد من جيل الأساتذة حول بيت واحد ، أو قصيدة بعينها .

من هنا كانت شروح ابن السكيت محصلة كل الشروح السابقة الواردة عن الرواة والعلماء . ومن هنا كان منهجه إلتزامياً نقلياً تجميعياً .. وكان شرحه شاملا لكل العناصر التفسيرية الموروثة حتى عصره .

على أن هذا المنهج الالتزامى النقلى – كما رأيناه عند ابن السكيت – على الرغم من قيمته العلمية الكبيرة يفتقر إلى أشياء هامة ، لو أضيفت إليه لكانت دعماً له .. يفتقر إلى ترجيح ما يراه صواباً ، وتجريح ما يراه زائفاً . يفتقر إلى حذف ما ليس بصحيح ، أو يحمل الشطط من الآراء والروايات . ويفتقر ثالثاً إلى نقد الآراء ، لتوضيح مدى توفيق السابقين فى شروحهم أو إخلالهم . من هنا نستطيع أن نقول أن هذا الشرح – بجميع عناصره – عرض مسطح ، مروى مسرود ، لا أثر للعمق أو النفاذ فيه ، ولا أثر لشخصية الشارح ، أضف إلى ذلك – أن هذا الشرح فرض فروضاً معينة على أصحابه لا يتعدونها لشرط الالتزام الذى قيدوا به عقولهم وألسنتهم ، وهو أنهم لا يقولون فيما تناوله الأساتذة شيئاً ، ولا يمحصون آراءهم ، بل هم ملتزمون بما جاء على ألسنتهم التزاماً شديداً ، لا يحيدون عنه ، ولا يخرجون عليه ، يأخذونه ويتداولونه كأنه دستور ، أو شىء مقدس ، يجب الحفاظ عليه والتمسك به – كما هو – لا لشىء إلا لأنه ورد عن أساتذتهم الراسخين فى العلم ، المشهود لهم بصدق الرواية وصحة الرأى وسعة الاطلاع .

كما كان هذا المنهج الالتزامى – المقيد – سبباً فى إظهار العالم بمظهر القاصر حيناً ، والمقصر أحياناً ، فقد وجدنا – عند ابن السكيت – أبياتاً وقصائد عارية تماماً من الشرح ، لا لشىء إلا لأنه لم يجد بين يديه شروحاً لأساتذته عليها ، وهو يخشى إن قال كفر ، وإن شرح قصر ، فأى أرض تقله ، وأى سماء تظله ، إذا قال بما لم يسمع ، أو بما لم ينقل .

فمثلا القصيدة الحادية عشرة من ديوان النابغة(١) – ذكرها ابن السكيت بلا شرح ، كما لم يذكر مناسبتها أو اختلاف الرواة حول أبياتها .. لماذا ؟ هل يرجع ذلك لانفراده بروايتها ؟ – فليكن – ولكن انفراده بروايتها لا يعفيه من شرحها وهو العالم اللغوى الكبير صاحب التفاسير ، فلماذا

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٩٥ .

لم يشرحها بنفسه ، هل فى هذا حرج – أو أن ألفاظها وأبياتها ليست فى حاجة إلى شرح ؟

وظاهرة هامة لاحظناها فى شروح الدواوين – وهى أن القصائد المشهورة – كالمعلقات – نجده مكثراً فيها ، يجمع بين شروح السابقين جميعاً ، وما ذلك إلا لأن هذه القصائد شرحت مراراً ، وتناولها علماء كثيرون ، أما القصائد الأخرى ، فنجد أن شروحها قليلة قد تقف أحياناً عند شرح الألفاظ .

فمثلا شرحه على القصيدة (٢٤) من ديوان النابغة(١) لا يتجاوز سطرين هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى وجدنا أقوالا كثيرة متضاربة ، وشروحاً كثيرة متعارضة ولم يهتم ابن السكيت بترجيح رأى على رأى ، أو إثبات صحة تفسير عن تفسير ، ولقد وجدنا روايات ضعيفة ، وأخرى منحولة(٢) ، ثبت له حقيقة ذلك ، ولكنه مع ذلك رواها ، لا لشىء إلا لأن بعض أساتذته رووها .. لذلك كان لزاماً عليه أن يذكر ما جاء عنهم ، وإن كان قد أدرك زيفها ونص على ذلك .

ولكن ما الذى جعل ابن السكيت يلتزم التزاماً قوياً بما ورثه عن شيوخه من آراء وتفاسير ؟ .. ولماذا كان يحرص على أن يبدأ الرواية أو الشرح بذكر مصدره ؟ .. أقول إنها الأمانة العلمية أولا وأخيراً ، ثم الإعتراف بفضل هؤلاء الأساتذة العلماء المعلمين ، الذين بذلوا الجهد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، كما أن هذا الإلتزام كان مدعاة لتوثيق الرواية والشرح معاً ، لذلك وجدناه يذكر بكل فخر .. أن هذا قول الأصمعى ، وذاك قول

(١) شرح ديوان النابغة ص ١٤٣ – وأنظر أيضاً القصيدة ٢٧ ص ١٥١ فليس عليها شرح ، والقصيدة ٣٤ ص ١٧٨ ، والقصيدة ٣٥ ص ١٨١ ، والقصيدة ٣٦ ص ١٨٢ ، والقصيدة ٣٧ ص ١٨٤ ، والقصيدة ٣٨ ص ١٨٥ ، والقصيدة ٣٩ ص ١٨٧ ، والقصيدة ٤٠ ص ١٩٠ ، والقصيدة ٤١ ص ١٩٢ .

(٢) أنظر شرح ديوان النابغة ص ٨٠ ، ص ٢٠٨ .

أبى عبيدة ، أو يذكر الرواية والشرح ويقول « وهما جميعاً عن الأصمعى »(١)

وفى الحقيقة لقد كان هذا الأمر معيناً لنا على تحديد مصادره ..

فهو يعتمد على الأصمعى فى الرواية وتفسير الغريب وتحديد اللغات وشرح المعانى .

ويعتمد على ابن الأعرابى فى الرواية وشرح الألفاظ وتحديد الأعلام .

ويعتمد على أبى عمرو الشيبانى — فى الرواية — كذلك — وشرح الأخبار وأيام العرب .

وينقل عن الكلبى — المناسبات التاريخية والأنساب ، وبعض الأخبار .

ويأخذ عن أبى عبيدة — الرواية وبعض المعانى .

أو بمعنى آخر — فإنه يعتمد فى الرواية على الأصمعى وابن الأعرابى وأبى عمرو وأبى عبيدة .

ويعتمد فى تفسير الغريب وتحديد اللغات على الأصمعى .

وينقل المعانى — عن الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى .

وينقل المناسبات التاريخية والأنساب والأخبار عن أبى عمرو الشيبانى وابن الكلبى .

وابن السكيت أحياناً يتجاوز هذه المصادر لينقل عن غيرهم من الأعراب أو الرواة ، ولكنه دائماً يذكرهم ، من مثل قوله : « زادنى فيها بيتاً رجل من بنى قُرَيْظَةَ من بنى بكر ابن كلاب »(٢) ، أو « حدثنى شيخ من أهل المدينة قال ... »(٣) .

ويبدو أن هذا الإلتزام كان عاصما من الزلل والشطط ، لأننا رأينا فى

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ١٥٩ وأنظر فهرس الأعلام .

(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٢٠٢ .

(٣) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٢٤ .

المرات القليلة التى حاول فيها ابن السكيت أن ينفرد برأى أو يقول بما لم يسمع كان يقع فى الخطأ والوهم ، ويجانبه التوفيق ، فبيت قيس بن الخطيم(١) :

دَعَوْتُ بنى عَوْفٍ لحقْنِ دمَائِهِمْ
فلمَّا أبَوْا سَامَحْتُ فى حَرْبِ حاطِبِ

عرف ابن السكيت ببنى عوف — دون أن يعتمد كعادته على ابن الكلبى فقال : « يريد عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس » وهذا خطأ واضح ، فسياق الحديث فى هذا البيت ، وكذلك فى البيتين (٢٤) ، (٢٥) من هذه القصيدة نفسها — كما يقول الدكتور ناصر الدين الأسد — يقتضى أنه يريد أعداء قومه أى الخزرج ، ولا يقصد قومه الأوس ، والصواب أنه يريد عمرو بن عوف بن الخزرج(٢) .

وفى بيت النابغة :

يُنْذِرِينَ دَمْعَ مِزَادٍ دَمْعُهَا دِرَرٌ
يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّارِ

يعرف ابن السكيت بابن سيار فيقول : « وابن سيار : منظور بن زبان ابن سيار الغزارى » وحصن : « ابن حذيفة بن بدر »(٣) بينما واقع البيت يشير إلى أن « ابن سيار » هو زبان ابن سيار لا إبنه منظور ، فلم لا يكون زبان هو المقصود لا إبنه ؟ ..

وكذلك بيت النابغة :

أَقْدمتُهَا ونواصى الخَيْلِ شَاحِبَةٌ
جَرْدَاءَ عِجْلَزَةً أَرْمَى بهَا قُدُمَا

---

(١) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٨٠ .

(٢) وأنظر التعليق على البيتين ٦ ، ٧ من القصيدة السادسة من ديوان قيس بن الخطيم .

(٣) شرح ديوان النابغة ، ص ٨٢ .

فسر ابن السكيت « الجرداء » بأنها قليلة الشعر ، و « العجلزة بأنها « الناقة الصلبة »(١) بينما سياق المعنى – وكما يقول صاحب اللسان : « العجلزة هى الفرس الشديدة الخلق المجتمعة » . ولعل السياق يلائم هذا المعنى أكثر مما ذهب ابن السكيت إليه ، خاصة حين ننظر إلى الأبيات السابقة .

ولا شك أن هذا الالتزام الواضح الصريح ، الذى ظهر فى شروح ابن السكيت ، هو الذى دفع صانع ديوان قيس بن الخطيم إلى القول فى مقدمته – إن هذا الديوان « رواية ابن السكيت وغيره » فقوله « وغيره » إنما يقصد أولئك العلماء الذين ورد ذكرهم فى شروح ابن السكيت ، وأخذ عنهم الرواية والشرح ..

فهذا اعتراف منه بأن ابن السكيت جمع إلى روايته رواية غيره ، وضمن شروحه شرح أساتذته ، وإذا كان صانع الديوان قد نص على ذلك – لجهله بمنهج الرجل – وله عذره ، فإن الدكتور ناصر الدين الأسد – وهو صاحب مصادر الشعر الجاهلى – لم يفطن حين حقق شرح ابن السكيت لديوان قيس بن الخطيم ، إلى أن منهج ابن السكيت إنما يقوم على النقل والرواية عن شيوخه ، وإلا لما تساءل فى مقدمته عن وجود أسماء هؤلاء الأعلام الوارد ذكرهم بين ثنايا الشرح .

كما أن هذا المنهج عينه ، هو الذى دفع الدكتور شكرى فيصل إلى القول فى صدر شرح ديوان النابغة « ديوان النابغة الذبيانى بتمامه » اعتقاداً منه أن صانع الديوان – أو كاتب المخطوطة التى اعتمد عليها – جمع إلى روايات وشروح ابن السكيت ، روايات وشروح غيره ، والحقيقة أن هذا هو منهج الرجل ، وهذا هو صنيعه ، إذن فعمل ابن السكيت هو الذى دفع الدكتور شكرى إلى عنونة الديوان بالعنوان المذكور . بيد أنه حين حقق الديوان ونشر مخطوطاته ، وقع فى السهو والخطأ ، فأضاف إلى شروح

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ١١٢ ، وانظر اللسان (مادة : عجلز) .

ابن السكيت شروحاً لأبى رياش(١) وابن الأنبارى (٢) ، والواقع أن أبا رياش ليس من جيل ابن السكيت ، ولا من تلاميذه ، بل جاء بعده بسنوات كثيرة (توفى سنة ٣٣٩ هـ) ، ولعله لم يفطن إلى ذلك حين ضمن شروح ابن السكيت تفسيرات أبى رياش ، وخلط بين التفسيرين دون أن يشير إلى ذلك ، وأضاف كذلك شروحاً لابن الأنبارى (توفى سنة ٣٢٨ هـ) ، وليس من المعقول أن يروى عنه ابن السكيت لأنهما بالطبع لم يلتقيا ، ولعل الذى أوقع الدكتور شكرى فى الخطأ — وجود بعض الشروح والتعليقات لهذين العالمين وغيرهما فى هوامش النسخة التى اعتمد عليها ، دونها الذين اقتنوا هذه النسخة ، والدليل على ذلك أن النسخة التى حققها مكتوبة فى القرن السابع الهجرى(٣) ، مما إجعل الذين يتملكونها يضيفون إلى هوامشها بعض الشروح الواردة ، وهذا ما أوقعه فى الوهم ، وكان من المفروض أن يضع مثل هذه الشروح فى هوامش الديوان ، لكنه فصل بين الشعر وشرحه وجعل الشرح كله فى الهامش ، فخالف طريقة ابن السكيت نفسه فى الشرح ، حيث كان يضع تحت كل بيت شرحه ، هذا من ناحية ، كما اختلط كلام ابن السكيت بكلام غيره من ناحية أخرى .

على أن هذا المنهج الالتزامى النقلى ، وإن ذكرنا له بعض العيوب التى لمسناها فى صنيع ابن السكيت لم يمنع أن يكون له محاسن أخرى كثيرة ، منها :

١ — أنه يبين مدى اعتماد الخلف على السلف ، والوثوق بهم وبعلمهم ، لأنهم كانوا أهلا للثقة .

٢ — أنه يبدو نسبياً متكامل العناصر ، يكمل العلماء بعضهم بعضاً ، لذلك تبدو الروايات فيه تكاد تكون مستوفاة ، والشروح كذلك فى أغلبها متكاملةو هذا ما لم نجده عند عالم من العلماء السابقين منفرداً .

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ١٥ ، ٤٢ .

(٢) وانظر نفس الديوان ص ٢١٣ حيث روى شروحاً لابن الأنبارى على لسان ابن السكيت

(٣) أنظر صفحة ٢٦٦ من شرح ديوان النابغة .

٣ – إن عملية الإسناد فى حد ذاتها تعتبر وثيقة علمية ، تجعل فى مقدور الباحث المدقق أن يستخرج من شروح الدواوين ، رواية وشرح كل عالم على حدة ، وبذلك حفظ لنا أصحاب هذا المنهج ما لم نعثر عليه من قبل ، فأمكننا التعرف على رواية كل عالم ورأيه وشرحه ، بحيث يمكننا – بسهولة أن نستخرج من شرح ابن السكيت على ديوان النابغة مثلا ، شرحاً لكل من الأصمعى وابن الأعرابى ، وأبى عمرو وغيرهم على نفس الديوان ، وتلك جميعاً دواوين مفقودة ، عفا عليها الزمن ولكن حفظها ابن السكيت وأضرابه بجمعهم إياها وعرضها .

ومهما يكن من شىء فإن هذا الشرح .. فى إطار هذا المنهج .. فى هذا الوقت المتقدم ، لم يكن من الممكن أن يكون بخلاف ما كان ، ولا يمكن أن تتغير صورته إلى غير ما رأينا ، اتصالا بالعلوم ، وانتهاجاً لنهجها .. لذلك جاء هذا الشرح على صورته هذه ، فى نطاق المنهج النقلى .

إن الشرح فى نطاق هذا المنهج تقريرى علمى محدد ، لا تتدخل فيه أى سمة شخصية أو عقلية من سمات الشارح الجامع الراوى ، إنما هو عرض لكل الروايات وكل الشروح ، وهى فى معظمها قد تصل إلى حدود البادية نفسها ، لذلك فإن هذا المنهج يمثل الطريقة المسطحة فى الشرح – إن جاز هذا التعبير – بمعنى أن الشرح يسير فى مستوى واحد ، وبطريقة نمطية محددة .. دون عمق أو نفاذ من الشارح ، للوصول إلى معرفة إبداع الشاعر ، ومدى توفيقه أو إخفاقه ، أو إظهار أثر الشعر فى نفسه .. إنما هو جمع للروايات والشروح ، ثم عرضها وسردها من جديد ، دون ما يكون الشارح ، كما قلنا – إلا صفة ضئيلة من الربط بين الشروح وعرضها أو حتى عدم الربط .

ثالثاً – عناصر الشرح عند ابن السكيت

فإذا ما انتهينا الآن من تحديد مفهومنا للمنهج الإلتزامى النقلى ، لم يبق أمامنا إلا أن نستعرض العناصر التفسيرية التى يتركب منها الشرح عند ابن السكيت .

ولعل الأمثلة الكثيرة السابقة تكون قد استلفتت أنظارنا عما عسى أن يتضمنه شرحه من عناصر .

إن الشرح عند ابن السكيت – إنما يتركب من مجموعة من العناصر يكمل بعضها بعضاً ، وتتركز فى الجوانب الآتية :

١ – الرواية .
٢ – المعانى .
٣ – العلوم اللغوية .
٤ – الجانب التاريخى .

١ - الرواية فى شرح ابن السكيت

كان ابن السكيت راوية للشعر واللغة(١) ، عاش عصر نضج الرواية ورقيها بعد أن مرت بتطورات عدة ، وانتقلت من منطقة السماع الشفهى إلى مجال التدوين والتوثيق . ولا يغيب عن أذهاننا ما سبق أن قلناه .. أن الرواية كانت العنصر الأول والشغل الشاغل ، الذى يثير اهتمام الناس ، فهم يريدون معرفة حقيقة اللفظ ، وصحة اللغة ومدلولاتها ، بعيداً عن التصحيف والتحريف لفهم معانى الشعر ، ومقصود الشاعر . لذلك اهتم ابن السكيت - شأن علماء عصره - بهذا الجانب ، وركز عليه تركيزاً كبيراً أثناء شرحه ، حتى ليشغل جانب الرواية عنده معظم هذا الشرح .

فهو - كما رأينا - يحدد الرواية العليا ، ويضعها فى المتن ، ثم يشرح ما جاء فيها من عناصر ، لكنه لا يتجاهل أية رواية واردة ، مهما كانت مخالفة لروايته ، ما دامت آتية من مصدر يثق به ، وإن كان مكان هذه الروايات الثانوية بين ثنايا الشرح ، ومن هنا كانت مصنفاته شاملة لكل ما ورد حول الشعر من روايات . على أن الخلاف فى الروايات كما يبينه ابن السكيت قد يكون حول لفظ ، كما فى بيت عروة بن الورد :

صَبُوراً عَلَى رُزْءِ المَوالِى وحافِظاً
لِعِرْضِى حَتَّى يُؤْكَلَ النبتُ أَخْضَرَا

قال ابن السكيت : « ويروى » على وط ءالموالى أى صبوراً فى الزمان المُجْدِبِ(٢) .

وقد يكون الخلاف حول مقطع - كما جاء فى بيت النابغة :

---

(١) نزهة الألباء ص ١٢٣ ، بغية الوعاة ص ٤١٨ .

(٢) شرح ديوان عروة ص ٦١ . « وزرء الموالى » منالتهم منى ، يقول : أصون عرضى من الذم وأعرضه للحمد ، إذا جاءت السنة ، وجهد الناس ، لم أزل أقرى وأضيف حتى تخرج السنة ويقبل الخصب ويورق الشجر ، فيعود العود أخضر بعد يبسه ، وترجع السنة وتخضر الأرض

وانظر الخلاف حول « الشعاع والشعاع » شرح ديوان قيس ، ص ٧ .

وانظر الخلاف حول « أصيلا وأصيلانا » شرح ديوان النابغة الذبيانى ، ص ٣ .

والخيلُ تَنْزِع غَرْباً فى أَعِنَّتِهَا
كالطير تنجو من الشُّؤْبُوب ذى البَرَدِ

قال ابن السكيت : ويروى « تَمْزَعُ مَزْعاً » وهى السرعة .
ويروى « تَنْزِعُ رهْواً » والرهو المتابعة فى سكون(١) .

وقد يكون الخلاف حول شطر من البيت(٢) ، أو حول البيت بأكمله ، كما فى بيت قيس بن الخطيم :

ولم أرَهَا إلا ثلاثاً على مِنىً
وعهدِى بها عَذْراءَ ذات ذَوَائِبِ

قال ابن السكيت(٣) : ويرى :

وعَهْدِى بها أيَّام نحنُ عَلَى منىً
وأحْسِنْ بها عَذْراء ذات ذَوَائِبِ

وابن السكيت وإن كان كوفى المذهب ، فإنه كان حريصاً على رواية البصريين .. وبخاصة روايات الأصمعى ، حتى لقد رجح الأزهرى(٤) إلتقاء ابن السكيت به ، استناداً إلى أنه كان يذكره كثيراً فى كتبه ، ويروى جل أقواله « وهو لا يروى عن الأصمعى فقط ، بل يروى كذلك عن أبى عبيدة وقد يعقب رواية أحدهما برواية الآخر ، كقوله فى بداية شرح بيت النابغة(٥) :

فما الفُراتُ إذا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ
تَرْمِى أَوَاذِيُّه العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ١٨ ؛ والشؤْبُوبِ : السحابة العظيمة المطر .
(٢) أنظر على سبيل المثال : شرح ديوان النابغة ص ٥ (أمست خلاء وأمسى أهلها) .
(٣) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٦ (وإنما أراد عهدى بها ولم تبلغ أن ينالها الرجال)
(٤) عبارة الأزهرى : « ولقى الأصمعى فيما أحسب ، فانه كثير الذكر له فى كتبه » . (تهذيب اللغة ١–٢٣ ، طبعة الدار القومية ، سنة ١٩٦٤ م) .
(٥) شرح ديوان النابغة ص ٢٢ (أوازيه : أمواجه) .

« هذه رواية أبي عبيدة . وقال : جاشت : فات كما تجيش القدر بالغليان .

ويروي الأصمعى : «إذا قَدَّت حوالِبُهُ» أى ما صب فيهمن وادٍ ونهر .

وقد يجمع بينهما اتفاقا فى رواية ، كقوله فى بداية شرح قول النابغة(١) :

هذَا الثَنَاء فإن تَسْمَعْ لقـائِلِه
فلم أُعَرِّضْ – أبيْتَ اللعن – بالصَّفَدَ

«وروى أبو عبيدة والأصمعى :

هَذَا الثَنَاءُ فإن تَسْمَعْ بِهِ حَسَناً
فَمَا عرضْتُ – أبيتُ اللعن – بالصَّفَدِ

ولكن أهم مزية فى روايته – هى الجمع بين الروايتين البصرية والكوفية معاً ، سواء اتفقتا أو اختلفتا ومهما كان بينهما من تناقض . على أن أفضلية رواية أحداهما كرواية عليا ، لا تخضع للعامل الإقليمى ، وإنما تخضع لعامل التوثيق ، ودقة المصدر ، وما اقتنع هو بصحته ، ولكنه فى جميع الأحوال – بعد أن يذكر الرواية التى ارتضاها يذكر الروايات الأخرى منسوبة إلى أصحابها ، وتظهر صورة هذا الجمع بالتعقيب ، وذلك أن يذكر رواية أحد البصريين ، ثم يعقبها برواية عالم آخر من الكوفيين .

كقوله عند شرح بيت النابغة(٢) :

فلتأتينْك قصَائِدٌ وليَدْفعَنْ
ألْفٌ إليك قَوَادِمَ الأكْوَارِ

« وروى أبو عبيدة : «فلتُعْلِنَنّ ندامةٌ وليركَبَنْ» أى يدفعن ألف .

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٢٤ . قال الأصمعى : « الصفد : الشكد ليس بابتداء وهو التعويض ، وما لم يكن تعويضاً فهو عطاء ، وقوله : أبيت اللعن ، أى : تأبى أن تأتى الشىء الذى تلعن عليه ، وهى تحية للملوك لا لغيرهم » .

وأنظر ص ٣ ، ٢٢ ، ٢٤ من نفس الديوان .

(٢) شرح ديوان النابغة ص ٩٩ ، وأنظر أيضاً ص ١٩ من نفس الديوان .

وروى ابن الأعرابي : « فلتشْعرَنّ ندامة وليدٌ فعَنْ » .. وكذلك رواها بعض الأعراب » .

هذا إن اختلفت الرواية نتيجة لاختلاف المصادر ، أما إذا اتفقت الروايتان البصرية والكوفية ، جمع بينهما . فبيت النابغة :

سَرَتْ عليه من الجَوزاءِ سَارِيةٌ
تُزْجِي الشَّمَالُ عليه جَامِدَ البَرَدِ

اتفق الأصمعي وابن الأعرابي على هذه الرواية ، فذكر ابن السكيت ذلك ونقل عنهما الشرح(١) .

وبيت النابغة :

أَعَلِمْتَ يومَ عُكَاظَ إذْ جَارَيْتَني
تَحْتَ العَجَاجِ مما خَطَطْتُ غُبَارِي

جعل ابن السكيت هذه روايته العليا ، ثم أعقب ذلك بقوله(٢) :

« وروى أبو عبيدة وابن الأعرابي : « أنسيتَ يَوْمَ عكاظ » ..

وقال أيضاً : « وروى أبو عبيدة : « إذْ لاقَيْتَني » .

وقصيدة النابغة البائية ، التي مطلعها :

أرسْماً جديداً مِنْ سُعادَ تَجَنَّبُ
عَفَتْ رَوْضَةُ الأَجدَادِ منها فَيثْقبُ

بعد أن شرح البيت الثالث فيها قال (٣) : وروى الطوسي بعد هذا البيت

فَبتُّ كأن العَائِداتِ فَرشْنَني
هَرَاساً به يُعْلَى فِرَاشِي ويُقْشَبُ

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٨ « السرى : سير الليل ، وتزجي : تسوق وتدفع على الثور جامد البرد » .

(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٩٨ .

(٣) شرح ديوان النابغة ، القصيدة السادسة ، ص ٧٣ (الهراس : شوك يؤذى) .

وكذلك بائية النابغة التى مطلعها :

إن يَكُ عامِرٌ قَدْ قال جَهْلاً
فإنَّ مِظَنَّةَ الجَهْلِ الشَّبَابُ

قال ابن السكيت فى شرحه البيت الثالث (١) : « وكان ابن الأعرابى يجعل هذا البيت أولها » .

وهو قول النابغة :

فكُنْ كأبيكَ أَوْ كأَبِي بَرَاءٍ
تُوافِقْكَ الحكومَةُ والصَّوابُ

ولكن ابن السكيت لم يأخذ برواية ابن الأعرابى .

وحرص ابن السكيت على ضمان صحة الرواية ، والثقة فى المصدر ، جعله يتوخى الدقة فى النقل ، فإذا كان هناك خلاف أو إنكار حول نسبة قصيدة أو بيت ، نص على ذلك .

فقصيدة النابغة الرائية التى مطلعها :

أَلاَ أَبْلِغَا ذُبْيانَ عنِّي رسالةً
فَقَدْ أصْبَحَتْ عن مَنْهَجِ الحقِّ جائِرَه

قال قبل روايتها « يروى هذه القصيدة ابن الأعرابى وينكرها الأصمعى (٢) فهو هنا — حدد مصدرها ، كما حدد إنكار الأصمعى لنسبتها إلى النابغة ، فأظهر وجهاً هاماً فى وجوه الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، وأصلا من أصولهم ، ذلك أن البصريين — وزعيمهم الأصمعى — يقيدون مصادرهم ، ولا يأخذون إلا عن مصدر يوافق أصولهم ، بينما الكوفيون يأخذون من مصادر

(١) شرح ديوان النابغة ، القصيدة رقم ٢٩ ، ص ١٥٥ (المظنة : الذى لا تطلب فيه الشيء إلا وجدته ؛ وأبو براء : عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب » .

(٢) شرح ديوان النابغة ص ٢٠٧ ؛ وانظر ص ٩٧ حيث يقول عن البيت الخامس والسادس من القصيدة رقم ١٢ : « هذان البيتان فى رواية ابن الأعرابى ، ولم يروهما الأصمعى ولا أبو عبيدة » . وانظر ص ١٠١ حيث يقول : « ولم يرو هذا البيت الأصمعى ولا أبو عبيدة » .

أوسع وأرحب ، ما دام أصحاب هذه المصادر ثقة مشهود لهم بالأمانة فى الرواية.

ومن الأمور الهامة التى توخاها ابن السكيت فى روايته — تحديد مطالع القصائد التى يرويها تحديداً دقيقاً . فالقصيدة (١٢) التى قالها النابغة فى زرعة بن عمرو بن خويلد ، قال ابن السكيت فى بدايتها(١) وأولها عند أبى عبيدة :

طال الثَّواءُ على رُسُوم الدار

وأولها عند أبى عمرو الشيبانى والأصمعى :

نُبِّئت زُرْعَةَ والسَّفاهةُ كاسْمِها

ويظهر من روايته أنه اعتمد رواية أبى عبيدة ..

فإذا ثبت له أن هناك بيتاً منحولا . أو شطراً .. أو لفظة .. أشار إلى ذلك وعلل .. فحين تصدى لرواية قصيدة النابغة السابعة — قال عن بعض الأبيات الأولى(٢) :

« وهى أبيات منحولة ينشدها قوم قبل :

لقد نَهَيْتُ بنى ذُبْيانَ مَنْ أُقُرٍ
وعَنْ تَرَبُّعِهِمْ فى كُلِّ أَصْفَارِ

وهو وإن كان يعرف هذه الحقيقة ، إلا أنه اضطر إلى ذكرها — وإن كان قد تجاهل شرحها وكأنه غير مقتنع بجدوى الشرح عليها ما دامت فى نظره غير موثقة .. إلى أن وصل إلى البيت السابق ..

كذلك حين روى بيت النابغة :

كما لَقِيَتْ ذات الصَّفَا من حَلِيفِها
وكانَتُ تَدِيهِ المالَ غِبًّا وظَاهِره

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٩٦ .

(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٨٠ .

وبعد أن شرح ألفاظه ومعناه ، قال عن لفظه « تَديه » : « هذه اللفظة منحولة ، لأنك تقول : وَدَيْتُ فلانا المقتول نفسه »(١) .

وترتبط رواية القصائد عنده ، برواية الشعر المضاد ، الذى يجيب به الشاعر الآخر خاصة إذا كان هذا الشعر مرتبطاً بالهجاء والتفاخر ..

فالنابغة الذبيانى هجا يزيد بن عمرو بن خويلد بقصيدة نونية(٢) ، فنرى ابن السكيت إبان تفسيره هذه القصيدة ، يروى ما أجابه به يزيد ، وما رد عليه به من شعر من نفس الوزن ونفس القافية ، وبهذا يكون ابن السكيت من أوائل من ألمحوا إلى شعر النقائض فى الجاهلية ، وأشار إليه فى شرحه .

وكذلك قصيدته الرائية التى ينصح فيها عمرو بن هند الملك والتى يقول فيها :

وَعَلَى الرُّمَيْثَةِ مِنْ سُكَيْنٍ حاضرٍ
وَعَلَى الدَّفِينَةِ مِنْ بَنِى سَيَّارِ

بعد أن شرحها ابن السكيت ، وحدد ما جاء فيها من أحداث قال(٣) :

« فأجابه عمرو بن هند يقول — وهو يكنى بمُضَرِّط الحجارة :

أَبْلِغْ زِيَاداً أن قومَكَ حارَبُوا
فانهضْ إلينا إنْ قَدَرتَ بِجَارِ
نَجْزِيك إنْذَاراً بما أنْذَرْتَنَا
وذَكَرْتَ عطْفَ الودّ والأصْهَارِ

وابن السكيت قلّما يلتفت إلى نقد الروايات ، أو ترجيح رواية على أخرى .. من هذا القليل ما جاء من نقد حول رواية بيت عروة — لأنها لم ترد عن الأساتذة العلماء الموثوق بروايتهم .. وهو :

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٢٠٨ .

(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ١٥٠ .

(٣) شرح ديوان النابغة ص ١٢٩ (وسكين من بنى فزارة رهط ابن هبيرة ، وسيار ابن عمرو بن جابر من بنى مازن . والرميثة : ماء لبنى سيار بن عمرو بن بنى مازن من فزارة) .

وكيفَ تُرَجيها وقَدْ حِيلَ دونَهَا
وقَدْ جَاوَرَتْ حَيًّا بِتَيْمَنَ مُنْكَرَا

قال ابن السكيت(١) : « وتيمن : أرض قبل جُرُش ، أو فى شق اليمن ، والناس ينشدونها : « بتيماء منكرا » وهذا خطأ ، وتيماء التى ينشدها الناس ، أرض قبل وادى القرى ، بها نخل كثير .

وبيت النابغة :

قَرْما قُضَاعَةَ حَلاَّ حَوْلَ حُجْرَتِهِ
مَدّا عَلَيهِ بِسلاَّفٍ وأَنْفَارِ

رواه بعضهم (فَدْماً فزارة)يعنى حصن بن حُذَيْفَةَ بن بَدرْ،ومنظور ابن زبان .

قال ابن السكيت (٢) : « وهذه الرواية باطل ، وإنما قال « قَرْماقضاعة» وعنى رَبْعياً وحَجَّاراً اللذين ذكرهما (فى البيت السابق) .

على أن هذا النقد ــ النادر ــ قد ينقلب من الوجه السلبى إلى الوجه الإيجابى ، فنجد تجويداً لرواية معينة . من مثل قوله عند شرح بيت النابغة(٣) :

أَتَارِكَةٌ تَدَلُّلَهَا قَطَامِ
وَضِنّاً بالتحيةِ والكلامِ

« ... ويروى (والسلام) ، والكلام أجود » .

---

(١) شرح ديوان عروة ص ٥٤ (يقول جاورت حياً متنائياً فلا أقدر على إتيانها) .
(٢) شرح ديوان النابغة ص ٨٣ (السلاف : المتقدمون) .
(٣) شرح ديوان النابغة ص ١٥٨ .

٢ – شرح المعانى

رأينا ابن السكيت مهتماً بتحديد الرواية وتوثيقها مما جاء عن أساتذته ، وما كان اهتمامه هذا إلا من أجل الوصول إلى حقيقة المعنى .. فإذا هو حدد الرواية ووثقها ، انتقل بعد ذلك إلى شرح المعنى ، وتوضيح مقصود الشاعر ، ومضمون كلامه ، على أن هذا الأمر يمر بمجموعة من المراحل المتدرجة ، أولها تفسير الألفاظ الغريبة . فهو قلما يترك لفظة دون أن يفسرها ، حتى أنه ليقتصر فى أحيان كثيرة على شرح الألفاظ دون أن يتطرق إلى أى من الجوانب الأخرى ، كما كان يستغنى بشرح الألفاظ الواردة عن شرح المعنى الكلى للبيت يقول فى تفسير بيت النابغة :

فَسَلِّ الهوى واستَحْمِلِ الهَمَّ عِرمِساً
خَرُوساً بحاجاتى تَخُبُّ وتَنْعَبُ

« العِرْمِسُ » : الشديدة ، والخروُس : التى لا ترغو ، وهو أتعب لها ، والنعب : تحريكها رأسها ، والخبُّ : ضَرْبٌ من السَّيْر فوق التقريب ، والمشية السريعة » .

وأهم ما يميز ابن السكيت فى شرح معانى الألفاظ ، هو تناوله لما يمكن أن نطلق عليه الترابط المعنوى والموضوعى ، ذلك أنه حين يتناول شرح الألفاظ ، يذكر كل ما يتصل بها إما من حيث الترادف المعنوى ، وإما من حيث الصلة الموضوعية . نستطيع أن نرى صورة من صور الترادف المعنوى عنده – فى تفسيره لبيت النابغة :

فإن كُنْتَ لا ذَا الضِّغْنِ عَنِّى مُنَكَّلاً
ولا حَلِفى على البراءة نافِعُ

قال فى تفسيره كلمة « الضِّغْنِ » : « الضِّغْن ، والغِمرْ ، والحِقدْ ،

والضَّبُّ ، والحَسيفَةُ والحسيكَةُ ،والدِّمْنَة ، والوَغرة ، والوَحَرَةُ ، والوَعَرة .. واحد (١) » .

ويقول فى شرح بيت قيس بن الخطيم :

وقد جَرَبَتْ منّى لَدَى كُلِّ مأقط
دُحَيٌّ إذا ما الحربُ أَلْقَتْ رداءَهَا

« المأزق والمأقط : المضيق فى الحرب(٢) » .

هذا من حيث ترادف الأسماء ، أما ترادف الأفعال ، فيظهر إلتفاته إليه فى مثل قوله أثناء شرح بيت النابغة :

والخَيْلُ تَنْزعُ غَرْباً فى أعِنَّتِهَا
كالطير تَنْجُو من الشُّؤبُوب ذى البَرَد

« .. يقال : مر يَمْزَع ويَهْزَع ويَقْزَع ويَمْصَعُ : إذا مر مرّاً سريعاً »(٣)

أما الترابط الموضوعى ، فيظهر فى تناوله وتحديده للكثير من الألفاظ التى تلتقى حول موضوع واحد ، كأن يكون هذا الموضوع متصلا بالنبات والشجر ، كالذى جاء فى شرحه على بيت عروة :

أطَعْتُ الآمِرينَ بِصُرْم سَلْمَى
فَطَارُوا فى بلاد اليَسْتَعُور

قال ابن السكيت (٤) : « اليستعور : موضع قبل حَرة المدينة فيه عضاة من سَمُر وطلح . والطلح : شجر أطول شوكاً من السمر ، والعضاة : كل شجر له شوك من شجر البَرّ مما يشرب من ماء السماء ،

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٧٤ .
(٢) شرح ديوان قيس بن الحطيم ص ١١ ؛ وانظر شرح ديوان عروة ص ٥٦ (الأصوات)
(٣) شرح ديوان النابغة ص ١٨ (والشؤبوب : السحابة العظيمة المطر) .
(٤) شرح ديوان عروة ص ٤٦ ، وانظر شرح ديوان قيس بن الحطيم ص ٤٠ . (الخرصان) وأنظر شرح ديوان النابغة ص ٨٩ (حيث يذكر أملاح العرب) .

والضَّال : السَّدر البرّي ذو الشوك الذى لا يشرب الماء إلا فى السماء ، وماكان على شط الأنهار مما يشرب الماء ، فهو العُبْرِىّ والعُمْرِىّ » .

وقد يكون الموضوع متصلا بحَرّات العرب – كالذى جاء فى بيت النابغة

يَوْمٌ بِرِبْعِىٍّ كَأَنَّ زُهَاءَهُ
إذَا هَبَطَ الصَّحْرَاءَ حَرَّةُ راجِلِ

قال(١) : « يقال أن حَرّة راجل معروفة لبنى سليم ، ويقال : حَرَّةٌ رجلاء للغليظة الخشنة ، والحرة حجارة سود ، وحرة النار لبنى سُلَيم ، وحرة واقم بالمدينة ، وحرة ليلى فى بلاد بنى قيس ، وحرة راجل فى بلادهم أيضاً » .

وفى شرحه لغريب الألفاظ ، يذكر ابن السكيت جميع المعانى الواردة والمعروفة حول اللفظة التى يفسرها وليس معناها فقط كما ورد فى البيت الذى بصدد شرحه .

فكلمة « حوراء » التى ذكرها قيس بن الخطيم فى بيته :

حَوْرَاءُ جَيْدَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا
كَأَنَّهَا خُوطُ بَانَةٍ قَصِفُ

لها – كما يقول – أكثر من معنى ، جمعهم ابن السكيت فقال(٢) : « الحَوَرُ : سَعَةُ العين ، وعِظَم المقلة ، وكثرة البياض ، وقالوا : شدة سواد الحدقة مع شدة البياض ، وقال أبو عمرو : الحَوَر : سواد العين كلها وليس ذلك فى الإنس » .

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٧٢ (ربعى : جيش يبكر فى الغزو ، وزهاؤه : مدر ومحرزته) .

(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٥٨ (جيداء : طويلة العنق ، خوط : قضيب ، قصف : خوار ناعم ينثنى) .

وكذلك « المظلومة » – الواردة فى بيت النابغة :

إلا أَوَارِىُّ لأْيًا ما أُبَيِّنُهَا
والنُّؤْىُ كالحَوْضِ بالمظلُومَةِ الجَلَدِ

« صفة للأرض – ذكر ابن السكيت لها أكثر من معنى قال(١) :

« المظلومة : الأرض التى لم يكن بها أثر فاحتاج أهلها أن يحفروا فيها حوضاً لمطر أصابهم، أو سيل دَرَأ عليهم فحفروا فيها .. والمظلومة أيضاً : الأرض التى قوى عنها الغيث أعواماً لا يصيبها ثم مُطِرَتْ » .

وهذه العناية الكبيرة بشرح الألفاظ ، وتحديد مدلولاتها ، وإبراز ما بينها من ترادف معنوى أو ترابط موضوعى ، تكون عادة تمهيداً لذكر معنى البيت . على أن هذا المعنى غالباً ما يكون مختصراً مركزاً .

من مثل قوله فى شرح معنى بيت قيس بن الخطيم :

تَغْتَرِقُ الطَّرْفَ وهى لاَهِيَةٌ
كأنَمَّا شَفَّ وجْهَهَا نُزُفُ

« يقول : من نظر إليها استغرقت طَرْفَهُ وبصره ، وشغلته عن النظر إلى غيرها »(٢) .

وقوله فى شرح معنى بيت النابغة :

خطاطيفُ حُجْنٌ من حِبَالٍ مَتِينةٍ
نمدُّ بها أَيدٍ إليكَ نَوَازِعُ

« يقول : أنا فى قَبْضَتِك ليس أستطيعُ الهرب »(٣) .

وفى بعض الأحيان لا يذكر ابن السكيت معنى البيت ، بل يذكر مراد الشاعر .. كما جاء فى شرحه لبيت قيس بن الخطيم :

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٣ .

(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٥٥ (لاهية : غير محتفلة ، نزف : خروج الدم) .

(٣) شرح ديوان النابغة ص ٢٥ (الخطاطيف التى يخرج بها الدلاء من البئر ، حجن : معوجة نوازع : جواذب) .

ضَرَبْتُ بِذِى الزِّرَّيْن رِبْقَةَ مالك
فأبْتُ بِنَفْسٍ قد أصَبْتُ شِفَاءَها

قال(١) : « يريد موضع الرِّبقة من عنقه » .

فإذا كان البيت يرتبط معناه بمثل من أمثال العرب ، حدده ابن السكيت وقد يذكر مناسبته أولا يذكر حسب مصادره .. فبيت عروة :

فإن فازَ سَهْمٌ للمنية لَمْ أكُنْ
جَزُوعاً وهَلْ عَنَ ذَاكَ مِنْ مُتَأخَّرِ

قال ابن السكيت فى شرح معناه(٢) : « إن هذا مثل تمثل به ، يقال للذى يخرج سهمه فى القداح أولا قد فاز سهمه » .

وابن السكيت فى الغالب الأعم يذكر معانيه استناداً إلى شروح أساتذته ، وتظهر صورة هؤلاء الأساتذة واضحة فى شرحه ، خاصة حين يجمع اقوالهم معاً حول شرح بيت واحد ..

مثال ذلك بيت النابغة :

وقَدْ خِفْتُ حتَى ما تَزَيدُ مخافتى
على وعَلٍ فى ذِى المَطَارةِ عَاقِلِ

قال ابن السكيت فى شرح معناه(٣) : « قال الأصمعى : يقول : خِفْتُ حتى ما تزيد مخافتى على مخافة الوَعْل فَقَلَب ، وقال أبو عبيدة : إنما أراد : حتى ما تزيد مُخالفة الوَعلِ على مخافتى ، فقلب هذا أجود » .

---

(١) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٦ (وذو الزرين : سيف من سيوف كان يعمل فيها شبه الثؤلول ، والثؤلول : حبة تظهر فى الجلد كالحمصة فما دونها ، ويروى : بذى الخرصين ، قال : الفيروزبادى هو سيف قيس بن الخطيم » .

(٢) شرح ديوان عروة ص ٦٧ ، وانظر ص ٤٥ من نفس الديوان (آثر ذى أثير) . وانظر ديوان النابغة ص ٨٦ .

(٣) شرح ديوان النابغة ص ٦٨ (ذو المطارة : جبل ، وعاقل : متحصن فيه ، والمعاقل : الحصون) .

وأنظر صفحة ٦ من نفس الديوان (كأن رحلى ..) حيث جمع بين شروح أبي عمرو وأبي عبيدة وغيرهما .

٣ — علوم اللغة

كان ابن السكيت عالماً لغوياً ، له من طول الباع ، ما جعله إماماً فى عصره وبعد عصره . هذه المقدرة اللغوية الكبيرة التى اختص بها ، ووجدنا نتاجها فى الكثير من مصنفات اللغة .. انعكست آثارها على شروح الشعر . لقد كان تناوله لشرح معانى الألفاظ الغريبة وتحديد مدلولاتها ، فرصة للولوج إلى علوم اللغة بعناصرها المتعددة ، نظراً لما بين تحديد معانى الألفاظ وتحليلها من ترابط لغوى .

فالتحديد المعنوى يتبعه التحليل اللغوى ، وغير ذلك من العمليات التوضيحية الأخرى . ولا شك أن ذلك كله كان نتيجة لأن الرجل — عاش عصر اللغة ، عصر تقنينها وتقعيدها ، وورث عن أساتذته كل تراثهم التفسيرى الذى وضعوه على الشعر .

تظهر مقدرة ابن السكيت اللغوية — أول ما تظهر — فى التحليلات الإشتقاقية ، تلك التى تدل على خبرة عميقة واطلاع واسع ، حتى لقد صارت المادة اللغوية بين أنامله وعقله ، مرنة طَيِّعة يستخرج منها كل كنوزها . يقول فى تحليل لفظة « النَّجُد » الواردة فى بيت النابغة :

فَهَابَ ضُمْرانُ منه حَيْثُ يُوزِعُهُ
طَعْنُ المعارك ، عِنْدَ المُحْجَرِ النَّجُدِ

« النَّجُدُ » : الشجاع ، يقال : رجل نَجْدٌ ونَجُدٌ ونَجِدٌ ونَجِيدٌ إذا كان شجاعاً ، فمن قال : نجيد ، قال : ما كان نجيداً ، ولقد نَجُدَ يَنْجُدُ نَجَداً ونَجْدَةً .

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٩ (ضمران : اسم كلب ، وقوله : حيث يوزعه أى فى الحال الذى يوزعه صاحبه ، يقول له : خذ الصفاق ، وخذ البطن فيأخذ) .

وانظر كذلك تحليله لكلمة « صرورة » ص ٣٣ من نفس الديوان ، وتحليله لكلمة (أصيلالا) ص ٣ .

ومن قال : نَجِدٌ ، قال : ماكان نَجْداً ، ولقد نَجِدَ يَنْجَدُ ويَنْجُدُ نَجْدَةً ونُجْدَةً .ومن التعب والإعياء : نَجِدَ يُنْجَدُ ويَنْجُدُ نَجْدَةً ، ويقال : نَجِدَ الرجُلُ يُنجَدُ نَجَداً إذا عَرِق ، والمنجود : المكرُوبُ .. »

ويقول بين ثنايا شرحه لبيت النابغة :

أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهِ النَّسْجِ كَاذِبٍ
وَلَمْ يَأْتِكَ الحَقُّ الذى هُوَ نَاصِعُ

« .. وقوله (لهله النسج) أراد : نسج رجل كاذب ، يقال ثوبٌ لهلَهُ النسج ، وهلهلٌ ، وهو الثوب الرقيق ، وكذلك هلهال ، ويقال : للفقار من الأرض : لهَالِه ، والواحدة لَهْلَهَة ، قال أبو عبيدة : « وبهذا سمى المهلهل الشاعر ، لأنه أول من سخّف الشعر »(١) .

ولا يفوت ابن السكيت — فى هذا المضمار — تحليل أسماء الشعراء والأعلام اشتقاقياً من مثل قوله فى تحليل اسم « النابغة » قال : « والنابغة مشتق من نبغ ، وهو إذا كان بَعْدَ أن لم يكن »(٢) .

واهتمامات ابن السكيت اللغوية تتعدى هذا التحليل الاشتقاقى لتتصل مباشرة بعلم الصرف ، فنراه يحرص على تحديد أوزان الأسماء والأفعال ، مدعماً ذلك بالأدلة والشواهد ..

فلفظة (اطِّراد) التى وردت فى بيت قيس بن الخطيم :

أتَعْرِفُ رسماً كاطِّرادِ المذاهب
لِعَمْرَةَ وحشاً غير مَوْقِفِ راكبِ

وزنها « افتعال » من قولك «اطّراد» إذا تتابع ، كما قال الراعى :

سَيَكْفِيكَ الإلهُ ومُسْنَمَاتٌ
كجَنْدَلِ لُبْنَ تطَّرِدُ الصِّلالا

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٤٩ .

(٢) شرح ديوان النابغة ص ١ .

أى : تتبع مواقع المطر »(١) .

ولفظة « متماين » التى جاءت فى بيت الهذلى(٢) :

رُوَيْدَ عَلِيّ جُدَّ ما ثَدْىِ أُمِّهِمْ
إلينا ولكنْ وُدُّهُمْ مُتَمَايِنُ

وزنها « متفاعل » من المَيْنْ وهو الكذب ، يقال : كذب ومان » .

فإذا كان هناك آراء وتوضيحات اخرى تحتاجها اللغة ، ذكرها ابن السكيت محللا مناقشاً .. فاللفظ « أصيلالا » التى ذكرها النابغة فى بيته :

وقفت فيها أُصَيْلالاً أُسائِلُها
عَيَّتْ جَوَاباً وما الرَّبع من أَحَدِ

ــ كما يقول ــ(٣) » تصغير « أُصْلاَنَ » . وأصلان : جمع أُصْلٍ ، والواحد : أصيلٌ ، وقد قيل : آصُلٌ ، وآصالٌ فى أدنى العدد ، وأُصل للكثير ، ويقال : آصَلْنا فنحن مُؤْصِلون ، أى جاءنا العشىُّ .. » .

واللفظ « مبيطر » فى قول النابغة :

شَكَّ الفَرِيصَةَ بالمِدْرَى فأنْفَذَها
شَكَّ المُبَيْطِر إذْ يَشْفِى من العَضَدِ

« هو البيطار ، ولا يوجد نظير مُبَيْطر إلا هذه الأحرف : مُسَيطِرٌ ومُهَيمِنٌ ومُبَيقِرٌ .. وهذه أسماء لها أفعال تتصرّف »(٤) .

وإذا اختلف التصريف نتيجة لاختلاف اللغات ، حدده ووضحه ..

(١) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٣ .
(٢) شرح ديوان عروة ص ٤٣ .
(٣) شرح ديوان النابغة ، ص ٣ .
(٤) شرح ديوان النابغة ص ١٠ (شك : نظم ، الفريصة : مرجع الكتف إلى الخاصرة ، يشفى : يبرىء ، والعضد : داء يأخذ الإبل فى أعضادها من ثقل حمل) .

فـألٍّ — في بيت النابغة :

هُمُ الملوكُ وأبناء المُلُوك لهم
فَضْلٌ على الناس في الآلاء والنِّعَمِ

« واحد الآلاء ، على تقدير غَدًى وسَقَى . وقال بعض أهل العلم : بل واحد الآلاء : إلىً ، على تقدير غِنىً ، وهو الفضل .. »(١) .

وهذه التحليلات الصرفية ، لا تقتصر على الجانب التطبيقي فقط ، بل أنه يضمن شروحه العديد من قضايا الصرف النظرية ..

فالفعل « أُكَفْكِفُ » الذي ورد في بيت النابغة :

أكَفْكِفُ عَبْرَةً غَلَبَتْ عَزَائي
إذَا نَهْنَهْتُها عَادَتْ ذُبَاحَا

هذا الفعل « مما فرق بين تضعيفه بمثل فائه ،ولم يمكنهم أن يُفَرِّقُوا بمثل العَيْن ،ولا بمثل اللام ،لأن عَيْنَهُ ولامَهُ حرفٌ واحدٌ ففرقوا بمثل فائه »(٢)

وكذلك الفعل « كَفْكَفْتُ » الذي جاء ذكره في رواية أبي عبيدة والأصمعي لبيت النابغة :

فَكَفْكَفت مِنِّي عبرَة فَرَدَدْتُهَا
عَلَى النَحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌ ودامع

قال ابن السكيت عنه(٣) : « وإنما أراد (كَفَّفْتُ) فاستثقلوا ثلاثة أحرف من جنس واحد ، ففصلوا بينها بحرف من الكلمة ليس من جنس المكرر ، ومثله : زلْزَلْتُ من زَلَّلْتُ ، وخَفْخَفْتُ من خَفَّفْتُ » .

فإذا ما تركنا تحليلاته الاشتقاقية وقضاياه ومسائله الصرفية ، نجد أن

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ١٢٧ .
(٢) شرح ديوان النابغة ص ٢٥٠ .
(٣) شرح ديوان النابغة ص ٤٤ .

اهتماماته اللغوية تمتد طويلا لتصل إلى الأغوار ، إلى أصل اللغات وبيئاتها ومنطوقها ، وتغير مدلولاتها .. « فالربيع » فى قول قيس بن الحطيم :

ونحنُ الفوارسُ يَوْمَ الرّبيـــع ، قد علموا كيف فُرْسَانُهَا

معناه – كما يقول ابن السكيت(١) – الجدول الصغير . وأهل المدينة يقولون : ربيع ، وأهل اليمامة يقولون جدول » .

و « الصَّرُورَة » فى بيت النابغة(٢) :

لَوْ أنها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ عَبَدَ الإلهَ ، صَرُورةٍ مُتَعَبِّدِ

تغير مدلولها بتغير العصور والأزمان ، فالصرورة فى الجاهلية : الذى لم يتزوج قط ، والصرورة فى الإسلام : الذى لم يَحُجَّ قط » .

ونرى ابن السكيت يلتفت إلى تحديد درجة الجودة فى اللغات التى يستخدمها الشعراء فكلمة « فِدًى » الواردة فى بيت النابغة(٣) :

فِدًى لابن بَدْرٍ ناقتى ونُسُوعُها
وقَلَّتْ له ، لا بَلْ فِداءٌ لهُ أهْلى

لغة من « لغات منقولات جيدات ، يقال : فِدًى وفَدًى وفِداءٌ وفَداءٌ » .

وهو لا يتجاهل اللغات ذات الطابع الخاص ، التى تضيف « الألف والنون » كالتى وردت فى بيت قيس بن الحطيم :

أَجَدَّ بعَمْرَةَ غُنْيانُهَا فتَهْجُرَ ، أَمْ شأننا شَانُهَا

قال ابن السكيت(٤) : « يقول غُنْيانها : استغناوها . » وهو مثل قول العرب : أريد رُفْعَانه إلى السلطان ، وكتب الأمير بِرُفْعان خصمه ،

---

(١) شرح ديوان قيس بن الحطيم ، ص ٢٦ .
(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٣٣ .
(٣) شرح ديوان النابغة ، ص ٢٠١ .
(٤) شرح ديوان قيس بن الحطيم ، ص ٢٤ .

وعلى الله التُّكَلان، وجاء رجْعَان كتابك، قال الأصمعي : وسمعت أعرابياً يقول : الرفعان أصلحك الله .(١) يريد الرفع .

وابن السكيت — فى شروحه اللغوية — لا يغفل الظواهر التى تطرأ على اللغة ، ويضطر إليها الشاعر اضطراراً ، مستخدماً الإمكانات التى تقدمها له لغته ومدى مرونتها فى الوفاء بالتزاماته الفنية . من ذلك القلب والإبدال . ففى شرح بيت قيس بن الحطيم :

فليت سُوَيْداً رَاءَ مَنْ جُرَّ منكُمُ
ومَنْ فَرَّ إذْ يحدوَهُم كالجلائبِ

يقول : « راء : أراد رأى فقلب »(٢) .

ويقول فى شرح بيت النابغة :

أو حُرَّة كمَهاة الرَّمل قد كُبِلَت
فَوْقَ المَعَاصِمِ منها والعَرَاقِيبِ

« كُبِّلَتْ وكُبِلَتْ واحد ، أى قُيِّدت ، والمكَبَّل : والمكبل واحد ، وهو من المقلوب »(٣) .

أما الإبدال — فقد تحدث عنه ابن السكيت حين تصدى لشرح قول النابغة :

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلالاً أُسَائِلُها
عَيَّتْ جَوَاباً وما بالرَّبع من أَحَدِ

قال وهو بصدد حديثه عن « أصيلان وأصيلال »(٤) : « النون تعاقب

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٣ .
(٢) شرح ديوان قيس بن الحطيم ، ص ٤٧ .
(الجلائب : الجماعات من الخيل والإبل والغنم والناس والواحدة جلوبة) .
(٣) شرح ديوان النابغة ، ص ٩٣ .
(٤) شرج ديوان النابغة ، ص ٣ .

اللام .. أى تبدل منها ، كما قالوا : الإبل والإبن ، والتهتان والتهتال ، ويقال: لابلٌ ولابنٌ . وحكى الأثرم عن أبى عبيدة، ثور رِفَلٌ ورِفَنٌ ، وهو السابغ الذَّنَب، وسِجِّيل وسِجِّين . وجبريل وجبرين ، وإسرافيل وإسرافين ، وكذلك حروف الأعجمية كلها » .

كما وجدنا فى شروحه بعض الإشارات التى تتصل بالأضداد ، من ذلك ما جاء فى شرح بيت النابغة :

كَأَنَّ حُدُوجَهُمْ فى الآل ظُهْراً
إذَا أَفْرَعْنَ مِنْ نَشْزٍ سَفِينٌ

قال(١): « .. أَفْرَعْنَ : هَبَطْن وصَعِدْن، وأفرعن من الاضداد » .

وابن السكيت — كما نعلم — مولى فارسى ، منحته فارسيته هذه مرونة كبرى فى أن ينتقل بين ثنايا اللغات الأخرى ، وكان أكثر تفهماً لخباياها وخصائصها ، وقد أمكنه عن طريق هذه الخبرة أن يجول بفكره بين العربية والفارسية ، ليقارن من ناحية ، وليبين مدى الاتفاق أو الخلاف بين لغته الأصلية ولغته التى اكتسبها بالمرن والمران والثقافة . يقول فى تفسير لفظة « جالب » الواردة من بيت النابغة :

عَلَى عَارِفَاتٍ للطِّعَانِ عَوَابِسٍ
بِهِنَّ كُلُومٌ بَيْنَ دامٍ وَجَالِبِ

« وجَالِب : الذى عليه جِلْدَة رقيقة تركب الجرح عند البُرْء ، ويقال : جَلَبَ الجرح يَجْلِبُ جُلُوباً ، وأجلَبَ يُجْلِب إجْلاباً ، وهو الذى يسمى بالفارسية « الخُشْكُرَاش »(٢) .

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٧٣ ؛ وانظر شرح ديوان عروة ، ص ٦٣ .

(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٥٩ .

النحو :

واهتمامات الرجل اللغوية – كما رأيناها – لا تنسيه أو تبعده عن تحديد المسائل النحوية الواردة فى الشعر ، وإن يكن قد ظهر لنا أن النحو لم يكن هدفه ، ولم يكن يوافق ميوله .. لذلك نراه لا يهتم كثيراً بالخلافات المذهبية أو غير المذهبية ، ولعله قصد إلى ذلك قصداً لتوخيه النواحى التعليمية التحليلية لذلك اقتصر شرحه على النواحى التطبيقية الإعرابية ، وهو فى هذه الناحية ، يعتمد أيضاً على أساتذته ويستند إلى أقوالهم .

من ذلك قوله فى شرح بيت عروة :

أَحَاديثُ تَبْقَى والفَتَى غيرُ خَالِدٍ
إذَا هُوَ أَمسَى هَامَةً فوقَ صَيِّرِ

« .. نصب (أحاديث) على قوله : (مشتر أحاديث) و (هامة) يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تعلو كل نَشْز »(١) .

ويقول فى شرح بيت النابغة :

يا دَارَميَّة بالعليــاء فالسَّنَدِ
أَقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأَبدِ

« .. قال الشيخ أبو عبد الله الأزدى : « يرُوى (يا دارُميّةٌ) فيرفع « داراً » بالنداء المفرد ، ويرفع « مية » بالإخبار عنها . ويروى « يا دارُميّةُ » يريد : « يا دارى » فيجتزىء عن الياء بكسرة الراء ، وهذا الأخير فى القرآن العظيم وفى أشعار العرب ، قال الله تعالى (يومَ يدْعُو الدّاعِ إلى شَىءٍ نُكُر فاجْتُزِىء »(٢) .

وقد رأينا لابن السكيت تخيلات نحوية تتسم بطابع الطرافة والدقة معاً ،

---

(١) شرح ديوان عروة ، ص ٦٤ (وهذا شىء كانت تقوله الجاهلية) .
(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٢ .

منها ما يتصل بصور اسم الإشارة « هذه » من مثل قوله فى شرح بيت النابغة(١)

هَا إِنَّ عِذْرَةٌ إِلاَّ تكُنْ نَفَعَتْ

فإنَّ صَاحِبهَا قدْ تَاهَ فى البلَدِ

« ويروى (هَا إِنَّ ذِي عِذْرَةٌ) يريد هذه،وهذه مثل ذى ، وإنما تُحْذَفُ الهاءُ فيبقى (ذى) فى الرفع والنصب والخفض على حال واحدة، ومعنى (تا) هذه أيضاً وتصغيرها (تَيَّا) .. قال الأعشى :

ألاَ قُل لِتَيَّا قبل مِرَّتِها اسْلَمِى

وفى شرحه لبيت عروة :

فَيا للنَّاسِ كيفَ غَلَبْتُ نَفْسِي

علَى شَيْءٍ ويكْرَهُهُ ضَمِيرِي

تناول موضوع النداء ـ ففرق بين فتح اللام وكسرها ، وأثر ذلك على المعنى قال : « إذا كانت استغاثة فَتَح اللاَم ، وإذا كانت تعجباً كَسَرها » ويستشهد على ذلك ببعض الشواهد التى رواها العلماء السابقون ، منها قول الأصمعى : حدثنى عيسى بن عمر عن الحسن البصرى قال : لمّا طَعَنَ العلْج أو العبد عُمَرَ ، قال عمر : يالله ويا للمسلمين ، قال وسمعت أَبَا حَيَّةَ النميرى ينشد أبا عمرو بن العلاء :

يا لَمَعَدٍّ ويا للنَّاس كُلِّهِم

ويا لَغَائِبِهِمْ ويَا لَمَنْ شَهِدَا

وفى التعجب :

وللجَاهِل العَرِّيض يُهْدِى لِيَ الخَنَا

وذَلِكَ مما يَبْتَرِينى ويَعْرَقُ (٢)

---

(١) شرح ديوان النابغة ، ص ٢٦ .

(٢) شرح ديوان عروة ، ص ٤٩

(يقول : غلبت النفس على شيء كنت أضمر ألا أفعله ثم فعلته) .

على كل حال ـ نستطيع أن نقول للحق وللعلم .. إن النحو لم يكن مما يوافق هواه ، لذلك كثيراً ما كان يمر عليه أثناء الشرح مروراً خفيفاً ، فلم يحاول أن يتصدى لأى من مشاكل النحو أو قضاياه التى طرحها النحويون الكبار فى عصره .

علوم البلاغة :

يستطيع الباحث حين ينظر فى شروح ابن السكيت أن يسجل ظاهرة هامة وهى : فقر هذه الشروح فى المسائل البلاغية ، سواء ما يتصل منها بعلم المعانى أو البيان أو البديع . ذلك لأنه لم تكن تستهويه عناصر هذه العلوم ، لأنها لم تكن متداولة بكثرة فى وقته وعصره(١) . فلم يصل إلينا منها شىء يذكر . بل إننا نستطيع أن نجزم أن ابن السكيت لم يكن يعير مثل هذه الموضوعات البلاغية كبير اهتمام أو التفات لأن أساتذته السابقين لم تكن لهم إشارات تتصل بها إلا قليلا .. لذلك جاءت شروحه هو الآخر تكاد تكون خالية من هذه العناصر الجمالية ، فلم نجد له إلا إشارات قليلة مقتضبة عن التشبيه . من مثل قوله فى شرح بيت قيس بن الخطيم :

كَأَن لَبّاتِها تَبَدَّدَهـا
هَزْلَى جَرادٍ أَجْوَازُهُ جُلُفُ

« تبدّدها : أى كان عن يمينها وعن شمالها ، و(هزلى جراد) شىء يصاغ على هيئة أوساط الجراد ، فشبه الحلى على اللبات بأجلاف الجراد »(٢) .

وقوله فى شرح بيت عروة :

تَكَشَّفَ عائذٍ بِلَقاءَ تَنْفِي
ذُكُورَ الخَيْلِ عن وَلَدٍ شَغُورِ

---

(١) أقدم ما وصل إلينا من مباحث تتصل بعلوم البلاغة «كتاب البيان والتبيين للجاحظ » وهى لم تكن أكثر من إشارات عامة فى الفصاحة والبلاغة وطائفة من الاصطلاحات البلاغية (أنظر مقدمة محقق كتاب الإيضاح فى علوم البلاغة ، ص ٩ ط. السنة المحمدية) .

(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٦٠ .

« تكشفها : أى أنها تَشْغَرُ برجليها ، وترفع يديها لِتُنَحِّيَ ذكور الخيل عن ولدها ، فيبدو بلق بطنها ، فشبه البرق فى سواد الغيم ببياض هذه الفرس فى سواد بطنها »(١) .

وكون العناصر البلاغية لم تظهر فى شروح الرجل ، فليس هذا — بالطبع — قصوراً منه ، أو تقصيراً ، إنما هو الحد الذى وقف عنده علماء عصره فى مجالات شرح الشعر الجاهلى ، فالرجل لم يكن بمستطع أن يخرج عن نطاق هذه الدائرة التى يعيش بداخلها ، أو أن يخترق حاجز الزمن ، لذلك لم يستطع أن يقدم جديداً يميزه فى الشرح على علماء عصره ، لأنه كما قلت سابقاً — كان ملتزماً بدقة ، فلم يسجل إلا ما ورثه عن أساتذته السابقين ، فكما لم تظهر فى شروحهم عناصر هذه العلوم الجمالية ، لم تظهر أيضاً فى شروحه.

الظواهر الموسيقية :

وعدم ظهور ما يتصل بالقيم التعبيرية والتصويرية فى شرح ابن السكيت ينطبق كذلك على ما يتصل بالظواهر الموسيقية . إننا لم نجد فى شروحه من الإشارات التى تتصل بهذه الظواهر شيئاً يذكر ، إلا القليل من اللقطات التى تتناول عيوب الشعر ، جاءت فى شرح ديوان النابغة وورثها الرجل عن أساتذته .. من ذلك قوله فى شرح بيت النابغة :

زَعَمَ البَوَارِحُ أنَّ رِحْلَتَنَا غَدٌ
وَبِذَاكَ تَنْعَابُ الغُرَابِ الأسْوَدِ

« .. قال الأثرم : رواها أبو عبيدة على الإقواء . ورواها (غداً) أيضاً »(٢) .

---

(١) شرح ديوان عروة ، ص ٤٢ .
(العائذ : الحديثة النتاج ، وشغور : هى التى تشغر برجليها ، وتنفى : تدفع وتنحى) .
وانظر : شرح ديوان النابغة ، ص ٤٣ .
(٢) شرح ديوان النابغة ص ٢٩ (وأنظر ما جاء عن النابغة حول هذا الموضوع فى الصفحة ذاتها).

ويقول فى شرح بيت آخر :

تبدُو كواكبُهُ والشمسُ طَالِعَةٌ
نُوراً بنُورٍ وإظْلاَماً بإظْـلاَمِ

« ويروى : « لا النورُ نورٌ ولا الإظلام إظلام » ، على الإقواء »(١) .

كما نجد له أحياناً إلتفاتا — إلى الضرورات الشعرية التى كان يلجأ إليها الشعراء تخلصاً من مأزق الوزن ، أو حركة الروى ..

من ذلك قوله فى شرح بيت النابغة :

مِنْ وَحْشِ وجْرَةَ مُوشِيٍّ أكارعُهُ
طاوِى المصيرِ ، كَسَيْفِ الصَّيْقل الفَرِدِ

« ومعنى قوله (كسيف الصقيل الفرد) يريد أنه يلوح كأنه سيف صقيل ، ويقال : فَرْدٌ وفَرَدٌ ، ولم أسمع فَرِداً إلا فى هذا البيت ، وأراد: الفِرِنْدَ ، فلم يستقم له البيت »(٢) .

والحقيقة أن قلة مثل هذه الإشارات ، إنما ترجع أساساً إلى أصالة الشعر الجاهلى نفسه ، لأن الشعراء الجاهليين ، كانوا فصحاء سليقة وطبعاً ، قلما يخطئون ، لأنهم عرب خاص ، يقدسون فنهم هذا ، ويقدرونه تقديراً ؛ لذلك لم ترد عنهم أخطاء تذكر تتصل بنظمهم .

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٢٢٢ (يصف يوما) .
(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ٧ .

٤ ــ الجانب التاريخى

أما الجانب التاريخى ، فهو الضلع المكمل لمربع الشرح عنده ، وقد أولاه ابن السكيت عناية فائقة توحى بأهميته وقيمته فى حياة القوم العلمية والثقافية .

ويضم هذا الجانب التاريخى – عنده – ثلاثة عناصر أساسية ، تكمل بعضها بعضاً .

١ – ذكر مناسبات القصائد .

٢ – التعريف بالأعـــلام .

٣ – توضيح ما يتضمنه الشعر من أحداث .

أولا – مناسبات القصائد :

يحرص ابن السكيت – كل الحرص – على أن يقدم للقصائد التى يشرحها بنبذة تاريخية ، تبين سبب نظمها ، وتوضح الملابسات والظروف التى أوحت بنظم الشعر ، وهيجت قرائح الشعراء ، فقصيدة عروة الرائية ، التى مطلعها :

أَرِقْتُ وصُحْبَتِى بِمَضِيقِ عُمْقٍ
لِبَرْقٍ فى تِهَامَةَ مستطـــير

قال ابن السكيت – فى مقدمتها – عن مناسبتها(١) : «كان سبب قول هذه القصيدة ، أنه أصاب امرأة ، من بنى هلال يقال لها « ليلى بنت شعواء » وكانت عنده زماناً ، ثم فاداها وهو شارب ، وأخذ عامر بن الطفيل امرأة

---

(١) شرح ديوان عروة ص ٤١ ، وانظر ديوان النابغة ص ١ مقدمة القصيدة الأولى ، ص ٢٧ ، مقدمة القصيدة الثالثة ، ص ٥١ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ص ١٧٨ ، ٢٣٠ من نفس الديوان .

وانظر شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٦٩ مقدمة القصيدة السادسة ، ص ١١١ مقدمة القصيدة ١٤ ، ص ١١٩ مقدمة القصيدة ١٥ .

من بني فزارة ، ثم من بني سُكَيْن فلم تلبث أن استنقذت من يومها ، فذكرت بنو عامر أمرها ، فقال رجل من بني عبس :

إن تأخذوا أَسْمَاء مَوْقِفَ ساعة
فمأخذ لَيْلَى بنت شَعْواء أَعْجَبُ

فنحن لَبِسْنَا ما مضى من شبابها
وَرُدَّتْ إلى شَعْوَاءَ والرأس أشيبُ

فقال عروه : .... (القصيدة) .

هذا إذا جعل مناسبة القصيدة مقدمة لشرحها . أما إذا لم يجعلها كذلك ، وتناول شرح القصيدة مباشرة ، فقد يذكر مناسبتها بين أبياتها(١) ، وقد يذكر مناسبتها — لا في مقدمتها ولا بين أبياتها — بل في آخرها ، مثلما فعل في شرح قصيدة قيس ابن الخطيم الهمزية التي مطلعها :

تَذَكَّرَ لَيْلَى حُسْنَهَا وصفاءَها
وبانَتْ فأمْسَى ما يَنَالُ لِقَاءَهَا

فبعد أن انتهى من شرحها قال(٢) : « قال قيس هذه القصيدة ، لأن رجلا من بني حارثة بن الحارث يقال له « مالك » كان قتل الخطيم بن عدى ، وقيس بن الخطيم غلام صغير ، فلما بلغ ، عُيِّر بذلك ، وعير أيضاً بثأر عدى وكان قتله رجل من عبد القيس ، فلم يزل يلتمسه في المواسم حتى وافقه بذى المجاز ، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه ، وليس معه إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حُذيفة بن بدر الفزارى ، فاستنجده ، فلم ينجده . فأتى خداش بن زهير ، فنهض معه ببنى عامر حتى أتوا قاتل عدى فإذا هو واقف على راحلته بالسوق ، فطعنه قيس بحربة حتى أنفذ حضنيه

---

(١) أنظر ديوان النابغة (القصيدة السابعة ، ص ٨٠ — ٨١) فبعد أن فسر بعض الأبيات قال : « وكان من حيث النابغة أن النعمان بن الحارث ... » .

(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١١ — ١٢ .

فقتله ، ثم استمر فأراده رهط الرجل ، فحالت بنو عامر دونه حتى نجا .
فقال قيس : « تذكر ليلى ... » ..

وذكر مناسبات القصائد ، لا يمنع من ذكر مناسبة بيت معين ، إذا كان له مناسبة معروفة ، أو ارتبط بحادثة مشهورة .. فعروة حين قال :

وما أنْسَى ما الأشْيَاء لا أنْسَ قولها

لجارَتِهَا ما إنْ يعيشُ بأحْوَرَا

كان يشير إلى حادثة بعينها ، وضحها ابن السكيت بقوله(١) : « وحديث هذا البيت ، أنه مر بنسوة وامرأته معهن، فقال : أسْألنَهَا ما تعلم فى ، فقالت : ما لهذا عقل يرانى أختار عليه ، ثم يقول : أسألْنَهَا عنى » .

أما إذا كانت مناسبة البيت تتعلق بمثل من الأمثال العربية ، فسره ابن السكيت ، وذكر خبره ، وقصة مضربه .. فعروة حين قال :

وإن فَازَ سَهْمِى كَفَّكُمْ عَنْ مقاعِد

لكم خَلْفَ أدْبَارِ البُيُوتِ ومَنْظَرِ

كان يختمر فى ذهنه المثل الموروث عن قصة الرجل — الذى جاء إلى قوم مستضعفاً ، فأناخ ناقته فى أدبار بيوت الحى ، فقيل له « لو ناديت فعلم مكانك فأضِفْتَ » .. فقال : « كفى بِرُغائِها مُنَادياً »(٢) .

---

(١) شرح ديوان عروة ص ٥٨ (الأحور فى هذا الموضع : العقل ، يقال للرجل إذا كان لا عقل له : ما أن يعيش بأحور : أى ما يعيش بعقل قد ذهب عقله) .
وأنظر : شرح ديوان النابغة ، ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) شرح ديوان عروة ص ٦٧ (وهو مثل يضرب للرجل تحتاج إلى نصرته فلا يحضرك ويعتل بأنه لم يعلم) أنظر مجمع الأمثال للميدانى ٢-٥٩ (طبعة مصر ، ١٣١٠ هـ) .

ثانياً — التعريف بالأعلام :

والعنصر الثانى الذى تناوله ابن السكيت فى شرحه التاريخى — هو التعريف بالأعلام الواردة فى الشعر ، وتحديد أدوارهم ، وصلتهم بالأحداث .

فقيس بن الخطيم ذكر بعض الأعلام فى قوله :

دَعَوْتُ بَنِي عَوْفٍ لِحَقْنِ دمائِهِمْ
فلمَّا أَبَوْا سَامَحْتُ فى حَرْبِ حَاطِبِ

فقال ابن السكيت معرفاً بهم(١) : « بنو عوف : يريد « عمرو بن عوف ابن مالك » . وحاطب : حليف لهم قُتل ، فكانت بينهم حرب فى قتله » .

و« البرشاء » ذكرها النابغة فى قوله :

لَعَمْرو بنى البرشاء قَيْس وذُهْلِهَا
وشَيْبَانَ حيث اسْتَبْهَلَتْها السَّوَاحِلُ

عرف ابن السكيت بها — فيما نقله عن الأثرم وابن الكلبي — قال(٢) : « هى بنت الحارث وهى أم ذهل وشيبان وقيس بن ثعلبة . وإنما سميت البرشاء من برش النار ، كان بينها وبين ضرتها الجذماء كلام .. فألقت عليها الجذماء جمراً فبرش الجمر جلدها ، فسميت البرشاء » .

هذا إذا كان للأعلام أثر معين عند الشاعر ، أما إذا لم يكن لهم قيمة مؤثرة على أحداث القصيدة ، أشار إليهم ابن السكيت مجرد إشارة مقتضبة(٣) .

(١) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٦ ، وانظر شرح ديوان النابغة ، ص ١٢٩ . حيث عرف (بمالك بن حمار) .

(٢) شرح ديوان النابغة ص ١٨٥ (استبهلتها : أى صاروا مبهلين لا يخافون ملكاً من ملوك الحيرة) .

(٣) أنظر على سبيل المثال شرح ديوان عروة ص ٤٣ ؛ وشرح ديوان النابغة ص ٩٩ ؛ وشرح ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٢ ، ص ٧٥ ، ص ٩٠ .

والتعريف بالأعلام — عنده — يقترن عادة برفع أنسابهم ، والتعريف بقبائلهم ، خاصة إذا كانوا هم أنفسهم الشعراء أصحاب الدواوين(١) ، فإذا كان هناك خلاف حول أنسابهم أو حدث تداخل بين نسب وآخر ، أوضح ابن السكيت حقيقة الأمر ، ودعم أقواله إما بالشواهد، وإما بأقوال العلماء. مثال ذلك — بنو سواعة ، الذين عناهم النابغة بقوله :

وبنُو سُوَاعَةَ زائِرُوك بِوَفْدِهِمْ
جيشٌ يقودُهُم أبو المظَفَّارِ

حددهم ابن السكيت ، وحتى لا يختلط الأمر مع بنى سواعة غيرهم ، ربط تحديدهم بما ورد فى البيت من ذكر قائدهم قال(٢) : « بنو سُوَاعة من بنى أسد ، وفى قيس بنو سواعة ، وفى بنى عامر بن صعصعة سواعة أيضاً . وأبو المظفر : مالك بن عوف ابن كبير بن ناشرة بن بكر بن سواعة بن سعد ابن مالك بن ثَعْلَبة من بنى خُزَيْمَة » .

ويتصل بالتعريف بالأعلام — التعريف بالأماكن الواردة فى الشعر ، هذا إذا كان للمكان أثر هام فى موضوع الشعر أو مرتبط بوقائع محددة ، أو ذكرى تاريخية .. من ذلك ما جاء فى قول النابغة :

خِلالَ المطايا يتَّصِلْنَ وقد أتَت
قِنَانُ أُبَيْرٍ دُونَها والكَوَاتِلِ

من ذكر للموضعين « أبير والكواتل » قال عنهما ابن السكيت : « أبير والكواتل : جبلان صغيران فى بلاد بنى مرة بن عوف ، والكواتل : منزل بطريق الرقة »(٣) .

---

(١) أنظر رفعه لنسب النابغة ص ١ من ديوانه ، ورفعه لنسب عروة .
(٢) شرح ديوان النابغة ، ص ١٠٠ .
(٣) شرح ديوان النابغة ، ص ٦٨ .

وقد ذكر قيس بن الحطيم « سرف » فى بيته :

أَيْهَاتَ مَنْ أهلُهُ بيثْرِبَ قَدْ
أَمْسَى ومَنْ دُونَ أَهْلِهِ سَرِفُ

فقال ابن السكيت : « سرف » من مكة على شيء يسير ، وبسرف دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم وعلى آله) ، على ميمونة بنت الحارث الهلالية زوجته فى عمرة القضية .

ثالثاً : توضيح ما يتضمنه الشعر من أحداث :

أما ثالث هذه العناصر التاريخية ، فهو توضيح الإشارات التاريخية التى يأتى ذكرها بين ثنايا الشعر ، ويكون لها صلة بالشعر أو الشاعر ، وهذا العنصر يربط بين جميع العناصر التاريخية ، التى تحكى تسلسل الأحداث وتطورها ، كما أنه مادة إخبارية طريفة ، تفيد القارىء ، وتمسح عن ذهنه ضباب الملل ، وتساعده على تفهم الأحداث(١) . وهذا الجانب بالذات يضمنه ابن السكيت العديد من الطرائف والإخبار . ففى بيت النابغة :

تَمُدُه كل وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ
فيه حُطَامٌ من اليَنْبوُتِ والخَضَدِ

وردت لفظة « لجب » ، وهذه اللفظة لها علاقة بخبر طريف ، رأى ابن السكيت أن يضيفه إلى شرحه . . قال(٢) : « لجب : ذو صوت ، يقال سمعت لجب الإبل ، ولجب الجيش وهو الصوت . ذكر أن صفية

---

(١) شرح ديوان قيس بن الحطيم ص ٦٢ (وتسمى أيضاً عمرة القضاء) .
(٢) أنظر على سبيل المثال ديوان النابغة ، ص ١٤ (واحكم كحكم فتاة الحى . .) .
وانظر صفحة ٧ شرح البيت العاشر ، ص ١٤ شرح البيت ٢٧ ، ص ٢٢ شرح البيت ٤٥ ص ٢٩ شرح البيت الثانى ، ص ٩٠ شرح البيت الخامس .
(٣) شرح ديوان النابغة ص ٢٢ (الينبوت : نبت وكذلك الخضد) .

ضربت الزبير بن العوام ، فعوتبت على ذلك ، وقيل لها : إنك تبغضينه ، فقالت :

من قال لى أبغضُهُ فقد كَذَبْ
وإنما أضربُهُ لكى يَلَبْ
وكى يقود الجيشَ ذا الصوت اللّجِبْ
ولا يُرَى وقْباً من الفتيان خَبْ
يأكل ما فى البيت من تمْرٍ وحَبْ
يَا بأبِى أنْتَ ويَا فوق البِيَبْ

وقد يضمن ابن السكيت هذا العنصر — بعض المعلومات الفقهية .. كقوله أثناء شرح بيت النابغة :

كمضيئةٍ صَدَفيّةٍ غوّاصُها
بَهِجٌ متى يَرَها يَهِلّ ويَسْجُدِ

« يَهِلّ : يكبر ويرفع صوته بالدُّعاء والتحميد ، وقد جاء فى الحديث فى استهلال الصبى أنه «إذا وُلِدَ لم يَرِثْ ولم يُورَثْ حتى يَسْتَهِلّ صارخاً»(١).

وملاحظة جديرة بالاهتمام — وهى أن الشرح التاريخى — عند ابن السكيت كثيراً ما يكون حلقة اتصال بين قصيدتين أو أكثر(٢) ، ومن هنا نستطيع أن نجد إجابة لسؤال حائر وهو : لماذا افتقدت الدواوين التى شرحها ابن السكيت عنصر الترتيب على الحروف الهجائية .. حقيقة ربما يكون السبب أن هذا النوع من الترتيب لم يكن معروفاً أو شائعاً فى عصره(٣) ، ولكن من المؤكد أن الرجل كان يراعى فى شرحه على القصائد ، الترابط الزمنى

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٣٢ .

(٢) أنظر مثالا لذلك — شرحه لقصيدة عروة الحائية ص ٩٧ ، وربطه بينها وبين قصيدته اللاّمية ص ١٥٢ .

(٣) قال ابن النديم عن صنعة لديوان أبى نواس : «عمله ابن السكيت على غير حروف المعجم (الفهرست ص ٢٢٨) .

والتاريخى لتطور حياة الشاعر ، وتدفق شعره ، ويجعل ذلك هدفاً . وأكبر مثال لذلك شرحه لديوان عروة بن الورد .

هذه هى عناصر الشرح عند ابن السكيت .. عرض للروايات ، ثم محاولة للوصول إلى المعنى ، باستخدام المؤيدات والمدعمات من علوم اللغة وأحداث التاريخ .

شواهده

يبقى عنصر هام ، متمم لهذه العناصر التفسيرية ، مدعم لها ، مؤيد لمحواها .. إنه الشاهد . والشاهد فى شروح ابن السكيت ، وإن ارتبط أساساً بالعلوم اللغوية ، متداخل فى كل فرع من فروع الشرح التى استعرضناها وحللناها .. فهو الوسيلة الإيضاحية لكل ما يريد أن يقوله .. فقول النابغة(١) :

يا دارميّة بالعلياء فالسَّنَدِ

أراد أهل الدار ، كما قال امرؤ القيس :

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالى

— والضِّغْنُ والوَحْرَ واحد — ومعناهما الحقد ، وقد جاءت الأولى فى بيت النابغة(٢) :

فإن كُنْتَ لا ذَا الضِّغْنِ عنى مُنَكِّلاً
ولا حَلِفى على البَرَاءَة نافِعُ

ووردت الثانية بنفس المعنى فى قول ابن أحمر :

سَائِلْهُمُ حَيْثُ يُبْدِى الله عَوْرَتَهم
هَلْ فى صُدُورهمْ من ظُلْمِنَا وَحَرُ

— ولفظ « القار » الوارد فى بيت النابغة(٣) :

فلا تَتْرُكنِّى بالوعيد كأنَّنِى
إلى النَّاسِ مُطْلِىٌّ به القَارُ أَجْرَبُ

معناه : الخضخاض ، وهو ما يطلى به البعير ، وشبه ذلك بالقار لسوداه ولم يكن النابغة أول من استخدمه ، بل وجد عند بشر بن أبى خازم فى بيته :

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧٨ .

يَرُومُونَ الصَّلاَحَ بذاتِ كَهْفٍ
وما فيها لَهُمْ سَلْعٌ وقَارُ

— والمثل السائر « ما خطَّ غباره ، ولا طعن فى غباره » الذى قصد به عدم التجرؤ وعدم التعرض .. ذكره النابغة فقال(١) :

أعلمْتَ يومَ عكاظَ إذْ جارَيْتَنِى
تحتَ العَجاجِ فما خَطَطْتُ غُبَارِى

واقتبس معناه أيضاً مالك بن الريب فقال :

وخُطًّا بأطرافِ الأسنَّة مضجعى
ورُدَّا أعلى عَيْنَىَّ فَضْلَ رِدائيا

— والفعل « صبَا » بمعنى أمال إليه — الذى ورد فى بيت قيس بن الخطيم ؛ ٢)

ومثلِكِ قد أصْبَيْتُ ليسَتْ بكَنَّةٍ
ولا جارة ، أَفْضَتْ إلىَّ حَيَاءَها

جاء أيضاً فى قول يزيد بن ضبة :

صَبَا قلبِى إلى هنْدٍ وهِنْدٌ مثلُها يُصْبِى

— والمعنى الذى قصد إليه عروة بن الورد فى قوله(٣) :

تَحُلُّ بِوادٍ من كَرَاءٍ مَضَلَّةٍ
تُحَاوِلُ سَلْمَى أن أَهَابَ وأَحْصَرَا

هو نفس المعنى الذى قصده لبيد من قوله :

أَسْهَلْتُ وانْتَصَبَتْ كجِذْعِ منيفةٍ
جَرْدَاءَ يَحْصَرُ دُونَهَا جُرَّامُهَا

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٩٨ .

(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٢ .

(٣) شرح ديوان عروة ص ٥٣ .

أى تضيق صدورهم أن يبلغوها من طولها » :

– « وبنو على » الذين أشار إليهم عروة فى قوله(١) :

إذا حَلَّتْ بأرض بنى عَلِىٍّ
وأهْلُكَ بَيْنَ إمَرةٍ وكِيرِ

قوم من كنانة – ذكرهم الهذلى فى بيته :

رُوَيْدَ عَلِىَّ جُدَّ ما ثَدّى أُمِّهِمْ
إلينا ولكِنْ وَدُّهُمْ مُتَمَايِنُ

– ووصف لون المرأة بالصفرة : دليل على الجمال . كما جاء فى قول قيس بن الحطيم(٢) :

صَفْرَاءُ أعجلَها الشبابُ لِدَاتِها
مَسْنُومَةٌ بالحُسْنِ غير قَطُوبِ

جاء فى قول أبى زُبَيْد :

أُشْرِبَتْ لوْنَ صفرةٍ فى بَيَاضٍ
وَهْىَ فى ذَاكَ لَدْنَةٌ غَيْدَاءُ

– والفلاح فى بيت النابغة(٣) :

وكلُّ فتىً ستَشْعَبُهُ شُعُوبٌ
وإن أَثْرَى وإنْ لَقِىَ الغلاما

معناه : البقاء .. ومنه قول الشاعر :

وترجو الفَلاَحَ بعد عاد وحمير

ومنه قوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » – أى الباقون :

---

(١) شرح ديوان عروة ص ٤٣ (المين : الكذب) .
(٢) شرح ديوان قيس بن الخطيم ص ١٧ .
(٣) شرح ديوان النابغة ص ٢٠١ .

– والفعل (يَهِلّ) أى يكبر ويرفع صوته بالدعاء والتحميد – ورد فى بيت النابغة(١) :

كَمُضِيئَةٍ صَدَفِيةٍ غَوّاصُها
بَهِجٌ متى يَرَها يَهِلُّ ويسْجُدُ

وجاء مضمونه فى الحديث النبوي الشريف – فى استهلال الصبى من أنه « إذا ولد لم يَرِث ولم يُوَرَّث حتى يستهل صارخاً » .

وهكذا نرى الشاهد فى شرحه جزءاً لا يتجزأ من لحمة الشرح ، وعاملا من عوامل التفسير اللغوى والمعنوى .. يضعه ابن السكيت بين يدى قارئه وسامعه ، ليبرهن على صحة وصدق ما يقول .

والشاهد – كما رأينا – ليس شعرياً فحسب ، بل أن الأمر يتعدى ذلك لنرى له شواهد قرآنية(٢) ، وشواهد من السنة الشريفة(٣) ، ومن أمثال العرب وأقوالهم وحكمهم ومأثوراتهم .

إلا أننا نقول للحق وللعلم .. إن الشاهد الشعرى يحتل عنده المرتبة الأولى من حيث الكثرة والوفرة والموضوعية ، لأنه أكثر إرتباطاً فى معناه وموضوعه بالمادة المشروحة وهى القصائد الشعرية ذاتها ، وقد إلتزم فيه ابن السكيت بالأصول العلمية التى تواضع عليها العلماء ، خاصة الكوفيين منهم ، ولم يخرج عن حدود ما أصطلحوا عليه ، فمصادره هى مصادرهم(٤) ، ومواقفه مستمدة من مواقفهم لذلك قصر شواهده الشعرية على شعراء عصر الاحتجاج اللغوى(٥) ، ولم يحد عنها مطلقاً ، ومن الطبيعى أن تكون هذه الشواهد

---

(١) شرح ديوان النابغة ص ٣٢ .

(٢) أنظر على سبيل المثال بالإضافة إلى ما ذكرنا ص ٢ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٢٥٠ من ديوان النابغة .

(٣) أنظر على سبيل المثال ديوان النابغة ص ٣ ، ٣٣ ، ١٧٧ .

(٤) ابن السكيت اللغوى ص ٢٨٠ .

(٥) أنظر ما ذكره البغدادى فى خزانته ١-٦ عن الشعراء الذين يحتج بشعرهم .

فى جملتها للاستدلال على صحة اللغة ، وسلامة اللفظ ، ودقة المعنى . وفى ضوء ذلك لم يعتمد ابن السكيت إلا الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، والتزم بذلك التزاماً شديداً فى شروحه ، فلم نجد عنده ذكراً لشاعر من المولدين

وقائمة الشعراء الذين استشهد بشعرهم ، يتضح منها(١) :

أن أكثرهم جاهليون — مثل : الأعشى وامرىء القيس ، والنابغة الذبيانى ، وزهير ابن أبى سلمى ، وبشر بن أبى خازم ، وعروة بن الورد ، المثقب العبدى ، وأبى بن مقبل ، وقيس بن الخطيم ، وحاتم الطائى وعمرو بن هند الهذلى ، وطفيل الغنوى ..

وأن بعضهم مخضرمون — مثل : كعب بن زهير ، وحسان بن ثابت ، ولبيد بن ربيعة ، وعبد الله بن رواحة .

وأن بعضهم الآخر إسلاميون ، مثل : ذى الرمة ، والطرماح ، والكميت وكثير ورؤبة . هذا غير مجموعة من الشعراء المقلين — من أمثال : النمر بن تولب والممزق ، والغزارى ، ونهشل بن حرى ، ومالك بن الريب ، ومعاوية ابن صعصعة ، ويزيد بن ضبة ، ووضاح اليمن ، وخفاف بن ندبة ، كما استشهد بشعر صفية أم الزبير ، وأبى طالب بن عبد المطلب ، وضم إلى شواهده الشعرية هذه مجموعة كبيرة من الأراجيز .

على كل حال .. فنظرة فاحصة فى شروح ابن السكيت ، توحى بأنه كان مولعاً بالإستشهاد ، يبحث عنه فى الشعر ، وفى القرآن الكريم ، وفى الحديث النبوى الشريف ، أو فى أمثال العرب . ولقد كان ولعه بالشواهد ، أحد الأسباب الجوهرية التى حفظت لنا الوفير من الثروة اللغوية والأدبية التى يمكن الإستعانة بها فى الكثير من الدراسات اللغوية . أضف إلى ذلك — أن أمانته الأدبية التى تجلت فى نسبة كل قول إلى قائله ، وكل شرح إلى شارحه ، وكل رواية إلى راويها ، قد حفظت لنا ذخيرة توضيحية كبيرة ، من أقوال وآراء الشيوخ ، التى يعز أن نجدها فى غير مصنفاته .

---

(١) أنظر : فهرس الأعلام .

وخلاصة القول .. أن ابن السكيت علم مجتهد أمين ، لديه الكثير من الصبر والجلد ، كان واسع الأفق ، حسن الاستيعاب والفهم . وهو يمثل الاتجاه السائد في عصره الاتجاه اللغوي التقريري ، ويقوم منهجه في شرح الشعر على النقل والرواية – والإلتزام الواضح الصريح بكل ما جاء عن السلف العالم رواية وشرحاً ، وبهذا المنهج الإلتزامي النقلي التجميعي ، حفظ لنا كثيراً من التراث ، وخلد آراء وأقوال الأعلام البارزين .

وكان لأمانته الأدبية وأصالته العلمية ، الفضل الكبير في تأصيل منهج البحث العلمي الذي يستند إلى التراث الموروث ، ورفعه فوق ما عداه ، واتخاذه مثلا أعلى يحتذى به ، فكان خير ممثل للإلتزاميين التقليديين المحافظين .

الفصل الثانى

المنهج الإبداعى الفنى

تقديم :

أول مناهج الشرح – كما رأينا فى الفصل السابق – هو منهج النقل والرواية ذلك المنهج الإلتزامى ، الذى يعتمد فيه العالم على ما ورثه عن أستاتذته الأقدمين وعلى ما سمعه من شيوخه المعاصرين ، يظل يدور فى فلك هذا المنهج ، لا يحيد عن آراء الأولين قيد أنملة .. وكيف ذلك وما سمعه هو الأصيل وهو الموثق ؟

هذا الشرح النقلى ، كان أول مناهج التفسير نشأة ، حيث ظلت الطبقات – رواة وعلماء – يتناقلونه شفاهاً ، ثم تدوينا وتدريجيا ، حيث أفردت له المصنفات الخاصة ، وكل يكمل ، وكل يضيف ، وكل يصنف ، يكملون ما توارثوه ، ويضيفون ما وجدوه ، حيث كانت هذه المرحلة .. مرحلة الحفاظ على التراث ، مرحلة الصون من الإندثار ، وقد درسنا العالم اللغوى الكبير « ابن السكيت » بوصفه علم هذا المنهج ، والممثل الأكبر لعلماء هذه المرحلة المصيرية الهامة فى حياة شروح الشعر العربى القديم .

استمر الحال على هذا المنوال إلى أن تغيرت موجهات الحياة العلمية والثقافية ، نتيجة لإمتزاج الشعوب والثقافات ، وتنوع العلوم ، والتأثر بالفلسفات والمعارف الوافدة على الفكر العربى الإسلامى ، وقل الحرج الذى كان يعيش فيه أمثال ابن السكيت ، فكان هناك فرص كثيرة لإبداء الرأى ، وإعمال العقل ، والتفرد فى التفكير ، والاستقلالية فى التعبير ، واختراع الآراء ، وابتكار التفاسير .

لقد خرج علماء الأجيال اللاحقة – تدريجياً عن الخط التقليدى ،

الذى تمسك به علماء الإلتزام ، فاجتهدوا ، واستنبطوا آراءاً جديدة ، واستنطقوا المصادر بمفاهيم حديثه ، وقد شجعهم على ذلك أنهم اكتسبوا حظاً أوفر من العلم ، وقدراً أكبر من الثقافة ، نتيجة لما رضعوه من أثداء الثقافة والمعرفة ، وما وفد إليهم ، ودخل على عقولهم من ثقافات ، فكان أن انطلق العلماء بلا قيود ولا حدود، تَفَنَّنُوا وأبدعوا، واجتهدوا، وانتقلوا بحركة الشروح من مرحلة الالتزام والتمسك بتراث السلف ، القائم على النقل والرواية إلى مرحلة الإبداع والاجتهاد المبنى على العقل والدراية ..

على أن هذا التفسير الإبداعى الفنى ، وإن استند إلى العقل والدراية ، واعتمد على سعة الثقافة ، وكثرة المحصول ، واتكأ على تصرف الشارح وبراعته وحسن عرضه .. فإنه لم يلغ التفسير النقلى الموروث ، القائم على الرواية ، ولم يطمس معالمه ، فقد بقى هذا التفسير الأخير — فى مصنفاتهم وشروحهم — يرجعون إليه بين القينة والفنية للإطمنان والائتناس والتأكد والتوثق .

وليست هذه النقلة من الشرح النقلى إلى الشرح العقلى بالخطوة اليسيرة .

ولم يكن هذا التطور من المنهج الإلتزامى إلى المنهج الإبداعى إنقلاباً سريعاً أحدثته حتميات التاريخ .. فالواقع غير ذلك تماماً .

ذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين جيل ابن السكيت .. وجيل المرزوقى ، وبينهما بون شاسع .. هناك إنتقالات تدريجية متعددة :

— كان هناك التحرج من الخروج عن التراث التفسيرى الموروث .

— ثم أمكن الوقوف أمام ذلك المروى المنقول قليلا .. للنظر فيه .

— ثم اتسع الأمر ، وكثر النقل ، حتى استفاض وشمل ماليس موثوقاً به.

ثم داخلت عملية النقل والرواية محاولات جديدة للفهم الشخصى ، إستناداً إلى إعادة عرض القضايا اللغوية والنحوية ، وإعادة صياغتها ثم محاولة إستنطاقها بمفاهيم جديدة .و نتيجة لهذه المحاولات المتتابعة المستمرة ، خرجوا بهذه الدلالات الجديدة مخارج شتى ، ثم ظلت محاولات الفهم الشخصى تزداد ،

وتتأثر بالمعارف المختلفة ، والمفاهيم الجديدة ، حتى صار من يتعرض للشرح والتفسير ، يجمع أشياء كثيرة ، لا حاجة بها فى الشرح والتفسير ..

إننا نستطيع أثناء تنقلنا بين شروح وآراء الأجيال المتعددة اللاحقة بابن السكيت — أن نحس هذا التدريج والتطور فى التأليف والتصنيف ، فى عملية الشرح .

ثم يختلط الفهم العقلى بالتفسير النقلى رويداً رويداً ، إلى أن يغلب هذا الجهد العقلى فى الشرح على مضمون الشرح ، فيكون أبرز وأظهر ما فيه ، وإن لم يَخْلُ — مع ذلك — من منقول يتصل بأسباب معينة ، وأمور محددة .

وهكذا نجد عبر الأجيال ، أن عملية الدراية ، القائمة على الفهم والعقل ، تتداخل تدريجياً فى عملية الشرح حتى تزحزح ذلك التفسير المأثور الموروث ، القائم على النقل والرواية ، وإن لم تلغه تماماً .. فيتداخل التفسيران ، وإن كانت السمة البارزة هى التى تحدد نوع التفسير .

وهكذا كان لمرور الزمن ، وتطور الحياة ، وانتشار الثقافة ، وامتزاج العلوم والفلسفات أثره فى عقلية العلماء ، كما كان له أثره فى الشرح والعرض والتحليل .

وكان ظهور الشرح القائم على العقل والدراية مقابلا للشرح القائم على النقل والرواية ، وإن كان متصلا به متداخلا معه ، مواكباً له ، وإذا كانت العلوم اللسانية — بعد أن صارت صناعة — قد وجهت حركة الشروح ، فإن علوماً أخرى عقلية ونقلية ، قد وجهتها أيضاً توجيهات مختلفة ، أضف إلى ذلك أن مقاصد وأغراضاً فى الحياة الثقافية والعلمية ، قد اشتركت فى هذا التوجيه ، لقد وجدنا — علماء — حين يتصدون لشرح نص معين ، يلونون هذا النص ، بتفسيراتهم له ، وفهمهم إياه ، فكان الشارح — لبيت أو مقطوعة أو قصيدة أو ديوان — هو الذى يحدد بشخصيته واتجاهه ومنحاه : المستوى الفكرى له ، ولون الشرح ، وهو الذى يعين الأفق العقلى ، الذى

يمتد إلى معناه ومرماه ، يفعل ذلك كله وفق مستواه الفكرى ، وعلى قدر سعة أفقه العقلى .

هذا ما وجدناه فى الشروح العقلية ، عند المرزوقى وأمثاله ، الذين ينتهجون المنهج الإبداعى الفنى .

وقبل أن نحدد مقصودنا ومفهومنا لهذا المنهج الإبداعى الفنى . نتعرف أولا على أستاذ هذا المنهج ، ثم ننظر فى منهجه وطريقته .. لنتلمس الأسس التى يشيد عليها شرحه .

المرزوقى

(٣٣٠ — ٤٢١ هـ)

لم تضن المصادر الأدبية والتاريخية القديمة على عالم من العلماء ، أو أديب من الأدباء ضنينها على المرزوقى . ولا ندرى ما الأسباب التى كانت وراء هذا الأمر ، أغلب الظن أن هذا الأمر يرجع إلى الرجل نفسه ، الذى اختار التقوقع ، والبعد عن الناس ، وآثر العكوف طوال حياته على طلب العلم من مصادره الوفيرة ، ومنابعه الغزيرة دون اندماج فى الأوساط العلمية .. فى المجالس أو المنتديات .

إن أية ترجمة وصلت إلينا — عن المرزوقى — لم تتعد غدة سطور ، يمكن أن يكون ما ذكره ياقوت نموذجاً لها ، لأنها تكاد تكون طبق الأصل . قال ياقوت(١) : « هو أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى أبو على ، من أهل أصبهان كان غاية فى الذكاء والفطنة وحسن التأليف ، وإقامة الحجج وحسن الاختيار ، وتصانيفه لا مزيد عليها فى الجودة ، مات فيما ذكره أبو زكريا يحيى بن منده فى ذى الحجة ، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، قال : وكتب عنه سعيد البقال وأخرجه فى معجمه . وكان قد قرأ كتاب سيبويه على أبى على الفارسى ، وتتلمذ له ، بعد أن كان رأساً بنفسه ، وله من الكتب ... (ثم ذكر بعض مصنفاته) » .

هذه أطول ترجمة وردت فى المصادر الأدبية والتاريخية التى ترجمت له ومع ذلك فسنحاول فى الصفحات القادمة أن نستقطب المراجع ونستنطق هذه النصوص لنستخرج منها ما أمكن أن توحى به .

إسمه :

أما إسمه فهو أحمد بن محمد بن الحسن .

---

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٣٤ .

و أما **كنيته** ، فهى « أبو على » . . .

وأما **لقبه** ، فالعلماء متفقون عليه وهو « المرزوقى ».. لكننا لا ندرى أصل هذا اللقب وأغلب الظن أنه نسبة إلى جده الأكبر .

وقد أطلق عليه مترجموه عدة ألقاب أخرى ، منها :

النحوى(١) . . نظراً لاهتماماته النحوية ، وأبحاثه فى مجال النحو ، وقد يكون ذلك بسبب دراسته النحو على أبى على الفارسى ، أكبر أعلامه فى العصر ، أو لأنه تعمق فى دراسة كتاب سيبويه(٢) وحلل أدق مسائله .

ومنها الحائك(٣) : أطلقه عليه الصاحب بن عباد ، ولا ندرى ماذا قصد بذلك ، حينما قال : « فاز بالعلم من أصبهان ثلاثة ، حائك وحلاج وإسكاف ، فالحائك هو المرزوقى » .. كأنما كانت الحياكة أصل مهنته فى أصبهان قبل أن يتفرغ للعلم ، ويتعمق فى الدراسة والبحث .

وآخر هذه الألقاب « الأصبهانى »(٤) لأنه من أهل « أصبهان » مسقط رأسه وموطنه ومرتع صباه ، ومنشأه ومرباه ..

مولده :

أما سنة مولده فغير معروفة على الإطلاق ، ولم ينص عليها العلماء ، لأن أهل فارس إلى ما يقرب من عهده ، كانوا يؤرخون بالأحداث دون السنين(٥) .

---

(١) أنباه الرواة : ١-١٠٦ .

(٢) معجم الأدباء : ٥-٣٤ .

(٣) معجم الأدباء : ٥-٣٥ .

(٤) معجم الأدباء : ٥-٣٤ .

(٥) هذا ما ذكره الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) : سأله القاضى ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له ، كيف وقع لك الشك فى سنة مولدك ؟ فقال : كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين ، فأرخ مولدى بحادث كان فى البلد ، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون ، قال بعضهم : كان ذلك فى آخر سنة أربع وعشرين ومائتين ، وقال آخرون : بل كان فى أول سنة خمس وعشرين ومائتين .

(أنظر معجم البلدان ص ١٨ ، طبقات الشافعية ٢-١٣٥ ، ولسان الميزان ٥-١٢٠) .

أضف إلى ذلك أن المصادر الأدبية والتاريخية القديمة نادراً ما تتعرض لمولد علم من الأعلام ، إلا أن يكون خليفة أو ملكاً أو أميراً ، من هنا أغفلت المصادر كل شيء عن مولده ونشأته الأولى ، وآثر الباحثون المحدثون السلامة فلم يتعرضوا لتحديد هذه السنة خشية الوقوع فى المزالق .

ولقد ذكرنا من قبل كثيراً من علماء جيله ، وحددنا اهتماماتهم ، ولكن يهمنا الآن أن نربط هذا التحديد بعالم آخر كاتب أوشاعر ، كانت له به صلة كبرى ، إنه « الصاحب بن عباد » (٣٢٤ – ٣٨٥ هـ) فالصاحب رجل معاصر له تماماً منذ بدء حياته ، وجال فى مجالات العلم المتعددة ، التى جال فيها المرزوقى ، وكان بينهما نوع من التنافس العلمى الشديد ، والتسابق على مراكز الرياسة فى قصور البويهيين ، مما جعلهما دائماً على غير وفاق .. ثم لعبت السياسة دورها الخطير فى التفريق بين الرجلين ، وقطع أواصر الود وصلات التقدير بينهما ، يقولون : إن الصاحب بن عباد « دخل عليه يوماً فلم يقم له ، فلما أفضت الوزارة إلى الصاحب جفاه »(١) فهذا النص له دلالات عدة :

أولها : أنهما كانا متلازمين يلتقيان فى قصور الأمراء البويهيين .

وثانيها : أنهما كانا على مستوى علمي ومنزلة واحدة عندهم ، فكلاهما يعمل فى بلاطهم .

وثالثها : أنهما كانا مؤدبين لأولادهم .. وكاتبين فى دواوينهم .

ولقد كان التنافس العلمي والأدبى ، ثم التنافس على الرياسة ، مدعاة لسوء العلاقة بينهما . والدليل على تساوى المنزلة بينهما ، أن المرزوقى لم يُعِر الصاحب اهتماماً حين دخل إليه ، ولم يقم له احتراماً ، ولم يمنحه أدنى اعتبار .. لأنه لم يكن يشعر بأنه أكبر منه سناً ، أو أعلى منه مكانة ، أو أرفع منزلةً ، فلما ابتسمت الحياة للصاحب وتولى الوزارة (من سنة ٣٦٦ إلى سنة ٣٨٥هـ)(٢)

---

(١) بغية الوعاة ص ١٥٩ .

(٢) ولى مؤيد الدولة البويهى بعد أبيه على الرى وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ ، فاستوزر الصاحب ولقبه بالصاحب وكافى الكفاة (بروكلمان ٢-٢٦٨) .

وقد كان ذلك حكراً على كتاب الدولة وصناعها — زادت بينهما شقة الخلاف ، وأثر الصراع السابق على نفسيتهما فأوجد نوعاً من البغضاء .

المهم — أننا نقصد من كل ما سبق أن نقول : أن الصاحب بن عباد كان معاصراً ملازماً له ، وكلاهما كان قريباً من الآخر سناً ومركزاً .. فإذا عرفنا أن الصاحب ولد سنة ٣٢٤ هـ فإننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن المرزوقى ولد قريباً من هذه السنة .. ويؤيد ما ذهبنا إليه :

١ — أن أبا على المرزوقى إلتقى بحمزة بن الحسن الأصفهانى ، واستنشده وسمع منه(١) وقد توفى حمزة بن الحسن سنة ٣٥١ هـ .

٢ — أنه التقى بابن العميد (قتل سنة ٣٦٠ هـ) وسمع منه(٢) ، حين كان يتصدر المجالس وذلك قبل توليه الوزارة فى عهد ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه ، حكم (٣٢٠ — ٣٦٦ هـ) .

٣ — أن المرزوقى بعد أن بنى نفسه بنفسه ، اتصل بأبى على الفارسى (٣٧٧هـ) ليقراء عليه كتاب سيبويه ، وينهل من فيض علمه — ومعروف أن الفارسى « استكمل التعليم والدراسة ثم زار الأمير سيف الدولة سنة ٣٤١ ثم التحق بعد ذلك ببلاط عضد الدولة(٣) البويهى ، حكم (٣٦٦ — ٣٧٢ هـ) فكان لقاؤهما .

وكل هـــذه أمور تجعلنـــا نرجح أن المرزوقى قد اتصل بأستاذه أبى على الفارسى ، وقد ناهز الثلاثين . لذلك قال مترجموه أنه تتلمذ على

(١) أنظر شرح المفضليات للمرزوقى ، ميكروفيلم ، الصفحة الخامسة .
وأنظر أيضاً شرح الحماسة ٢-١٦٢ حيث يقول « أنشدنى حمزة بن الحسن ... » .

(٢) يقول المرزوقى : « ورأيت الأستاذ الرئيس أبا الفضل ابن العميد يقول ... » . (أنظر شرح الحماسة ١-٤٦٤ ، ٢-٩٩٥) .

(٣) بروكلمان ٢-١٩٠ (وكان أثيراً عنده حتى لقد كان وكيل عضد الدولة فى زواج الخليفة الطائع من بنته سنة ٣٦٩ هـ) .

الفارسى « بعد أن كان رأساً بنفسه »(١) أى بعد أن كان مرجعاً للقوم فيما يعن لهم من أمور أدبية أو لغوية أو دينية . كل ذلك يدفعنا إلى القول أن المرزوقى كان شاباً يافعاً فى منتصف القرن الرابع ، يستطيع أن يقوّم العلم والعلماء ..

وهذا الأمر يدفعنا أيضاً إلى الترجيح أن المرزوقى ولد حوالى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، وعلى وجه التقريب سنة ٣٣٠ هـ .

ولكننا نجد نصاً غريباً فى نهاية كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقى – وهو قول القائل (٢) : « فرغت منه ضحوة يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ٤٥٣ هـ » ومن الواضح أن هذه العبارة ليست عبارة المرزوقى ، وإنما هى عبارة الناسخ – أو غيره – يؤيد هذا إجماع المؤرخين والمترجمين قاطبة على سنة وفاته ، وعدم اختلافهم فى ذلك ، وهى أنه توفى فى ذى الحجة سنة ٤٢١ هـ(٣) .

من هذا يتضح أن المرزوقى ولد – كما ذكرنا – على وجه التقريب سنة ٣٣٠ هـ ، وأنه توفى سنة ٤٢١ هـ ، عن عمر مديد جاوز التسعين عاما .

نشأته :

والمرزوقى كما ذكرنا فارسى الأصل ، أصبهانى المولد ، فمن الطبيعى أن تكون نشأته فى مسقط رأسه ، لأن المصادر لم تذكر ما يخالف ذلك ، ومن هنا نسبوه إليها(٤) . وقد بدأ حياته التعليمية بها ، شأنه فى ذلك شأن أنداده من أبناء فارس ، حين كانت أصبهان – على عهده – إحدى المدن الرئيسية فى الإقليم الفارسى . وكانت تزخر بالعلم والعلماء ، والأدب والأدباء وكان يشجعهم البويهيون بسلطتهم السياسية ، وبذلهم المادى ، حيث جمعوا

---

(١) معجم الأدباء ٥-٣٥ .

(٢) المرزوقى : الأزمنة والأمكنة ص ٣٩٤ ، وانظر الغلاف .

(٣) أنباه الرواة ١-١٠٦ ، معجم الأدباء ٥-٣٥ ، بغية الوعاة ص ١٥٩ .

(٤) أنباه الرواة ١-١٠٦ ، معجم الأدباء ٥-٣٤ ، بغية الوعاة ص ١٥٩ ، الأعلام ١-٢٠٥

حولهم أكبر مجموعة من العلماء فى مختلف المجالات . وكانت المساجد — ساحات العلم الكبرى — هى المنهل العذب ، الذى نهل منه الرجل حتى ارتوى ويبدو أن ما فيها من علم كان يغنى عن الخروج إلى غيرها(١) ، فهم يذكرون أن المرزوقى عكف على الدراسة والبحث والاستيعاب والتمحيص.. ثم تصدَّر المجالس بعد ذلك يفتى ويشرح ما وسعه تحصيله من فروع الأدب والعلم ، دون ما حاجة إلى الرحلة أو التنقل .

وقد بعثت إليه الأقدار — فى موطنه — أبا على الفارسى ، حين استغلقت عليه بعض المسائل النحوية ، فقرأ عليه كتاب سيبويه ، واستفتاه فى كثير من المسائل التى اعترضته ..

ونظن ظناً — أن ذلك كان فى أول الفترة التي اتصل فيها أبو علي الفارسي بعضد الدولة(٢) ، لأنهم يقولون « إن المرزوقى اتصل بأبي علي الفارسي ليقرأ عليه كتاب سيبويه » .. ويذكرون أيضاً — أن ذلك حدث « بعد أن كان المرزوقى رأساً بنفسه » وهم يقصدون بذلك أنه اتصل بالفارسى بعد أن كان يتصدر مجالس العلم والأدب ، الذى أهله لها مجهوده الذاتى ، وحافزه الفردى.

المهم .. أن المرزوقى كان فارسى الأصل ، أصبهانى المولد والنشأة والمربى والإقامة ومنابع العلم ، لأننا لم نجد نصاً واحداً يفيد تحرك المرزوقى من موطنه ، أو خروجه من بلاد فارس ، أو اتصاله بأحد من العلماء خارجها .

ولا نظن أن النشأة المحدودة المقيدة هذه، كان لها تأثير سلبي عليه، بل على العكس نعتقد أنه لم يضع وقته وجهده فى الرحلات والتنقلات ، وقد وجد أمامه كل موارد العلم ، ومصادره الأصيلة مدونة مذللة مشروحة ، فعكف على الدراسة بنفسه ، بلا استهانة أو استعانة ، لم يشغله شاغل ، ولم يثبط همته

---

(١) أنظر البحث القيم الذى كتبه الأستاذ الدكتور محمود غناوى عن « الأدب فى ظل بنى بويه طبع مصر سنة ١٩٤٩ .

(٢) بعد سنة ٣٤١ كما ذكر بروكلمان ٢-١٩٠ .

مثبط فى وطن كان مجمع العلماء وملتقى الأدباء وفحول الشعراء ، ويكفى أن نعلم أن هذا الموطن خرّج مجموعة كبيرة من العلماء أمثال .. أبي الفرج الأصبهانى (٣٥٦ هـ) صاحب الأغانى ، وأبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٦٦ هـ) مؤلف كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وابن العميد (٣٦٠ هـ) الذى اشتهر بالأدب والفلسفة والمنطق والهندسة ، والصاحب ابن عباد (٣٨٥ هـ) الذى كان متبحراً فى العلوم الشرعية واللغوية والأدبية ، وابن فارس (٣٩٠ هـ) الذى كان إماماً فى اللغة وألف مجموعة من الكتب تعد أمهات المصادر ، وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) أحد علماء الأدب والنقد والبلاغة ، ومؤلف كتاب الصناعتين وديوان المعانى ، وجمهرة الأمثال وغير ذلك .

أساتذته :

يمثل المرزوقى العصامية العلمية أصدق تمثيل ، ذلك أنه كان نموذجاً فريداً فى الأخذ والاستيعاب ، والنهل والتزود حتى صار مضرب الأمثال ..

فإذا بحثنا عن أساتذته ، لم نجد له إلا أستاذاً واحداً ، اعترفت به المصادر وهو — كما قلنا — أبو على الفارسى ، اتصل به ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، بعد أن سمع بعلمه ومقدرته الفائقة فى استنطاق القواعد وتحليل النظريات(١) .

اتصل به المرزوقى ، وقرأ عليه ، وسمع منه ، واعترافاً بفضله وعلمه ذكره مراراً وتكراراً إبان حديثه وشرحه على معضلات الأمور اللغوية والنحوية(٢) .

أما باقى أساتذته فلم نـرَ لهم أثراً يذكر فى حياته ، ولم يشر إليهم مترجموه أدنى إشارة ...

---

(١) أنظر ماكتبه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عن أبى على الفارسى فى كتابه المدارس النحوية ص ٢٥٧ .

(٢) أنظر على سبيل المثال : شرح الحماسة ١-٣٦٤ ، ٣٩٩ ؛ ٢-٧٦٩ ، ٨١٤ ، ١٤٠١-٣ — ٤-١٧٠٢ وانظر فهرس الأعلام .

ترى كيف يكون عالم جليل مثل المرزوقى ، له كل هذا التضلع فى العلم والأدب .. دون الرجوع إلى أساتذة مشهود لهم بغزارة العلم وكثرة التحصيل وسعة الاطلاع ؟ إن هذا الأمر من الأمور التى تستوقف الباحث ، لأنه يخالف كل الأسس والآراء التى ارتآها العلماء ، من أن طالب العلم لابد وأن يتتلمذ على الأئمة .

ولكن هذا الخطب يهون .. إذا تذكرنا ما سبق أن قلناه ، من أن العلم كان مشاعاً لكل الناس ، أينما وجدوا ، وحيثما حلوا ، كانت الدروس تلقى فى المساجد فى مختلف الأمصار والأقطار ، تتناول جميع فروع العلم والثقافة والمعرفة ، وكان على طالب العلم ، الصادق فى طلبه ، الدائب على بحثه ، الراغب فى التزود منه ، أن ينهل ما وسعته طاقته ، وما قدر على استيعابه فإذا خلى لنفسه دأب على الاستذكار والتحليل ، واستنتاج النتائج ، فما صدق لديه ، وما حسن فهمه استوهبه ، وما بعد عليه ، سأل عنه ، وهذا دأب كثير من العلماء الذين وجدوا فى العصر .

أضف إلى ذلك منابع أصيلة ساعدته فى البحث والعلم والمعرفة ..

إنها الكتب .. نعم الكتب الأدبية والدينية والعلمية التى ملأت كل مكان فى عصره وقبل عصره بسنوات طوال .. وهو نفسه يعترف بذلك ، ويذكر عشرات الكتب التى رجع إليها ، واستقى منها علمه ، ونلمح مثل ذلك بين ثنايا شروحه .

لقد اطلع المرزوقى على كل ما ألف وصنف فى فروع الحياة المختلفة ، من لغة ونحو وأدب ومجموعات شعرية وشروح على الدواوين ..

اطلع على المعاجم وكتب النوادر والأمثال ، واطلع على كتب الفلك والأنواء والأزمنة ، اطلع ونهل حتى الثمالة حتى صار علماً فريداً ، وعالما قديراً يشار إليه بالبنان ، وتشد إليه الرحال ..

فالكتاب فى حياة المرزوقى العلمية ، مصدر أصيل ، ومنهل عذب .

لقد شاع فى عصره تحصيل العلم من الكتب ، ولم يعد هناك أدنى حرج فى أن يبنى المرء نفسه بنفسه دون الرجوع إلى الأساتذة — إلا فى الأمور الضرورية — وهذا ما دفعه إلى الاتصال بأبى على الفارسى لقراءة كتاب سيبويه عليه .

إن الكتاب فى عصر المرزوقى قد ذاع ، وانتشر تداوله على أوسع نطاق ، وصارت له القيمة الأولى والعظمى فى تثقيف العقول .. وما أظننا نغالى إذا قلنا أن الكتب فى هذا العصر كانت تنافس الشيوخ(١) ، خاصة بعد أن ضعف اعتماد القوم — علماء وغير علماء — على الرواية ، وصارت الرواية الشفوية مستحيلة ، والأخذ عن العلماء يستوجب التسجيل والتدوين لسهولة الرجوع إلى ما كتب وسجل ، لهذا زاد الاهتمام الناس بالكتب ، وتركز اهتمامهم فيها ، وغدا الإقبال عليها يفوق كل وصف ، خاصة بعد انتشار دور النسخ ، وأصبح كل فرد فى مقدوره أن يقتنى أى عدد من الكتب تسمح له بها ظروفه المادية . فلا عجب إذن أن يتخذ المرزوقى وغيره من أعلام الثقافة والأدب — الكتاب — بديلا من الشيوخ ، وأن يكون الكتاب مصدراً هاماً من مصادر ثقافته(٢) ، وإن لم يمنع ذلك — كما رأينا — من اتصاله ببعض الشيوخ من أمثال حمزة بن الحسن ، وابن العميد اللذين ذكرهما بالإسم ، إلى جانب بعض الشيوخ وعلماء المعانى ، وعلماء اللغة(٣) ، الذين نص على سماعه منهم ، وإن لم يذكرهم هو أو مترجموه .

---

(١) محمد أحمد خلف الله : أبو الفرج الأصفهانى الرواية ص ١٩٦ .

(٢) كان أحياناً يقول : « مر بى فيما قرأته من محاورات قريش » شرح الحماسة ١-٢٣١ .

(٣) كان يقول : « سمعت بعض أصحاب المعانى .. » شرح الحماسة ٣-١٣٢٦ ، ١-١٣٥ .

« قال ابن الأعرابى فى النوادر » شرح الحماسة ١-١٦٦ .

« حكى الأصمعى فى الأمثال » شرح الحماسة ١-١٥٥ .

« قال بعض الشيوخ ... » شرح الحماسة ١-١٨٠ .

« وقال أكبر علماء اللغة » شرح الحماسة ١-٤٧٦ .

تلاميذه :

من شأن المنهل العذب أن يكثر رواده ، ويتتابع قصاده ، ثم لا يزداد على الأيام إلا كثرة رواد وقصاد .. ولكن أين هؤلاء الرواد والقصاد التلاميذ؟ أين أولئك الذين كانوا يذهبون إليه ليقرأوا عليه ، أو ينقلوا آراءه ، أو يسألوه عن الأمور والمسائل التى تثير اهتمامهم ؟ .

إن هؤلاء التلاميذ – بهذا المفهوم – لا نجد لهم ذكراً فى المراجع أو فى كتابات الرجل ..

أما ما وقع فيه البعض من الوهم ، فذكر سعيداً البقال(١) فان سعيداً البقال هذا لم يكن تلميذاً له ، وإنما « كتب عنه »(٢) ، أى ترجم له وأرخ لحياته ، بدليل أنه أخرجه فى معجمه . والقدماء حريصون كل الحرص على دقة تعبيراتهم ، وتحديد مصطلحاتهم .. وهم يعنون بالتلمذة ، الأخذ عن العالم ، والسماع المباشر له ، والنقل منه ، وهم صريحون فى هذا التعبير صراحة مطلقة ، بمعنى أنهم جعلوا الأخذ دليلا على التلمذة ..

من هنا نستطيع أن نقول أن الرجل لم يكن مرجعاً لتلاميذ معينين محددين ، يتحلقون حوله ، ولم يقصر علمه على طائفة محددة من طلاب العلم .

أما تلاميذه المعتمدون – الذين نصت عليهم المصادر فهم « أبناء بنى بويه »

لذلك فنحن نرجح أن الرجل لم يكن يختص بطائفة معينة تحتكر جهده ، إنما كان يبذل علمه بالطريقة الشائعة .. طريقة العلم المطلق .. المفتوح ،

---

(١) محقق ديوان الحماسة ، وتابعه بعض الباحثين المحدثين .

(٢) قال ياقوت : « وكتب عنه سعيد البقال وأخرجه فى معجمه » معجم الأدباء ٥-٣٤ .

(٣) الأعلام ١-٢٠٥ .

لكل الناس ، فى المجالس(١) ، والمساجد والمنازل ، بدليل أن مترجميه قالوا : « وأخذ الناس عنه واستفادوا منه ، وحثوا إليه آباط الرحال »(٢) .

ولا شك أن الرجل — وهو الذى بنى نفسه بنفسه ، وجد أن خير طريقة تفيد طلاب العلم ، طريقته هو « العصامية » عن طريق الكتب .. لذلك فضل أن يكون له حصيلة علمية مسجلة مدونة ، مشروحة مذللة ، يقدمها بين يدى الناس بدلا من أن يقصر علمه ويبذله شفاها ، على طبقة محدودة من الطلاب ..

لذلك جعل كتبه فى خدمة العلم والتعليم ، فى خدمة طلاب الثقافة والمعرفة والدليل على ذلك — ما وجدناه من حوار طويل ، يقيمه بينه وبين قارئيه بين ثنايا الشرح والتحليل ، واستخدامه كثيراً لأسلوب الخطاب . من مثل قوله : « وهذا الكلام يجرى منه مجرى الاعتذار مما أجرى عليه مع القوم فاعمله »(٣) . . وهذا كما تقول(٤) : « ألا ترى »(٥) ، « فاعرف فرق مابين الموضعين »(٦) ، « الأفضل أن تجعلها . . لأنك إذا جعلتها »(٧) ، وكذلك نصائحه الدائمة التى كان يسديها إلى القراء بين ثنايا كلامه .

---

(١) للمرزوقى مؤلف اسمه « أمالى المرزوقى » أنظر آثار الرجل .

(٢) أنباه الرواة ١-١٠٦ .

(٣) شرح الحماسة ١-٤٥ — ٥٤ .

(٤) المصدر نفسه ١-٥٥ .

(٥) المصدر نفسه ١-١٠٢ .

(٦) المصدر نفسه ١-٦١ .

(٧) المصدر نفسه ١-٥٦ .

حياته :

لم تذكر المصادر الأدبية أو التاريخية القديمة شيئاً عن حياته الرسمية أو العلمية ، ولم تحدد من أين ، أو كيف كان يكسب قوته ، كل ما ذكرته أنه كان يتولى « تعليم أبناء بنى بويه » ، ونحن نعرف أن هذه الوظيفة كانت حكراً على مجموعة الأدباء الأفذاذ الذين يعيشون فى بلاط البويهيين وقصورهم ولا يتولاها غيرهم .. فقد كان بنو بويه يحبون العلم والأدب ، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب ، وكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم . كابن العميد والصاحب بن عباد والفارسي وغيرهم . لذلك فنحن نرجح أن يكون المرزوقى أحد كتاب دولتهم شأنه فى ذلك شأن ابن العميد والصاحب ، ويؤيد هذا القول ما كان بينه وبين الصاحب من منافسات كبيرة فى مجال العمل الرسمى ، والأدبى على السواء ، أدت إلى الجفوة والقطيعة ، حين أعتلى الصاحب منصب الوزارة ، فى حين بقى المرزوقى فى مكانه .. معلماً لأولادهم .

ولكن وظيفة المعلم هذه ، وإن كانت قد أبعدته عن مجالات الحياة الرسمية وإن كان لها أثرها السلبى على نفسية الرجل وطموحه العلمى ، إلا أنها كانت ذات أثر إيجابى فى حياته الأدبية والعلمية ، حيث عكف على البحث والدراسة وتفرغ كلية للعلم ، وأدى ذلك كله إلى عكوفه على التأليف والتصنيف ، وأنتج لنا أروع ما أخرجته قرائح العلماء من محصول توضيحى تفسيرى حول الشعر واللغة ، شهد بذلك كل من عرفوه أو قرأوه . فجاء شرح الحماسة مثلا « الغاية فى بابه »(١) لأنه « أجاد فيه جداً »(٢) ، وجاء كتابه «الأزمنة والأمكنة» من أروع ما كتب فى هذا المجال لما حوى من موضوعات تدل على سعة الأفق والاطلاع ، ووفرة العلم ، وجدة الاختراع ، مما حدا ببعض العلماء إلى

---

(١) أنباه الرواة ١-١٠٦ .

(٢) معجم الأدباء ٥-٣٥ .

تقريظ الكتاب وصاحبه ، فوصف المرزوقى بأنه « الإمام المحقق ، الهمام المدقق ، شيخ المهندسين ، ورحلة المنجمين ، أسوة الأدباء ، وقدوة العلماء »(١)

هذا عن حياته العامة .. أما حياته الخاصة ، أقصد الحياة الأسرية ، فقد تجاهلتها المصادر تماماً ، شأنها شأن كثير من الأمور ، من هنا لا ندرى هل عاش الرجل حياة الناس الأسرية العادية ، فتزوج وأنجب . هذا احتمال لا نملك تأييده ، لأنه وإن كان أحياناً يتحدث عن بعض الأمور العلمية أو بعض مصنفاته .. إلا أنه لم يذكر إطلاقاً شيئاً عن نفسه أو أسرته ، كذلك لم يذكر مؤرخوه أو مترجموه شيئاً عن ذلك ، ولم تشر المصادر إلى من حمل لقب المرزوقى من بعده .

قضية .. هل كان المرزوقى شيعياً ؟

لم أجد فى أى مرجع من المراجع القليلة التى أرخت للمرزوقى ، وترجمت لحياته ما يفيد تشيعه ، إن تلميحاً أو تصريحاً ، إلا فى كتاب أعيان الشيعة(٢) للعاملى قال : « كان (المرزوقى) فاضلا كاملا ، أديباً ماهراً ، شاعراً مجيدا من شعراء أهل البيت عليهم السلام » ، فاذا رجعنا إلى المصادر الأخرى — المحايدة — لم نجد دليلا أو نصاً واحداً يفيد ذلك .

وأكبر من ذلك وأقوى — أننى حين درست كتبه وشروحه لم أجد بين ثناياها نصاً واحداً ، يفيد أن الرجل كان شيعى المذهب أو الهوى ، أو استخدم مصطلحاً من مصطلحاتهم .

وثالث الأدلة — أن أحداً من علماء عصره أو مترجميه .. لم يذكر أنه شاعر .. أو نص على أن له شعرا .. كل ذلك يحفزنا إلى إعادة النظر فيما زعمه العاملى ..

---

(١) الأزمنة والأمكنة ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٢) ج ٩ المجلد العاشر ص ٣٥١ وهذا النص منقول عن كتاب معالم العلماء لشهرآشوب وهو شيعى أيضاً .

قد أجد دليلا دفع العاملى إلى إدراجه بين أعيان شيعته ، وهو أن بنى بويه كانوا من الشيعة(١) ، وأنه كان « معلم أولادهم » فهل يكفى هذا الخبر لأن يدرجه بين علماء الشيعة ؟

وقد يكون هناك دليل آخر — دفع العاملى إلى هذا الزعم وهو أن بنى بويه — وهم شيعة زيدية — كانوا يقربون أبناء عقيدتهم ، ويغدقون عليهم الأموال والهبات ويحاولون مسح الظلم عن جباههم التى مرغت فى تراب الأمويين والعباسيين على السواء . ونحن نعرف مدى تعاطف البويهيين مع الشيعة ، حتى أنهم ليقولون .. أن معز الدولة خطر بباله يوماً أن يخلع الخليفة العباسى « المستكفى بالله » وينصب بدلا منه خليفة علوياً ، لولا ما نصحه به بعض خواصه(٢) ، ولولا طمع البويهيين أنفسهم فى الخلافة .

لا شك أن حب البويهيين لأبناء عقيدتهم ، قرب إليهم عدداً كبيراً منهم ولكن ليس معنى ذلك أن جميع من اتصل بهم كانوا شيعة ، أو أن البويهيين

---

(١) إننا لا نستطيع أن ننكر ما تميزت به الحياة العقلية — فى الأقاليم الإسلامية — إبان القرن الرابع الهجرى ، فقد كان أبرز ما حدث فيها — هو انتشار المذهب الشيعى انتشاراً واسعاً ، ففى مصر الفاطميون يتشيعون ، وفى الشام بنو حمدان كذلك ، أما العراق فهو الموطن الأولى للشيعة ، وفى بلاد فارس عامة فإن بنى بويه لا يقلون تشيعاً عن أولئك ، بل فاقوهم استبداداً وتعصباً لمذهبهم الشيعى ، حتى أنهم « أرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعيين » .

(أنظر ما كتبه الدكتور حسن ابراهيم حسن عن هذا الموضوع فى كتابه « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ٣-١٠٣) .

(٢) قالوا له : « إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا ، فأعرض عما كان قد عزم عليه ، وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس ، وانفرد هو بالسلطان ، ولم يبق بيد الخليفة شىء البته إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته) .

انظر الكامل لابن الأثير ٦-٣١٥ .

كانوا لا يصطنعون إلا من اعتنق مذهبهم ، فقد وجدنا فى رحابهم كثيراً من رجال السنة(١) . ومن المعتزلة وغيرهم ، وكانوا يجدون نفس التقدير والاحترام ، لأن البويهيين كانوا يقدرون العلم والأدب ، ويقربون الشعراء والأدباء بصرف النظر عن أهوائهم ومذاهبهم فإن جمع هؤلاء الأدباء والعلماء إلى جانب علمهم ، عقيدة شيعية أو مذهباً علوياً كان بها ، وإلا فليس كل من يقربونهم يشترطون فى تأهيله أن يكون كذلك .

المهم – أننا لم نجد فى المراجع الأدبية أو التاريخية أو بين ثنايا كتبه وشروحه نصاً واحداً تصريحاً أو تلميحاً . يفيد أن المرزوقى كان شيعى الهوى ، خاصة وأنه ليس هناك ما يمنعه من الجهر برأيه ومذهبه .. كل ما وجدناه إشارات توحى بأنه كان متعاطفاً مع آل البيت ، مستنكراً ما حدث لهم بأيدى الأمويين والعباسيين على السواء .. من مثل قوله بعد شرح بيت الحصين بن الحمام :

نُفَلِّقُ هَاماً من أُنَاسٍ أَعِزَّةٍ
علينَا وهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا

« ... ويروى أن يزيد بن معاوية – لا رحمه الله – تمثل بهذا البيت لما وضع بين يديه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما »(٢) .

وفى شرح البيت عينه – فى المفضليات قال(٣) : « وحكى أن البيت

---

(١) أن تسيد المذهب الشيعى فى عهد البويهيين لم يمح المذهب السنى أو يهضم حق علمائه ورجاله ، فاذا كانت السلطة السياسية فى يد البويهيين الشيعة ، فقد كان تربع الخليفة العباسى السنى على عرش الخلافة ، وإن اقتصرت سلطته على الناحية الروحية – فهو رمز حى للوجود السنى رغم كل شىء .. ويشهد بوجود المذهب السنى وفاعليته ما كان يقوم من صراع بين أهل السنة والشيعة ، فكم من مرة أعلنوا تمردهم على بنى بويه ..

أنظر ما كتبه د. حسن ابراهيم حسن فى تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ٣-١٠٣ .
وانظر ما ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٦٢ هـ ، ج ٨ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٩٢ .

(٣) شرح المفضليات (مخطوط) وم ه ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية الصفحة ١٠٦ ورواية المفضليات « من رجال » خلافا لما جاء فى الحماسة « من أناس » .

تمثل به يزيد بن معاوية ، لعنه الله وأخزاه ، لما وضع بين يديه رأس الحسين ابن علي — صلوات الله عليهم أجمعين ، وجعل ينكت عوارضه بقضيب ويقول ....(البيت) ؟

وهذا الأمر استنكره كل إنسان ، وكل ذوى القلوب الرحيمة التى تتأثر بمصائب الناس ، وما يتعرضون له من ظلم وبطش .. فكيف إذا كان هذا الأمر يقع على آل البيت وعترة الرسول — صلى الله عايه وسلم .

إن مقالة المرزوقى هذه لا تعنى مطلقاً تشيعه ، لأن هذا العمل المقزز دمغه المسلمون جميعهم وتبرأوا منه ، بل أن أهل السنة أنكروا بشدة وحزم ما تعرض له آل البيت جميعاً ، وليس الحسين فقط ..

ومهما يكن من أمر ، وأياً كان مذهب الرجل العقيدى .. فإننا لا نقصد من جرينا هذا إلا أن نقول الحق للحق ، ونسجل ما نطقت به المصادر حين استشرناها ، وكما لا يرفع من شأن الرجل أن يكون سنياً ، لا يقلل من شأنه أن يكون شيعياً .. إنما هذه ملحوظة سجلناها على علماء الشيعة يريدون أن ينسبوا كل مكرمة وكل علم وكل فضيلة لأنفسهم ولعلمائهم ، ويتخيرون النابغين من العلماء ويدرجونهم فى معاجمهم فخراً وافتخاراً .

آثـاره

أولا : الشروح

١ — شرح الحماسة(١) :

أشهر وأمتع مصنفاته ، وأكثرها تصويراً لعلمه وفهمه للنصوص الشعرية. وأبرزها توضيحاً لمنهجه فى الشرح ..

وصف القفطي هذا الشرح بأنه « الغاية فى بابه » .

وقد قام بتحقيقه ونشره الأستاذ عبد السلام هارون ، وقدم له الأستاذ أحمد أمين ، ونشرته لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٥١ م وطبع عدة مرات .

٢ — شرح المفضليات(٢) :

وهذا الشرح لا يزال مخطوطاً ينتظر من ينهض بتحقيقه ونشره ، وتوجد منه نسخة وحيدة مخطوطة فى مكتبة برلين(٣) تحت رقم ٧٤٤٦ ، وقد قام معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية بتصوير هذه النسخة « ميكروفيلم » وقد نشر لايل فصلا صغيراً من هذا الشرح وألحقه بديوان المفضليات بشرح الأنبارى(٤) .

٣ — شرح ديوان الهذليين(٥) :

وهو أحد الدواوين المفقودة .. فلم نجد له ذكراً فى أى من الفهارس .

---

(١) أنباه الرواة ١-١٠٦ ، بغية الوعاة ص ١٥٩ ، معجم الأدباء ٥-٣٥ ؛ وأنظر ما كتبه بروكلمان عن نسخ الحماسة فى شرح المرزوقى فى مكتبات العالم ١-٧٩ .

(٢) بغية الوعاة ص ١٥٩ ، معجم الأدباء ٥-٣٥ .

(٣) بروكلمان ١-٧٤ .

(٤) أنظر ص ٨٨٧ وما بعدها .

(٥) خزانة الأدب ٣-١٥١ ، كشف الظنون ٤-٣٩٩ ، معجم الأدباء ٥-٣٥ ؛ وقد جاء ذكره فى البغية (ص ١٥٩) تحت اسم « كتاب شرح أشعار هذيل » .

وقد ذكره المرزوقى نفسه أثناء تقديمه لشرح المفضليات.. قال — لمن طلب إليه شرح المفضليات : « فهل ترى أن تقيم لشرح ما نقده بعض فراغك ، وتشركه مما نصبت له إشراك تحصيلك ، وألطاف تلخيصك ، من شروح دواوين هذيل والحماسة وغيرها .. »(١) .

٤ — شرح ديوان القطامى(٢) :

ذكر بروكلمان أن هذا الشرح كتب سنة ٣٦٤ هـ ، ولم يذكر مصدره فى ذلك . ومنه نسخة مخطوطة فى برلين برقم ٧٣٢٧ ، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية ، مدرجة فى القاهرة أول ٤/٢٥٠ ، القاهرة ثانى ٣/١٤٣

٥ — شرح الفصيح(٣) :

ذكره المرزوقى مراراً(٤) وهو بصدد التعرض للمسائل اللغوية والصرفية من مثل قوله : « . . وقد أحكمت القول فيه وفى تصريفه وجمعه فى شرح كتاب الفصيح »(٥) . وقد ذكر بروكلمان(٦) — أنه توجد منه نسخة مخطوطة فى كوبريلى تحت رقم ١٣٢٣ .

٦ — شرح المشكل من شعر أبى تمام :

لم تذكره المصادر القديمة التى ترجمت له .. ولكن الدكتور محمد عبده عزام عثر على نسخة مصورة منه فى إحدى مكتبات استانبول تقع فى ١٠٥ ورقة(٧) .. يقول عنه :

---

(١) نسخة مصورة ميكروفيلم ص ٤ .

(٢) بروكلمان ١-٢٣٧ .

(٣) أنباه الرواة ١-١٠٦ ، بغية الوعاة ص ١٥٩ ، معجم الأدباء ٥-٣٥ .

(٤) شرح الحماسة ٢-٥٦٢ ، ٧٢١ ، ٣-١٠٢٩ ، ١٣٦٢ ، ٤-١٨٤٣ . وانظر المزهر لسيوطى ١-١٢٢ (الأزهرية) ، وبروكلمان ٢-٢١١ .

(٥) شرح الحماسة ٣-١٣٦٢ .

(٦) بروكلمان ٢-٢١١ .

(٧) مقدمة تحقيق شرح التبريزى على ديوان أبى تمام ، ص ٣٨ .

« وكتاب المشكل عبارة عن بعض أبيات من شعر أبي تمام ، اختارها المرزوقى ليشرحها على طريقته ، غير متبع فى إختياره قاعدة بعينها ، فليس هذا الكتاب – كما يفهم من عنوانه – بعض عويصات أبي تمام ، ولا بعض أبياته المشهورة بمعانيها الحسان ، ولكنه اختار من بعض القصائد بعض الأبيات يختار من القصيدة البيتين أو الثلاثة ، أو فوق ذلك بقليل ، ثم يشرحها ليجعل ذلك كما يقول .. معيناً يهدى لسائر ما فى شعر أبي تمام » ..

وتوجد الآن من هذا الكتاب نسخة ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم ٥٤٩ ب .

وقد عثرت على نسخة أخرى مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٢٩ (شعر تيمور) .

٧ – شرح الموجز فى النحو(١) :

وهو أحد الكتب المفقودة .. وقد جاء ذكره بهذا المسمى فى عيون التواريخ أما صاحب معجم الأدباء فقد اكتفى بقوله : « شرح الموجز » .

٨ – شرح النحو(٢) :

وهو أحد الكتب المفقودة كذلك .. والظاهر أنه الكتاب السابق .

ثانياً : كتب أخرى متنوعة

٩ – الأديب :

لم يشر إلى هذا الكتاب أحد من مترجميه ..

ولكن المرزوقى ذكره أثناء شرحه لأحد أبيات ديوان الحماسة (٣) .

---

(١) معجم الأدباء ٥-٣٤ ، بغية الوعاة ص ١٥٩ .

(٢) معجم الأدباء ٥-٣٤ .

(٣) شرح الحماسة ٤-١٨٧٧ .

١٠ — الأزمنة والأمكنة :

ذكره المرزوقى فى كتابه « شرح الحماسة »(١) .

كما ذكره بعض مترجميه(٢) .

وقد طبع هذا الكتاب فى الهند سنة ١٣٣٢ هـ .. ويقع فى مجلدين .

١١ — ألفاظ العموم والشمول(٣) :

وتوجد منه قطعة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤١٤٠ — أدب .

١٢ — الأمالى :

وهو كما يشير عنوانه مجموعة من الأمالى التى أملاها المرزوقى على تلاميذه ويبدو أن أحدهم جمعها من بعده ونسبها إليه ، لذلك لم يذكره مترجموه .

وقد أمكننا العثور على قطعة منه مخطوطة بدار الكتب المصرية وهى تحت رقم ٣٣٠٠ — أدب . وقد جاء فى التعريف بها : « أمالى المرزوقى .. تكلم فيها على شرح طائفة كبيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والأمثال العربية ، والحكم المأثورة ، مع ذكر ما يناسبها من العلوم المختلفة ، وختمها بفصل فيما جاء من أسماء الأجناس مضافاً فى كلام العرب إلى أسماء مواضعها ، أو ما يجرى مجرى ذلك »(٤) .

كما عثرنا فى المكتبة التيمورية على نسخة أخرى ، فى آخرها ملحق يضم ترجمة للشاعر سحيم عبد بنى الحسحاس (ص ١٨٥) وهى تحت رقم ٤٠٣ شعر .

١٣ — الانتصار من ظلمة أبى تمام :

ذكره المرزوقى بين ثنايا شرح الحماسة(٥) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٩١ .

(٢) معجم الأدباء ٥-٣٤ .

(٣) الأعلام ١-٢٠٥ .

(٤) فهرس آداب اللغة العربية ٣-٢٣ .

(٥) شرح الحماسة ٣-١٦٢٠ وانظر بروكلمان ٢-٧٤ .

وقد استعان التبريزى - كدأبه - بأقوال المرزوقى وآرائه التى ضمنها كتابه هذا ، فى شرح ديوان أبى تمام .

ويوجد من هذا الكتاب جزءان مصوران من نسختين مختلفتين :

الأولى : نسخة بدار الكتب المصرية ، وأصلها المخطوط بمكتبة سوهاج تحت رقم ١٠٦٤٠ ز .

والثانى : نسخة مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ، عن أصل مخطوط بمكتبة جامع برقم ١٠١٥ باستانبول .

وتوجد نقول كثيرة من هذا الكتاب - فى كتاب ابن المستوفى - (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) المسمى « النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام »(١) .

١٤ - تحصيل نيل المرام فى بيان منظومة العوام :

وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥٢ (علم الكلام)(٢) .

١٥ - رسالة فى مسألة (موّق) :

ذكرها المرزوقى بين ثنايا شرح الحماسة(٣) .

١٦ - مفردات متعددة فى النحو (٤) :

هذه هى مصنفات المرزوقى .. يهمنا منها ما يتصل بشرح الشعر الجاهلى إتصالا وثيقا . وقد وصل إلينا منها :

١ - شرح الحماسة .

٢ - شرح المفضليات .

---

(١) أنظر ما كتبه عنه الدكتور محمد عبده عزام فى « الشرح والرواية » على ديوان أبى تمام ، رسالة ماجستير (مخطوطة) .

(٢) فهرس المخطوطات بدار الكتب ، مادة (علم الكلام) .

(٣) شرح الحماسة ٤-١٨٣٥ .

(٤) أنباه الرواة ١-١٠٦ .

أما الشرح الأول فهو بين أيدينا مطبوعاً محققاً .

أما الشرح الثانى ، فلا يزال مخطوطاً .

وسيكون أكثر اعتمادنا بالطبع على الشرح الأول ، لسلامة نشره وتحقيقه حيث أن الشرح المخطوط المصور .. به بعض التلف من ناحية ، وبعض صفحاته غير واضحة .

منهجـه

لقد أطلقنا على منهج المرزوقى فى شرح الشعر .. المنهج الإبداعى الفنى ؟ فماذا نقصد بهذا المنهج .. وما هى مقوماته أو معاييره الفنية .. وإلى أى مدى تنطبق هذه المعايير على شرح الرجل ؟

نقصد بالمنهج الإبداعى .. ذلك المنهج الذى يقوم على دعامات فنية ، ومقومات أدبية وعلمية ، تتآزر فيما بينها لتخدم النص الشعرى ، وتضىء جوانبه ، وتبرز سماته ومعانيه فى أجمل صورة ، وعلى أكمل وجه .

نقصد به .. المنهج الذى يقوم على إعمال العقل ،وكدّ الفكر ، وإستنطاق النصوص بما فيها ، وما وراءها ، ويستند إلى المحصول الثقافى الواسع فى علوم اللغة والأدب ، ويظهر فى إطار فنى بديع ، يعكس ملكة صاحبه الخلاقة ، الواعية الذواقة ، الفاهمة لأغراض الشعر ومراميه ومعانيه .

نقصد به .. المنهج الذى يقوم على استغلال إمكانات اللغة ، والتفنن فى إستخراج مكامن علوم البلاغة ، لإظهار ما يؤديه من جمال التصوير ، وروعة التعبير ، فى إطار من حسن العرض ، وكمال التحليل ،وجودة التعليل .

نقصد به .. المنهج الذى يقوم على إستعراض الروايات ، ومقارنتها ، واختيار أفضلها وأجودها وأقربها إلى مذهب الشاعر ومقصده ..

ونقصد به أخيراً .. المنهج الذى تظهر فيه ذاتية الشارح ، وشخصيته ، وملكته الأدبية ، وقدرته على بلورة الأفكار ، وتقديم التصورات الممكنة ، والمحتملة والجائزة ، فى غلاف من الأسلوب الأدبى المؤثر ، المحرك لمشاعر القارىء أو السامع ووجدانه .

فليست الشروح – فى هذا المنهج الإبداعى – تحصيل حاصل ، أو تقديم

مادة لغوية أو نحوية ، ولكنها مجال خصب لعرض معانى الشعر ، فى أبهى صورة ، وأجمل زى عرضاً فنياً جميلا ..

• إن شرح الشعر – فى هذا المنهج – عملية فنية رائعة ، يرسمها فنان بارع ، له المقدرة العلمية على الإقناع والإمتاع ، والتفنن فى توضيح الصورة الشعرية التى رسمها الشعراء قديماً ، وتحديد أبعادها ، وعرضها بأسلوب شيق جذاب ، مما يجعل هذه الشروح إلى جانب مادتها الفنية ، مادة أدبية تحرك المشاعر ، وتنعش الوجدان وتجعل القارىء يستطيع أن يعايش الشاعر فى تجاربه الشعورية وحالاته الوجدانية ..

إن عملية الشرح عند أتباع هذا المنهج ، ليست تعليمية بالضرورة ، ولكنها تفى أيضاً بالحاجات النفسية والثقافية والجمالية ، وتضم إلى ذلك العناصر الفنية التى يتطلبها القوم ، وكثيراً ما نادوا بها .

إن شرح الشعر بهذه الطريقة ، عامل من عوامل ربط الشاعر بالقارىء وبالشارح أيضاً ، بوصفه الطرف الوسيط ، المترجم ، الموضح والمحلل .

إن شرح الشعر بهذه الطريقة الإبداعية ، هى أقرب الطرق إلى عواطف القارىء قبل ذهنه(١) .

ولا يقف هذا المنهج عند حدود ما تحمله اللغة من معان مباشرة ، أو يقدمه النحو من ارتباطات محددة ، بل هناك إلى جانب ذلك ، اجتهادات وابتكارات وتصورات لا حصر لها ، نتيجة لإعمال العقل ، واتساع الثقافة ، واكتساب الملكات البيانية ، أضف إلى ذلك مقدرة رائعة لا على الفهم والإستيعاب فقط ، بل على العرض والتحليل ، فى أسلوب تصويرى يفى

---

(١) يقول المرزوقى : « الأدب حبس العقول ، والتأدب إكتساب القلوب والاستنباط جوالب الأفكار ، والبحث عن المكامن بأداة البصائر والأبصار ، ولكل منها أسباب مكرمة ، وأعلام مرفعه ، يسيرة كاسب الجمال ، وكثيرة كاسى الجلال .. » .

(الأزمنة والأمكنة ٢-٣٨٥) .

بكل التزامات هذا المنهج ، ويبرز قسماته وملامحه ، فالشارح هنا — لا يوصل رؤى الشاعر مباشرة ، ولكن من خلال نفسه ، من خلال التأثر الذاتى ، والانفعال النفسى ، والتعبير الخاص والمحصول الثقافى والعلمى ، من خلال ملكته الواعية ، ونفسه المتأثرة ، ولغته المعبرة ، دون ما انفصال بين الثلاثة — الشاعر والقارىء والشارح .

وهنا نقول .. إن الشرح ليس مادة توضيحية تحليلية فحسب ، بل أنه عامل أساسى من عوامل إكمال اللذة النفسية ، والمتعة الذهنية ، ولولاه لما تذوق القارىء أو السامع حلاوة الشعر .. وهذا ما قصدناه بالإبداع ، وهذا ما عنيناه حين قلنا .. إن هذا المنهج يقوم على التفنن ، وإعمال العقل ، والدراية المكتسبة من الثقافة الأدبية والعلمية .

هذا هو مفهومنا للمنهج الإبداعى فى شرح الشعر ..

وهذه هى معاييره الفنية التى توضحه ... فى رأينا .

إننا إذا طبقنا هذه المعايير الفينة — لهذا المنهج — على ما وجدناه للمرزوقى من شروح ، نجد أنها تتطابق تمام الانطباق ، وتتكامل عنده تكاملا تاماً ، فى وئام وانسجام ، فشروحه وحدة متكاملة ، وصورة معبرة لهذا المنهج الإبداعى .

المرزوقى شارحاً

جرت عادة الشراح حين يتصدون لشرح نص شعرى ،[٦] أن يسلكوا مسالك ثلاثة متوالية :

أولها : شرح الألفاظ الغريبة .

وثانيها : شرح العبارات المشكلة .

وثالثها : توضيح المعنى الكلى نتيجة لتوضيح العنصرين السابقين .

هذا هو الأصل العام فى الشرح .. وهذا هو المنهج الذى سار عليه معظم من تصدوا لشرح الشعر من العلماء، يبدأون بالجزء ويتدرجون إلى أن ينتهوا إلى الكل ، ويتوسلون بالجزئيات للوصول إلى الكليات .

من هنا كان تفسيرهم تصاعدياً ، خطوة تؤدى إلى أخرى وتساعد على الوصول إلى ما بعدها ، إلى أن يكمل الشكل العام لشرح البيت ، مع ما يكون إلى جانب ذلك من شروح أخرى بلاغية أو نقدية أو تاريخية .. إلى غير ذلك .

فإذا نظرنا إلى شروح الشعر عند المرزوقى .. نجد أن منهجه مغاير تماماً لكل من سبقوه أو عاصروه .

إن أول ما يثير اهتمام المرزوقى هو المعنى ، يريد أن يقدمه أولا قبل أى شىء آخر ...

فالمرزوقى رجل معان وشارح معان .. ومحور الشرح عنده هو المعنى .. المعنى كل هدفه ومبتغاه ، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف ، وهذه الغاية ، يتوخى أموراً ، ويسلك مسالك ، ويتوسل بوسائل عدة كلها تخدم هذا الغرض وتحقق هذا الهدف ..

وهنا احترز فى القول – فالشراح جميعاً هدفهم الوصول إلى حقيقة المعنى ، ولكن هناك أموراً لا يستطيعون الفكاك منها ، تصيدهم وتجذبهم ، فيقعون فى إسارها، يدورون فى نطاقها لا يتعدونها ، دون اهتمام كبير بخطة الغرض الأساسى وهو المعنى .. إنما هم يتعمقون مسائل اللغة ، ويتناولون مسائل النحو إلى غير ذلك .. ومن هنا كانت شروحهم – فى معظمها – علمية – تغلب عليها تخصصاتهم واهتماماتهم ، وكأن عملهم تشريح للنص قبل أن يكون شرحاً للمعنى وإبرازاً لسمات الشعر أو مضامينه الجمالية ..

أما المرزوقى .. فالمعنى هو دَيْدنه، وهو شغله الشاغل ، وهو كل اهتمامه وكل هدفه ، المعنى له الصدارة وله الأولوية فى الشرح . دون أن يطغى عليه أى عامل مساعد آخر ..

ومن هنا كانت شروحه معنوية فنية .. تمس جوهر الشعر قبل مظهره ، وتصل بين الشعر والشاعر والقارىء .. وتربط بينهم برباط وثيق من المعرفة فى إطار من الأسلوب الفنى الجميل ، الذى يخاطب الأحاسيس والمشاعر قبل أن يخاطب العقول ..

إن المرزوقى لا يقدم المعنى المباشر – القريب – فقط ، أو يقدم المعنى الذى توحى به اللغة فقط ، ولا المعنى الذى يؤدى إليه النظم فحسب ..

بل يقدم المعنى بهذا كله .. وبشىء آخر هو الإحساس الفنى ، والمشاركة الوجدانية والفهم العميق للمشاعر ، والدراية الكبيرة بأحداث الشعر ، وبالإضافة إلى كل هذا .. قدرة على الإبداع والابتكار ، والتحليل والتخييل ، كل ذلك – كما قلنا – فى غلاف شفاف رقيق من الأسلوب الأدبى الجميل ، الرصين العبارة ، الملىء بالتصوير ، والإيقاع النفسى والصوتى .

لذلك قلنا – ونقول – إن المرزوقى رجل المعانى الأول – وأبرز من تصدى لشرحها وأبرعهم على الإطلاق .

ونحن لا نقول هذا الكلام جزافاً ، ولكن بعد استقراء عشرات الشروح والأعمال الأدبية له ولغيره من العلماء السابقين والمعاصرين له على السواء .

أنظر مثلا كيف فسر ابن جنى – صنو المرزوقى ومعاصره – بيت عمرو بن كلثوم :

ثَلاَثَةُ أَثْلاَثٍ فأَثْمَانُ خَيْلِنَا
وأَقْوَاتُنَا وما نَسُوقُ إلى العَقْلِ

قال : (١) « وقوله : أى أموالنا ثلاثة أثلاث ، فحذف المبتدأ ، وحذفه أيضاً فيما بعد فى قوله : (فأثمان خيلنا) ، أى فثلث أثمان خيلنا ، أو فأثمان خيلنا ثلث كذا وكذا وكذا ، وجاز أن يقدره على : ثلث أثمان خيلنا ،

---

(١) التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ص ١٦٠ رسالة ماجستير مخطوطة .

فيبتدىء بالنكرة ويخبر بالمعرفة من حيث كان الغرض، إنماهو ثاث أموالنا من أى ناحية تناولناه . ويجوز أن نعتقد الفاء فإن ذلك كثيراً فى الشعر والقرآن فيبدل أثمان وأقوات وما نقود من ثلاثة أثلاث ، أى مالنا أثمان خيلنا وأقواتنا وما نقود إلى القتل . وقال ثلاثة أثلاث ولم يقل ثلاثة أقسام من قبل أن الأقسام قد تكون متساوية وغير متساوية ، فأراد صحة القسمة ، واعتدال المساهمة » .

ثم أنظر كيف فسر المرزوقى هذا البيت عينه .. قال (١) : « أراد : أموالنا ثلاثة أثلاث ، فيرتفع الثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وما بعدها تفسير لها وتفصيل ، ونبه بما أورد وقسم على الوجوه التى انصرفت إليها أموالهم فأفنتها ، والطرق التى توزعتها فقللتها ، فقال : افترقت أموالنا فرقاً ثلاثة ، ففرقة منها صرفناها إلى أثمان خيلنا لأنا غزاوون ، ومُعَالجو حُروب ، فلا نستغنى عنها ، إذ كان جدُّنا وهَزْلنا منها وبها ، وفرقة منها حَبَسنَاها على أقواتنا ومعايشنا ، لأن العُفَاة والزوار كانت تنتابنا ، وتتناوب عليها حتى نستغرقها ، ولأن إقامتنا بدار الحفاظ شغلتنا عن الغزو واجتذاب الزيادة إليها ، وفرقة منها وجهناها إلى الديات ، أُرُوش الجنايات التى كَسَبَتها أيدينا واجْتَرَحَتْها رماحُنا ، إذكنّا لِعزِّنا ومَنْعتنا لا يُطْمَع فى الاقتصاص منا .

وفرق بين التفسيرين .. تفسير يغوص فيه صاحبه وراء اللغة وإعرابها ، حتى لينسى فيه كل شىء حتى إحساس الشاعر ..

وآخر يحلق فيه صاحبه وراء المعنى .. يتلمس جوانبه ومضمونه .. لذلك قلنا أن المرزوقى رجل المعانى .

وما دام هذا العنصر هو غايته ، فقدكان أهم ما يقدمه بين يدى قارئه ، وطالبى علمه ..

فنراه يقدمه أولا على هيئة « مضمون البيت » أو « تقديره » حسب تعبيره ثم يقدمه ثانياً فى صورة « قول الشاعر » ويسرده على لسانه . ثم يعرضه ثالثاً

---

(١) المرزوقى : شرح الحماسة ١-٤٧٧ .

فى صورة « المعنى » مجرداً ، حسب مفهومه ، وحسبما أوصلته إليه وسائله العلمية و العقلية وثقافته الفنية ..

وأخيراً — يبتكر له معانى أخرجها عقله ، وانفعل بها فكره ، وأنتجها خياله وإحساسه العميق بمشاعر الشاعر وظروفه .

فإذا ما انتهى من تقديم المعنى فى هيئاته وصوره المختلفة .. قدم كل دليل ، وكل توضيح بالعناصر الأخرى المكملة والمساعدة على توضيح المعنى من رواية ولغة ونحو وبلاغة وغير ذلك .. لإثبات صحة ما ذهب إليه، ودقة ما توصل إليه

— هذا هو المنهج العام الذى سلكه المرزوقى فى شرح الشعر .

— وهذه هى الأسس التى قام عليها منهجه فى توصيل المعانى إلى قارئيه أو سامعيه .

١ — فمثلا يقول عن بيت العباس بن مرداس :

إذَا طَالَتْ النَّجْوَى بغير أُولى القُوَى
أضاعت وأضْعَتْ خَدَّ مَنْ هُوَ فَارِدُ

« هذا بيان الرأى فى قبول ما أشار به ، وترك التعريج على غيره »(١) .

٢ — ويقول عن بيت موسى بن جابر :

ذَهَبْتُمْ فَلُذْتُم بالأمر وقُلْتُم
تَرَكْنا أَحَادِيثاً ونَحْماً مُوُضعَا

« يخاطب قومه ويلومهم على ما كان منهم من القعود عن نُصْرته ، والنكوص عن مشايعته ، واعتلالهم عند اعتذارهم من ذلك بالمعاذير المَشُوبة بالكذب »(٢) .

---

(١) شرح الحماسة ١/٤٣٨ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٧٣ .

٣ – ويقول عن مضمون بيت العباس بن مرداس :

أبَعْدَ الإزَارِ مُجَسَّداً لك شَاهداً
أُتِيتَ به فى الدَّارِ لم يَتَزَيَّلِ

« هذا الكلام وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فهو تقريع وإنكار ، وتنبيه وإنذار فيما يضرب المخاطب عنه ، ويغفل دونه ، مع كونه أعدل شاهد على سوء نيتهم ، وخبث طويتهم ، ومع خروجه عن حيز الاستدلال عليه إلى المشاهدة ، ومن خلل الخفاء والتشكك إلى ظاهر الضرورة »(١) .

٤ – ويقول المرزوقى عن مضمون بيت سبرة بن عمرو الفقعسى :

نُحَابِى بها أَكْفَاءَنَا ونُهِينُهَا
ونَشْرَبُ فى أَثْمَانِهَا ونُقَامِرُ

« بين وجوه تصرفهم فيما عبرهم به .. وفى تعداد هذه الوجوه إبطال لكل ما أوهم أو ادَّعِيَ يلحق من العار فى اقتنائها وادخارها »(٢) .

٥ – ويقول عن مقصود الكلام فى بيت شأس بن نهان بن أسود :

صَحَا عَنْ تَصَابيه الفؤاد المُشَوَّق
وحَانَ مِنَ الحَيِّ الجَمِيع تَفَرُّقُ

« يذكر أنه قد حل بفنائه ما شَغَلَه عمَّا كان يتعاطاه ويَقْصُرُ وقتَه عليه من طلب اللهو وقصده إلى أبعد الغايات فيه »(٣) .

٦ – وعن مضمون مقطوعة المرقش :

وإذا ما سَمِعْتِ من نَحْوِ أرض
بمُحِبٍّ قَدْ مَاتَ أَوْ قِيلَ كَادَا

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ١-٢٣٩ .

(٣) شرح المفضليات : ملحق شرح المفضليات للأنبارى ص ٨٨٩ .

فاعْلَمِي غَيْرَ علم شك بأني
ذَاكِ ، وأبكي لمُصْفَدٍ أَنْ يُفَادَا

يقول المرزوقي « بين بهذا الكلام شدة وجده ، واستمرار هواه في الميل إليها وإشرافه على موته »(١) .

فاذا ما قدم المرزوقي – إلى قارئه – هذه الجرعات المنشطة لذهنه ، وتأكد له جذب انتباهه ، وإثارة اهتمامه .. انتقل إلى المرحلة التالية من مراحل تفسير المعنى .. فقدم إليه مقالة الشاعر – عن معناه – بلسانه ، محدداً المعنى الذي قصده .. وكأن هذه المقالة تأكيد وتدعيم للانطباعات الأولى التي سردها أولا ..

١ – ففي المثال الأول وبعد أن حدد مضمون قول العباس بن مرداس :

يقول : « يقول (الشاعر) : إذا طالت المناجاة ، وامتدت الاستشارة مع غير أرباب الآراء القوية ، ضيعت المستشير ، وأمالت خده ، وصار في الانفراد بما يعانيه بمنزلة مَنْ لا ناصر له ولا مشير ، لوقوع التشاور على غير حدة ، وتفسير المشير في القيام بواجبه »(٢) .

٢ – وفي المثال الثاني – بيت موسى بن جابر :

يقول عن المعنى الذي قصده الشاعر :

« يقول :إلتجأتم إلى الأمير ، وقلتم تركنا قومنا يقولون ، ولا يفعلون ، وعند تسلط الأعداء عليهم لا يمتنعون منهم ولا يدافعون ، فهم كاللحم المبضع على خوان الجزار تمتد الأيدي على توضعه إليه ، وتتعلق الأطماع بتناوله وأخذه .. »(٣) .

---

(١) شرح المفضليات ص ٧٨٧ .
(٢) شرح الحماسة ١-٤٣٨ .
(٣) شرح الحماسة ١-٣٧٣ .

٣ — وعن بيت العباس بن مرداس — فى المثال الثالث :

يقول المرزوقى بلسان الشاعر .. « يقول : أتغترهم أو تستريب بما أحذرك منهم ، بعد ظهور أمرهم وانكشاف قصدهم ، وبعد ما أتيت به فى الدار من الإزار المتلطخ بدم ابن عمك ، وقد يبس عليه ، ولم يتزيَّل عنه »(١) .

٤ — ويقول بلسان سبرة بن عمرو الفقعسى :

« يقول (الشاعر) نجعلها (يقصد الإبل) حباء لنظرائنا فنتّهادى بها ، ونسهل تمكن العفاة والزوار منها بابتذالها وإهانتها ، ونبيعها فنصرف أثمانها إلى الخمر والإنفاق ، ونضرب بالقداح عليها فى الميسر عند اشتداد الزمان ، فنفرقها إلى الضعفاء والمحتاجين إليها .. »(٢) .

٥ — أما بيت شأس بن نبهان :

فبعد أن ذكر تقديره للكلام . . ومضمون معناه ، تناول المرزوقى سرد قول الشاعر فقال : « يقول : أفاق قلبي من غرة التَّبَطُّل واتباع الهوى ، والتَضَلُّل ، وقد قرب التفرق بين المجتمعين ، والتباعد من المتقاربين لما دَهِيَهم من الحال ، ودعاهم إليه واجب الترحال »(٣) .

٦ — وأما عن مقطوعة المرقش فى المثال السادس :

فيقول المرزوقى على لسان الشاعر : « يقول : متى سمعت فى أقطار الأرض بأن محباً أهلكه الهوى ، وأن الوجد أفنى عاشقاً أو كاد يُفْنِي . فتَيَقَّنِي أنى ذاك الواجد المحب ، ودعى الشك عنك ، وأرثيني رحمة منك لى(٤)

فإذا ما انتهى المرزوقى من تقديم المعنى بصورة وهيئاته المختلفة .. تحول

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٣٥ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٣٩ .

(٣) المرزوقى : شرح المفضليات ، ملحق بشرح الأنبارى ، ص ٨٨٩ .

(٤) المرزوقى : شرح المفضليات ، ملحق بشرح الأنبارى ، ص ٨٨٧ .

بعد ذلك ليوضح معانى العبارات والألفاظ ومدلولاتها حسبما جاءت فى الشعر وأدت إليها اللغة .

« فإصغاء الحد » فى بيت العباس بن مرداس – فى المثال الأول – معناها : « الإذلال والانحراف للفُتُور والخجل » و« القُوَى » : جمع قوة ، وأصلها طاقات الحبل ، ثم استعملت فى الآراء والعزائم ، وأصل النجوى المسارة فاستعيرت للمشورة لأنها فى أكثر المواضع تقع بها » .

و« الموضَّع » فى بيت موسى بن جابر معناها « المُقَطَّع المفرق فى مواضع و« المجسَّد » – فى المثال الثالث – معناها : الثوب المُشْبَع صِبَغاً ، . و« الجِسَادُ » : الزعفران ، ومعنى « لم يتزَّيل » : لم يفارق الدم ، ولم يَنْفَكَ مما خالطه منه » .

وهذا يكاد يكون منهجاً عاماً سار عليه المرزوقى فى معظم شروحه على الشعر .

فإذا ما أنعمنا النظر فى هذا الشرح ، وجدنا أن المرزوقى ، ينتهج نهجاً عكسياً يختلف كثيراً عما ألفناه لدى معظم الشراح .. ينتهج نهجاً تنازلياً ، يبدأ من أعلى إلى أسفل ، يبدأ بالكل ويتدرج إلى أن يصل إلى الجزء ..

ربما كان هذا المنهج يرتبط ، بإحساسه الذاتى ، بسمو نفسه ، وارتفاع منزلته .. فهو لا يسير فى شرحه كسائر الشراح ، ويصعد بالقارىء خطوة خطوة أو درجة درجة .. بل هو يطل على قرائه من عليائه بمفهومه وتقديره للكلام ، ثم يرتفع بقارئه إلى أعلى ليقدم بين يديه نتائج ومفاهيم استخلصها من مقدمات فى ذهنه ، ويطوف به على عناصر الشرح المختلفة ثم ينزل به وئيد الخطى ليبرهن على صحة رأيه ، وحسن فهمه . إنه يقدم له نتائج تأكد له صدقها ، ويعرض عليه حقائق ، آمن هو بها .. لذلك قلنا أن هذا الرجل صاحب منهج خاص – تفرد به ، قائم على الإبداع الفنى المدعم بالدراية والعقل ...

وأنا لا أشك فى أن هذه الطريقة التنازلية فى الشرح .. الانتقال من المعنى الكلى إلى العناصر الجزئية – كانت عاملا مفيداً وهاماً فى إعمال عقله، وإجلاء فكره، وتنشيط خاطره فيقدم الجديد.

إن النص الشعرى لا يغيب عن ناظره وفكره فى كل خطوة يخطوها، بل يظل يقلبه ذات اليمين وذات الشمال، ويستخرج منه ما يمكن أن يوحى به من معان ممكنه ومحتملة، وجائزة .. معان حقيقية وأخرى مجازية.

ولننظر فى بيت عنترة بن الأخرس :

أَلَمْ تَرَ أن شِعْرَكَ سارَ عَنِّى
وشِعْرِى حَوْلَ بَيْتِكَ ما يَسِيرُ

معناه الظاهر – كما يقول المرزوقى(١) : « ألم تعلم أن شعرك الذى قلتَه فىّ لم يَعْلَق بى ذَمُّه، لأنه كان كذباً وزوراً، وشعرى الذى قلته فيك يطوف حول دارك وبيتك ولا يفارقك لأنه كان صِدْقاً ..

ويجوز أن يكون معناه : « ألم تَرَ أن شعرى الذى قلتُه فيك سَارَ عَنِّى، لأن الرواة احتملوه استجادة واستلذاذاً، وشعرك الذى قلته فىّ مُلازم لك لزهد الناس فيه لما كان سفسافاً. »

وبيت شاعر بنى فقعس :

إنِّى امرؤٌ مكرِمٌ نَفْسِى ومُتَّئِدٌ
مِنْ أَنْ أُقَاذِعها حتى أُجَازِيها

معناه – كما ذكر المرزوقى على لسان الشاعر –« إنى رجلٌ أربأ بقدرى عن مكايلتهم وأترفع عن موازنتهم، وأتوقف عن مُلاحاتهم طلباً لمجازاتهم .. والتقدير : لا أقاذعها لكى أجازيها » ..

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٢٠.

ويجوز أن يكون المعنى : لا أُقاذِعها إلى أن أُجازيها، أى أَوَّلاً أُجازيها فعلا لأرى القدرة عليها ، ثم حينئذ أجازيها بالكلام .. والأول أحسن(١) .

ومعنى بيت بشامة بن الغدير :

دافَعْتُ عن أَعْرَاضِها فَمَنَعْتُها
وَلَدَىَّ فى أَمْثَالِها أَمْثَالُها

«ذَبَبْتُ عنها ومنعتُ الأعداء منها، ولَدَىَّ فى أمثالها من القبائل أمثال هذه النصرة » هذا وجه .

ويجوز أن يريد: ولدى فى أمثال هذه النصرة أمثال هذه القصيدة » .

« والقرائن التى تسوغ رد الضميرين إلى جميع ما ذكرناه حاضرة فى الكلام قوية »(٢) .

فأما بيت بشر بن أبىّ :

سَيَمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إن كُنْتَ سابِقاً
وتُقْتَلُ إن زَلَّتْ بِكَ القَدَمَانِ

فمعناه — كما يقول المرزوقى — يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه جعل الخطاب لصاحب الفرس على المجاز والسعة ، والمقصود الفرس ،ويكون معناه — كما يقول الشاعر — تُمْنَع من السَّبِق إن سَبَقْتَ ، وهذه إشارة إلى ما كان منهم من لَطْم داحس .. فإن خَفَّت قدماكَ بك وبرزت ثانياً أتى عليك .. فهذا وجه .

والثانى : أن يترك الخطاب على ظاهره وحده .. فيكون المعنى :

« سَيُمنَعُ منك المُتَّفِق عليه من الخَطَر بسَبْقِ فَرَسك، فإن لم يَثْبُتْ قدماك عند التقاضى به ، وفى الدفاع عن نفسك فيما يُراد من ظُلْمِك

---

(١) شرح الحماسة ١/٢٦٧ .
(٢) شرح الحماسة ١/٣٩٤ .

ويرام من هَضْمِك قتلت أيضاً »(١) .

ويرجح الرأى الثانى قائلا « وهذا أقرب وأشبه بالقصة » .

أما بيت موسى بن جابر :

فمَا نَفَرَتْ جنىٌّ ولا فُلَّ مِبْرَدِى
ولا أَصْبَحَتْ طَيْرِى من الخَوْفِ وُقَّعَا

فهذا يحتمل وجوهاً :

— يجوز أن يريد لم ينخذل .. لما أتيتم وأخبرتم ، أصحابى الذين هم كالجن ولا فُلَّ لسانى الذىهو كالمبرد ،ولا ذُعِرَ جأشى فصار طَيْرى واقعة .. وإن ذَكَرَه (المبرد) مثَلٌ لصلاحه ، وأن ذكره (الطير) مثل لصيته .

— ويجوز فى هذا الوجه أن يريد به ذكاءه ونشاطه وشهامته ، فقد قيل فى ضده « هو ساكن الطير » ، « وكان على رؤوسهم الطير » .

— ويجوز أن يشير (بالجِنّ »إلى ما يدعيه الشعراء من أنلكلّ واحد مهم تابعاً من الجن يستعين به فيما يحزبه . ويُجعل المراد (بالمِبْرَد) فى هذا الوجه اللسان لا غير .

— ويجوز أن يريد (بالطَّير) سرَاياه وطوائف خيله التى يطيِّرها للغارات والارتباء ، وتجسس الأخبار وغيرها(٢) .

فإذا ما نزلنا مع المرزوقى من أعلى طوابقه التفسيرية « طابقالمعنى الكلِّى» نجده يتنقل معنا ، ويعرج إلى شرح العبارات .. وشرح الألفاظ .

أما شرح العبارات فهو صورة مصغرة مما رأيناه فى تفسير الأبيات ، ومرحلة متوسطة للربط بين معانى الألفاظ ومعنى الفقرة أو البيت .

فتفسير العبارات لا يختلف كثيراً عن تفسير البيت إلا من حيث طول

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٥٣ .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٧٤ .

العبارة ومضمونها ، وما تحمله من معان قريبة أو بعيدة ، حقيقية أو مجازية .

فعبارة جابر بن ثعلب (جَوَاشِنَ هذا الليل) التى وردت فى بيته :

فإنَّ الفتَى ذا الحَزْمِ رامٍ بنفسِهِ
جَوَاشِنَ هذا الليلِ كى يَتَمَوَّلا

يفسرها المرزوقى بقوله : « يعنى صدورها وأوائلها .. والليل بإزاء النهار فى الاستعمال والليلة بإزاء اليوم . وهم يستعيرون الجواشن والهوادى والصدور والنحور والأعناق والرءوس لأوائل الأمور — كما يستعيرون الأعجاز والأدبار والأعقاب والأذناب لأواخرها(١) .

وعبارة جَزْءَ بن ضرار « له وَرَقٌ » الواردة فى بيته :

فقيرُهم مُبْدِى الغِنَى وغَنِيُّهم
لَهُ وَرَقٌ للسَّائِلِينَ رَطِيبُ

يقول : « هذا مثل ضَرَبَه للندى وأصله هاهنا ورق الشجر ، وبه عَيْشُ المال : الإبل والغنم ، وإذا لم يَمْنَعوا عن الوَرَق عَاشَ الناسُ فى فِنائهم .

هذا الأصل ، ثم يتمثل به بعد لغيره من ضروب المنافع ووجوه المزارىء(٢) .

وأما شرح الألفاظ .. فهو همه .. ومبعث تنقله ، ووسيلته لإظهار ثقافته اللغوية وسعة محصوله العلمى ..

فهو يقلب اللفظ تقليباً دقيقاً .. وينقله فى أحيان كثيرة من وضعه الحقيقى إلى وضع مجازى .. ويذكر معانيه المختلفة حسب أوضاعه فى الكلام ..

إنه لا يكتفى بذكر المعنى المعجمى للألفاظ ، بل يعرضها فى أردية مختلفة

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٠٥ .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٤٥ .

ويدلل على معانيها فى كل منها .. ثم لا يكتفى فى كثير من الأحيان بذكر المعنى الحقيقى ، بل يتفنن فى عرض المعنى المجازى ، فإن لم يكن لها معنى مجازى ، حاول أن يجد لها معنى فى بعض اللغات أو اللهجات المشهورة .

فلفظ « المبرح » الذى جاء فى بيت عروة بن الورد :

تَنَالُوا الغِنَى أو تَبْلُغُوا بنفوسِكُمْ
إلى مُسْتَرَاحٍ من حِمَامٍ مُبَرَّحِ

معناه – كما يقول المرزوقى(١) – المُلِحّ الشديد، ومن هذا وصف الرِّيح بالبارح .. ويقال : بَرَّح بى الحُبُّ أى اشتدَّ ، وبَرَّح بى فلان إذا آذى وأبرح الرَّجل إذا أتى بالبَرْح ، والبرح يكون الشدة ويكون العجب .
ومنه قول الأعشى :

أَبْرَحْتَ ربًّا وأبْرَحْتَ جاراً

ولفظ « النِّكْس » الذى ورد فى بيت الشاعر :

وَمَا أَنَا بالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الَّذِى
إذَا صَدَّ عَنِّى ذو المَوَدَّةِ أَحْرَبُ

النِّكس– هذا كما يقول المرزوقى – أصله فى السهام ، ونُقِل إلى الضعيف من الرجال، يقال نَكَسْتُه نِكْساً ، ثم يسمى المنكوس نِكساً – بكسر النون– كأن السهم انكسر فوقه فنكس ، فسمِّى نِكساً(٢) ..

وهكذا نرى المرزوقى فى شروحه ، يتفنن فى الوصول إلى أغوار المعنى . البعيدة والقريبة ، الحقيقية والمجازية ، ويحاول تجلية النص حتى لا يبقى على

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٦٥ .
(٢) شرح الحماسة ١-٢٩٧ .

دقيقة من دقائقه إلا وضحها ، ولا جزئية من جزئياته إلا بينها ووضح مَضْمُونها ومغزاها .

وقد توصل المرزوقى إلى هذا المنهج بعد أن طرق مجموعة من الأبواب ، ثم اجتازها ليصل إلى هدفه ومبتغاه(١) ..

طرق باب الرواية .. وطرق باب اللغة .. وطرق باب النحو ... وطرق أبواب البلاغة .. وطرق أبواب النقد ..

وسنقف فى الأقسام التالية من هذا الفصل أمام كل باب من الأبواب التى اجتازها المرزوقى ، لنتعرف على أسراره ..

---

(١) أنظر خاتمته على الحماسة .

الرواية فى شروح المرزوقى

أول عناصر الشروح وأخطرها ــ عند المرزوقى ــ « الرواية الأدبية » . فعلى هذا العنصر يتوقف المعنى .. ثم انه المنطلق لبقية العناصر الأخرى . لذلك وجدناه يشغل حيزاً كبيراً فى شروحه ، ويسيطر على معظم أفكاره وأقواله ، ولقد كان من الخصب والعمق بحيث كان الركن الركين ، الذى يستند إليه ، ويشقى فى سبيل الوصول إلى حقيقته ، وصحته ، ولا يخفى أن صحة الرواية يتوقف عليها صحة الشرح ودقته ، وقربه من مقصد الشاعر ، وحقيقة المعنى .

وإذا نظرنا إلى منهج المرزوقى فى تناول الرواية ، نجد أنه ــ بادىء ذى بدء ــ يعتمد رواية خاصة ، ويجعلها الرواية العليا ، ويضعها فى المتن ، يدور حولها ، ويحاول تدعيمها بمؤيدات وشواهد ، ذاكراً كل ما يتصل بها من معان مباشرة ، وما تحتمله من معان أخرى على سبيل التوسُّع والتجوُّز . فقد يذكر لها معنى واحداً ، وقد يذكر لها معنيين ، وقد يذكر ثلاثة معان ، وفى أثناء ذلك قد يستعين ببعض الآراء الواردة عن العلماء السابقين .

وذكره للرواية المعتمدة ، لا يمنعه من ذكر الروايات الأخرى الواردة .. وهو فى أثناء ذلك ــ وفى معظم الأحوال ــ يشرح هذه الروايات ويضعها جنباً إلى جنب مع روايته المفضلة(١) ، هذا إذا كان راضياً عنها مقتنعاً بها ، وفى هذه الحالة يذكر الروايات جميعها ، دون أن يرجح إحداها أو يفاضل بينها .

فبيت جعفر بن علبة الحارثى .

أَتَتْنَا فحيَّتْ ثم قَامَتْ فَودَّعَتْ
فلَمَّا تَولَّتْ كَادَتْ النَّفْس تزْهَقُ

---

(١) أنظر على سبيل المثال ١-١٥٤ ، ١-١٨١ ، ١-١٨٤ ، ١-٣٧٣ .

هذه هى روايته المعتمدة ، التى شرحها ، ولكنه ذكر له رواية أخرى فقال : « ويروى (ألـمّـت فحيّت) والإلمام : الزيارة السريعة »(١) .

وبيت عنترة بن شداد :

تركْتُ بَنِي الهُجَيم لهُمْ دَوَارٌ
إذَا يَمْضِي جَمَاعَتُهُم تَعُودُ

قال المرزوقى إنه يروى على وجهين ، وكل وجه له — عنده — معنى ، فإن روى :

تركتُ بنى الهُجيم لَهُ دَوَاراً
إذا يمضى جماعتهم يعود

كان الضمير فى قومه (له) للفرس ، ويمضى فعل له ، وجماعتهم ينتصب على المفعول لأن يمضى هذا يتعدى ، ومعناه يجاوزهم ، ويكون المعنى « تركت هؤلاء القوم لفرس مَطَافاً بمنزلة الدَّوَار ، وهو صنم كان يحجونه ، يطوف حول ذلك الصنم ، إذا نَفَذَهم وخرق صفوفهم ودار عليهم ، عاد إلى مثل فعله الأول ، وإلى مكانه الأول .. وإن روى :

تركتُ بنى الهُجَيم لهم دَوَارٌ
إذا تَمضَى جماعتهم تعُودُ

كان المعنى : « تركتهم يطوفون حول قتلاهم كما يطاف ذلك الصنم ، أو ذلك النُسك ، فإذا انقضت جماعة منهم عادت الأخرى للنِّظارة »(٢) .

وليست الرواية المعتمدة — عنده — بالضرورة الرواية المرتضاة ، فقد يذكر رواية عليا ، ويضعها فى المتن ، ولكن حين يعرض لرواية أخرى يقتنع بها ، وبما تؤديه من معنى ، فيترك الرواية — المعتمدة — ويشرح الرواية الثانية ..

---

(١) شرح الحماسة ١-٥٣ .
(٢) شرح الحماسة ١-٤٢٦ .

فبيت السموأل :

سَلِى إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وعنكُمُ
ولَيْسَ سَوَاءً عَالمٌ وجَهُولُ

ذكر له المرزوقى رواية أخرى فقال : « ويروى » عنا فتخبرى » .

ثم وضح الرواية الثانية بقوله : « كأنه استدل على تصحيح ما ادعاها من الخصال التى عددها بشهادة الناس له ، وتصديقهم مقَاله . فقال : « سلى الناس عنا إن جهلته ما حكته من أفعالنا حتى تُخْبَرى فتؤمنى به ، وتسكنى إليه ، فليس العالم بالشىء كالمخمّن أو المجوِّز .. »(١) .

ولكن هذا الأمر لا يستمر طويلا ، فهو فى معظم الأحيان يفاضل ويقارن ، ويميز بين روايته وغيرها ، وفى هذه المفاضلة يلتفت إلى بعض الأمور ، فهو وإن كان يتناول الرواية من حيث الصحة . ويثبت صحتها استناداً إلى محفوظه ، إلا أنه فى أحيان كثيرة ، يدخل عوامل أخرى ، إلى جانب الصحة .. **منها عامل الشهرة** .

فبيت السموأل :

تسيل على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا
ولَيْسَتْ علَى غَيْرِ السيوفِ تَسِيلُ

يروى : « تسيل على حَدِّ السُّيوف نفوسنا .. »

والرواية المشهورة (تسيل على حد الظبات)(٢) .

— **ومنها عامل البلاغة** :

فبيت الشميذر الحارثى :

فإن قُلْتُمُ إِنَّا ظَلَمْنَا فَلَمْ نَكُنْ
ظَلَمْنَا ولكنَّا أَسَأْنَا التَّقَاضِيَا

---

(١) شرح الحماسة ١-١٢٣ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٧١ .

على الرغم من أن هذه هى روايته العليا عند المرزوقى ، إلا أنه ذكر رواية أخرى وفضّلها ، قال : « ورواه بعضهم (فإن تَزْعُمُوا أنَّا ظَلَمْنَا) والزعم فى دفع الدّعوى أبلغ »(١) ..

- ومنها عامل الفصاحة ..

فقد روى المرزوقى بيت أبى الغول الطهوى كالآتى :

وَلا يَرْعَوْنَ أكْنَافَ الهُوَيْنَى
إذَا حَلُّوا ولا أرْضَ الهُدُونِ

ثم ذكر له رواية أخرى فقال (٢) : « ويروى (ولا رَوْضَ الهَدُونِ) وهو أفصح .

- ومنها عامل الجودة ..

قال يزيد بن حِمّان :

إنى حَمِدْتُ بَنِى شَيْبَانَ إذْ حَمَدَتْ
نِيرَانُ قَوْمِى وفِيهِم شُبَّتِ النَّارُ

قال المرزوقى : « .. وقال (نيران قومى) وإن أراد غيرهم معهم ، تفضيلا لهم على قومه ، وإيذاناً بالصّدق فى مخبره ، فبدأ بذكر قومه وذويه ..؟ » ويروى : (نيران قَوْمٍ) والأول أجود (٣) .

- وقد يكون عامل السلامة هو الفيصل فى تفضيل رواية على أخرى ..

---

(١) شرح الحماسة ١-١٢٦ .

(٢) شرح الحماسة ١-٤٣ (الهدون : الصلح والسكون ، يصفهم بالميل إلى الشر والحرص على القتال والقتل ، وأنهم يؤثرون جانب الخصومة على الصلح ، فيقول : لا يرعى هؤلاء القوم جوانب الخصال السهلة والأمور الهينة ، ولا ينزلون منازل الأمن والراحة) .

(٣) شرح الحماسة ١-٣٠١ ، وانظر ١-٨٣ ، ١-٢٧٣ ، ٢-٦٤٤ .

مثال ذلك قول تأبط شراً :

وَيَجْعَلُ عينيه رَبِيئَةَ قَلْبِه
إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخْلَقَ باتِكِ

هذه هي رواية المرزوقي المعتمدة ، ولكنه ذكر رواية أخرى فقال :

ويروى :

إذا طَلَعَتْ أُولُ العَدِيِّ فَنَغْرُه
إلى سَلَّةٍ ... ...

وهي أسلم الروايتين »(١) .

أما إذا تساوت الروايات من حيث الصحة أو الجودة ، ولم يستطيع تفضيل رواية بعينها حينئذ لا يرى بُدّاً من أن يشرح كل الروايات ، فيسوق لكل رواية معنى يناسبها .

على أن المرزوقي قد يذكر رواية معينة لمجرد الذكر « وهي ليست بشيء » عنده لكنه يذكرها من باب العلم ، ويصل به الأمر أحياناً إلى تجاهل شرحها ..

مثل قول الشاعر :

ذَكَرْتُكِ والخطِّيُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا
وقَدْ نَهِلَتْ منّا المثقَّفَةُ السُّمُرُ

قال المرزوقي : « روى بعضهم : (وقد نُهِكَتْ منا المثقفة) من نَهْك المرض ، وليست بشيء »(٢) .

والظاهرة الهامة .. الجديرة بالملاحظة : أن المرزوقي لا يَعْتَدّ بظاهرة

---

(١) شرح الحماسة ١-٩٧ (العدى : الرجالة ، الذين يعدون قدام الخيل ، على الرواية الأولى يقول « لا يغفل قلبه عن التحفظ وعينه ويذبانه إلى سل سيفه) .

(٢) شرح الحماسة ١-٥٦ (يعني بالخطي رمح نفسه أي يتردد بالطعن ، كأنه يصور حاله وما يكابده في مجاهدة أعدائه ، والخط : سيف البحرين وعمان ، وإليه ينسب القنا) .

التصحيف ، التى كانت مثاراً للخلاف بين القدماء، لا يعتد بها ما دام لها معنى وما دامت لغة صحيحة ، لذلك قلما يذكر أن هذه الرواية تصحيف أو تحريف إنما يتصدى لكل رواية مهما كانت .. يشرحها ويحللها ، وإن كان يشفع هذا الشرح والتحليل بتفضيل رواية على أخرى أو نقدها ..

فبيت موسى بن جابر :

وقلتُ لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنَّهم
يَرَوْنَ المنايا دُون قَتْلِكَ أَوْ قتلي

رواه المرزوقى هذه الرواية ، وجعلها روايته العليا .. وفسر قوله : « لا تترتر » بأنه من الترترة ، وهى العجلة وكثرة الحركة ، وأنها كالتلتلة . ثم قال : ويروى « لا تُبَرْبِر » والبربرة كثرة الكلام ، وكذلك الثرثرة .

ويروى « لاتُبَزْبِزْ » والبزبزة كثرة الحركة ، ومنها يقال : « ما أكثر بَزْبَزَتهم »ورجل بزباز وبزابز إذا كان يكثر حركاته ويخف(١) »

وبيت سعد بن ناشب :

أخي عزَماتٍ لا يُريدُ علَى الّذِي
يَهُمُّ به منمَقْطَعَ الأمْرِ صَاحِبَا

قال المرزوقى عند شرحه : « ويروى « أخي غمرات » وهى الشدائد .. ويروى (من مُفْظَع الأمر) وهو من فَظَعَ الأمر وأَفْظَعَ فَظَاعةً وإفْظَاعاً(٢) ..

ويظهر الحس الفنى الدقيق –عند المرزوقى – حين يتتبع الروايات ملاحظاً أثر تغير رواية الشطر الأول فى معنى الشطر الثانى ، وفى المعنى الكلى للبيت ،

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٦٦ ، وانظر ١-٤٤٣ ، ١-٢٨٣ ، ١-٢٨٥ ، ١-٣٨٤ .

(٢) شرح الحماسة ١-٧٦٤ (يصف نفسه أنه صاحب هم وأخو عزمات ، مستبد برأيه فيها غير متخذ رفيقاً ، ولا مستنصر أخاً وصديقاً (ومقطع الأمر : أراد فصله والخروج منه ، والاعتزام : لزوم القصد) .

لذلك نراه يتنبه جيداً إلى هذه الناحية ، فيعالج الأمر لكي يتلاءم الشطران ويستقيم المعنى .

والدرعُ لا أَبْغِي بها ثَـرْوَةً
كلَّ إمرىءٍ مُسْتَوْدَعٌ مالـهُ

« ويروى : (والدِّرع لا أبغى بها نَشْرَةً » وهى الواسعة ...

والمعنى : إنى أكتفى من الدِّرع ببدنةٍ فلا أطلب ما يفيض فيضاً .

ويجب مع هذه الرواية والتفسير أن يكون معنى المصراع الثانى : كلُّ امرىء مُرتَهنٌ بأجله ومُمهَّل ليومه » .

وتصويب الرواية عند المرزوقى يعتمد على مجموعة من الأسس ...

— **منها الحوار والنقاش** ... كأن يقول : « فإن قيل كذا ... قلت » أو يقول : « ألا ترى قوله .. » .

مثال ذلك قوله عن رواية بيت جندل بن عمرو :

إن كنتُ لا أُرْمَى وتُرْمَى كِنَانَتِـي
تُصِبْ جَانِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِـي ومنكِبِي

« .. روى بعضهم : (جانحات النبل (وهى المستأصلات المهلكات » .

وليست هذه الرواية بجيدة ، لأن الغرض ما ذكرته من أن من يَمَسُّه أمره إذا قصد كان كنفسه .. فإن قيل : فَلِمَ خَصَّ الجانحات ؟.. قلت : المراد فيما ضرب المثل له « إنىَّ رُميتُ إذا رميت الجَعْبَة المعلقة على ، لأن بعض السهام يصيبه ، وبعضها يصيبنى ، إذا كان كذلك ، فلا بد من ذكر الجانحات »(٢) .

---

(١) شرح الحماسة ١-١٤٤ ، وانظر ١-٣٧٣ ، ١-٤٥٣ .

(٢) شرح الحماسة ١-٣١٢ (هذا مثل ، والمعنى : إذا لم أقصد فى خاص أمرى ثم قصدت فيمن يشمله عنايتى ، عاد ذلك القصد بالشر والمساءة على وصرت كأنى أنا المقصود ، والجانحات : المائلات (. وانظر ١-٣٧٧ ، ١-٣٧٠ .

– **ومنها الاعتماد على ما أثر عن العلماء الكبار** كالأصمعي وابن الأعرابي وأبي عبيدة وغيرهم(١).

وأحياناً يقول : « وقال بعض الشيوخ .. » دون تحديد .

أو : « وسمعت أصحاب المعاني .. » .

أو : « وقال أكثر أهل اللغة .. » .

أو : « ومرّ بي فيما قرأته عن مجاوبات قريش »(٢) .

– **ومنها الاعتماد على الأشباه والنظائر**(٣)

من مثل قوله : « وفي طريقته قول الآخر .. » .

أو : « وفي هذه الطريقة قول الشاعر .. » .

– **ومنها الاعتماد على احداث التاريخ** ، وما جاء في **الأمثال**(٤) .

والجديد فيما وجدناه عند المرزوقي – وهذه ميزة انفرد بها عن غيره في هذا المجال – أن الرواية عنده تخضع لمجموعة من المعايير العلمية والفنية ، يتخذ منها حكما ، حين يتتبع الروايات .. وإن كان هناك ترابط وثيق بين هذه المعايير جميعاً ..

من هذه المعايير تحكيم العقل .. فبيت المثلم :

سأكْفِيكَ جنبي وَضْعَهُ ووسَادَهُ
وأَغْضَبُ إنْ لم تُعْطِ بالحق أَشْجَعَا

لم يرض المرزوقي عن رواية الشطر الثاني منه ، فنراه يضع رواية أخرى ، يرجحها ويدعمها بالوسائل الفنية والعلمية .. فيقول :

---

(١) أنظر فهرس الأعلام .

(٢) أنظر ١-١٨٠ ، ١-١٣٥ ، ١-٣٧٦ ، ١-٢٣١ على الترتيب .

(٣) أنظر على سبيل المثال ١-٣٧١ ، ١-٤١٣ ، ١-٤٣٩ .

(٤) انظر شرح الحماسة ١-٤١٤ .

« ويغلب فى نفسى أن الشاعر قال (وأغضب إن لم تُعْطيا الحقّ وأَشْجَعَا) لأنه بنى الرسالة على أن تكون متوجهة نحو اثنين ، سِنان وشجنه ، ، مخاطبته من بعد أحدهما فى قوله (سأكفيك) على عادتهم فى الافتنان والتصرف ، لا يمنع من الرجوع إلى ما بنى كلامه عليه من ذكر الإثنين ، وهذا ظاهر لمن تأمله »(١) .

– ومنها تطبيق العرف الأدبى :

مثال ذلك – شرحه لبيت أبى كبير الهذلى :

مِمَّنْ حَمَلْنَ به وَهُنَّ عَوَاقِدٌ
حُبُكَ النِّطَاق فَشَبَّ غير مُهَبَّلِ

فعلى الرغم من أن هذه هى الرواية العليا ، التى وضعها المرزوقى فى المتن فإنها فى نظره رواية ضعيفة .. إنما : « الرواية (حُبُكُ الثياب) ، لأن النطاق قد جاء من بعد فى صفة أم الحَشْمَ فتكرر ، ولأن النِّطاق لا يكون له حُبُكٌ وطرائق »(٢) .

– ومنها تطبيق الحسّ اللغوى :

فبيت عبد الشارق بن عبد العزى :

رُدَيْنَةُ لَوْ رأيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا
عَلَى أَضَمَاتِنَا وقَد احْتَوَيْنَا

---

(١) شرح الحماسة ١–٣٨٣ (والمعنى : لا أكلفك عناية بأمرى ، ولا أؤاخذك بمصالح أسبابى ، ومتى لم تناول مولاى أشجع الحق ، ولم تعامله فيما بينكما بالحق والعدل غضبت له وانتقمت)

(٢) شرح الحماسة ١–٨٥ (الحبك : الطرائق ، والنطاق : ما تشد المرأة فى حقوها والمعنى : هذا الفتى من الفتيان الذين حملت أمهاتهن بهم ، وهن غير مستعدات للفراش ، ولا واضعات ثياب الحفلة ، فنشأ محموداً مرضياً ، ولم يدع عليه بالهبل والثكل) .

رواه المرزوقى هذه الرواية .. وشرح معناها .. ثم قال :

« وروى بعضهم (أختوينا) بالخاء المعجمة ، والمعنى خوت أفئدتنا من الود ، وأجود منها (وقد اجتوينا) بالجيم ، كأنه يريد ما اشتمل الجوانح عليه من العداوة حتى صار جوىً ، والأضمُ : الغضب ، ومع ذكر الأضم (اجتوى) بالجيم أشبه وهو أقرب .. »(١) .

— ومنها المؤيدات العلمية والشواهد الشعرية والقرآنية :

مثال ذلك قول بشامة النهشلي :

بِيضٌ مفارقنا تَغْلِـي مَرَاجِلُنَـا
نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَـا

هذه هى روايته العليا ، التى اختارها وشرحها .. ثم قال :

« ويروى : (بيض معارفنا) وهى الوجوه ، والمراد بذلك نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب .. » ولكن هذه الرواية لا ترضيه ، بل يرى أن روايته العليا (بيض مفارقنا) هى الأشهر والأحسن وهى الرواية الصحيحة .. ويدلل على ذلك بمجموعة من الشواهد فيقول :

« يجوز أن يكون ابيضت مفارقنا من كثرة ما نقاسى الشدائد ، وهذا كما يقال : أمرٌ يشيب الذوائب ، وفى القرآن (يوما يجعل الولدان شيبا) وتغلى مراجلنا أى حروبنا ..

« ويجوز أن يكون المراد : ابيضت مفارقنا لانحسار الشعر عنها باعتيادنا لبس المغافر والبيض وإدماننا إياه ، ويكون هذا كما قال :

قد حَصَّت البيـضةُ رأسى فـا
أَطْعَمُ نَوْماً غير تَهْجَـاع

(١) شرح الحماسة ١-٤٤٣ (يقول : لو رأيتنا غداة جئنا على حزازات فى النفس ، واحتراقات فى الجوف والصدر من الغيظ والحقد ، وقد حوينا أموال أعدائنا ، واستبحنا حريمهم ، وملأنا أيدينا من غنائمهم (وأنظر ١-١١٨).

وتكون المراجل على هذا كناية عن الحروب أيضاً » .

« ويجوز أن يكون المراد : أبيضت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطيب ، ويكون كقول الآخر :

جَلاَ الأذفَـرُ الأحوى من المِسْكِ فَـرْقَهُ

ويكون على هذا معنى (تغلى مراجلنا) أى قدورنا للضيافة .. »(١) .

– ومن هذه المعايير أيضاً – الاستدلال على صحة الروايةبالمذهب الفنى للشاعر

فالحماسية (٣٢٩) رواها أبو تمام ليزيد بن عمرو الطائى ، وروى الأثرم أبياتها – عن أبى عبيدة – للنابغة الذبيانى ، ففصل المرزوقى فى هذا الأمر بقوله : « وفى ألفاظ هذه الأبيات على ما رواه أبو تمام شاهد صدق، على أنه ليزيد لا للنابغة والله أعلم »(٢) .

ويكثر فى شروحه الاستدلال بأقوال الشاعر .. تأييداً لوجهة نظره ، من مثل قوله : « ويغلب على ظنى أن الشاعر قال كذا .. لأن كذا »(٣) .

أو : « ويشهد لهذا الوجه قوله .. »(٤) .

أو : « ودل على هذا بقوله .. »(٥) .

أو : « وساغ ذلك لأن قوله ... يدل عليه »(٦) .

– ومنها التمحيص والتثبت القائمان على ابحث والتنقيب(٧) :

على أن هذا المعيار الاستدلالى القائم على التمحيص والتثبت ، قد جعل

---

(١) شرح الحماسة ١-١٠٦ .
(٢) شرح الحماسة ٢-٩٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ١-١٨٣ .
(٤) المصدر نفسه ١-٩٢ .
(٥) المصدر نفسه ١-١٧٨ ، ١-١٤٣ .
(٦) المصدر نفسه ١-١٣٤ .
(٧) أنظر مثلا شرحه لبيت عمرو بن معد يكرب (رقم ١٣) ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

روايته لمصنفاته الشعرية تختلف عن غيرها . فروايته لديوان الحماسة مثلا ، اختلف عن رواية غيره ، من حيث الكم والكيف .

فمن حيث الكم – اختلف فى عدد المقطوعات ، وعدد الأبيات .

ومن حيث الكيف – اختلف فى ترتيب المقطوعات ، وترتيب الأبيات ، وكيفية معالجتها .

فشرح المرزوقى لديوان الحماسة يختلف عما وجدناه عند غيره ، نتيجة لتمحيص الرواية ، وعدم التمسك إلا بما تثبت صحته ودقته ، لذلك جاء متن الحماسة عنده يخالف ما وجدناه عند أبى العلاء(١) وتلميذه التبريزى ، من حيث الرواية واختلافها ومن حيث عدد المقطوعات وعدد الأبيات ، وترتيب كل منها فى مصنفاتهما .

فنلاحظ أن المرزوقى لم يرو الحماسية التى أولها :

أَقُولُ لَهَا وقَدْ طَارَتْ شَعاعاً
من الأبْطَالِ وَيْحَكَ لَنْ تُرَاعِى

وترتيبها عند التبريزى (١٤) ، ونتج من ذلك أن نجد أن المقطوعات التى تلى المقطوعة (١٣) يزيد رقمها واحداً عند التبريزى ، على حين نجدها برقم أدنى عند المرزوقى ، أى أن الحماسية رقم (١٥) عند التبريزى يقابلها رقم (١٤) عند المرزوقى ، والحماسية رقم (١٦) عند التبريزى يقابلها رقم (١٥) عند المرزوقى ، وهلم جرا .

كما نجد أن الحماسيتين رقم (١٠٤) ورقم (١٠٥) فى ترتيب المرزوقى وهما رقم (١٠٥) ورقم (١٠٦) عند التبريزى ، قد تقدمت أولاهما على الأخرى عند المرزوقى ، وتأخرت عند التبريزى(٢) .

وهذه المفارقات راجعة إلى الخلاف فى نسخ الحماسة وروايتها ...

---

(١) توجد منها نسخة ميكروفيلم بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

(٢) شرح الحماسة – مقدمة المحققين ، ص ١٨ .

ومع ذلك فقد كان المرزوقى يرجع إلى نسخ متعددة سابقة عليه(١) ، ليعقد المقارنات و يمحص الروايات ، وليختار أجودها وأقربها .

وتظهر صور اختلاف الرواية أقوى وأعمق فى عدد الأبيات ، ومنها يتضح أن اهتمام المرزوقى كان موجهاً إلى الصحة والدقة والصدق قبل الكثرة :

— فبيت الشاعر :

أقررت عينى من أولـــــئك والفوائح بالعَبِير

— فى الحماسية رقم (١٧٤) رواه التبريزى — أما المرزوقى فقال عنه : « وهذا البيت لم يدخل فى الإختيار »(٢) .

— وحماسية المنخل اليشكرى(٣) — رواها المرزوقى (١٥) بيتا بينما رواها التبريزى (٢٢) بيتاً .

— وحماسية ابن أبى زيابة — ستة أبيات عند التبريزى ، وهى خمسة فقط عند المرزوقى حيث لم يرو البيت الخامس منها(٤) .

— والحماسية رقم (٦٤) وهى حماسية مسور بن زيادة ، ذكرها المرزوقى خمسة أبيات فقط ، وذكرها ابن جنى ستة أبيات ، وذكرها التبريزى ثمانية أبيات(٥) .

— والحماسية رقم (١٩) — حماسية بعض بنى تيم الله بن ثعابة ، البيت الثانى فى شرح المرزوقى هو الثالث فى شرح التبريزى ، والبيت الثالث فى شرح المرزوقى وهو الثانى فى شرح التبريزى(٦) .

---

(١) أنظر أقواله حول هذا الموضوع ، فى شرح الحماسة ١-١٤٥ ، ١-١٨٠ ، ١-٢٥٥ .
(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ٢-٥٢٦ .
(٣) شرح الحماسة ٢-٥٢٩ .
(٤) شرح الحماسة ١-١٤٥ .
(٥) شرح الحماسة للمرزوقى ١-٢٤٧ .
(٦) أنظر شرح الحماسة للمرزوقى ١-١٣٣ .

— والحماسية رقم (١٧٧) — حماسية ربيعة بن مقروم — رواها المرزوقى خمسة أبيات ، ورواها التبريزى ثمانية أبيات(١) .

ويطول بنا البحث إذا حاولنا تتبع كل الفروق ..

وأخيراً فهو يجعل من المصادر التى رجع إليها ، والنسخ التى اعتمد على ما جاء فيها حكماً فصلا ، فيما يحدده ويفضله من روايات .

من مثل قوله فى معرض حديثه عن ما جاء فى حماسية حريث بن عُنَّاب : « هل الرواية : (أأعيا وفقعس) كما أثبتها هو أم (أأعيار فقعس) كما زعم الآخرون ؟ »(٢) .

قال بعد أن أوضح الأمر جليا : « هذا وقد رجعنا إلى نسخ مختلفات المصادر فوجدناها متوافقة فى تحملها (أأعيا وفقعس) وإذا كان الأمر كذلك لا يجوز العدول عما قاله الشاعر إلى ما لم يقله ... » .

---

(١) أنظر شرح الحماسة ٢-٥٤٥ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٥٥ ، وانظر ١-١٧٩ ، ١-١٨٠ .

اللغة فى شروح المرزوقى

أما اللغة فهى أهم الوسائل وأخطرها فى شروح المرزوقى ، أنها العامل الأساسى فى فهم الشعر ، وتفسير الشعر معاً ، لذلك وجدنا نشاطاً ملحوظاً له فى تحديد الرواية « لغوياً » واتخاذه من هذا الأمر فرصة للدخول إلى علم اللغة بكل أبعاده .. فقول العباس بن مرداس :

تَرَى الرجُلَ النَّحيفَ فتزْدَرِيه
وفى أثْوابِه أسدٌ مَزِيرُ

كانت روايته الثانية مجالا للقول لا من حيث الرواية فحسب ، ولا من حيث جودة المعنى كذلك ، ولكن مجالا رحباً لتحديد أصل اللفظ وما طرأ عليه من تغييرات ، ثم الأسباب التى أدت إلى أضعاف المعنى نتيجة لضعف الرواية.

يقول(١) : « ويروى (يَزِيرُ) وليس بجيد من طريق المعنى ، فكأن أصله يَزْئِرُ ، فثقلت الحركة إلى الزاء ، وأبدل من الهمزة ياءاً ، كما يقال المَرَاةُ والكَمَاةُ فى المرأة والكمأة . وإنما ضعفت من طريق المعنى ، لأن تشبيهه إياه بالأسد لا فائدة لذكر الزئير معه ، إذ لا تدوم حاله على ذلك ، ووجهه على ضعفه أن يكون مَوْرِدُ (يَزْئِرُ) تأكيداً للتشبيه ، كما يُستعار صفة المشبه به للمشبه ، وإن كان حصوله لو حصل ذمًّا فيه ، تأكيداً للتشبيه » .

فالمرزوقى فى هذا المثال ، ينتقل من مجال تحديد الرواية ، وإثبات صحتها إلى العناصر الأخرى ، ومجالات البحث اللغوى ، ويربط بين ذلك كله وجودة المعنى .

ولقد رأينا — فى حديثنا عن الرواية —كيف اهتم المرزوقى ، إبَّان عملية تحديدالرواية باللغة— أشكالها ومظهرها وجوهرها— ورأينا كيف كان يستغل

(١) شرح الحماسة ٣-١١٥٣ .

حسه اللغوى ، وفهمه الدقيق لكل ما توحى به اللغة من أمور ، وما تخفيه من أسرار قد تخلق معنى جديداً — بعيداً — قصد إليه الشاعر .

بيد أن اهتمامات المرزوقى بتحديد الرواية لغوياً ، واهتماماته بشرح الشعر : لم تكن لتقف عند حدود التوضيح والتفسير ، بل كان الأمر يتطرق به للدخول فى مسائل أخرى ، زيادة فى الإعلام والتعليم . كان لا يترك دقيقة من دقائق اللغة إلا وضحها ، وذكر ما تشتمل عليه من معلومات تفيد القارىء لأنه لا يقنع إلا بما يزيد الأمر وضوحاً وتوضيحاً .

إنه مثلا لا يخفى مدى ولوعه بالتحليلات (اللغوية) ، يتناول فيها اللغة مرتدية أردية عدة ، ولكل رداء من أرديتها معنى ومغزى ..

فالمُصَفَّد فى بيت المرقش (١) :

فاعْلَمِي غَيْرَ عِلمِ شكٍّ بأَنّيَ
ذَاكِ ، وأبكي لمُصْفَدٍ أن يُفَادَا

« المشهور أن يقال : صَفَدتُ الرجل إذا قيّدتَهُ ، وأَصْفَدْتُهُ إذا أعطيتَهُ والصفد : العطية ، ويقال فى الأسير المشدود (أَصْفَدْتُه) أيضاً ، والصفد كما يستعمل فى العطية يستعمل فى القيد » ويحتج بهذا البيت فى تصحيح هذه اللغة .

و « الخَالُ » فى قول الشاعر :

وإن كُنْتَ للخال فاذْهَب فَخَـــــلِّ

معناه : (الكِبْرُ) واختال الرجل فهو مُخْتَالٌ وخَالٌ أيضاً ... ويقال : خَالَ يَخُولُ ويَخَالُ خَوْلاً وخَالاً ، وفى الظن يقال : خَالَ يخال لا غير »(٢) .

---

(١) المرزوقى : شرح المفضليات ، ملحق بشرح المفضليات للأنبارى ، ص ٨٨٧ .
(٢) شرح الحماسة ١-٢٥٢ .

و « الزعم » فى قول الشاعر :

وزَعَمْتُم أَنْ لا حُلُومَ لنا
إنّ العَصَا قُرِعَتْ لِذى الحِلْم

مادته « زَعَمَ زُعماً وزَعماً ومَزْعماً ، وأكثر ما يستعمل فيه ما كان باطلاً أو فيه ارتياب ، ولذلك يقال : تَزَعَّم أى تكذب ، وزعم فى غير مَزْعَم أى طمع فى غير مَطْمَع »(١) .

وقول الشاعر « يُهْدِى » فى بيته :

لئن كانَ يُهْدِى بَرْدُ أَنْيابِها العُلَى
لأَفْقَرَ منّى إنّنى لَفَقِيرُ

له أصلان : يجوز أن يكون من الإهداء والإتحاف .

ويجوز أن يكون من الهِداء الزّفاف(٢) .

كما يدفعه هذا الأمر إلى توضيح المترادفات الناتجة عن هذه التحليلات :

من ذلك قوله فى شرح بيت شبيب بن البرصاء :

تَبَسَّمَ كَرْهاً واستَبَنْتُ الذى بهِ
من الحَزَنِ البادِى ومن شِدة الوَجْدِ

« يقال : اسْتَبَنْتُ وتَبَيَّنْتُ بمعنى واحد، وبَسَمَ وابْتَسَمَ وتَبَسَّم بمعنى واحد ، إلا أن فى تبسم زيادةَ معنى التكلف ، كأنه تكلَّف منه ما تكلف على كراهية »(٣) .

وقد يمتد حديثه فيشمل صيغ الجمع المختلفة ...

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٠٦ .

(٢) شرح الحماسة ٣-١٣٠٥ (والمعنى : أن كان يتربص بمتسق مضحكها وواضح مقبلها ، وطيب رضابها ، وبرد أسنانها عن هو أفقر منى إليها ، فإننى الفقير مطلقاً) .

وأنظر شرح المفضليات ص ٨٨٧ (ملحق بشرح الأنبارى) .

(٣) شرح الحماسة ٢-١١٤١ .

فلفظة « هَنَات » التى وردت فى بيت البُرْجَ بن مُسهِرٍ :

فَنِعْمَ الحَىُّ كَلْبٌ غير أنّا
رأينا فى جِوَارِهم هَنَات

معناها — كما يقول المرزوقى(١) — « الأمور المنكرة ، ولا تستعمل إلا فى الشر ، وهى جَمْعُ (هَنَةٍ) ، وإنما يكْنَى بها عن المحقرات ، وقد يُجْمَع هَنَةٌ على هَنَوَاتٍ ، فمن ردَّ اللام فى الجميع رَدَّهُ فى النِّسْبَة أيضاً ، ومن لم يرده فهو فى النسبة بالخيار ، إن شاء قال : هَنَىٌّ ، وإن شاءقال هَنَوِىٌّ

اما المسائل الصرفية ، فتشغل جانباً آخر من جوانب اهتمامه باللغة . لقد وجدناه يحرص دائماً على ذكر الميزان الصرفى للفظ ، بل يحمله حملا ، ويقلبه تقليباً ، ذاكراً معناه فى كل موضع .. وكيف اشتق ، وبِمَ قيس ، وكيف عومل إلى آخر هذه الأمور .

يقول عن لفظ « التمساح » الذى ورد فى قول الشاعر :

أُلامَ على بُغْضِى لما بَيْنَ حَيَّةٍ
وضَبْعٍ وتِمْسَاحٍ تُغَشَّاكَ مِنْ بَحْرِ

« التِّمْسَاحُ : الدابة المعروفة ، والرجل الكذاب ، وجاء على هذا البناء شىء من الأسماء قليل ، لأن المصادر كلها على « تَفْعَال » بفتح التاء إلا حرفين وهما تِبْيَان وتِلْقَاء »(٢) .

أضف إلى ذلك أنه كثيراً ما يتحدث من أصل الكلمات ، وكيف نشأت وتطورت إلى أن اتخذت شكلها النهائى حسبما ورد فى الشعر .

من مثل قوله فى تفسير بيت الحكم الخُضْرِىّ :

تَسَاهَمَ ثَوْبَاهَا ففى الدِّرْعِ رَادَةٌ
وفى المِرْطِ لَفَّاوَانِ رِدْفُهما عَبْلُ

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٦٠ ، وأنظر ٤-١٨٧٧ .

(٢) شرح الحماسة ٤-١٨٧٧ وانظر ٣-١١٤٥ .

« .. معنى تَسَاهم : تقاسم ، ولذلك قيل سُهْمَةُ فلان من هذا كذا ، أى قسمته ونصيبه ، ويجوز أن يكون من السِّهام : القِداح التى تُجَالُ بين الخصوم إذا تقارعوا ليستبدَّ كلٌّ بما يخرج له لقسمته وبدَّته ، وفى القرآن : (فَسَاهَمَ فكان من المدحضين) فكأنه استعار ، وإن كان أصله ما ذكرت للتقاسم ، إذ كان يُفْعِل للقسم وما يشبهه لا غير »(١) .

وقوله فى تفسير قول الآخر :

سَلِى البانَةَ الغَنَّاءَ بالأجرع الذى
به البانُ هَلْ حَيَّيْتُ أطلالَ دَارِكِ

« سلى ، أصله إسألى ، فحذف الهمزة تخفيفاً ، وأبقيت حركتها على السين فصار إسَلِى ، ثم استغنى عن همزة الوصل لتحرك ما بعدها ، فحذفت سلى ، وهذا كما تقول فى الأحمر إذا خَفَّفْته : لَحْمَر ، ومن قال : الحَمْرَ ، يقول : إِسْلِى فيبقى ألف الوصل »(٢) .

ويقول فى تفسير قول الشاعر :

وَيْلُمِّ لِذَاتِ الشــبَاب معيشَةً
مَعَ الكُثْرِ يُعْطَاهُ الفَتَى المُتْلِفُ النَّدى

« وقوله : (وَيْلُمِّ لذَّاتِ الشباب) — فمن الظاهر أن أصله : (وَيْلٌ لأُمِّ لذات الشباب) فحذف من أمّ الهمزة ، واللام من ويل ، وقد ألقى حركة الهمزة على اللام الجارة ، فصار (وَيْلُمَّ) ، وقيل : وَيْلِمِّ كما قيل : (الحمدُ لله) و (الحمدِ لله) إتباعاً لإحدى الحركتين الأخرى »(٣)

---

(١) شرح الحماسة ٣-١٣١٧ (يقول : انقسم جسم هذه المرأة بين درعها وإزارها ، ففى درعها بدن ناعم ، وخصر دقيق ، وفى مرطها فخذان غليظتان عليهما ردف ضخم) .

(٢) شرح الحماسة ٣-١٣٠٧ .

(٣) شرح الحماسة ٣-١٢٠٢ — والبيت نسبه الشنتمرى لحميد بن سجار ، ونسبه البغدادى لعلقمة الفحل ، ولفظه (ويل) إذا أضيفت بغير اللام فالوجه فيها النصب ، فقول ويل زيد — والمعنى : « ألزم الله زيداً ويلا » .

على أن تناول المرزوقى لمثل هذه الموضوعات اللغوية قد يدفعه إلى الحديث عن المقبول والمرفوض فى الاستعمال ، من مثل قوله بعد تفسير بيت الشاعر :

لَئِنْ كانَ يُهْدَى بَرْدُ أنْيابِها العُلَى
لأَفْقَرُ مِنّى إنَّنِى لفقـــــير

«وأَفْقَرَ كأنهُ بُنِيَ على فقُرَ المرفوض فى الاستعمال ، وإنما قلت هذا ، لأن فقيراً كان حُكْمُه أن يكون فعله على فَقُرَ ، ولم يجىء منه إلا إفْتَقَرَ .

وشرط فعل التعجب وما يتبعه من بناء التفضيل أن لا يجىء إلا من الثلاثى ى الأكثر ، وما كان على أفعل خاصة ، وإذا كان كذلك ، فأفقرُ لا يصحّ أن يكون مبنياً على افتقر ولكن على فَقُرَ ، فهذا طريق .

ولك أن تقول : بُنى منه على حذف الزوائد ، كما جاء : ريحٌ لا قحٌ ، والمراد : ملقّح ، وما أشبهه »(١)

ولقد وجدنا فى شروحه اللغوية حديثاً عن اللهجات واختلافها .

يقول حين تصدى لشرح بيت شاعر بنى تميم :
أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكَابَ عِلْقٌ
نَفِيسٌ لا تُعَـــارُ ولا تُبَـــاعُ

« سَكَابَ » إذا أعربته منعته الصرف ، لأنه علم ، فلحصول التعريف فيه والتانيث مع كثرة الحروف يُمْنَع الصرف ، والشاعر تميمىٌّ (٢) وهذا لغة قومه .

وإذا بنيتَه على الكسر ، أجريته مجرى حَذَامِ ، لأَنَّه مؤنث معدول معرفة . فلمشابهته بهذه الأوصاف دَرَاكِ ونَزَالِ يُبْنَى ، وهذه اللغة حجازية .

ويقول عن « إخال » الواردة فى بيت بعض بنى جَرْم :

---

(١) شرح الحماسة ٣-١٣٠٥ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢١٠ ، وأنظر فى لغة تميم ١-٨٨ ، ١-٢١٠ ، ٢-٥٠٢ ، ٣-١٤٠٣

إخَالُكَ مُوعِدِي ببني جُفَيْفٍ

وَهَالَةَ إنني أَنْهَاكَ هَالاً

« .. فى قوله « إخال » ضرب من الاستهانة ، يقال : خلْتُ أَخَالُ ، و« إخَال » طائية، فكثر استعمالها فى ألسنة غيرها ، حتى صار أَخَالُ كالمرفوض(١) .

ويقول عن لفظة« النّكال » الواردة فى بيت الشاعر نفسه :

فإلا تَنْتَهِي يا هَالَ عَنِّى

أَدَعْكِ لمن يُعَادِينِي نَكَالا

« النكال : اسم لما يجعل عبرة للغير ، ويقال: نَكَلَ يَنْكُلُ ، ونَكِلَ يَنْكَلُ لغتان.. الأولى تميمية ، والأخرى حجازية »(٢) .

ومن الموضوعات الجوهرية التى ساقها المرزوقى بين ثنايا شرحه على الشعر « موضوع الأضداد » فنرى له التفاتات وتوضيحات جمة .

فمادة (غَبَرَ) من الأضداد – تناولها المرزوقى حين شرح بيت المساور ابن هند :

أَوْدَى الشَّبابَ فَمَا لَهُ مُتَقَفَّرُ

وفَقَدتُ أَتْرَابِي فأَيْنَ المَغْبَرُ

فقال (٣) : « غَبَرَ إذا مَضَى ، وغبر إذا بَقِى » .

ثم يحدد معناها فى هذا البيت قائلا : « ويريد بالمغبر هنا البقاء » .

ومادة (جَلَلَ) من الاضداد كذلك ، جاءت فى بيت الشاعر :

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً

ولن سَطَوتُ لأَوْهِنَنْ عَظْمِى

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٤٨ ، وانظر فى لغة طيىء ١-١٦٦ ، ٢-٤٦٠ ، ٤-١٨١٠ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٤٩ ، وانظر أيضاً ١-٨٨ ، وانظر فى لغة أهل اليمن ١-١٦٥ ، وفى لغات قبيلة هذيل ١-٥١ ، ٣-١٧١٥ ، ٤-١٨٤٥ .

(٣) شرح الحماسة ١-٤٥٨ وانظر أيضاً ١-٤٧١ .

وضحها المرزوقى بقوله(١) : « الجَلَل يزعم أهل اللغة أنه من الأضداد يقع على الصغير والكبير .. وهنا يراد به الكبير » .

و« شَرَى » من الأضداد أيضا ، وردت فى بيت قيس بن زهير :

شَرَى وُدِّى وشُكْرِى من بعيد
لآخِرِ غَالبٍ أبداً ربيــــع

فعلق عليها المرزوقى بقوله(٢) : « شَرَيْتُ الشيءَ بمعنى اشتريت وبعتُ جميعاً ، وكذلك بعْتُ يصلح للأمرين ، ومن شَرَيتُ الشَّرْوَى وهو المِثْل ، لكن لامه وهو ياء قلبت واوا ، لأن فَعْلَى إذا كان إسماً ولامه ياءاً يُفْعَلُ به ذلك ، فرقاً بين الإسم والصفة ، وعلى هذا قولهم : « الفتوى » .

وتزخر شروحه بالكثير من التوضيحات لما يعترى الألفاظ من قلب أو إبدال .. أما القلب فقد ألمح إليه فى مواطن عدة ، يقول فى شرح بيت جعفر بن علبة :

ألاَ لا أُبَالِى بَعْدَ يَوْمِى بِسَحْبَلٍ
إذا لم أُعَذَّبْ أن يَجىءَ حِمَامِيـا

محللا قول الشاعر (لا أبالى) : « أما قولهم «لا أُباليه» بالَةً ، أصله عند سيبويه بالية فخفف ، وقد ذهب غيره إلى أنها «مقلوبة» ، ويقول فى « بالة » أنها فَعْلَة ، وأن ألفها منقلبة عن واو ، وأن « أبالى » كان« أُباول » أى لا أكاثر ، ثم وضع موضع لا أَحْفِلُ ولا آكترث »(٣) .

وليس القلب اللفظى وحده ما يلتفت إليه المرزوقى ، بل القلب المعنوى كذلك ، قال المساور بن هند :

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٠٤ ، وانظر أيضاً ١-٢٨٢ حديثه عن الجون .
(٢) شرح الحماسة ١-٤٧١ .
(٣) شرح الحماسة ١-٣٥٦ ، وانظر أيضاً ١-١٢٩ ، ٢-٦٢٧ .

ورأينَ شَيْخاً قد تَحَنى صُلْبُــه
يَمْشِي فيقعُسَ أو يُكَبُّ فَيَعْثُرُ

فقال المرزوقى : «كان الواجب أن يقول (أو يَعْثُر فيكبُّ) لأن العثار قبل السقوط للوجه ، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب لأمنه من الالتباس ، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القلب »(١) .

وأما الإبدال .. فمن مثل قوله فى شرح بيت الشاعر :

وأَنْتَ امرُؤٌ إمّا إئتَمنْتَكَ خالياً
فَخَنْتَ وإمّا قُلْتَ قَوْلاً بلا عِلْمِ

« قوله (ائتمنتك (هو افتعل من الأمانة ، ولك أن تخفف الهمزة وتُبْدل منها ياء ، ولك أن تعوّض من الهمزة تاء فتدغمه فى التاء التى بعدها فتقول : (إتّمَنْتَكَ) » (٢) .

وخصيصة هامة وجدناها — فى شروح المرزوقى اللغوية — وهى إلتفاته إلى ظاهرة تعريب الألفاظ ، فنراه يحدد كثيراً من الألفاظ — غير العربية — التى عربت ، وانتقلت بمعناها إلى العربية منذ الماضى السحيق ، مما يثبت أنه كانت هناك علاقات ثقافية قديمة ، بين اللغات القديمة — خاصة الفارسية — وبين اللغة العربية ، أثرت فيها ، وظهرت فى شعر الشعراء .

يقول فى شرح بيت شأس بن نبهان :

بِجَأْواءَ جُمْهُور كأَنَّ طريقَها
بِسُرَّةَ بين الحَزْنِ والسَّهْلِ رَزْدَق

«بِجَأْواءَ جُمْهُورٌ : يعنى كتيبة مخضرة لكثرة السلاح فيها ..

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٦٠ .
(٢) شرح الحماسة ٢-١١٣٩ .

والجمهور : الكثير ، والسرة :ما اتسع من بطن الأرض ، والرَزْدَقُ : فارسية مُعَرَّبة »(١) .

ومن البديهى أن نعرف أن هذه الشروح اللغوية وغيرها ، مواد تقريرية متفق عليها . ليس فيها إعمال للعقل ، أو إختراع ، وإنما هى شروح موضوعة موروثة منقولة عن السلف ، وهنا يظهر بوضوح الجانب النقلى فى شروح المرزوقى .. فنجد إتكاءه على ما جاء عن العلماء السابقين من أمثال الخليل وسيبويه والأصمعى وأبى زيد وابن الأعرابى وغيرهم(٢) ، والمبرد وثعلب من تلاميذهم ، أضف إلى ذلك العلماء قريبى العهد به من أمثال ابن دُريد والزجاج ، أو المعاصرين من أمثال ابن جنى وأبى على الفارسى وغيرهم ..

وليس اعتماده على آراء اللغويين القدماء والمعاصرين مأخوذاً فقط عما جاء عنهم رواية وسماعاً ، بل أنه ينقل فى أحيان كثيرة من كتبهم ومؤلفاتهم ، التى اطلع عليها من مثل قوله :

« قال الخليل فى العين »(٣) .

« وذكر سيبويه فى الكتاب »(٤) .

« وقال ابن الأعرابى فى نوادره »(٥) .

« وحكى الأصمعى فى الأمثال »(٦) .

---

(١) شرح المفضليات – الملحق بشرح المفضليات للأنبارى ، ص ٨٩٠ وانظر شرح الحماسة ٤-١٨٧٩ (المنجنيق معربة) ، ٢-٥٥٦ (سوذنيق) ، ١-٣٩٧ (شواذكين) . وأنظر : فهرس الكلمات الأعجمية الملحق بشرح الحماسة ٤-٢٠٦٠ .

(٢) أنظر فهرس الأعلام فيما يتصل بهؤلاء العلماء .

(٣) شرح الحماسة ١-٥٢ .

(٤) شرح الحماسة ١-٢٦ ، ١-٣١٥ .

(٥) شرح الحماسة ١-١٦٦ .

(٦) شرح الحماسة ١-١٥٥ .

« وقال ابن السكيت فى إصلاح المنطق »(١) .

« ومر بى فيما قرأته من مجاوبات قريش »(٢) .

وليست مصادره متوقفة على النقل فقط ، فهناك مصادر أخرى سماعية ، وإن كانت قليلة بالنسبة إلى المصادر المكتوبة ، فنرى المرزوقى أحياناً يقول :

« وقال بعض الشيوخ »(٣) دون أن يحدد هم .

« وسمعت بعض أصحاب المعانى »(٤) .

أما أستاذه أبو على الفارسى فهو دائماً يذكره بالفخر والاعتزاز فى كل ما يعن له أو يذكر سماعه عنه .

وأياً ما كان حجم هذا العنصر اللغوى ، فإن المرزوقى لم يشأ أن يجعله طاغياً ، ولم يرتض أن يتوسع فيه توخياً للتسهيل من ناحية ، ولأنه كما قلنا كان يهتم أساساً بإبراز المعانى الأدبية ، لذلك كان يأخذ من كل علم بطرف ، وهذا ما ذكره حين كتب خاتمة شرحه على الحماسة ، لأنه كان يقدر أن المواد اللغوية ما هى إلا وسائل لتوصيل المعنى وإبرازه ، لذلك فهى خادمة له ، طوع أمره ، تسير فى ركابه .

ولعلنا لاحظنا أن المرزوقى لم يفسح المجال للحديث عن الغريب ، ولم يكن يهتم كثيراً بشواذ اللغة ، ولم يجنح إلى الإسهاب فى المسائل اللغوية العويصة ، لأن هدفه هو التقريب والتسهيل من جهة ، ولأنه كان يحرص على المتعة الفنية الناتجة من قراءة الشعر .

لذلك نجده يتوقف حين يحس أن المسائل قد تطول بين يديه .. أو أن الأمور ستتشعب منه ، نراه يقول :

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٤٦ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٣١ .

(٣) شرح الحماسة ١-١٨٠ .

(٤) شرح الحماسة ٣-١٣٢٦ .

« ولهذا الأمر بحث آخر » .

أو « وهذا الأمر يطول شرحه » .

أو « للترجيح والنظر فى المسألة موضع غير هذا »(١) .

ولذلك وضح عنده عدم التكرار ، لأنه كان إذا تناول شرح مسألة من المسائل ، وصادفته فى موضع آخر قال : « وقد فسرنا ذلك من قبل » .

فى كل هذه الأجواء حلّق المرزوقى بعلمه ، وأظهر أنه عالم لغوى من الطراز الأول ، متبحر فهّامة لكل الخصائص الفنية الدقيقة، التى تشتمل عليها اللغة .. أنه لم يترك موضوعاً من موضوعات اللغة إلا حله وفسره ، ودعمه بالشواهد المأخوذة من كتاب الله أو من الشعر أو الأمثال .

ويكفي أن نرجع إلى فهرس موضوعات اللغة ، المثبت فى نهاية شرح الحماسة ، لندرك كيف كان يعالج القضايا اللغوية — لفظاً واشتقاقاً وتصريفاً — وكيف كان يحلل مسائلها بعقل العالم وفكر الفنان وروح الأديب ..

وليس أدل على اهتمامه باللغة خاصة — من إفراده لها مجموعة من المؤلفات ، التى تبين مدى اهتمامه بهذا الجانب الحيوى فى حياة العلم عامة وشرح الشعر خاصة . من هذه المؤلفات : شرح الفصيح ، والأمالى ، ألفاظ العموم والشمول ، وغير ذلك(٢) .

---

(١) انظر : شرح الحماسة ١-٣٥٦ .

(٢) انظر مصنفاته .

النحو فى شرح المرزوقى

فإذا تركنا عامل اللغة وانتقلنا إلى العامل الثانى وهو النحو ، نجد أن المرزوقى أولاه – هو الآخر – اهتماماً كبيرا حتى ليعد من أبرز المجالات التى جال فيها . وتشهد كل الشواهد على أنه كان له بهذا العلم ولع شديد ، سيطر على حواسه وأفكاره ، وشد انتباهه شداً عنيفاً ، فبرز فيه كعلَم من أعظم أعلامه ، ومن هنا لقبه مؤرخوه ومترجموه « بالنحوى » ووضعوه بين أنباه النحاة(١) ، كما أدرجوه بين طبقات النحاة(٢) المشار إليهم بالبنان . والحقيقة أن ما وصل إلينا – فى شروحه على الشعر – من آراء واجتهادات نحوية ، يدل دلالة واسعة على أن النحو كان أحد العمد الرئيسية التى يرتكن إليها فى شرحه .

وإذا نظرنا فى شروحه نجد أن اهتماماته النحوية لها جانبان :

– جانب نظرى تقعيدى .

– وجانب عملى تطبيقى .

فى الجانب الأول : يظهرلنا مدى فقهه فى مسائل النحو النظرية ، حسبما فهمها واستوعبها نتيجة لقراءاته الواسعة للمصنفات النحوية ، التى وضع أصولها أساطين النحو الكبار ، وأعلامه الموهوبين على اختلاف عصورهم ومذاهبهم .

وفى الجانب الثانى : نستطيع أن نلمس مدى حذقه فى تطبيق هذه النظريات والقواعد النحوية ، تطبيقاً عملياً ، يدل على دقة فى الفهم ، وبعد فى النظر وسعة فى الأفق . وهذا الجانب بالذات – هو الجانب الأساسى والأكبر

---

(١) القفطى : أنباه الرواة ١-١٠٦ .

(٢) بغية الوعاة ص ١٥٩ ، طبقات النحاة واللغويين لإبن قاضى شهبه ولقد ألف المرزوقى مجموعة من المؤلفات فى النحو مثل شرح النحو ، وشرح الموجز فى النحو ومفردات متنوعة فى النحو . (أنظر مؤلفاته ومصنفاته) .

فى شروحه ، حيث نراه لا يقف عند حد التراث الموروث ، بل يتسع لجنبات آرائه الخاصة واجتهاداته ، خاصة حين يتصدى للأمور التى تحتاج إلى تجويز أمور لم يستطع السابقون الوصول إلى توضيحها ، أو تعليلها :

نستطيع أن نرى فيما يتصل بالجانب النظرى كثيراً من المسائل والآراء . يقول بعد أن شرح بيت ابن زيابة :

يا لَهْفَ زَيَّابة للحارثالـ صَّابِحِ فالغانم فالآيِبِ

« واعلم أن الصفة إذا جاءت للتبيين وإزالة اللبس عن الموصوف ، فالوجه أن يعمد إلى أخصها بالموصوف ، وأحقها بالبيان والشرح ، حتى تغنى عن العدول عنها إلى غيرها من الصفات ، فإن اتفق بعد ذلك لَبْس حينئذ يزال بما يُضم إليه. وإذا جاءت للتعظيم أو التهجين فإنه قد يوالى بين عدة منها بحروف النسق ومن دونها ، تقول : « جاءنى زيدٌ الظريف الكاتب الفاضل العالم » وإن أتيت بالواو العاطفة متخللة له ساغ ..

فإن قيل : إذا كانت الصفة هى الموصوف ، والشيء لا يعطف على نفسه فكيف جاز عطف بعض الصفات على بعض ؟

قلت : تغاير المعانى الحاصلة بها ، وقوة اتصال بعضها ببعض فى بابى الصلة والصفة ، سوغ ذلك فى ألفاظها »(١) .

ويتعرض أثناء شرحه لبيت العباس بن مرداس :

فلَمْ أرَ مثْلَ الحىَّ حيًّا مُصَبَّحاً

ولا مِثْلَنَا يوم التَقَيْنَا فوَارِسَا

---

(١) المرزوقى : شرح الحماسة ١-١٤٧ .

يقول فى شرح البيت : هو يتحسر لما رأى من فلاحه فى غزاته ، وسلامته فى مآبه ، ويقول : يا حسرة أمى من أجل هذا الرجل فيما ارتفع له من المراد فى الغزو ، وجمع له من السلامة والوفر .

لأخص خصيصة من خصائص التميز وهى الإفراد ، فيعالل كيف جاء فى البيت على صيغة الجمع فيقول بعد أن شرح المعنى :

« وانتصب قوله (حَيًّا مُصَبَّحاً) على التميز ، وكذلك قوله (فوارسا) تميز وتبيين . فإن قيل : لم قال (فوارس) والتميز يُؤتى به مُوَحَّد اللفظ ؟ قلت : إذا لم يتبيَّن كثرة العدد واختلاف الجنس من المميز يؤتى بالتميز مجموع اللفظ متى أريد التنبيه على ذلك . وعلى هذا قول الله تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأخسرين أعمالا) كأنه لما كانت أعمالهم مختلفة كثيرة ، نبه على ذلك بقوله (أعمالا) ولو قال (عَمَلاً) كان السامع لا يَبْعُدُ فى وهمه أن خُسْرَهم كان لجنس واحد من أجناس المعصية ، أو لعلٍ واحد من الأعمال الذميمة ، فكذلك قوله (فوارس) جَمَعَهُ حتى يكون فيه إيذان بالكثير »(١) .

وحذف جواب لو .. متى يكون أجود وأبلغ ؟

يعالل المرزوقى لذلك ، أثناء شرحه لبيت عبد الشارق بن عبد العزى :

رُدَيْنَةُ لَوْ رأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا
على أَضَمَاتِنَا وقَدْ احْتَوَيْنَا

يقول بعد أن فسر معنى البيت (٢) :

« وجواب لو محذوف ، لأن الأفعال التابعة لهذا البيت جميعها مقصور على بيان القصة ، وشرح أحوال الوقعة ، ذلك أن حذف الجواب من مثل قول القائل : « لو رأيتَ زيداً وفى يده السيف » أدل على التهويل والتفخيم من إثباته .. » .

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٤٠ ، وانظر أيضاً ١-٥٣ .

(٢) شرح الحماسة ١-٤٤٣ . وانظر رأيه فى حذف ألف (ما) ومتى يجب (١-٦٣) . (الأضم : الغضب ، يقول : لو رأيتنا غداة جئنا على حزازات فى النفس ، واحترافات فى الجوف والصدر ، من الغيظ والحقد ، وقد حوينا أموال أعدائنا واستبحنا حريمهم وملأنا أيدينا من غنائمهم) .

أما الجانب العملى التطبيقى — وهو الأكثر اتصالا بطبيعة الشروح — فقد كان أوضح شكلا ، وأغزر مادة فى شروحه وتعليقاته ، وشغل حيزاً كبيراً من مخصصات هذه الشروح ، حيث تعرض المرزوقى — أثناء إضاءة هذا الجانب — لتوضيح مواضع الكلم ، وتحديد محلها من الإعراب ، من مثل قوله فى إعراب «يَا لَبُهْثَةَ » فى بيت عبد الشارق بن عبد العزى :

فَنَادَوْا يا لَبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنَـــا
فَقُلْنَا أحْسِنِى ضَرْباً جُهَيْنَـــا

« ... واللام من (يا لَبُهْثَةَ) لام الجر ، وتعلقت بيا : حرف النداء . ولا يجوز أن يقال تعلقت بالفعل الذى دل عليه يا ، لأن ذلك الفعل لما لم يخرج إلى الوجود سقط حكمه ، وفُتِحَتْ لوقوع المنادى موقع المُضْمَر . وبُهْثَةَ مَدْعُوَّةٌ ، والجار مع المجرور فى موضع نصب لأنه منادى »(١) .

ويقول فى إعراب (أن لا تلاقيا) الواردة فى بيت جعفر بن علبة :

إذَا ما أتَيْتُ الحارثِيَّات فانْعِنِى
لهنَّ وخَبِّرهُنَّ أنْ لا تَلاَقِيَـــا

« وقوله : (أن لا تلاقيا) : أن مُخَفَّفَةٌ من أنَّ الثَّقيلة ، واسمه مُضْمَرٌ ، وتلاقيا نَصْبٌ بلا ، وخبره محذوف ، المراد : لا تَلاَقِىَ لنا ، والهاء فى أنه ضمير الشأن والأمر ، والجملة خبر أن »(٢) .

وهنا نقف قليلا لنتساءل ..

ترى .. ما هو مذهب المرزوقى النحوى ؟ ..

أو بمعنى آخر — إلى أى من المدارس النحوية ينتمى ؟ .

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٤٦ (يقول : « لما شارفناهم استغاثوا ببنى بهثه معتزين إليهم ، ومستمدين منهم فاستثرنا نحن أيضاً فى مقابلة ما فعلوا بنى جهينة ، وهززناهم للضرب فيهم والإيقاع بهم) .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٥٧ (يقول المرزوقى فى معناه : هذا كلام رجل يونس أحبته من نفسه لاستقتاله ، أو لأنه منى بما لم يرج الخلاص منه ، فقال : إذا زرت نساء بنى حارثة فاذكر موتى لهن ، وأعلمهن انه لا التقاء بينى وبينهن) .

فى الحقيقة .. هذا سؤال ليس من السهل أن نجيب عليه إجابة مطلقة . ذلك أننا حين نرجع إلى آرائه وشروحه النحوية ، نجده فى طائفة منها يأخذ برأى البصريين ويتابع أعلامهم النحويين من أمثال الخليل وسيبويه ويونس ابن حبيب والمبرد وغيرهم(١) . وفى طائفة منها يتابع الكوفيين فى بعض ما ذهبوا إليه .

من أمثلة ما تابع فيه البصريين .. قوله فى شرح بيت عصام بن عبد الله :

لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وقَبْرٌ كنتُ أكرمَهُمْ
مَيْتاً وأبعدهُمْ من منزل الذَّامِ

« قوله : (لو عُدَّ قَبْرٌ وقبرٌ) المراد به والأصل فيه : (لو عُدَّت القبور قبراً قبراً) إلا أنه اختصر الكلام ، وحذف القبور ورفع (قبراً) على أن يقوم مقام الفاعل ، فلما رفعه وأزاله عن سَنَن الحال فى نحو قولهم :

« بِعْتُ الشَّاءَ شاةً شاةً » ، و« قبضت المالَ درهماً درهماً » ، و« صمت رمضان يوماً يوماً » ، ردَّ حرف العطف ، وإنما قلتُ هذا لأنه من مواضع العطف ، لكنهم اتسعُوا فى الحال لعلم المخاطب .

ويدعم المرزوقى رأيه بما جاء عن سيبويه فى كتابه فيقول :

« وقال سيبويه : إن الغالب على هذا الباب كله ، أن يكون انتصابه من إحدى الجهتين : الحال أو الظرف ، لأن الاتساع منهم على هذا الحد والجواز لم يكن إلا فيهما ، والظرف كقوله (لقيته يومَ يومَ ، وصباحَ مساءَ ، وما جانَسَهما) . قال : والإفراد فى هذا الباب لا يجوز حماية على المعنى الذى يتضمنه التكرار »(٢) .

---

(١) أنظر على سبيل المثال : ٢-٧٦٤ ، ٣-١٢٤٧ ، ١٤٣٨ ، ١٥٦٤ ، ٤-١٨١٧ .
(٢) المرزوقى : شرح الحماسة ٣-١١٢٢ .

وقد يجمع المرزوقى بين باقة من الآراء البصرية ، وينسق بينها ، كقوله عند تفسير بيت قبيصة بن النصرانى :

٣ – جَهِلْتِ من عِنَانِهِ المُمْتَدِّ .

٤ – ونظرى فى عطفه الألدِّ .

وقوله (جَهِلتِ من عِنَانِهِ) يجوز على مذهب أبى الحسن الأخفش ، أن يكون زاد (من) فى الواجب ، أراد : (جهلت عِنَانِهِ) ويكون قوله (ونظرى) فى موضع النصب عطفاً عليه إن شئت ، ومما حكاه فى الحجة له القول (قد كان من مطر) و (قد كان من شىء فَخَلِّ عنىّ) .

وعلى مذهب سيبويه يكون فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون الكلام محمولا على المعنى ، لأن الجهل نَفْىُ العلم ، كأنه قال بدل (جَهِلْتِ : ما علمت وما عرفت .

والثانى : أن يكون حذف مفعول (جهلت) كأنه قال : (جهلت من عَنَانِهِ الطويل مدلوله من العنق والنجابة ، لأن الذى جهلته ذلك ، إذْ كان امتدادُ عُنُقِهِ يدرك مُشَاهَدَةً)(١) .

وقوله أيضاً فى تفسير بيت سعد بن مالك :

مَنْ صَدَّ عَنْ نيرَانِهَـــا

فأنا ابنُ قَيْسٍ لابَـــرَاحُ

« وقوله (لابَرَاحَ) الوجه فيه النصب ، ولكن الضرورة دعته إلى رفعها وقال سيبويه : جعل (لا) كـ (ليس) ها هنا ، فرفع به النكرة ، وجعل الخبر مُضْمَراً ، ومثله :

بِىَ الجحيم حينَ لا مُسْتَصْرَخُ

كأنهما قالا : حين ليس عندى مستصرخٌ ولابَرَاحٌ عندى فى الحرب . وهذا يقل فى الشعر ولا يكثر .

---

(١) شرح الحماسة ٢–٦٢٤ ، وانظر أيضاً ٢–٩١٣ ، ٣–١٢٣٣ ، ٣–١٢٧٩ .

وجعل غيرهَ (براح) مبتدأ والخبر مضمراً، وإنما يحسُنُ ذلك إذا تكرر كقول القائل : (لادرهَمٌ لى ولادينارٌ) و (لاعبدٌ لى ولا أمَةٌ) إلا أنه جَوْز للشاعر الرفع فى النكرة بعد (لا) وإن لم يكرر ، لأن أَصْلَ ما ينفى بـ (لا) للرفع ، فكأنه من باب رد الشيء إلى أصله »(١) .

وعلى نحو ما كان ينتخب من آراء البصريين - كان ينتخب من الآراء الكوفية ما صح لديه قياسه ، ويذكر آراءهم المختلفة .. من مثل قوله بعد تفسير بيت الفند الزمانى :

ولَوْلاَ نبلُ عَوْضَ فى خُضُمَّاتِى وأَوْصَـا لِى

« .. و« عَوْض) اسمٌ للدهر معرفة مبنىٌ ، وكما يبنى على الفتح يبنى على الضم ، والضَم فيه حكاه الكوفيون(٢)، ويقال لاأفعله عَوْضَ العائضين وإنما بُنِيَ لتضمنه معنى الألف واللام .

والظاهرة الواضحة فى تناول المرزوقى لآراء النحويين ، أنه لايسجل انتصاراً لهؤلاء أو هؤلاء ، بل يكتفى بعرض الآراء جنباً إلى جنب ، مبيناً وجهات النظر المذهبية كلا على حدة ، دون تعصب :

يقول فى شرح بيت امرأة من بنى أسد :

أَنْعَى فَتىً لم تَذُرَّ الشمسُ طالعة
يَوْماً من الدَّهر إلا ضَرَّ أو نَفَعَا

« .. وقولها : (أنعى فتى لم تذر الشمس طالعة) انتصب طالعةَ على الحال المؤكد لما قَبلِه . (البصريون) ، والكوفيون يقولون فى مثله : (انتصب على القطع)(٣) :

---

(١) شرح الحماسة ٢-٥٠٦ ، وانظر أيضاً ١-٢٢٦ (حيث يقول بعد الشرح وهذا يؤيد مذهب سيبويه فى تجويزه للشاعر حذف حركة الإعراب عند الضرورة) .

(٢) شرح الحماسة ٢-٥٣٨ (ويروى بالكسر أيضاً كما فى اللسان ، والفتح أعلى لغة فى اللغات الثلاث) .

(٣) شرح الحماسة ٢-٩٧٦ ، وانظر ٢-٩٩٠ ، ٤-١٦٦٩ .

ويقول فى تفسير (الآل) الواردة فى بيت الشاعر :

« .. الآل عند أصحابنا البصريين والأهل واحد ، ويدل على ذلك أن تصغير الآل (أُهَيِّل) ، كما أن تصغير الأهل أُهَيْل .

وقال الفراء عن الكسائى أنه قال : سمعت أعرابيا فصيحا يقول : أَهْلٌ وأُهَيْلٌ ، وآلٌ وأُوَيْلٌ :

وقال أبو العباس ثعلب : فقد صار أصلين لمعنيين ، لا كما قال أهل البصرة .

وحكى أبو عمر الزاهد عن ثعلب : ان الأهل : القرابة ، كان لها تابع أو لم يكن ، والآل : القرابة بتابعها ، قال : ولهذا أجودُ الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وأفضلها « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ، وقد ورد فى التوقيف . روى أن أمير المؤمنين عليه السلام سأل النبى صلوات الله عليه : كيف الصلاة عليه ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » (١) .

ويقول كذلك عند تفسير بيت عمرو بن معد يكرب :

فجاشَتْ إلىَّ النفسُ أولَ مَرَّةٍ
ورُدَّتْ على مَكْرُوهِهَا فاستقرّتِ

« يجوز أن يكون الفاء فى (فجاشَتْ) زائدة فى قول الكوفيين وأبى الحسن الأخفش ، ويكون جاشت جواباً للمَّا ..

وطريقة جُلِّ أصحابنا البصريين فى مثله — أن يكون الجواب محذوفاً ، كأنه قال : (لما رأيت الخيل هكذا فجاشت نفسى ورُدَّت على ما كرهَتْهُ فقرَّت ، طَعَنْتُ أو أبليتُ .. فحذف طعنت أو أبليت لأن المراد مفهوم . .

وحذف الجواب فى مثل هذه المواضع أبلغ وأدل على المراد وأحسن (٢)

(١) شرح الحماسة ٢-٩٦١ ، وأنظر أيضاً رأيه حول هذا الموضوع بأسلوب آخر فى ١-٤٥٢

(٢) شرح الحماسة ١-١٥٩ وانظر المصدر نفسه (٣-١٠٥٠) حيث تناول موضوع إظهار الضمير ورأى كلا الفريقين فى ذلك .

إذن فالمرزوقى يأخذ ببعض آراء البصريين ، كما يأخذ ببعض آراء الكوفيين ويعرض فى معرضه شروحاً نحوية ، هى مزيج من آراء علماء المدرستين معاً

لذلك فنحن نظن ظناً أن يكون المرزوقى بغدادى المذهب والنزعة ، يمزج بين آراء المدرستين المتنافرتين ؛ وينتخب من كل منهما مايروق له ، ومايتفق مع فهمه وتقديره .

وربما يرجح هذا الظن – أن المرزوقى كان تلميذاً مخلصاً لأبى على الفارسى أميناً على مبادئه ، مؤمناً بما جاء على لسانه ، مقدراً لعلمه وأستاذيته ، والفارسى – كما قال أستاذنا (١) : « أحد العلماء الذين مزجوا بين المنهجين التليدين ، وأحد المؤسسين للمذهب البغدادى الجديد ، الذى ينتخب من المدرستين مايراه أولى بالاتباع ، وإن غلب عليه النزوع إلى المذهب البصرى لأنه كان المذهب الذى حررت أصوله وفروعه وعلله » . فليس ببعيد أن يكون المرزوقى قد اعتنق مذهب أستاذه ، إيماناً منه بمنهجه ، وتأثراً واقتداءاً ، خاصة وأن عقل الفارسى كان من الخصب والنماء بحيث ملأ نفس تلميذه ، وشحن عقله ، فصار فى نظره وكأنه كنز سائل بمسائل اللغة والنحو ، وماجرى فيها من ضبط الأصول ، وضبط الأقيسة والعلل ، لذلك نراه يكثر من ذكر آرائه فى شرحه – ويستضىء به – فى كثير من المسائل النظرية التى حررها ، والتحليلات الإعرابية التى أصدرها (٢) .

ولعلنا لانغلو إذا قلنا – أن أكثر الأصول التى اعتمدها المرزوقى فى تفاسيره إنما كان مصدرها أبو على الفارسى .. يقول مثلا فى تفسير بيت موسى بن جابر :

ومن الرِّجالِ أَسِنَّةٌ مذروبة
ومُزَنَّدُونَ شُهُودُهُمْ كالغائبِ

(١) الدكتور شوقى ضيف : المدارس النحوية ؛ ص ٢٥٧ .

(٢) أنظر على سبيل المثال : شرح الحماسة ١ –٣٦٤ ؛ ٣٩٩ ؛ ٢ –٧٦٩ ؛ ٨١٤ ، ٣ –١٤٠١ –٤ –١٧٠٢ ؛ ١٧٨٤ ، ١٨١٦ .

«..وقوله(شُهُودُهُمْ كالغَائِب) أى لاغناء عندهم،ولادفاع بهم، فحضورهم كغيبتهم ، وأراد بالغائب الكثرة لاالتوحيد، وكان من حق التقسيم أن يقول : (ومنهم مزندون)، لكنه اكتفى بمن الأوّل، ومثله قول الله تعالى (منها قائمٌ وحَصِيد) . **وسمعت أبا على الفارسى** – رحمه الله – يقول :

« كل صفتين تتنافيان وتتدافعان فلا يصح اجتماعهما لموصوف ، لابد لإضمار (مِنْ) معهما ، إذا فصل جملة بهما متى لم يجىء ظاهراً ، ثم أنشد :

ومَا زَوَّدونى غَيْرَ سَحْقِ عَبَاءَةٍ
وخَمْسِ مِىءٍ منها قَسِىٌّ وزائفُ

وقال : يريد « ومنها زائف »،وهذا كما تقول :«زيدٌ منطلقٌ وعمروٌ» والمعنى : وعمرو منطلق ، فحذف إكتفاء بالخبر عن الأول ، وعلما بأن المنعطف ذلك حاله .

وقال : فإن أمكن اجتماع الصفتين لموصوف وأحد استغنى عن إضمار (من) وذلك كقولك : « صاحباك منهما ظريف وكريم » (١) .

وليس كل ما يشكل بغدادية المرزوقى أنه كان ينتخب من آراء المذهبين فقط ، بل يشكلها أيضاً أنه كان يجتهد وقد ينفرد بآراء لم يسبق إليها .

من مثل قوله فى تفسير بيت سلمة الجعفى (٢) .

وكنتُ أرَى كالموْتِ من بين ليلةٍ
فكيف ببَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

« .. قوله : (كالموت) جعل الكاف وحده إسماً » .

---

(١) شرح الحماسة ١– ٣٦٤ .
(يقول الشاعر : من الرجال رجال كالأسنة المطرورة ؛ أى يمضون فى الأمور ويفصلونها نفاذ الأسنة ؛ ومنهم مزندون ؛ والمزند : المبخل المقلد) .
(٢) شرح الحماسة ٣ –١٠٨١ .

وكان أبو العباس يتبع أبا الحسن الأخفش (١) فى جواز وقوعه إسماً فى غير الضرورة . وسيبويه لا يرى ذلك إلا فى الضرورة ، كأنه قال : « أرى مثل الموت » .

ويجوّز المرزوقى رأياً آخر من عنده فيقول :

« ولا يمتنع أن يكون (كالموت) صفة لموصوف محذوف ، كأنه قال : « وكنت أرى شيئاً أوأمراً مثل الموت » :

وقوله فى شرح بيت الأعرج المعنى :

أَرَىَ أمّ سَهْلٍ ما تَزَالُ تَفَجَّـعُ
تَلُوُمُ وما أدرِّى عـلاَمَ تَوَجَّعُ

«..وقوله (مازال) يريد به تلك الحالة منها ، لأن مازال لدوام الماضى و« مايزال » هو مستقبل (مازال) فيصير لامتداد الحال » .

ثم يخلق المرزوقى مشكلة ويتساءل :

« فإن قيل : أليس (زال) ضد (دام) فكيف يفيد وهو للنفى معنى الدوام ؟ .. قلت : لما دخل ما النافية عليه ، تَغَيَّر معناه إلى الإيجاب ، لأن نفى النفى إيجاب فعاد إلى معنى الدوام (٢) :

ويقول بعد أن شرح بيت العباس بن مرداس :

إذَا طالَتِ النَّجوَى بغَيْرِ أوُلِى القُوَى
أضاعت وأصغت خَدَّ مَنْ هُوَ فَارِدُ

« .. العامل فى (إذا طالت) أضاعت ، وهو جوابه أيضاً ، وقد جمع بين فعلين فى قوله (أضاعت) و (أصغت) ، فأعمل الثانى وهو المختار عند أصحابنا البصريين .

---

(١) أبو العباس : يقصد المبرد ؛ وأبو الحسن الأخفش .. هو الأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مسعده) أنظر ترجمته وآراءه فى كتاب المدارس النحوية ص ٩٤ ومابعدها .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٤٩ .

ثم يجوز المرزوقى رأياً آخر فيقول :

« ويجوز أن يكون مفعول (أضاعت) . غير (خذْ مَنْ) فحذفه ، كأنه قال : أضاعت ربها . وكان الحكم فى هذا الوجه أن يقول لو أظهر المفعول :

« وأصغت خذه لكونه فارداً وحيداً » ، لكنه لما كان الآخر هو الأول وقدحذفه، لم يبال بإظهاره ، لأن الذى هو فار درب النجوى لا غير (١)

ونحن نسمع المرزوقى يردد فى شروحه حديثه عن البصريين باسم « أصحابنا » وهذا لا ينفى بغداديته ، ذلك أن البغداديين من أمثال أبى على الفارسى وأضرابه وتلاميذه، كانوا على الرغم من بغداديتهم ، يرجحون الأخذ ببعض ما جاء عن المذهب البصرى، لأنه المذهب الذى استقرت معالمه وحررت أصوله وفروعه وعلله :

ولعل المرزوقى بقوله (أصحابنا البصريين) كان يضعهم مقابل البغداديين الأوائل ممن كانوا ينزعون إلى الكوفة ، وهم حقاً من ذوق غير ذوقه ، ومن هوى غير هواه ، فهو بغدادى من طراز آخر ، طراز أستاذه أبى على الفارسى ، والزجاجى ، طراز كان ينزع إلى البصريين ، وهو الطراز الذى عم وساد منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى » وكان الفارسى وابن جنى من أهم الأسباب فى شيوعه ، إذ كانا ينتخبان من المذهبين البصرى والكوفى ، مع نزعة شديدة البصريين ، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للاجتهاد ، ومخالفة البصريين والكوفيين بقدر ما يؤديهما النظر وتسعفهما

---

(١) شرح الحماسة ١ — ٤٣٨

(يقول الشاعر : إذا طالت المناجاة وامتدت الاستشارة مع غير أرباب الآراء القوية لو قوع التشاور على غير حده وتفسير المشير فى القيام بواجبه)

الحجة » (١) . فقد« كان ظهور الإمامين النحويين أبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى إيذاناً بأن تنزع المدرسة البغدادية نزعة بصرية قوية ، وأن يسود إتجاهها فى الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ، والاجتهاد فى استنباط آراء جديدة ، وأن يتأثرهما النحاة الناهون الذين خلفوهما فى العراق والشام وإيران ، ويتخذوا نفس المنهج الذى أصلاه ، فلابد من تمثل الآراء البصرية والكوفية وآراء البغداديين الأولين ، الذين كانوا ينزعون نزعة كوفية ولابد من تمثل آراء أبى على وابن جنى ، وهو تمثل جعلهم يعكفون على مصنفات جميع أئمة النحو المتقدمين ، وخاصة مصنفات أبى على وابن جنى مما جعلهم يسيرون فى نفس الطريق الذى نهجاه وذللاه » (٢) .

ومن الحق أن نقول أن هذا النزوع إلى المدرسة البصرية كان نزوعاً ، لا عن حمية ، ولا عن عصبية ، إنما عن طول النظر والتبصر تبصراً كان يدفعه فى كثير من الأحيان إلى الوقوف فى صف الكوفيين ، وأوائل البغداديين حين يجد السداد فى جانبهم .

وهذا ما يؤكد بغداديته . وأنه كان يقيم مذهبه النحوى والصرفى على الانتخاب من المذهبين البصرى والكوفى ، وما انبثق عنهما من المذهب البغدادى عند أوائل البغداديين وعند أستاذه أبى على الفارسى .

ومن المهم أن نشير إلى أن المرزوقى لم يخالط البصريين أو الكوفيين أو البغداديين فى حلقات من استظهروا مذاهبهم ، ولكن مضى يخالطهم فى كتاباتهم متمثلا ماكتبه سيبويه (٣) وغير سيبويه من مصنفات مختلفة .

هذا هو المرزوقى شروحه النحوية ، بيد أن صورته ستتضح أكثر وأكثر بوصفه من أعلام النحو — إذا عرفنا أنه أفرد للنحو بعضاً من مؤلفاته :

---

(١) المدارس النحوية ، ص ٢٦٨ .

(٢) المدارس النحوية ص ٢٧٦ .

(٣) أنظر على سبيل المثال ١ — ٩١ ، ١٧٤ ، ٣٢٢ ، ٤٧٤ .

علوم البلاغة في شروح المرزوقي

ارتبطت شروح الألفاظ – كما رأينا – أكثر ما ارتبطت بعلوم اللغة . فكانت علوم اللغة عاملا أساسياً في شرح المفردات وتبيين مضمونها، وتحليل إشتقاقاتها، وتوضيح وزنها ووضعها الإعرابي . وكما ارتبطت شروح الألفاظ بعلوم اللغة ؛ ارتبطت شروح العبارات والأبيات بعلوم البلاغة ، فكانت هذه العلوم من العوامل الفعالة في توضيح المعنى ، سواء أكان حقيقياً أو مجازياً أو خيالياً .

ولقد اهتم المرزوقي – في شروحه – بهذه العلوم اهتماماً ظاهراً ؛ حتى لقد كانت إحدى الدعامات الأساسية ، التي يرتكز عليها في شرحه ، كما كانت المعين الصافي ، الغزير المياه ، الذي أمده بطاقات هائلة في الشرح والتحليل ، والتوضيح والتأويل . . ومن هنا تجلت شروحه ووضح فيها فهمه العميق لخصائص علوم البلاغة .

لقد استخرجت حاسته الفنية التذوقية كل كنوز هذه العلوم الثلاثة : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، استخراجاً صحيحاً وجريئاً ، حيث طبق أصولها وأحكامها ، وأبرز مواطن الجمال – في الشعر – بطريقة رائعة فذة ، تلفت الأنظار وتجذب الانتباه ، حتى تلألأت تحليلاته البلاغية فكادت تطغى على باقي عناصر الشرح الفني عنده . . ويبدو أن هذا الاهتمام من المرزوقي بعناصر علوم البلاغة في شرحه ماهو إلا إنعكاس وإمتداد لما كان يموج في عصره من إهتمام بهذه العلوم البيانية (١) .

لقد استغل المرزوقي طاقاته البلاغية – في شرح الصور الشعرية ، التي رسمها الشعراء وتحليل معانيها المجازية – الخيالية ، وإبراز ما في الأبيات والمقطعات من سمات الجمال الصوتي والمعنوي . فساعد بكل هذا على تمكين

(١) أنظر ماكتبه الدكتور محمد مندور حول هذا الموضوع في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) ص ٣٢٠ .

الصور الفنية من الوصول إلى أغوار النفس والتأثير فيها . . وأمد شروحه بالكثير من العناصر الحية ، التي أضفت على شروحه قيمة علمية وفنية عالية ؛ لم تتوفر لكثيرين غيره من الشراح.

(أ) علم المعانى

إن شروح المرزوقى تنم عن ذكاء حاد ، ووعى كامل بكل دقائق علم المعانى ، وأكثر ما يتضح ذلك فى توضيحه لأسلوب الكلام ، وكشفه عن أسرار الإبداع ، وتحديده لأدوات التعبير اللغوى ووسائله ، استفهاماً أو أمرا أو نداء . . أو غير ذلك ، وتبيينه حقيقة مقصود الشاعر من استخدامه للصيغ الكلامية . . إنشاء أو خبراً . . والتفاته لتلوين الكلام بما يصلح أن يكون مدحاً أو ذماً ، ثم تخريج كل وجه من هذه الوجوه على حده.

إن عناصر علم المعانى تتجلى عند المرزوقى فى صورتين :

الأولى : تناول نوعية الكلام ومضمونه . . مثلما رأينا من قبل :

والثانية : تناول أدوات التعبير اللغوى.

فالمرزوقى يحرص أول ما يحرص على توضيح نوعية الكلام وضروبه الفنية ووسائله المؤدية للمعنى ، بما يتصل ومقتضى الحال . .

ويتضح هذا الأمر مثلا فى قوله حين تصدى لتفسير بيت إمرأة طيء :

أَمَا فى بنى حِصْنٍ من ابن كَرِيهَةٍ
من القَوْمِ طَلاَّبِ التِّرات غَشَمْشَمِ

يقول عن نوعية الكلام ، « هذا الكلام بَعْثٌ وتحضيض لأبناء حِصْنٍ ».
أما عن وسائل التعبير فيقول : « والكلام لفظه استفهام ، والمعنى معنى التمنى . . كأنه يبعث ويحضض مَنْ يطلب دمه ، إذ فاتَ نُصْرتُه حيًّا »(١) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٢١٣ .

وبيت عويف القوافى :

أَمْ مَنْ يُهِينُ لَنَا كَرَائِمَ مَالِهِ
ولَنَا إِذاً عُدْنا إليه مَعَادُ

يقول فى تحديد نوعية الكلام : « هذا الكلام تنبيه على أنه كان يديم الإحسان ، ولايحول عطاء يومه دون عطاء غده .. » :

أما عن وسيلة الشاعر فى التعبير فيقول : « أَمْ هذه هى المنقطعة ، والاستفهام دخل فى الكلام على طريق التوجع والتلهف .. »(١) .

ويقول فى تفسير بيت هلال بن رزين :

وأيْقَنَتِ القبائلُ من جَنَابٍ
وعامِرَ أنْ سَيَمْنَعُها نَصِيرُ

« يقول الشاعر : وتيقنت جناب وعامر بطون بنى كلاب أنه سيذُبُّ عنها نصير ظهير ، ومعين قوى ، ويعنى بالنصير بنى التَّيْم .وجعل اللفظ نكرة ليكون أبلغ فى تعظيم النُّصْرَة »(٢) .

أما بيت شاعر بنى كليب :

وَحَنَّتْ نَاقَتِى طَرَباً وشَوقاً
إلىَ مَنْ بالحَنِينِ تُشَوْقِينِى

فيقول المرزوقى عنه (٣) : « ... وأول البيت خبر عن راحلته ، وآخره خطاب لها . والمعنى : اشتكت ناقتى حانَّةً لطربها وشوقها ، ثم أخذ يخاطبها منكراً عليها ما ظهر منها فقال : تشوقينى بحنينك إلى منْ — وتكون (مَنْ) هنا استفهاماً . ويجوز أن يكون المعنى — تعظيم المشتاق إليه ، فكأنه قال :

---

(١) شرح الحماسة ١—٢٦٤ (والمعنى : لوفقدناه من كان يبذل لنا عقائل أمواله ، ومتى شئنا وجدناه عنده معادا ، فلايمل السؤال ، ولايغب السؤال) .

(٢) شرح الحماسة ٢—٣٤١ .

(٣) شرح الحماسة ١—٣٩٤ .

تشوقيني إلى من بحنينك ؟.. و (مَنْ) من قوله (إلى مَنْ) فى هذا الوجه يكون نكرة غير موصوفة إن كان الكلام خبراً » .

والمرزوقى لا يوضح المعنى الأصلى – القريب – الذى يدل عليه النص، وربما يرمى إليه الشاعر من كلامه فحسب ، بل هو يخرج النص كيفما تراءى له

إن النص الشعرى أمامه – مادة مرنة لينة ، سهلة التطويع بين أنامل فنان ماهر ، يشكلها كيفما أوحى إليه الفن .. فبيت الشاعر :

إِنِّى رأيتُكَ تَقْضِى الدَّيْنَ طَالِبَهُ
وقَطْرَةُ الدَّمِ مَكْرُوهٌ تَقَاضِيهَا

لا يرضيه أن يكون مدحاً فقط ، فنراه يخرجه أيضاً على أنه يصلح أن يكون ذماً ، وهو على كلا الحالين يفسره ، ليس هناك حد أو فاصل ، ولكنها اللغة المرنة ، القابلة للتشكيل ، والعقلية القادرة على التفنن والاختراع ، وفهم الكلام بوضعه الحقيقى ، وبما وراء المعنى الحقيقى .. يقول المرزوقى(١)

« هذا البيت يصلح أن يكون مدحا . فيكون المعنى : إنى رأيتك تخرج إلى المدينين سريعاً من دَيْنهم عليك غير مدافع بما فى ذِمَّتِك لهم ولا مُماطل ، فإذا طُولبت بدم ، أو توزعت فى ذَحْل ، شق تقاضيك به وتعذر ، وتصعب نيله من جهتك وتعسر .

ويصلح أن يكون ذما ، فيكون المعنى : وإنى رأيتك بأهْون سَعى وأقرب طلب تخرج من الأوتار والدماء إلى طلابها ، فلا كُلْفَة فى نيلها وإدراكها من جهتك ، والتقاضى بالدَّم عَسرٌ صعبٌ - إلا إذا كان عندك وقبلك ، فما ذلك إلا لضعف كيدك ومهانة نفسك ، وقصور آبائك »

على أن تصنعه ، أو قُلْ تكلفه فى اختراع معان من عنده، وتجويزه لمعان أخرى ، قد جره فى أحيان كثيرة إلى نوع من الشطط والمبالغة ، خاصة حين

---

(١) شرح الحماسة ١٤٨٠ .

يحمل المعنى فوق طاقته ، ويحاول أن يستخرج منه مالم يكن فيه ،ولم مايقصده الشاعر ، ويؤوله بمعان بعيدة ، غير محتملة ، وغير واردة على فكر الشاعر وخاطره ، إنما هو اجتهاد من عنده ، وافتعال لما لم يكن موجوداً أصلا ، ذلك أن قول معقل بن عامر :

وَلَوْ أَنّى أشَاءُ لكُنْتُ منه
مكانَ الفرقَدَيْن من النُّجُومِ

معناه القريب ــ كما فسره هو (١)«لو شئت لبعدت منه بُعْدَ الفَرْقَدَيْن من النجوم السَّيارة ، وهى التى يَحُل فيها النيران ، لأن الفرقدين لا حُلُول فيه . وهذا هو الذى يجرى مجرى قولهم : « هو منى مناط الثريا » فى أن المراد به التبعيد .

إلا أن هذا المعنى القريب ــ الواقعى ــ لا يكفى المرزوقى ، فنراه يجوز معنى آخر ومعنى ثالثا ، دفعاً به بعيداً عن المألوف ، وأوصلاه إلى الشطط حين قال :

« ويجوز أن يريد (بَعُدت منه بُعْد الفرقدين ، ثم بين أن الفرقدين من النجوم ، فيكون (من النجوم) تبييناً ، ويجوز أن يريد « بالنجوم » نبات الأرض ، لأن كل ما طَلَعَ فقد نجم ، ويكون المعنى : بعد الفرقدين من الأرض ومنابتها » ثم يفيق الرحل ــ ليرى ماوصل إليه من شطط فيقول : « ويكون فى هذا المعنى شبه إلغاز فيضعف» . . والواقع أن الشاعر لا يريد إلغازاً أو شبه إلغاز .

وما ذلك إلا لأن اللغة تحتمل ، وتساعده على هذا التلاعب بالألفاظ والمعانى والجنوح إلى مايمكن وما يحتمل ، وما يجوز .

---

(١) شرح الحماسة ١ــ١٩٥ .

وخصيصة هامة — فى تناول المرزوقى لعناصر علم المعانى : . تلك هى حرصه على تبيين مواطن الفصاحة ، وأسرار الجمال اللغوى و التعبيرى ، وإبراز مدى نجاح الشاعر فى توصيل روءاه النفسية إلى الناس ، ومقدرته على إختيار وسائل التعبير التى تطيق حمل تجربته ، عند التعبير عما يجيش فى صدره يتناول هذه العناصر جميعاً ، ويوضح لماذا جاء هذا النص ضعيفاً .. وجاء غيره فصيحاً بل « من أفصح الكلام » ويحدد الأسباب التى جعلت من هذا الشاعر موفقاً أو مخفقاً فى توضيح معناه :

فقول عمرو بن معديكرب :

وَلَقَدْ أَجمَعُ رِجْلِيَّ بِهَا
حَذَرَ المَوتِ وإنىَّ لَفَرُورْ

— فى رأى المرزوقى « من فصيح الكلام » ذلك لأن كلامه « كلام من جمع إلى شجاعته وإقدامه حذراً وحزامة ، وإلى جرأته وتهوّده رفقاً وأصالة ، ثم كان عارفاً بوقت كل منها ، وبالحالة الموجبة لإختياره بعضها » .

وكذلك قول شاعر بنى بَوْلان :

نَستَوْقِدُ النَّبْلَ بالحضيضِ ونصطادُ نُفُوساً بُنَتْ عَلى الكَرَمِ

من فصيح الكلام لأنه بقوله (نستوقد النبل) جعل خروج النار من الحجر عند صدمة النبل استيقاداً منهم » (٢) :

وخلاصة ما أردنا أن نقوله — أن المرزوقى ، فى تناوله لعناصر علم المعانى لم يكتف بتحديد مضمون الكلام ، أو وسائل التعبير ، بل تطرق به الأمر ، إلى ذكر معايير الفصاحة وأسبابها ، ومواطن الجمال والقبح ، ومدى توفيق الشاعر فى التعبير عن رواه ، وتصوير أحاسيسه النفسية ، فكان بذلك أحد

---

(١) شرح الحماسة ١—١٩٥ .

(٢) شرح الحماسة ١—١٦٥ .

الشراح القلائل الذين مسوا جوانب المعانى فى الشعر مسا حقيقيا ، وترجموا عواطف الشعراء ترجمة دقيقة أضاءت كل جنبات مقاصدهم .

(ب)علم البيان

وكما غاص المرزوقى فى عباب علم المعانى .. حلق كذلك فى آفاق علم البيان والحقيقة . . إن الشواهد لتشهد ..أن المرزوقى كان دقيقاً كل الدقة فى تناول هذا العلم ، وتحديد عناصره وتصويراته المختلفة ، فى مجال التشبيه والاستعارة والكناية ، كان يطوف بنا حول النص ، يلتمس جوانبه ويتحسس زواياه المتعددة ، محللا لما يتضمنه النص الشعرى من فنون البيان. لقد استغل معرفته الواسعة بهذا العلم فى توضيح الصور الفنية التى رسمها الشعراء، وإلقاء الضوء على الكوامن الدقيقة ، والإيحاءات الخفية فى الشعر ، كان يمد يده– فى أحيان كثيرة – ليتلمس مواطن الجمال فى الصورة ، ويحلل ملامح التشبيهات ، وجمال الاستعارات ، وخبايا الكنايات ، بل لقد كان يجسم كل ما فى الصور الفنية ، وما حولها . . ويشعر القارىء بالإيحاءات الخفية التى لا يصل إلى كنهها إلا من يملك حاسة فنية واعية .

التشبيه :

ولعل التشبيه أو ،الفنون التى أولاها المرزوقى اهتماماً كبيراً ،وأعمل عقله فى رسم حقيقة ماأراده الشعراء فى تشبيهاتهم وأوصافهم ، وخصّه بكثير من الدراسات والتعليقات والتحليلات الفنية ، بوصفه أحد ألوان الفن التعبيرى ، التى أكثر منها الشعراء .

وتظهر قيمة التشبيه – عند المرزوقى– فى أنه لم يكتف بما ضمن شروحه من نظرت صائبة حوله ، وحو، صوره المتعددة ودرجاته ، بل لقد عده أصلا من الأصول الراسخة ، التى يرتكز عليها عمود الشعر ، وجعله معياراً من المعايير (١)الفنية التى يتضح بها جمال القول ، وخصه بجانب من دراسته

---

(١) شرح الحماسة ، مقدمته ، ص ٩ .

النقدية ، التي قدم بها لشرح الحماسة . حيث جعل عيار المقاربة فى التشبيه ، هما الفطنة وحسن التقدير .. فأصدقه ما لاينتقص عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين ، اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ، ليتبين وجه التشبيه بلا كلفة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به ، وأملكها له ، لأنه حينئذ يدل على نفسه ، ويحميه من الغموض والإلتباس، وقد قيل : «أقسام الشعر ثلاثة : مَثَلٌ سائرٌ ، وتَشْبيهٌ نَادرٌ ، واستعارة قريبة » .

وليس غريباً -إذا كان فهم الرجل لهذا الفن ، بهذا العمق ، أن يحاول أن يبرز أهم السمات والخصائص الفنية التي وضحت فى الشعر ، ولون بها الشعراء صورهم ، واستمدوا منها طاقات فنية، مكنتهم من إرتياد عالم السحر والخيال ، وفتحت لهم آفاقاً واسعة فى عالم التعبير والتصوير..

لقد زعم بعض الباحثين (١) أن المرزوقى كان خيالياً، وأنه ذكر نظريات ليس لها فى الواقع أى دليل ، بدليل أنه لم يذكر مثالا واحداً عل صحة ما يقول ولم يفصح عن رأيه ، ولم يبين ما قصد إليه تلك المقاربة فى التشبيه ، بل وضع القاعدة وتركها كعادته حائرة ..

ونسى هذا الزاعم أن الرجل ما ذكر- هذا الذى ذكره- إلا بعد إعمال للعقل ، وكد للفكر ، واستقراء كبير ، وإطلاع واسع ، وفهم عميق لكل ما جاء فى الشعر العربى من تشبيهات..

إن المرزوقى حين ذكر- ماذكره ، فى مقدمته حول« المقاربة فى التشبيه » لم يكن يدور فى حلقة مفرغة ، بل كان يعبر عن صدق المضمون ، ووعى بالمحصول الفنى الذى استقاه من شعر الشعراء ، ولو كلف هذا الباحث نفسه ، وتتبع شروح الرجل على الحماسة نفسها ، لعرف أن هذا الذى قاله -ماقاله إلا بعد دراسة مستفيضة ، وخبرة فنية كبيرة ، فى مجال النقد والبلاغة.

---

(١) السيد عبد العزيز مخلوف : عمود الشعر العربى ، رسالة ماجستير مخطوطة رقم ٦٦١ جامعة القاهرة ؛ ص ٦٧ ومابعدها .

لقد وجدنا بين ثنايا شروحه عشرات الشواهد التى تدلل على صحة ما قاله — فى مقدمته — كما وجدنا مئات التعليقات الفنية الدقيقة ، التى ظهرت أشبه ما يكون بالتطبيقات العملية على صحة النظريات الأولية التى وضعها ، فكانت هذه التطبيقات بتعليقاتها الفنية البلاغية ، خير دليل على علمه، وإدراكه الواعى لعناصر هذا الفن البيانى .

فربيعة بن مقروم فى بيته :

وأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كَأَنَّمَا
تَغْلِى عداوةَ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ

أخرج — بهذا التشبيه — ما لا يُدْرك من العداوة بالحس ، إلى ما يدرك من غليان القدر ، حتى تجلّى ، فصار كالمشاهد(١) .

وشهل بن شيبان فى قوله :

مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا والليثُ غَضْبَانُ

أخرج — بهذا التشبيه — ما لا قوة له فى التصور إلى ما له قوة فيه ، ذلك أنه قال : سعينا إليهم مشية الأسد ابتكر وهو جائع ،وكَنَىَّ عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه »(٢) .

وأنيف بن حكم حين شبَّه طيء بأسد الشَّرى فى بيته :

دَعَوْا لِنِزَارٍ وانْتَمَيْنَا لِطَيِّىءٍ
كأُسْدِ الشَّرَى إقدامها وَنِزَالهَا

« زيادة منه فى البلاغة ودقة التعبير » حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، كأنه قال : « وكإقدام أُسْدِ الشَّرَى إقدامُها ونزالُها ، وإنما جاز الحذف

(١) شرح الحماسة ، ١-٦٣ .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٦ .

لأنه لا يلتبس وجه التشبيه بغيره »(١) .

وشهل بن شيبان فى بيته :

وطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ ... غَذَا والزِّقُّ مَلآنُ

كان تشبيه بليغاً ، بل أبلغ من قول النابغة :

وطَعْنٍ كايزاغِ المَخَاضِ الضوارب

لأن هذا التشبيه أبرز ما يقل فى الاعتياد فى صورة ما يَكْثُرُ فيه ، أى بطعن فى إتساعه وخروج الدم منه كفم الزِّق ، إذا سال بما فيه وهو مملوء(٢)

وكذلك قول الفند الزمانى فى حماسيته :

تَفَتَّيْتُ بها إذْ كَـ ... ـرِهَ الشَّكَّةَ أمْثَالِى

كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الورهاءِ رِيعَتْ بَعْدَ إجْفَالِ

وتشبيه « إتساع طعنته ، وسرعة خروج الدم منها باتساع جيب المرأة الحمقاء ، ونزوها فى روعها ، واضطرابها فى متخرِّق قميصها كان موفقاً » .

إلا أن شاعراً آخر سلك هذا المسلك ، فقال فى معنى هذا ولفظه :

كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الورها ... ءِ ريعت وهى تَسْتَفْلِى

أى تطلب فلى شعرها ، وقد أخرجت يدها من جيبها ، فذعرت فى تلك الحالة ، فلم تصبر لترد اليد إلى جوفها ، ولم ترفق بجيبها فزقته ووسعته .

فالشاعر لما قصد بيان سعة الطعنة ، جعل التشبيه بالجيب فى حالة إخراج الحمقاء يدها منه مستفلية ، فزاد على الأول هذه الزيادة الغامضة المأخذ اللطيفة الموقع »(٣) .

وليست هذه التحليلات الفنية هى كلى ما عند المرزوقى .. فللتشبيه — فى دهنه عناصر أخرى تقويمية ..

---

(١) شرح الحماسة ١-١٧١ .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٧ .

(٣) شرح الحماسة ١-٥٤١ .

فهناك تشبيه مستنكر مستهجن ، خارج عن القصد ، كقول قيس بن الحطيم

مَلَكْتُ بها كفيِّ فأنْهَرْتُ فَتْقَها
يُرَى قائِماً من دُونِها ما وَرَاءَها

لأنه قال : « أَنْهرتُه .: ومعنى أنهرته : وسَّعْتُه حتى جعلته كالنهر سعة ، وفى هذا الوصف — كما يقول المرزوقى — سَرَفٌ مستنكر ، وخروج عن القصد مستهجن(١) .

وإذا كان هذا التشبيه المتصل بالنهر وسعته كذلك ، فهناك تشبيه آخر متصل به ، ولكنه حسن صائب .. كقول عمرو بن معد يكرب :

ولما رأيتُ الخَيْلَ زُوراً كأنَّها
جَدَاولَ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فاسْبَطَرَّتِ

حيث « وقع التشبيه على جَرْى الماء فى الأنهار لا على الأنهار ، كأنه شبه امتداد الخيل فى انحرافها عند الطعن بامتداد الماء فى الأنهار ... » ، وكما وصف الخيل فى انحرافها بزُورٍ ، وُصِفَتْ أيضاً بنُكْب ..فالنُّكْب : جمع أنكب وهو الذى ينحط أحد منكبيه عن الآخر ، وهذا من التشبيه الحسن الصائب(٢)

أما غاية المراد من التشبيهات — كما يقول المرزوقى — فهو « خروج المشبَّه من الكمون إلى الظهور ، ومن الخفاء إلى البروز ، حتى يتَخَلى لمتأمله ، والمفكر فيه على بُعْده فى التصور تجلى القريب فى العُرْف والإعتياد ..

وقد جاء التشبيه على هذه الصورة من الروعة فى قول الشاعر :

والحَرْبُ يَلْحَقُ فيها الكَارِهُون كما
تَدْنُو الصِّحَاح إلى الجَرْبَى فتُعْدِيها

أى أن «شَرَّ الحرب يُعْدِى إعداء الجَرَب ، فترى الكاره لها يلتحق بها ، وإن كان غير حازمٍ لها ، وتلقى البعيد منها يَصْطَلِى بحَرِّها وإن لمْ يذكها

---

(١) شرح الحماسة ١-١٨٥ ، وانظر كذلك ٢-٦٦٩ ، ٢-٧٢١ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٥٧ (الزور جمع أزور وهو المعوج الزور) .

ولم يُشَيِّع مُوْقدها .. »(١) .

أضف إلى كل ما سبق ، إلتفات المرزوقى إلى مجمل الصور الفنية بأبعادها وزواياها تلك التى رسمها الشعراء بأبياتهم .. وحرص المرزوقى على تحديدها .. كان يطلق على مثل هذه الصور تعبيره الفنى « التصوير »(٢) .

فقول بعض بنى فقعس :

فهلاَّ أعَدُّونى لِمِثْلِى تَفَاقَدُوا
إذِ الخَصْمُ أبْزَى مائلُ الرأس أنْكَبُ

« معناه : هَلاَّ جعلونى عُدَّة لرجل مثلى ، فقد بعضهم بعضاً ، وقد جاءهم الخصم متأخر العجز مائل الرأس منحرفا . وهذا تصوير لحال المقاتل ، إذا انتصب فى وجه مقصوده ، وهو أبلغ فى الوصف من كل تشبيه »(٣) .

وقول عنترة بن شداد :

وغَادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأسِنَّةَ كالمُحْتَطِب

ومعناه : « يجُرّ الأسنة كما تَجُرُّ هذه الدُّويبة العيدان ... » وهذا تصوير للخفىِّ بالجلى »(٤) .

أما قول عمرو بن معد يكرب :

لَحَا اللهُ جَرْماً كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ
وُجُوه كلاب هَارَشْت فَازْبَأَرَّتِ

فهذا تحقيق للشبه وتصوير لقباحة المنظر ، لأن معنى « لحا الله » قشّر الله أى فعل ذلك بهم غداة كل يوم أذكرُ قوماً يشبهون الكلاب إذا واثبت غيرها وساورت ، فانتفشت وتجمعت للوثب ، وتلك الحالة من أحوالها أشنع وأنكر »(٥) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٠٨ .

(٢) شرح الحماسة ١-٩٠ ، ٢-٥٦٩ (كان يقول : « هذا التشبيه يجرى مجرى التصوير » أو يقول « وهذا التشبيه من باب التصوير ») .

(٣) شرح الحماسة ١-٢١٤ .

(٤) شرح الحماسة ١-٤٢٠ .

(٥) شرح الحماسة ١-١٦١ .

ومن المهم أن نعرف أن مجال التشبيه من المجالات الفنية التى لم يترك المرزوقى جُزَيْئةمن جزئياتها إلا حللها وبرهن عليها و قارن بينها وبين مثيلاتها عند الشعراء الآخرين .. وإذا كانت الفطنة وحسن التقدير هما العاملين فى فهم هذا المعيار البلاغى ، الذى وضعه المرزوقى لفهم عمود الشعر ، فإن هذا المعيار بهذا الفهم كان واضحاً و دقيقاً و مدعماً منه بالكثير من الوسائل والشواهد التى تبرزه وتقيمه ، وتضعه فى مكانه الصحيح الذى حدده له فى مقدمته الرائعة .

الاستعارة :

والاستعارة مرحلة تالية ، أرقى درجة ومنزلة من التشبيه ، ولمكانتها الفنية فى عالم البيان ، أولاها المرزوقى شطراً من اهتمامه مثلما أولى التشبيه ، وخصها بجزء من دراسته الفنية(١) ، والحقيقة — أن المنهج العلمى السليم كان يحتم عليه أن يربط بينهما برباط وشيج ، نظراً للعلاقة الوطيدة بين التشبيه والاستعارة .. ولكن المرزوقى لم يفعل ذلك ، بل خصص لها حيزاً مستقلا فى دراسته .

أما شروحه فقد وجدنا فيها إلتفاتات جميلة ، وإنتباهات تدل على ذكاء ولماحية فى تتبع أصل الفكرة التى أراد الشاعر تناولها .. من مثل قوله فى شرح بيت بلعاء بن قيس :

وفَارِسٍ فى غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ
إذَا تَأَلَّى على مكروهه صَدَقَا

« جعل للموت غماراً على التشبيه بالماء ، ثم جعله منغمساً فيها ، فَحَسُنَتْ الإستعارة جداً »(٢) .

وقوله فى شرح بيت أنيف بن حكم النبهانى :

وتَحْتَ نُحُور الخَيْل حَرْشَفُ رَجْلَةٍ
تُتَاحُ لِغرَّاتِ القُلُوبِ نِبَالُهَا

---

(١) قال المرزوقى : « وعيار الاستعارة الذهن والفطنة ، وملاك الأمر تقريب التشبيه فى الأصل ، حيث يتناسب المشبه والمشبه به ، ثم يكتفى فيه بالإسم المستعار لأنه المنقول عما كان له فى الوضع إلى المستعار له » (مقدمة شرح الحماسة ص ١١) .

(٢) شرح الحماسة ١-٥٩ .

« من عادتهم أن يُقَدِّموا الرَّجالة عند تعبئة الجيش ليستندوا إلى الفرسان والحرشف — الأصل فيها أن تستعمل فى الجراد ، ثم أستعير للجماعة من الرجالة على التشبيه »(١) .

أما قول أبى صخر الهذلى :

ورَنَّقَتِ المَنِيَّةُ فَهْيَ ظِلٌّ
على الأبْطَالِ دَانِيةُ الجَنَاحِ

فإنه — كما قال المرزوقى — « جعل للمنية ظِلاًّ تحقيقاً للإستعارة من الطائر لأنه يُوقِع ظِلَّه فى تلك الحالة ... »(٢) .

ولكن الأمر لا يقف عند ذكر الاستعارات ، لأن المرزوقى قلما يتخلص من نزعته التحليلية وهوايته التقويمية .. ولقد وجدنا منه كثيراً من التعليقات التى توضح تأثره بالصورة التى رسمها الشاعر ، مستغلا هذا اللون من ألوان الفن البيانى .

فيقول تأبط شرا :

فخالط سَهْلَ الأرض لم يَكْدح الصَّفَا
به كَدْحَةً والموت خَزْيَانُ ينظر

« من فصيح الكلام ، ومن الاستعارات المليحه ، لأن (الخلط) أصله تداخل أجزاء الشىء فى الشىء ، وقد توسع فيه حتى قيل رَجُلٌ خَلِطٌ إذا اختلط بالناس كثيراً »(٣) .

وقول الشاعر :

وإن أَبَيْتُم فإنَّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ
لا نَطْعَمُ الخَسْفَ إنَّ السَّمَّ مَشْرُوب

---

(١) شرح الحماسة ١-١٧٠ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٣٨ (والمعنى : لما أشرفت المنية عليهم إشراف الطائر على ما يريد انكداره عليه ، بانت فضيلتهم ..) .

(٣) شرح الحماسة ١-٨٢ (يقول : أسهلت ولم يؤثر الصفا فى صدرى أثراً ، لا خدشاً ولا خمشاً ، والموت كان طمع فى فلما رآنى وقد تخلصت بقى مستحيياً ينظر ويتحير) .

« من الصنعة الحسنة » ويتضح ذلك من (مقابلته الطعم بالشرب ، واستعارته إياهما فى تجرع الغصة ، وتوطين النفس على المشقة ، عند إزالة المذلة ، ورد الكريهة »(١) .

الكناية :

وإلتفت المرزوقى كثيراً إلى « الكناية »(٢) بوصفها فناً بلاغياً جميلا ، يضفى على الشعر مسحات فنية رقيقة .

لقد رأينا أثناء دراستنا لشروحه ، مدى ما تنطق به هذه الشروح من فهم لخصائص هذا الفن البيانى ، وإدراك لمقاصد الشعراء من استخدامهم لهذا الفن التعبيرى ، التصويرى — فى ترجمة أفكارهم البعيدة ، ومراميهم العميقة .

فنراه يحلل مضامين الصور الشعرية تحليلا ينم عن تذوق جميل لكل خصائص هذا الفن وسماته .

من مثل قوله فى شرح بيت إياس :

فلَمَّا أدْرَكْنَاهُمْ وقد قَلَّصَتْ بِهِمْ
إلى الحيِّ خُوصٌ كالحَنِيِّ ضَوَامِرُ

« ...قلَّصَتْ : ارتفعت ، وقد كنّى عن طول القوائم بالتقليص ، فقيل فى وصف الفرس مُقَلَّص ، والمراد ذلك »(٣) .

وقوله عن بيت أنيف بن حكم :

فلما إلتَقَيْنَا بَيَّنَ السَّيفُ بَيْنَنَا
لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤالُهَا

« جعل قوله : (السيف) كناية عن أنواع السلاح ، بدلالة أنه أعاد ذكر استعمال السيف فيما بعده ، لما فصل أحوالهم وفسر مقاماتهم فقال :

---

(١) شرح الحماسة ٢-٥٨٦ ، وأنظر فيما يتصل بالإستعارة ١-١٧٢ ، ١-٢٦١ ، ٢-٢١ ، ٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٧ ، ٣-١٣٢٦ .

(٢) الكناية — كما عرفها القزوينى — « لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ » والفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ، أى من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه .

(الإيضاح فى علوم البلاغة ، ص ٣١٨) .

(٣) شرح الحماسة ٢-٥٩٧ .

(ولما عصينا السيوف)(١) .

وكعهدنا دائماً : بالمرزوقى – لا يقف عند العرض والسرد ، والتحليل الظاهرى لمضمون الكناية ومقصود الشاعر .. بل يربط بين هذا الفن ، والوسائل التقديرية القائمة على التقويم ، تلك التى ترفع من قيمة الصور الفنية التى رسمها الشعراء بوسائلهم وتعبيراتهم ..

يقول فى تفسير قول الشاعر :

فَجَارُكَ عِنْدَ بَيْتِكَ لَحْمُ ظَبْىٍ
وَجَارِى عِنْدَ بَيْتِى لا يُرَامُ

كان الشاعر « يصفهم بسوء الوفاء ، وقلة المحافظة على عقد الجوار ، وقد جاء اللحم غير مضاف إلى اسم الصيد فى الكناية عن الذل والاهتضام . وإضافة اللحم إلى الظبى فى نهاية الموافقة للمعنى الذى يقصده ، والغرض الذى كان يرميه »(٢) .

وهو فى تحليلاته البيانية ، كثيراً ما يضيف إليها انطباعاته الخاصة ، وأحكامه على مدى توفيق الشعراء فى التعبير عن رؤاهم .. فهو مثلا يعتبر قول القتال الكلابى :

فلَمَّا رأيْتُ أنَّهُ غيْرَ مُنْتَهٍ   أمَلْتُ له كَفِّى بِلَدْنٍ مُقَوَّمِ

« من فصيح الكلام ، وبليغ الكنايات » ، ذلك لأن الشاعر يقصد أن يقول : « لما وجدته لا ينتهى بالقول ، ولا يرعوى بالزجر ، حدرتُ له كفّى برُمْح ليّنٍ مثقّفٍ فطعنته » .. وجاء قوله : « أمَلْتُ له » أى من أجله « كفى بلدن » موطن الفصاحة والبلاغة »(٣) .

(١) شرح الحماسة ١-١٧١ ، وانظر ١-٤٥ حيث ذكر الشاعر البرذعة كناية عن النساء ، ١-٤٦ حيث جعل الشاعر « السلاسل » كناية عن الأمر ، (١-٢١٦) حيث جعل اللبن كناية عن الإبل ، (١-٢٤٠) حيث جعل غمز المفاصل كناية عن الاختبار .

(٢) شرح الحماسة ٢-٥٨١ .

(٣) شرح الحماسة ١-٢٠٢ .

وكذلك قول ابن زيابة التيمى :

نبُيِّت عَمْراً غَارِزاً رأسَهُ   فى سِنَةٍ يُوعِدُ أخْوالَهُ

من أبلغ الكلام وأفصحه .. « حيث جعل غَرْزَ الرأس كناية عن الجهل والذهاب عما عليه وله من التحفظ ، وهو كذلك « من أحسن التشبيه ، وأبلغ التعريض ، لأنه أراد « بالسِّنَةِ » الغفلة ، وهى ما يحدث من أوائل النوم فى العين ، ولم يستحكم بعد »(١) .

أما قول الشاعر :

فلَمَّا بَلَغْنَا الأمَّهاتِ وَجَدْتُمُ
بَنِي عَمِّكُمُ كانوا كِرَام المضاجِعِ

فهذا من أحسن المعاريض ،لأن المراد .كانت أمهاتنا أشرف من امهاتكم وجعل المضاجع كناية عن الأزواج »(٢) .

هذه بعض لمسات المرزوقى الفنية لعلم البيان بعناصره الثلاثة : التشبيه والاستعارة والكناية ، ويطول بنا المطاف ويجهدنا المسير ، لو تابعناه فى طرقه المتعددة ، ومساراته المتباعدة .. عند تقليب النصوص ، واستخراج مثل هذه العناصر من بطونها .

ولا شك أن هذه الشواهد — وغيرها كثير — تعكس مدى فهمه واستيعابه لمواطن الجمال فى الشعر ، وإحساسه الدقيق بمدى توفيق الشعراء فى تلوين أشعارهم بمثل هذه الألوان البيانية ، وهو فى معظم شروحه وتقويماته ، يرجع إلى الذوق الأدبى المعزز بالدراسة ، المدعم بالثقافة وغزارة التحصيل .

---

(١) شرح الحماسة ١-١٤٢ وانظر أيضاً ١-١٣٤ ، ١-٤٠٤ ، ١-٤١٦ .
(٢) شرح الحماسة ١-٢٣٣ .

(ج) علم البديع

أما علم البديع فقد جال فيه المرزوقى جولات ليست بالقليلة ، ونبّه على الكثير من العناصر البلاغية البديعة ، التى كان الشعراء يجملون بها أشعارهم ، ويرصعون بها أبياتهم .

لقد مس المرزوقى فى شروحه جوانب عدة من هذا العلم :

بعضها يتعلق بجوهر الشعر – أو الجانب المعنوى ، مثل المطابقة والمقابلة والمشاركة والمزاوجة والتقسيم والتجريد والإعتراض والإلتفات .. وغير ذلك.

وبعضها يتعلق بمظهر الشعر – أو الجانب اللفظى ، مثل الجناس ، وَرَدِّ العجز على الصدر والموازنة وغير ذلك ..

أما ما يتعلق بجوهر الشعر ومعناه فنراه فى مثل قوله فى تفسير بيت بشامة النهشلى :

إِنَّا لنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوعِ أنْفُسَنَا
ولَوْ نُسَامُ بها فى الأمْنِ أُغْلِينَا

« وفى البيت طباق .. بذكر الإرخاص. والإغلاء ، والرَّوْع .والأمن ، موضعين وهو حسن جيد »(١) .

ويقول فى تفسير بيت بعض بنى أسد :

فَمَا الرُّشْدُ فى أن تَشْتَرُوا بنعيمكُمْ
بَئِيساً ولا أن تَشْرَبُوا الماءَ بالدَّمِ

« يدعوهم إلى المصالحة ، ويعرفهم أنه لاخير فى ماء يصلون إليه بإراقة دماء .. » و« البئيس يكون مصدراً كالبؤس ويوضع فى مقابلة النعيم »(٢) .

هذا عن مقابلة اللفظ للفظ ، وقد تكون المقابلة بين جملة وجملة ، أو بين شطر وشطر .. هذا ما وضحه المرزوقى حين تناول تفسير بيت الشاعر :

---

(١) شرح الحماسة ١-١٠٥ ، وانظر كذلك ٢-٦٣٧ ، ٣-١١٩٥ .
(يقول : نبذل أنفسنا فى الحروب ولا نصونها ولو عرض علينا إذالتها فى غيرها لامتنعنا ، وهذا لحرصهم على تخليد الذكر الجميل ، والإبانة عن محل النفس فى الشجاعة) .
(٢) شرح الحماسة ١-٢٥٤ .

أجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فَدَرَّتْ
علهم صَوْب سَارِيَةٍ دَرُورُ

قال : « جعل ما فى العَجُز من هذا (البيت) فى مقابة ما فى الصدر من قوله(أجادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ) كأنه قال :أجادت الخيلوَبْلَ مدجنة فدَرَّت درور الموت درّ سارية ... »(١) .

ويقول فى تفسير بيت السموأل :

يُقَرِّبُ حُبُّ الموت آجالَنَا لَنَا
وتكرَهُهُ آجالُهم فتَطُولُ

« قوله : (يقرب حب الموت) اى حبنا للموت ، وجعل فى مقابلته (وتكرهه آجالهم) لأنه يشتمل على ما يوفيها حقها من اللفظ ، وإن كانت من حيث المعنى قد حصلت »(٢) .

أما إلتفاته إلى المشاكلة(٣) ، فيظهر فى تفسيره لبيت جُرَيْبَة بن الأَشْيَمُ :

إذا الدَّهْرُ عَضَّتْكَ أنيابُهُ
لدَى الشَّرِّ فأزْمْ بهِ مما أَزَمْ

قال : « هذا مَثَلٌ ، والذى أشار إليه بالأنياب نوَبُ الدهر وحوادثه ، والمعنى :أَعْضِض به مدة عضه بك ، وإنما قال« فأْزِمْ به » طلبا للمطابقة والموافقة »(٤) . وهذا ما يسميه البلاغيون « المشاكلة » .

كما يظهر فى تفسيره لبيت شهل بن شيبان :

ولم يبْقَ سِوَى العُدوا ن دِنَّاهُم كما دَانُوا

قال :« وأما قوله دِنَّاهُمْ كمادَانُوا »والأول ليس بجزاء،فهذا لميلهم إلى المطابقة والموافقة ، وإخراج اللفظ فى معرض صاحبه ليعلم أنه جزاؤه

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٤٢ . (الدجنة الظلمة ، الدرور هى الكثيرة الدر – قال المرزوق : كل ذلك مثل لتكثير الشر وتفظيع البلاء والقتل) .

(٢) شرح الحماسة ١-١١٥ .

(٣) المشاكلة هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً .
أنظر : الإيضاح فى علوم البلاغة ، ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٤) شرح الحماسة ٢-٧٧٥ ، وانظر تعليق محقق الحماسة فى هامش الصفحة ذاتها .

عَلَى حَدِّه وقدره أو ابتداؤه .. »(١) .

ويتنبه المرزوقى إلى ما أطلق عليـــه علماء البلاغة « التجريد »(٢) ، و« التقسيم »(٣) ، و« الإعتراض » . يقول فى شرح بيت تأبط شرا :

وأُخرى أُصادِي النَّفْسَ عَنْها وإنَّها
لَمَورِدُ حَزْمٍ إنْ فَعَلْتُ ومَصْدرُ

« .. وقوله : (وإنها لموردُ حَزْمٍ) إعتراض أيضاً ،لوقوعه بين قوله (وأخرى أصادى النفس عنها) وبين تبيين كيفية مزاولته لهوشرحها »(٤)

ويقول فى تفسير بيته التالى :

هُمَا خُطَّتَا إمَّا إسَار ومنَّـــةٍ
وإما دَمٍ ، والقتل بالحُرِّ أَجْدَرُ

« فى هذا الكلام تهكم وهُزْء ، وقوله (والقتل بالحر أجدر) يسمى إعتراضاً لوقوعه بين ما عدَّده من الخصال »(٥) .

ويتناول فنية الإعتراض ، وقيمته ، وتأثيره فى المعنى ، فيقول فى تفسير بيت الشاعر :

فَإنْ تكن الأيامُ فينا تبدَّلتْ
بِبُؤسَى ونُعْمَى والحوادثُ تَفْعَلُ

« .. قوله : (والحوادث تفعل) يسمى إعتراضاً ، ومثل هذا الإعتراض يزيد القصة تأكيداً ، وهو ها هنا حائل بين الجزاء وجوابه ، لأن جواب « إن تكن » .. قوله « فما لينت منا قناة صليبة » (فى البيت التالى) .

وحَسُنَ الكلام به جداً إذكان تأكيداً لما يَقْتَصُّه من تَحَوُّل الأحوال

(١) وهذا ما يسميه البلاغيون المشاكلة (أنظر شرح الحماسة ١-٣٥) .

(٢) التجريد : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه (الإيضاح فى علوم البلاغة ص ٣٦٣) وأنظر مثالا له فى شرح الحماسة ١-٨١ .

(٣) التقسيم : « هو ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين » .
(الإيضاح فى علوم البلاغة ص ٣٥٨) وانظر مثالا له فى شرح الحماسة ١-٨١ .

(٤) شرح الحماسة ١-٨١ .

(٥) شرح الحماسة ١-٨١ .

وتحقيقاً لما شكاهَ من رَيب الزمان ، وبَعْثاً على التَسَلّىِّ ، وأخْذِ النفس بالتَّأسّي .. »(١) .

ومن المصطلحات البلاغية التى ذكرها فى شروحه « الإلتفات » ، فقد لفت نظره هذا الموضوع ، وهو بصدد تفسير قول العديل بن الفرخ :

وضَيَّعْتُ عمراً والرِّبابَ ودَارِماً

وعَدْوَانَ وَدّ ،كيف أصْبُر عن وَدِّ

فقال : « .. وقوله (كيف أصبر عن وَدّ) هو الذى يسميه النقاد والبصراء بصنعة الشعر وتمييز البديع فيه (الإلتفات) كأنه لما ذكر وَدّاً والخلاف عليه ، ونَفْض اليد مما يجمعه وإياه ، وكشف الرأس بالمعاداة معه ، رق للرحم قلبُه ، وضاق بالحال المتصورة صدره . والتفت إلى من بحضرته فقال : «كيف يكون صبرى عن مثله »(٢) .

وإذا ما تركنا هذا الجانب المعنوى من وجوه تحسين الكلام ، وانتقلنا إلى الجانب اللفظى منها – نجد أن المرزوقى لم يفته التنبيه على ما فى الشعر من جوانب موسيقية ظاهرة ، أحدثها التجانس اللفظى . من مثل قوله فى تفسير بيت الشاعر :

شَيَّبَ أيــام الفِــرَاق مفَــارقى

وأنْشَزْنَ نَفْسِي فوقَ حيثُ تكُونُ

« يقول (الشاعر) : أثرت أيام الفراق فى فأبدلنى بالشباب مشيباً ، وبالجدة والقوة خُلُوقةً ووهناً شديداً ، وأزعجت نفسى من مقرها فارتفعت من مركزها إلى ما فوقها .. وقوله (أيام الفراق مفارقى) يسمى التجنيس الناقص .. »(٣) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٢٠ .

(٢) شرح الحماسة ٢-٧٣٥ ، وانظر أيضاً ٣-١٣٨٥ .

(٣) شرح الحماسة ٣-١٣٤٩ .

ويقول بعد تفسير قول الآخر :

وأتبعُ لَيْلى حيث سَارَتْ ووَدَّعَتْ
وما النَّـــاس إلا آلفٌ ومُوَدِّعُ

« ... ومثل (وَدَّعَتْ) و (مُوَدِّع) يسمى التجنيس الناقص »(١) .

على أن هذا التجانس اللفظي – يختلف عن التماثل اختلافاً جوهرياً .. يوضح هذا الأمر المرزوقي بقوله :

« والمماثلة أن تتكرر اللفظة في البيت من غير تغيير معنى ، لأنه إذا تغير المعنى فيهما تكون مجانسة لا مماثلة »(٢) .

وهكذا نرى المرزوقي يطوف ويدور ، ويصول ويجول ، بين أنحاء النصوص ، لا يترك دقيقة إلا وضحها ، ولا جزئية إلا حللها ، مستغلا في ذلك ثقافته اللغوية والنحوية والبلاغية ، حتى صارت العملية الفنية – بين يديه – أشبه بعملية تشريحية ، يود أن يبين كل ما يتصل بجسم النص من لحم وعظم وشحم ، ويصل عن طريق ذلك إلى الأعصاب والأوردة والشرايين ، فكان بعمله هذا أشبه بجراح ماهر ، لا يكتفي بالكشف الظاهري ، ولكن يتعمق في الوصول إلى أصل كل شيء .

---

(١) شرح الحماسة ٣ : ١٣٣٨ .
(يقول : إني أسير هواها ، وتبيع البلوى فيها ، فقلبي معها حيث طعنت وأقامت ..) .
(٢) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، المجلد الثالث ، ص ١١٠ (أنظر الهامش) .

(النقد فى شروح المرزوقى)

حين تصدى المرزوقى لشرح الشعر ، كان بين يديه عشرات الكتب التى ألفت فى مجال نقد الشعر حتى عصره(١) ، سجل فيها أصحابها نظراتهم النقدية حول الشعر قديمه ومحدثه ، وتناولوا فيها خصائص الشعر ، وقيمه ومثاله ، ووازنوا وقارنوا ، وحللّوا وعلّلوا ، ونقدوا وقوّموا .. هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، كان بين يديه مجموعة ضخمة من التراث الشعرى ، على اختلاف عصوره وبيئاته ، ومذاهب شعرائه ، ودرجاتهم فى الفصاحة ، ومراتبهم الفنية ، ومجموعة أخرى أضخم وأعظم من التراث التفسيرى والتحليلى ، قام بها لفيف من العلماء مختلفى الأجيال والثقافات ، والميول والاتجاهات ...

فقد سبقه إلى شرح حماسة أبى تمام مثلا : أبو بكر الصولى (٣٣٦ هـ) ، وأبو عبد الله النمرى (٣٣٨ هـ) ، وأبو القاسم الآمدى (٣٧١ هـ) ، وأبو الفتح ابن جنى (٣٩٢ هـ) ، وأبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) ، وأبو المظفر الهروى (٤١٥ هـ) . وسبقه إلى شرح المفضليات : أبو محمد القاسم الأنبارى (٣٠٥ هـ) ، والأخفش الأصغر (٣١٥ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (٣٢٨ هـ)(٣) .

فكان من الطبيعى أن ينظر المرزوقى — وهو الباحث المدقق ، والمطلع المنقّب — فى كل هذه الأعمال الأدبية ، ليتعرف على طريقة السابقين فى فهم

---

(١) أنظر فى تاريخ النقد كتاب « تاريخ النقد الأدبى إلى القرن الرابع الهجرى » ، للدكتور محمد زغلول سلام ، طبع دار المعارف ، سنة ١٩٧١ م .

(٢) يسرى القواسمى : « شرح مشكلات الحماسة لإبن جنى » رسالة ماجستير ، مخطوطة ، صفحة ١٥ .

(٣) فخر الدين قباوة ، مقدمته على تحقيق المفضليات ، ص ١٥٩ ، رسالة دكتوراه .

النصوص ، وشرحها وتجلية غوامضها ، كان عليه أن ينظر فى هذه الشروح ، ليتعرف على مدى توفيق هؤلاء العلماء — أو إخفاقهم — فى الرواية وفى الشرح وليرد عليهم .. ويناقضهم ويعارضهم .. ومن هنا كانت المعارضة أولى الأسس الفنية التى قام عليها شرح المرزوقى . وفى هذه المعارضة ، يفند آراء السابقين ، ويرد على مزاعمهم ، ويبين قصور فكرهم ، وعجزهم عن إدراك كنه النصوص ومقاصد الشعراء وتجنيهم عليهم ، ثم تحريفهم لمعانى الشعر .

كان أظهر مكان لهذه الهواية الفنية — عنده — شرح أشعار المحدثين من أمثال أبى تمام وغيره ، ومع ذلك فقد وجدنا لها آثاراً كثيرة فى شرح الشعر الجاهلى — خاصة فى الحماسة . وكان أكثر اعتراضه على ابن جنى . وكان أثناء هذا الإعتراض يثير القضايا ، بل يثير المشاكل .. لغوية أو نحوية أو معنوية .

ونتج عن دراسة هذا التراث الشعرى والنقدى والتفسيرى ، أن تشبعت نفسه ، وتحركت قريحته ، واشتعل فكره ، فدخل إلى حلبة الصراع النقدى ، ليدلى بآرائه .. فأخرج لنا مادة فنية نقدية ، وجعل مقولاته النظرية النقدية ، مقدمة لشروحه التحليلية أو مقولاته التطبيقية . لذلك انقسم عمله فى مجال النقد الأدبى قسمين ، كلاهما يرتبط بالآخر ويكمله ويدعمه .

قسم تناول فيه المسائل النقدية النظرية ، أى قواعد النقد الأدبى ونظرياته من وجهة نظره الذاتية .

وقسم تناول فيه التطبيق العملى لإثبات صحة هذه النظريات ..

أما مكان القسم الأول ، فقد جعله فى صدر شروحه ، كمقدمات تتناول أبرز العناصر وأهم السمات التى تتصل بالشعر ، والتى سيتناولها فى الشرح . ففى مقدمته لشرح ديوان الحماسة ، تناول مجموعة من القضايا الكبرى ، التى شغلت العلماء والباحثين ، وتضاربت حولها أقوالهم وآراؤهم ، جمعها المرزوقى تحت إسم « عمود الشعر » وحدد معاييرها السبعة(١) فى : شرف

---

(١) أنظر الدراسة التى حصل بها السيد طاهر حيرونى على درجة الماجستير فى الآداب من جامعة القاهرة وهى بعنوان « منهج المرزوقى فى شعر الشعر » ص ١٨٠ وما بعدها .

المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف ، والمقاربة فى التشبيه ، وإلتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما(١) وجعل الإخلال بواحد منها يخل بالبناء الفنى وقيمة النص الشعرى .

وفى مقدمته لشرح ديوان المفضليات ، تناول مجموعة أخرى من القضايا الحيوية المتصلة بقول الشعر وتدوينه ، فى مقدمتها : منزلة الشعر عند العرب بوصفه مصدر المعرفة الحقة وقضية الانتحال إستناداً على ما جاء عن ابن سلام وعلاقة الشعر بالبيئة .. إلى غير ذلك من المسائل الهامة(٢) ..

ولعل اهتمامه بدراسة هذه الجوانب والقضايا النقدية ، قبل تصديه للشرح لم يكن وليد صدفة ، أو خبط عشواء ، بل إنه كان — فى أرجح الظن — عن وعى تام وإدراك عميق ، وبصيرة نافذة ، واستيعاب كامل لمشكلات النقد الأدبى .

لقد جعل المرزوقى هذه المقولات النظرية مجالا للانطلاق ، وبداية لتصورات فنية خاصة ، أحس بها ، وانفعل ، قبل أن يبدأ الشرح والتحليل ، جعلها باباً ينفذ منه إلى غايته الأساسية وهى الشرح والتوضيح .

ولسنا الآن فى مجال التصدى لهذه المقدمات وتحليلها وشرحها ، فهذا أمر يخرجنا عن نطاق بحثنا ، ولكن يكفى أن نعلم أن المرزوقى فى القسم الثانى من نقده ، وهو النقد التطبيقى ، حاول ما وسعه جهده ، وأسعفته المادة الفنية أن يطبق هذه النظريات ، ويثبت صدق آرائه ونفاذ بصيرته ..

وأنظر أيضاً الدراسة التى حصل بها السيد عبد العزيز مخلوف على درجة الماجستير من كلية دار العلوم وهى بعنوان « عمود الشعر العربى فى النقد الأدبى » ص ٣٢ وما بعدها .

(١) شرح الحماسة ، المقدمة ، ص ٩ .

(٢) شرح المفضليات ، ميكروفيلم ، الصفحة رقم ٦ .

هذا عن الجانب النظرى من جوانب النقد عند الرجل ..

أما الجانب التطبيقى ، فهو ما يدخل فى نطاق بحثنا - بل هو لب موضوعنا لأنه الأكثر إرتباطاً بشروح الشعر الجاهلى .. وفيه يبين الرجل مواطن الجمال أو القبح فى الشعر ، ويدلل على أسباب الحسن وأسباب القبح بين ثنايا النصوص الشعرية .. كما يوضح مدى توفيق الشعراء فى إرسال رؤاهم .. ومدى توفيق الشراح فى توصيل هذه الرؤى .. إلى غير ذلك من المسائل . كل ذلك يحفزنا إلى القول :

أن المرزوقى كان أحد العلماء القلائل ، الذين فهموا وأثبتوا أن النقد إلى جانب كونه نظريات ومبادىء .. تطبيق وعمل ، لذلك ارتقى النقد الأدبى - بشقيه - بين عقله وقلمه ، ووصل إلى دلالته الحقة وهدفه الصحيح - فكان بمقدماته وتطبيقاته .. نموذجاًفذاً من علماء العصر ، الذين جمعوا بين عناصر النقدالنظرية والتطبيقية ،ومزجوا بين الأسس الوضعيةوالممارسة العملية.

لقد فهم بعض الباحثين (١) أن المقدمة النقدية التى قدم بها المرزوقى لشرحه على الحماسة ، هى كل ما عند المرزوقى من ذخائر نقدية ، بيد أنهم بهذا الفهم قد أغفلوا جانباً كبيراً وهاما فى حياته العلمية ، وهو الجانب التطبيقى التوضيحى المدعم للجانب النظرى ، إننا لا نغالى إذا قلنا :

إن المرزوقى - فى شروحه التحليلية - كان أكبر منه فى آرائه النظرية ، لأنه كان يمارس بأمانة وفهم عميق ، تطبيق هذه النظريات والآراء ، ويلتزم بكل الأسس التى وضعها فى المقدمة .

أضف إلى ذلك أن الجانب النظرى لم يقف عند حد المقدمات ، بل تعداها فى أحيان كثيرة ليدعم الجانب الآخر من الشرح ، ليوضح بعض الأمور والسمات الشعرية التى رأى المرزوقى توضيحها بين شروحه .. كتعليله مثلا للأسباب التى جعلت أبا تمام يضع مقطعات معينة أو أبياتاً محددة بين ثنايا

(١) عبد العزيز مخلوف - عمود الشعر العربى ، ص ٣٢ .

أبواب الحماسة .. من مثل قوله عن حماسية الحكم بن زهرة(١) : « وإنما أدخل هذه الأبيات فى الباب لقوله (قوم إذا ما جَنَى جانيهم أمنوا) فلما ذكر من يجتهد فى إدراك التأثر من جهته تيسر أو تعسر ، ذكر أيضاً ما يضاده ممن يرغب عنه ، ويزهد فى النيل منه ، ترفعاً عن مكافأته ، وهذا عادته فى إتباع الشيء بضده ، فاعلمه » .

ويقول بعد أن أورد الحماسات (٧٧ — ٨٠) : « وهذه المقطوعات بما اشتملت عليه من الفظاظة والقسوة ، وذكر قلة الفكر فى الأوطان والأحبة وتناسى العهود والأذمة ، ومفارقة الأماكن المألوفة ، والحلل المورودة ، وشكوى النفس إلى التنائى والغُربة ، دخلت فى باب الحماسة »(٢) .

ويقول عن الحماسية (٨٥) : « وهذه الأبيات مع ما يشبهها ، لما ضادت ما قبلها فى تضمنها رقة القلب ، والتعطف على الولد والأهل ، أتبعها بها ، وكل ذلك كالعارض ثم يعود إلى ما بنى عليه الباب . وهذا عادة أبى تمام فى أبواب هذا الاختيار »(٣) .

أما حماسية البعيث بن حريث ، فيرى المرزوقى أنها ليست من باب الحماسة ، وأن أبا تمام وضعها فى هذا الباب خوفاً من تبديدها ، ونظراً لإعجابه بها يقول : « وهذه الأبيات وإن كان فى جملتها ما ليس من الباب ، فإنه كره تبديدها ، لسلامتها من العاب ، ووفور حظها من الانتخاب »(٤) .

إن الباحث المدقق ، يستطيع أن يلمس أن النقد التطبيقى عند المرزوقى يضم مجموعة من العناصر الهامة يمكن إدراجها تحت هذه الأمور الأساسية :

١ — نقد الرواية والرواة .

٢ — نقد الشعر والشعراء .

٣ — المقارنات والموازنات والسرقات .

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٥١ ، وانظر أيضاً ١-٢٥٨ .
(٢) شرح الحماسة ١-٢٧٦ .
(٣) شرح الحماسة ١-٢٨٤ .
(٤) شرح الحماسة ١-٣٨٠ .

١ — نقد الرواية والرواة :

يستند نقد الرواية عند المرزوقى على دعائم قوية ، فهو يستند تارة على العقل ، وتارة أخرى على السياق ، وتارة ثالثة على التمحيص والتثبت ..

من أمثلة ذلك ، نقده للرواية التى وردت على بيت دُرَيْد بن الصمة :

فطَاعَنْتَ عنهُ الخَيْلَ حتى تَبَدَّدَتْ
وحتىَّ عَلاَنِي حَالِكُ اللَّوْنِ أسْوَدِ

فقد روى : « وحتى عَلاَنى حالك لَوْنُ أَسْوَدِ » .

قال المرزوقى : « والضعف فيه ظاهر » . ويعلل المرزوقى لضعف هذه الرواية بقوله : « ألا ترى أنه قال : حالك » وهو الشديد السواد ، ثم قال : (لَوْنَ أسْودِ) وفى إضافة لون أسود ما لا يرتضى »(١) .

وبيت سَبْرة بن عمرو الفقعسى :

نُحَابِى بها أكْفَاءَنَا ونُهِينُهَا
ونَشْرَبُ فى أثْمَانِها ونُقَامِرُ

هذه هى روايته المعتمدة شرحها بقوله : « بين فيه وجوه تصرفهم فيما عيرَّهم به ، فقال : نجعلها (يقصد الإبل) حِبَاءً لنظرائنا ، فنتهادى بها ونُسَهِّل تمكن العفاة والزوار منها . فهذا ما يدل عليه من سياق المعنى ، والدليل على ذلك قول الشاعر (ونبيعها فنصرف أثمانها إلى الخمر والإنفاق ، ونضرب بالقداح عليها فى الميسر عند إشتداد الزمان ، فنفرّقها فى الضعفاء والمحتاجين إليها) .

يقول المرزوقى : « وفى تعداد هذه الوجوه إبطال لكل ما أوهم أو أُدُّعِيَ يَلْحَقُ من العار فى إقتنائها وإدّخارها .. » :

بعد كل هذا التحليل والإستدلال ينتقل المرزوقى إلى الرواية الأخرى الضعيفة فى رأيه فيقول : « أما رواية بعضهم (نُحَابِى بها أكفاءنا) ،

---

(١) شرح الحماسة ٢-٨١٨ ، وأنظر أيضاً ١-٨٣ .

أى نعايشهم بها ونجامل» فإن مفهوم هذا الراوى، «ليس بشىء ولا تُعَرِّج عليه»(١)

وكذلك قول شهل بن شيبان :

مَشَيْنا مِشْيَةَ اللَّيْـثِ
غَدَا واللَّيْثُ غَضْبَانَ

فإنه يقصد – كما هو واضح من السياق – مشينا إليهم مشية الأسد ، إبتكر وهو جائع ، وكنى عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه » .

أما من روى (عَدَا) على أن يكون من العدوان « فليست روايته بحسنة » ويدعم المرزوقى رأيه هذا بقوله « لأن الليث فى أكثر احواله ظالم عادٍ »(٢) .

أما نقده القائم على التمحيص ، فالشواهد عليه كثيرة .. منها ما جاء فى شرح بيت عمرو بن معد يكرب :

مَا إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْـ ت ولا يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدا

قال المرزوقى(٣) : كان بعض الناس يرويه (ولا يَرُدُّ بُكَاىَ زَيْدَاً) وزعم أنه أخ له . ورأيت من زعم أنه فتش عن نسب عمرو فلم يجد له نسيباً ، ولا شقيقاً يسمى زيداً ، على أن قوله «كم من أخ لى صالح » (البيت السابق) لا يلائمه – فيما يقتضيه سياق اللفظ ونظام المعنى ، ومع إفادته الكثرة ، أن يُقَابل بـ« ولا يرد بكاى أخى زيداً مع تخصصه » .

ويذكر المرزوقى ما يؤيد روايه العليا بقوله : « أما من روى (زَنْدَا) فبعض الشيوخ كان يقول : أراد ولا يَرُد بكاى شرره ، فذكر الزند ، وأراد ما يخرج منه عند القدح » :

ويضع من عنده تفسيراً لهذه الرواية يدعمها ويبرزها فيقول :

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٣٩ ، وأنظر ١-٢٨٧ حيث يجوز رواية أخرى من عنده – غير واردة – اعتماداً على سياق الكلام .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٦ ، وأنظر شرح المفضليات ٨٨٩ (الملحق بشرح الأنبارى) .

(٣) شرح الحماسة ١-١٧٩ .

« وأحسن من هذا أن يكون ذكر الزند تقليلا لعائدة الحزن لو تكلّفه عندما دهِمَه من الفجيعة بالأخ المذكور .. وهم يستعملون الزند فى هذا المعنى — وهذا المعنى حسن والشاهد له قوى » .

ثم يضيف المرزوقى ما يزيد الأمر توضيحاً وتمحيصا — وفى نفس الوقت — يدل على اطلاعه وتحققه من الروايات الصحيحة .. وهى جميعاً تخالف ما ذكره البعض (ولا يَرُد بكاى زيداً) فيقول : « ورأيت فى بعض النسخ (ولا يرد بكاى رَدًّا) وهذا حسن أيضاً .. والمعنى : ولا يُغْنِى بكاى شيئا » .

وتحايل المرزوقى للروايات ونقدها ، يدفعه للتعرض لرواة وشراح الشعر السابقين ، وتفنيدمزاعمهم ، وتسفيه آرائهم ، ناعياً — على بعضهم — قصور فهمهم ، وضعف مستواهم الفكرى ، وعجزهم عن فهم معاناة الشاعر ، أو ترجمة تجاربه الشعورية . فقول الحصين بن الحمام :

فلَمَّا رأيتُ الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ
وإن كانَ يوماً ذا كَوَاكبِ مُظْلِمَا

رواه بعضهم : (وأنْ كانَ يَوْماً) بفتح الهمزة ، على أن يكون (أن) مخففة من الثقيلة ، والمراد : « وأنه كان اليوم يوماً ذا كواكب » ، فيقول المرزوقى : « وهذا الراوى لعله لم يعرف الاعتراضات والفصاحة فيها ، والتبس المعنى عليه أيضا » . ثم يذكر المرزوقى ما يدعم روايته العليا ، وما يؤيد معناها فيقول : « لأن قوله (وإن كان يَوْماً ذا كواكب مُظْلِمَا) اعتراض بين (لمَّا) وجوابه ، وهو شرط فى وقوع الصبر منهم يترجم عن الحال .. »(١) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٩١ .

(فهو يقصد أن يقول : « صبرنا وإن كان اليوم مظلماً ترى فيه الكواكب ظهراً ، لانسداد عين الشمس بغبار الموت ، وجواب الجزاء استغنى عنه بجواب لما ») .

وكذلك قول حُرَيثُ بن عَتَّاب :

تَعَالَوْا أفَاخِرْكُمْ : أأعْيَا وفَقْعَسٌ
إلى المَجْدِ أدْنَى أمْ عَشِيرَةَ حَاتِمِ

« رواه بعضهم (أأعيار فَقْعَس) يريد رؤساء فقعس ، وزعم أن أعيا لا يعرفه اسم قبيلة ، وأن هذا تصحيف استدركه .. » .

فيرد عليه المرزوقى مفنداً زعمه قائلا : «فأما إنكاره لأعْيَا قبيلةفلا وجه له لأن بنى أعيا من قبائل سعد بن قيس ، وهو مشهور ذكره النسابون وغيرهم ، ووَهْب بن أعيا بن طريف الأسدى معروف معدود فى الأعلام .. » .

ثم ينتقل إلى نقطة أخرى تتصل بالمعنى ، وتبين خطأ الراوى الزاعم ، وعجزه عن فهم سياق النظم ، وما توصل إليه اللغة فيقول :

« وأما من طريق النظم ، فلأن تكون القبيلة مقابلة بمثلها ، ومذكورة فى المنافرة معها أحسن من أن يقابل الأفراد بالقبيلة ، و(أعيار » إشارة إلى الأفراد ، لأنه يراد بها الرؤساء ، يقال : (هو عَيْرُ قومه (أى سيدهم » ..

ويؤكد المرزوقى صدق رأيه بمؤكدات علمية .. قائلا .

« هذا وقد رجعنا إلى نُسخ مختلفات المصادر ، فوجدناها متوافقة فى تحملها : (أعْيَا وفقعس) ، وإذا كان كذلك لا يجوز العدول عما قاا الشاعر إلى ما لم يقله »(١) .

فالمرزوقى هنا يرد على الراوى الزاعم بثلاث حجج مؤكدة :

أولها : بتوضيح صحة الإسم حسبما جاء على لسان الشاعر ..

وثانيها : بمؤكد معنوى أدى إليه النظم وسياق الأحداث وطبيعة اللغة ..

وثالثها : بمؤكد تمحيصى جاء عن علماء آخرين موثوق بصحة رأيهم وصدق روايتهم .

على أن أهم مؤكد يرجح به موقفه من الروايات — خاصة عند تفنيد مزاعم الشراح الآخرين هو المؤكد الفنى ، المأخوذ من شعر العرب وكلامهم.

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٥٦ .

فبيت ربيعة بن مقروم :

أَرْجَيْتُهُ عَنِّيَ فأَبْصَرَ قَصْدَهُ
وكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّواظِرِ مِنْ عَلِ

ذكر بعض المتأخرين — وهو هنا يقصد ابن جنّى) فى أرجيتُه : « أن الرواية الصحيحة« أَوْجَيْتُهُ » وما عداه تصحيف . قال : وهو أفعلته من الوَجَى ، وإنما أوجب ذلك ليكون لِفْقَ قوله بزُعْمِهِ « وكَوَيْتُهُ » والمعنى : أذْلَلْتُه ورددته رازحا كرُزُوحِ الفرس الوجى . ثم أنشد قول طرفة مُؤْنِساً به :

وقوم تَنَاهَوْا عنْ أذَاتِيَ بَعْدَ ما
أَصَابَ الوَجَى منهم مُشَاشَ السَّنَابِكِ

قال المرزوقى معقباً مفنداً لهذه الرواية وهذا الشرح(١) :

« ولقد قضيت العجب من هذا المستدرك ،ومن ضَلاَلِهِ عن طريق الرّشاد فيما قَصَدَهُ من المعنى ، ورواه فى الاستشهاد وذلك أن شعر طرفة إنما هو :

ما زَالَ شُرْبِي الرّاح حتّى أَشَرَّنى
صديقى وحتّى سَاءَنى بعضُ ذلكِ
وحتّى يقولُ الأقربون نَصَاحَةً
دع الغيَّ واصرِم حَبْلَهُ من حبالِكِ
وحتّى تَنَاهَوْا عن أذَاتِى بَعْدَ ما
أصَابَ الوَجَى منهم مُشَاش السَّنَابِكِ

فقوله : (حتى تناهوا) ليس مما فَسّر ، واستشهد له بسبيل .

ثم يشرح المرزوقى أبيات طرفة مبيناً حقيقة معناها التى غفل عنها هذا المتأخر فيقول : « وإنما يريد طرفة : أنه أبعد غايته فى الخسارة ، وتمادي

---

(١) شرح الحماسة ١-٦٤ .

فى تعاطى الصِّبا والجهالة فلم يُصِخْ لنا صح، ولم يرعو لعاذل حتى نفضوا أيديهم عن إنابته، ويئسوا من قُبُولِه وإعتابه، فألقوا حبله على غاربه، وصاروا من بين ناسب له إلى الشر، ومسىء إليه فى القول، وقاذف إيّاه بالغىّ، فأفضت بهم الحال إلى أن تناهوا، بعد أن بلَغ منهم العناء كل مبلغ، وأثر فيهم الإعياءُ والإحفاء أشَدّ تأثير.

ألا ترى أنه جعل الوجى فى المشاش من السنابك منهم، فهذا ما عليه فى الرواية والذهاب عن طريق الشاعر».

ثم يختم المرزوقى تفنيده ونقده لهذا الراوى، فيقول القول الفصل:

«وبَعْدُ — فإنه لايقال أوجيت الدّابة عنىّ ويراد الإحفاء، ولم يُسْمع فى التذليل ذكر الحفى والوجى مستعاراً، كما سُمِعَ الكى والوسم فيه.. والرواية الصحيحة «أرجأته» و«أرجيته» وهما لغتان، والهمز أفصح».

ويقدم الدليل تلو الدليل من كتاب الله ومن أشعار العرب(١).

كل هذه اعتراضات تتصل بالرواية من حيث اللغة، وما تؤدى إليه من فهم خاطىء، وجنوح نحو التكلف والشطط.. على أن هناك بعض الردود التى يرد بها المرزوقى على الشراح الذين يؤولون المعنى حسب أهوائهم.. وهم — على حد زعمه — مخطئون فى التفكير والفهم.. وهؤلاء يسلقهم المرزوقى سلقاً..

فقول عمرو بن معد يكرب:

فَجَاشَتْ إلىَّ النَفْسُ أَوَّلَ مَــرَّةٍ
وَرُدَّت على مكْروهِـها فاستَقَرَّتِ

فهمه بعضهم فهماً خاطئاً، فاعترض وقال: «لولا أنه جَبُن لما جاشَتْ إليه النفس، وقال أيضاً: ومثله فى الرداءة قول عنترة:

(١) أنظر أيضاً ١-١٩١ حيث يتهجن على ابن جنى ويقول: «انتهت الحكاية عنه، والتعجب من إدراكه لهذا المعنى — يمنع من الكلام عليه، فسبحان من لا يحتاج إلى التفسير».

إذْ يتقون بي الأسنةَ لم أخِمْ
عنها ولكني تضايقُ مُقْدَمِي

هلاّ قال، كما قال العباس بن مرداس:

أشُدُّ على الكتيبةِ لا أُبالي
أحتفي كان فيها أمْ سِواهَا

يرد المرزوقي على هذا المعترض بقوله: «وليس الأمر كما توهَّم، لأن ما ذكره عمرو وعنترة، بيان حال النفس، ونفس الجبان والشجاع على طريقة واحدة، فيما يدهمُها عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان، فالجبانُ يركب نفرته، والشجاع يدفعُها فيثبت.

فأما قول العباس بن مرداس فليس مما ذكراها بسبيل، وإنما هو بيان الحالة الثانية، وما يعزمُ عليه بعد الإعتصام والمراجعة والتمسك»(١).

وبيت عامر بن الطفيل:

أكُرَّ عليهمْ دَعْلَجاً ولبَانُهُ
إذا ما اشتكى وقْعَ الرِّمَاح تحَمْحَمَا

معناه – كما يقول المرزوقي – أعطف فرسي دَعْلَجاً عليهم، حالا بعد حال، وكرّاً بعد فرّ، وإذا اشتكى من كثرة وقوع الطعن بصدره حمحم. هذه هي روايته وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الشاعر..

وروى بعض الناس (ولبانَه) بالنصب، كأنه فر من أن يكون الإشتكاء والتحمحم للّبان على كثرة نسبة الإشتكاء إلى الأعضاء الآلمه.. فوقع فيما هو أقبح، لأن المراد أكرّ عليهم فرسي، فلا معنى لعطف اللّبان عليه»(٢).

وليس كل من يرد عليهم، ويسفّه آراءهم – هم الرواة والشراح فقط،

---

(١) شرح الحماسة ١-١٥٨، وانظر ١-١٥٤.
(٢) شرح الحماسة ١-١٥٤.

بل إنه يرد كذلك على النحويين (١) ، ويحلل ما أثاروه من مسائل ، ويرد على ما أثاروه من موضوعات ، يحلل ذلك تحليلا كاملا مستندا إلى ما جاء عن الأساتذة العلماء ، مدعماً أقواله بما قرأه فى كتبهم .

ولاشك أن هذا التحليل والتفنيد يعكسان أهم سمة من سمات الرجل العلمية وهى : السمة الذاتية ، والاستقلال بالرأى ، والاعتزاز به ، والإتيان بالآراء التى لم يكن قد سبق إليها فى الرواية أو فى الشرح ..

فقد قيل فى حماسية بعض شعراء بلعنبر (٢) : أن هذا الشاعر هجا قومه لتخلفهم عن نصرته ، هذا ما ذكره بعض الشراح ، ونقله الخطيب التبريزى — الذى جاء بعده — ووافق عليه .. أما المرزوقى فقد رفض هذا الرأى رفضاً باتاً ، ورأى عكسه ، ودافع عن رأيه دفاعاً حاراً قال :

« مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، هم بنو أخى العنبر بن عمرو بن تميم ، وإذا كان كذلك ، فمدح هذا الشاعر لهم يجرى مجرى الافتخار بهم ، وفى بنى مازن عصبية شديدة ، قد عرفوا بها وحُمدوا من أجلها ، ولذلك قال بعض الشعراء موبخاً لغيرهم :

مَهْلاً سعيْتُم سَعْيَ عُصبة مَازِنٍ
وهلْ كَفَلاَئى فِي الوفاءِ سَوَاءَ
كأنَّ دَنَانِيراً عَلى قسَمَاتِهِمُ
وإنْ كَانَ قد شَفَّ الوجُوهَ لِقَاءُ

ثم يبين قصد الشاعر حسبما فهم من النص .. فيقول :

« وقصد الشاعر فى هذه الأبيات — عندى — إلى بَعْثِ قومه على الإنتقام له من أعدائه ومُهتَضِميه ، وتهييجهم وهزّهم ، لا ذمِّهم ، وكيف يذمهم

---

(١) أنظر على سبيل المثال شرحه البيت السادس من حماسية غلاق بن مروان ١-٤٥٧ .

(٢) الحماسية الأولى ١-٢٣ .

ووبال الذم راجع إليه ؟ .. لكنه فى هذا المعنى سالك لطريقة كبشة أخت عمرو بن معد يكرب فى قولها :

أَرْسَلَ عبدُ الله إذْ حَانَ يَوْمُهُ
إلى قومِهِ لا تعقلُوا لَهُمُ دَمِي

ألا ترى أنها قالت فى جملة هذه الأبيات :

ودَعْ عَنْكَ عَمْراً إن عمراً مُسَالِمٌ
وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غيرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

فلا يجوز أن يتوهم أنها كانت تهجو أخاها عمرا ، أو تنسبه إلى العجز والتقصير فى طلب ثأر أخيه، وعمرو هو الذى كان يُعَد بألف فارس ، ولكن مرادها بعثه وتهييجه .. وهذا كما يقول العبد لمولاه والغلام لصاحبه ، وقد لحقتهما هضيمة من أجنبى ، لو كنا فى خدمة فلان عمك أو أخيك لما جَسَرَ هذا أن ينالنا بمكروه ، ولا يجوز أن يقال أنهما هَجَوَاسيدَيهما أو فَضَّلا غيرهما عليهما ، ولكن المراد تحريكهما لهما .

وإذا كان الأمر على هذا فمن الظاهر بطلان قول من يذهب إلى أن هذا الشاعر هجا قومه ومدح بنى مازن .

ومما يؤكد ما قلته قوله :

يَجْزُونَ من ظُلْمِ أهل الظلْمِ مَغْفِرَةً
ومن إساءةِ أهل السُّوءِ إحْسَانَا

لأنه لا يقال لمن يَمْسِكَ عجزا عن الإنتصار أنه غَفَرَ ، ولا لمن يقدر على جزاء الإساءة أنه إختار الإحسان .

فإن قيل : أليس قد قال :

لَيْسُوا من الشَّرّ فى شىءٍ وإن هَانَا

وقال أيضاً :

فلَيْتَ لى بِهِمْ قوماً إذا ركبُوا
شَنُّوا الإغَارةَ فرسانَا ورُكْبَانا

قلت : ليس يزيد شيء مما قاله على قول كبشة :

وَدَعْ عنكَ عَمْراً إن عَمْراً مُسَالِمُ

وإذا كانت أبياتها بإتفاق من أصحاب المعانى لا تكون هجواً ، فكذلك أبيات هذا العنبرى .

ومما يشهد للطريقة التى سلكناها ويؤيدها ، أنَّ فى جملة أبياته التى وصف فيها قومه :

يُخْشُونَ نيرانهم حتى إذا خَمَدَت
شَبُّوا لموقِدِ نارِ الحَرْبِ نيرانـــا

وهذا المعنى هو مثل ما افتخر به غيره فى صفات نفسه ، فقال :

أَفِرُّ مِنَ الشَّرِّ فى رخْـــوَةٍ
فكيف الفرارُ إذا ما اقْتَرَبْ

بل الذى ذكره العنبرى أزيد ، لأنه وصفهم بالإحتمال والصبر ما أمكن ، فإذا اهتاجوا زادوا على كل هائج .. ألا ترى أنه قال :

شبوا لموقد نار الحراب نيرانا

ومعنى البيت : لو كُنْتُ مازنيا لما تعدى بنو اللقيطة على إبلى ..

فالمرزوقى يعتز برأيه ، ويستقل بفهمه وتفسيره ، حتى لو خالف كل السابقين والمعاصرين ، ويقدم كل تدعيم لما ذهب إليه من شعر العرب ، وأسلوب العرب ، ومنطقهم فى الفهم والتعبير ..

٢ — نقد الشعر والشعراء :

أما الموضوع الثانى من موضوعات النقد التطبيقى التحليلى ، التى ضمنها المرزوقى شروحه ، فهو نقد الشعراء أنفسهم .. فإذا كنا قد رأيناه ينقد الرواه ويسفه آراءهم ، وينعى عليهم جهلهم فى كثير من الأحيان ، فإن الشعراء لم يسلموا منه فى أحيان كثيرة . تناول أسلوبهم ، وأفكارهم ، وتعرض لأخطائهم النحوية والصرفية ، وأخطائهم المعنوية والتعبيرية ، كما تصيَّد لهم

ما وقعوا فيه من عيوب تتصل بموسيقى الشعر وعروضه .. وهو فى معظم الأحوال ينوّه عما كان وعما ينبغى أن يكون .

فهو يعيب على العباس بن مرداس أنه « جمع بين فعلين فى قوله :

إذَا طَالَتِ النَّجْوَى بغير أُولِى القُوَى
أَضَاعَتْ وأَصْغَتْ خَدَّ مَنْ هو فَارِدُ

وهما : « أضاعَتْ »و« أَصْغَتْ » فأعمل الثانى ، وإن كان من الجائز أن يكون مفعول (أضاعت) غير « خَدّ مَنْ » فحذفه ، كأنه قال : أضاعت رَبَّها . وكان الحكم فى هذا الوجه أن يقول لو أظهر المفعول (وأصغت خَدّه لكونه فَارِداً وحيداً) لكنه لما كان الآخر هو الأول وقد حذفه ، لم يبال بإظهاره ، لأن الذى هو فارد رب النجوى لا غير »(١) .

وهو يخطىء زينب بنت الطثرية فى قولها « بصيراً بها » حيث تقول :

يَجُرَّان ثِنْيـاً خَيْرُهـا عَظْمُ جَارَةٍ
بصيراً بها لم تعد عنها مَشَاغِلُـه

فقد جعلت الفعل للمرثى ، فجرى على غير من هو له ، لأنه تبع الجارة .

« وإذا كان كذلك فالواجب كان عليها أن تظهر ضميره ، فتقول : (بصيرا بها هو) لأن اسم الفاعل ، والصفة المشبهة إذا جَرَى واحدٌ منهما على ما قبلُه صفةً أو صلة أو حالاً لم يحتمل الضمير كما يحتماه الفعل ، لضعفه وإنحطاط منزلته »(٢) .

---

(١) شرح الحماسة ١/٤٣٨ (يقول : إذا طالت المناجاة وامتدت الإشارة مع غير أرباب الآراء القوية ضيعت المستشير وأمالت خده ، وصار فى الانفراد بما يعانيه بمنزلة من لا ناصر له ولا مشير ، لوقوع التشاور على غير حده ، وتقصير المشير فى القيام بواجبه) .

(٢) شرح الحماسة ٣-١٠٥٠ (قولها : يجران ثنيا « تعنى الجازرين ، والثنى : التى ولدت بطنين ، وهى مما يضن بها ، وقولها : « خيرها » تريد : خير إبدائها ومفاصلها البده الذى يجعل لجارة له قد عرفها ، فهو بصير بها وبحالها ، وليست تعنى جارة بعينها ، إنما المراد الكثرة) . وأنظر : ١-٢٩٧ .

وعروة بن الورد حين قال :

لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً إذَا جَنَّ ليلُه
مُصَافِي المُشَاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزِرِ

كان يجب أن يُحرَّكَ الياء من (مُصَافِ) بالفتح ، فسكّنه ، وإن كان منهم من يُجْرِى الفتحةَ فى مثله من المعتل مجرى سائر الحركات فلا يُشْبِهُها »(١)

وأبو النشناش حين قال :

وسَائِلَةٍ بالغَيْبِ عَنِّى وسَائِلِ
ومَنْ يسألُ الصُّعلُوكَ أينَ مَذَاهِبُه

لم يوفق فى التعبير – وكان وجه الكلام أن يقول : « ومَنْ يسأل عن الصُّعْلوك » ليكون وَفْقَ قوله « وسائلة بالغيب عَنِّى »(٢) لكنه اضطر إلى ذلك لأنه إذا كان سؤال نفسه عن مَذْهبه منكراً لاستبهامه عليه ، فسؤال غيره عنه أبعدُ من الصواب » .

والمساور بن هند فى بيته :

ورَأَيْنَ شيخاً قد تَحنىَّ صلبُهُ
يَمْشِي فَيَقْعَسُ أو يكبُّ فيَعثُرُ

كان الواجب أن يقول : « او يَعْثَر فيكبّ » لأن العثار قبل السقوط الوجه ، لكنه لم يُبال بتغيير الترتيب »(٣) .

والمرزوقى لا يعجبه أيضاً ، المعنى الذى قصد إليه عروة من قوله :

ليبلغ عُذْراً أو يُصيبُ رَغيبَةً
ومُبْلِغُ نَفْسٍ عذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٢١ .
(٢) شرح الحماسة ١-٣١٩ .
(٣) شرح الحماسة ١-٣٦٠ .

لأن « هذا الكلام وإن كان ظاهره — وظاهر صدر البيت الأول — أنه يتكرر به المعنى الذى قدمه فيه ، فليس الأمر كذلك ، لأنه ذكر فى الأول إبلاغ النفس من الموت حداً يُريحهُ ، ولم يُبَيِّن من فعل ذلك : هل أَنجحَ أَوْ لا ، وفى الثانى — بَيّن أن المُعْذَر فى طلب الشىء كالمُنْجح ، وأنه إذا استغرق وُسعَه فى طلب ما يَهُمّ به ، ثم حال دُونه حائل فقد أعْذَرَ(١) »

ودُرَيْد بن الصِّمة فى بيته :

فطاعَنْتَ عَنْهُ الخَيْلَ حتى تبدَّدت
وحَتَّى عَلاَنِى حَالِكُ اللَّونِ أَسْوَدِ

حين قال(٢) : « حتى علانى حالك اللون أسود » وقع فى أحد عيوب الشعر(٣) وهو الإقواء » .

والربيع بن زياد العبسى فى مقطوعته :

أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ
تَرْجُو النِّساءُ عواقبَ الأطْهارِ
ما إنْ أَرَى فى قَتْلِهِ لِذَوِى القُوَى
إلاَّ المَطِىَّ تُشَدُّ بالأكْوارِ

لما قال (ابن زُهَيْر) .. جعل عروض الضرب الثانى من الكامل

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٦٥ .
(قوله : « ليبلغ » تفسير ما قدمه ، ويشير بقوله « عذراً » إلى قاطع الموت ، لأن المجتهد فى طلب الشىء إذا حال أجله دون أمله فقد أعذر) .
(٢) شرح الحماسة ٢-٨١٧ .
(٣) يرى المرزوقى أن الإقواء ليس عيباً قبيحاً فى الشعر ، ويقول أن كثيراً من العلماء يهونون الأمر فيه ، ولا يعدونه عيباً قبيحاً ، وحكى عن الأخفش أنه قال : « ما أنشدنى العرب قصيدة سلمت من الإقواء طالت أو قصرت » .
(أنظر نفس الموضع من الحماسة) .

مقطوعة(١) ، ولو قال (زهير) لاستقام له ، وكان يكون متفاعِلُنْ ، وهم يُدخلون على الأعلام التغيير كثيراً ، لكنه مال إلى هذا وجعله فَعِلاتُنْ ، وقد فعل فى أول المقطوعة مثل ذلك ، لكنه فى ذلك أعذر لأنه جعلها مُصَرَّعة ، ولم يرض بأن جعله فَعِلاتُنْ حتى سكَّنَ العين منه وجعله مفعولُنْ ويسمى مقطوعاً مُضْمَراً »(٢) .

ولكن ليس معنى نقده للشعراء وتوضيحه لهناتهم أنه يتعنت ضدهم ، بل أنه فى كثير من الأحيان ، وبعد توجيه النقد إليهم ، وإظهار خطأهم ، يتلمس لهم الأعذار ويدافع عنهم ، وقد يخترع الأسباب الفنية والنفسية التى تشفع لهم قصورهم وتمسح تقصيرهم ، ويجوز لهم الإحتمالات التى قد تخرجهم من نطاق الضعف ، ومصايد الزلل كما أنه لا يدافع عن الشعراء نظرياً — بالقول — بل عملياً وفعلياً مستشهدا مجوِّزاً لما يمكن أن يقدم ويقال فى هذا الصدد ، ثم يقدم الحيثيات الدفاعية التى تبرئهم من هذه المآزق الفنية التى وقعوا فيها .

فهدبة الشاعر ، حين قال(٣) :

ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم
ولكنْ مِدْرَهُ الحرب العَــوَانِ

---

(١) أى جعل العروض التى ضربها الثانى مقطوع مقطوعة مثله ، وهذه العروض أصلها العروض التامة .

(أنظر هامش الصفحة ذاتها للمحققين) .

(٢) شرح الحماسة ٢-٩٩٣ .

(٣) شرح الحماسة ١-٤٧٣ .

(السفساف : ما لا خير فيه من الأفعال والأقوال ، والعوان من الحرب ، التى قوتل فيها مرة بعد أخرى ، والمدرة : هو السيد الذى يدفع به الشر ، فينتظم به أمور الحرب) .

(أنظر ١-٩٨ ، ١-٢٣٣) .

كان يقصد « لَيْسَ مَحَلِّي منهم وفيهم محل شاعر يُسَفْسِفُ العريض، ثم يقف دَون غايته باليد واللسان » فالتبس الأمر على البعض وتساءلوا ..

وتبنى المرزوقى هذا التساؤل فقال :

« فإن قيل : أين عَجُز البيت من صدره فى النظام، وهلاّ قال بعد ما نفى عن نفسه من الشعر الركيك : ولكنى شاعرٌ المتخير الرصين ؟

ثم يجيب على هذا التساؤل بقوله :

« إنما المراد التنبيه على فضله غيهم وطَوْلِه ، وعلى كفاية بيانه ، وعلى غَنَاءِ سنانه. والحرب كما تقع بالضِّراب والطِّعان ، تقع بمجاذبة الحجاج عند النفار والفخار ، وآثر أن يقول : (ولكن مِدْرَه الحرب) ليدخل تحته الأمران جميعا » .

والأعرج المعنى حين قال :

تَلُومُ عَلَيَّ أن أُعْطِيَ الوَرْدَ لِقْحَةً
وما تَسْتَوِي والوَرْدَ سَاعَةَ تَفْــزَعُ

« أثار بعض الإعتراض ، ووضح فى قوله التضارب والتناقض ، فكيف قال : (ولا أدرى عَلاَمَ توجَّع) ثم أتبعه بقوله :(تَلُومُ عليّ أن أُعْطِي الورد لقحةً) وهل كذب نفسه ؟ .. » يجيب المرزوقى على هذا النقد الموجه لهذا الشاعر فيقول : « الجواب أن قوله (ما أدرى) إنكار وتفظيع للشأن ، والمتضجِّر بالشيء يقول ذلك وإن كان عالما »(١) .

هكذا يدافع المرزوقى عن شعرائه ويخلصهم من مآزقهم ، ويعلل لأقوالهم ومقاصدهم .. وقد يدفع المرزوقى دفاعه عن الشاعر إلى عقد الموازنات والمقارنات والاستشهاد بالشواهد المتعددة ، بما يؤيد قول الشاعر وإبراز وجهة نظره وصدق زعمه ...

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٥٠ (يقول الشاعر : تعيب على فى إيثارى فرسى الورد بلبن لقحتى وهى الناقة التى بها لبن ، وما تستوى هى مع الورد ساعة الفزع ووقت الغارة) .

٣ – المقارنات والموازنات والسرقات :

وثالث عناصر النقد عند المرزوقى .. تلك التى تتصل بالمقارنات والموازنات والسرقات وهذا العنصر مرتبط بما سبقه ، خاصة حين يتناول المرزوقى المعانى والألفاظ ، وحين يحدد من أين أخذ الشاعر معناه ، ومن سبقه إليه ومن لحقه ومدى توفيق الشاعر الآخذ .. ومن أحقهما بنسبة المعنى إليه ، إلى غير ذلك من الأمور التى تندرج تحت باب السرقات .

فعنترة بن شداد ، حين هاجت قريحته بهذا البيت(١) :

وما يَدْرِى جُرَيَّةَ أنَّ نَبْـلى
يكونُ جَفيرَها البَطَلُ النَّجيدُ

وحين أشار إلى (البطل النجيد) – كان فى إشارته هذه « إلمام بقول أحد شعراء بنى بولان(٢) .. وهو قوله :

نستوقد النبل بالحضيض ونَصْطَادُ نُفُوساً بُنَتْ على كَرَم

ويقول بشامة بن حزن(٣) :

من عَهْدِ عَادٍ كان معروفا لنـا
أسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُها وقِتالُها

ثم أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فلا تَطْلُبُوا أسْيَافَهُمْ فى جُفُونِها
فَقَدْ أُسْكِنَتْ بَيْنَ الطُّلَى والجَمَاجِمِ

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٢٧ (والمعنى : لا يعلم أنه كما أنى أصبته فدأبى وعادتى أن تكون الأبطال النجداء لنبلى بمنزلة الجعبة ، أصيبهم أبداً بها) .

(٢) أنظر الحماسية ص ٣١ .

(٣) أنظر الحماسية ص ١٣٤ .

(٤) ويقول المرزوقى أثناء شرح حماسة تأبط شرا : « وأخذ أبو تمام هذا فزاد عليه وإن كان فى لفظه ركاكة فقال ... » (ويذكر بيتاً) ١-٩٦ وأنظر ١-٢٥٠ .

وليس هذا المعنى وحده الذى أخذه أبو تمام من معانى الشعر القديم ، فإن أبياته التى مدحها أبو عبد الله حمزة بن الحسن ، وقال : إن أبا الحسن على بن مهدى الكسروى كان يثنى عليها « ويقول أنا قد تتبعت من دواوين الشعراء قديمهم ومحدثهم فوجدت أبا تمام الطائى متفردا بمعناها ، غير مسبوق إليه وهو قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلة
طُوِيَتْ أتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ
لَوْلاَ التخوّفُ لِلْعَواقِبِ لم يزَلْ
للحاسِدِ النُّعْمَى علَى المَحْسُودِ

هذا المعنى – كما يقول المرزوقى – ليس من بنات أفكاره ، « وإنما هو مأخوذ من فحوى بيتى الشاعر القديم(١) :

إنْ يَحْسِدُونى فإنِّى غير لائِمِهِمْ
قَبْلِى مِن النَّاسِ أهل الفَضْل قد حُسِدُوا
فدامَ لى ولَهُم مَا بِى وما بِهِمُ
ومات أكثرُنَا غيظاً بِمَا يَجِدُ

فإذا ما تركنا موضوع الأخذ والسرقات ، وانتقلنا إلى مجال الأشباه والنظائر ، نجد أن هذا المجال كبير وواسع عند المرزوقى :

فقول الشاعر القديم – فى مجال الفخر ببطولات قومه ، ومحبتهم لملاقاة لأعداء وحرصهم على القتال(٢) :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهم كأنَّهُمُ
لاَ يَيْأسُونَ من الدنيا إذا قتلُوا

---

(١) شرح الحماسة ١-٤٠٦ .
(٢) شرح الحماسة ١-٤٤٤ .

هذا المعنى قوى – ومثله فى قوته « ولكن أبلغ منه قول عبد الشارق ابن عبد العزى :

فأرسَلْنَا أبا عَمْرِو رَبِيئــــاً
فقال ألا انْعِـمُوا بالقَوْمِ عَيْنَا

وجزء بن ضرار ، حين تمثل فى بيته (١) :

فقيرُهُم مُبْدِى الغِنِيَ وغَنيُّهم
له وَرَقٌ للسائلينَ رطيــــبُ

فقال (له ورق) ضرب هذا المثل للندى ، وأصله ها هنا ورق الشجر وبه عَيْش المال : الإبل والغنم ، ثم يُتَمَثَّلُ به بَعْدُ لغيره من ضروب المنافع ووجوه المرازىء ..

وقد سلك فى هذه الإستعارة والتمثيل مسلك زهير حيث يقول :

وليسَ مانعْ ذِى قُرْبَى ولا رحم
يَوْماً ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقَا

وحسان بن نشبة كان يعنى بقوله(٢) :

أَبَوْا أَنْ يُبِيحُوا جارَهُم لعدُوِّهِم
وقد ثَارَ نَقْعُ الموتِ حَتّى تكَوْثَرَا

أنهم امتنعوا من أن يُخَلّوُا بين جيرانهم قبيلة كلب وبين أعدائهم حمير ، وقد ارتفع غبار الموت حتى إلتف فى الجو ..

أو كأن الموت أثار الرهج فى سلب النفوس حتى كثف فى الهواء .. وإنما أضاف النقع إلى الموت تهويلا..وتَكَوْثرَ :تَفَوْعَلَ من الكثرة ، يريد تراكم الغبار وإلتفافه . و هذا الذى أشار إليه بقوله (تكوثر) من التراكم

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٤٥ .
(٢) شرح الحماسة ١-٣٣٨ .

جعله بعضهم كالسحاب ، وجعله بعضهم(١) يسد عين الشمس حتى ظهرت له الكواكب ، وحتى صار النهار بسببه كالليل ، وتجاوز المتنبي جميع ذلك حتى بلغ حداً من الإفراط مستشنعا فقال :

عقدت سَنَابكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَراً
لو تَبْتَغِي عَنقاً عليه أمْكَنَا

ولذلك تكثر عند المرزوقي مثل هذه العبارات :

« ويشبه البيت الذى نحن فى تفسيره قول الآخر »(٢) .

« وهذا المعنى كشفه غيره فقال ... »(٣) .

« وهذا مثل قول طرفة »(٤) .

« ويقارب به قول الخنساء »(٥) .

« وهذا أجود من قول عنترة »(٦) .

« وهذا الوجه أبلغ الوجوه الثلاثة وأدقها »(٧) .

« ومثله ...... »(٨) .

هذه هى أهم عناصر النقد التحليلى التطبيقى عند المرزوقى .. أضف إلى كل ما سبق أنه كان يطبق الكثير من الأسس الفنية التى تنم عن فهم عميق لما يمكن أن نطلق عليه النقد الداخلى للشعر ، فنراه يحرص على تحليل ألفاظ

---

(١) يقصد بشار بن برد فى قوله :
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(٢) شرح الحماسة ١-٤١٨ .

(٣) شرح الحماسة ٢-٥٢٠ .

(٤) شرح الحماسة ١-١٠٨ ، وانظر ١-١٠٩ .

(٥) شرح الحماسة ١-١٠٧ .

(٦) شرح الحماسة ١-١٨٧ ، ١-٤٢٧ .

(٧) شرح الحماسة ١-٤٣٧ ، ٢-٥٤٠ .

(٨) شرح الحماسة ١ - ١١٣

الشاعر وملاحظة علاقاتها بالمعنى وموضوعية النظم .. من هنا وجدنا له عبارات نقدية مأثورة من مثل قوله عن أبيات حماسية بشامة النهشلى :

« وهذه الأبيات إذا تُؤُملت فكل منها غاية يدعو إلى نفسه لفظاً ومعنى (١) وقوله أيضاً :

« وفى البيت مع حسن المعانى التى بَيَّنْتُها توازن فى اللفظ مستقيم، وسلامة ما يجلب عليه التهجين »(١) .

ويقول عن أبيات السموأل بن عاديا :

« وهذه الأبيات إذا تؤملت أدى التأمل منها إلى سلامة اللفظ والمعنى من كل معاب وحُصُول الفخامة والجلالة لها فى كل جانب وباب » (٣) .

ولا شك أن المفاضلة بين الروايات ، تعد عنصراً من عناصر النقد الأدبى عنده خاصة حين يصل الأمر إلى ترجيح إحداها بوسائل ومعايير من الفكر العميق ، والفهم المستنير ، وهذه الخصيصة بالذات ، تؤكد ما سبق أن إلتفت إليه ، وذكره فى مقدمته النقدية — على الحماسة — وإعتباره إياها ضرباً من ضروب النقد الأدبى ، يشترط فى صاحبها ما يشترط فى الناقد .

وهكذا تعددت عناصر الشرح عند المرزوقى ، وتنوعت ما بين رواية ونحو ولغة وبلاغة ونقد .. جال فى كل علم من هذه العلوم جولات واسعة ، تنم عن مقدرة فائقة على الفهم ، وسعة أفق فى التحليل ، وإن كانت ستظل السمة الأدبية الإبداعية هى أبرز سمات الشرح على الإطلاق ..

---

(١) شرح الحماسة ١-١٠٦ .
(٢) شرح الحماسة ١-١٠٧ .
(٣) شرح الحماسة ١-١١٩ .

(خصائصه الفنية فى الشرح)

ولقد لاحظنا من دراستنا لهذه الشروح أن منهج الرجل يتميز ببعض الخصائص الفنية الواضحة :

١ – أول هذه الخصائص هى أن شرح الحماسية أو المقطوعة أو القصيدة كل لا يتجزأ يرتبط بعضه ببعض ، فإذا تناول شرح بيت ربطه بما قبله وما بعده ، وبذلك يكون المرزوقى من أوائل من إلتفتوا إلى الوحدة الموضوعية(١) سواء وحدة المقطوعة أو وحدة القصيدة ، فترى عنده تسلسل الأفكار ، وربط المعانى .. حيث لا إنفصام بين شرح بيت وآخر ، وإنما شرح البيت لبنة فى بناء المعنى الكلى للمقطوعة أو القصيدة .

أضف إلى ذلك أن شرح ديوان الحماسة نفسه كل لا يتجزأ ، يرتبط أوله بآخره .. فإذا تناول شرح قضية من القضايا ، أو مسألة من المسائل ، ثم صادفته فى مكان آخر .. قال (وقد مضى القول فى هذا) .

ولقد وجدنا أن مقارنة المعانى عنده ، والإستشهاد بالشعر ، معظمه من أبيات الحماسة نفسها – وربما كانت هذه الخصيصة – الوحدة الموضوعية – هى التى جعلت المرزوقى يخالف فى كثير من الأحيان « الطريقة الأخفشية » فى الشرح تلك التى تتناول شرح القصيدة بيتاً بيتا . لقد وجد المرزوقى أن بعض المقطوعات ، لا يمكن أن تفهم فى ضوء شرحه بهذه الطريقة ، فكان أن حافظ على وحدتها الموضوعية التى تنشأ من الجمع بين الأبيات ، تبعاً لترابط المعنى وتكامله ، فجمع البيتين أو الثلاثة معاً ثم شرح الأبيات جملة واحدة(٢) .

---

(١) أنظر على سبيل المثال ١-٣٩٤ ، ٢-٥٣٦ ، ٢-٦٢٧ .

(٢) أنظر مثلا حماسية الصلتان العبدى حيث جمع الأبيات ١ – ٣ معاً ، ٤ – ٥ معاً ، ٦ – ٨ معاً .

ومقطوعة حرقة بنت النعمان جمع أبياتها معاً .

ومقطوعة رجل من الفزاريين جمع الأبيات ١ – ٣ معاً ، ٤ – ٥ معاً .

ومقطوعة العباس بن مرداس جمع ١ – ٢ معاً ، ٣ – ٥ معاً ، ٦ – ٨ معاً .

٢ ـ وسمة بارزة فى شرحه وهى حرصه على تحديد موضوع الحماسية أو المقطوعة ومقصودها أولا، ثم مضمون أبياتها بيتاً بيتا ، قبل عرض شرحها وتحليلها ..

كأن يقول مثلا عن الحماسية « ٨٣ »(١) :

« وهذا كلام من نظر لنفسه وغيره ، وتبين ما عليه له ، فأثبت ما أثبت فى أحسن معرض ، ودفع بألطف تعريض » .

ويقول عن الحماسية « ٩٠ »(٢) :

« وهذا الكلام اعتراف بالحب ، وتسويغ لحنين الناقة ، وإن كره التذكير الحاصل منه ، والشجو المنتتج عنه » .

٣ ـ وخصيصة أخرى هامة فى شرحه ـ وهى تحديده لمصادره سواء الكتابية أو السماعية .

فقد وجدنا ـ بين ثنايا شروحه ـ نصوصاً تفيد حقيقة ، أنه إطلع على مجموعة ضخمة من المصادر الهامة .

من هذه المصادر « **كتاب العين** » .. ففى شرحه لأحد أبيات الحماسية(٦) قال :

« وقد قيل الجثمان إنه لشخص ، والجسمان الجسم ، هكذا قال الأصمعى والشخص إنما يستعمل فى بدن الإنسان إذا كان قائماً ، والخليل ذكر فى العين أن الجثمان والجسمان بمعنى واحد »(٣) .

ومنها « **كتاب سيبويه** »(٤) .. ذكره بعد أن شرح البيت الثامن من الحماسية « ١٢ » قال :

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٧٩ .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٩٥ .

(٣) شرح الحماسة ٥٢١:٣ ، وانظر كذلك ١-١٢٨ ، ٣-١٣٣٢ ، ١٣٤٧ .

(٤) شرح الحماسة ١-٩١ .

« وهذا من أبيات كتاب سيبويه ، واحتج به بقوله (طى المحمل) وأراد بالمحمل حمائل السيف :

ما إنْ يَمَسُّ الأرض إلا جانب

ومنهو حَرْف الساق طىّ المَحْمَل(١)

ومنها « كتاب النوادر » لإبن الأعرابى .. ذكره بعد أن شرح بيت بشامة النهشلى قال (٢): « ... وأنشد ابن الأعرابى فى نوادره .. » .

ومن هذه المصادر التى ذكرها المرزوقى أثناء شرحه :

كتاب الكامل للمبرد(٣) ، وكتاب الترجمان لأبى عبد الله المفجع(٤) ، وكتاب العقفة للمدائنى(٥) ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت(٦) ، وكتاب الأمثال للأصمعى(٧) ، وكتاب مجاوبات قريش(٨) وغير ذلك ..

كما وجدنا تحديداً لمصادره السماعية ...

مثل سماعه لابن العميد(٩) .

وسماعه لحمزة الأصبهانى(١٠) .

وسماعه لأبى على الفارسى (١١) .

---

(١) أنظر كتاب سيبويه ١-١٨٠ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٠٦ .

(٣) شرح الحماسة ٢-٧٨٤ .

(٤) شرح الحماسة ٣-١٢١٩ .

(٥) المرجع السابق ٤-١٨٢٥ .

(٦) المرجع نفسه ٤-١٨٦٩ .

(٧) المرجع نفسه ١-١٥٥ .

(٨) المرجع نفسه ١-٢٣١ .

(٩) المرجع نفسه ٢-٩٩٦ .

(١١) شرح الحماسة ١-١٦٢ ، ٤٠٦ ، وشرح المفضليات ورقة رقم ٥ .

(١٢) شرح الحماسة ١-٣٦٤ ، ١-٣٩٩ ومواطن أخرى كثيرة . أنظر فهرس الأعلام .

أما مصادره فى توثيق الشعر وتدعيم الشرح فيمكن تقسيمها إلى :

(أ) **مصادر المادة الفنية** : أقصد مادة الشعر ، ومصادره هنا كثيرة .. فديوان الحماسة مثلا .. يبدو أنه إطلع على كل ماكتب عنه ، وتزخر شروحه بإعترافه بهذا الإطلاع .. من مثل قوله :

« هذا وقد رجعنا إلى نسخ مختلفات المصادر »(١) .

وقوله « ورأيت فى بعض النسخ ... »(٢

وقوله « وهذا البيت لم أجده فى نسخ كثيرة .. »(٣) .

هذا بالإضافة إلى اطلاعه على دواوين الشعراء على إختلاف عصورهم ، وإطلاعه على كل التراث التفسيرى الذى كتب عنها ، وهذا واضح جلى بين شروحه ، خاصة حين يرد على الشراح الآخرين أو ينقدهم .

(ب) **المصادر التى اعتمد عليها فى تصويب الشعر** :

وأعلاها القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، ودواوين الشعراء وكتب الأمثال ، ومعجمات اللغة ، وكتب النحو ، وموسوعات الأدب ..

(ج) **آراء وروايات لطائفة كبيرة من العلماء** : من اللغويين والنحاة والرواة ، من القرن الثانى الهجرى حتى أوائل الخامس .. وقد قمت بحصرهم وهم : من القرن الثانى : أبو عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، والخليل ، وسيبويه

ومن القرن الثالث : الفراء ، وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو زيد الأنصارى ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وأبو عبيد القاسم ، وابن الأعرابى ، وابن السكّيت وأبو عثمان المازنى ، وأبو حاتم السجستانى ، وأبو سعيد السكرى ، والمبرد ، وثعلب ، والمفضل بن سلمة ..

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٥٦ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٧٩ .

(٣) شرح الحماسة ١-١٤٥ .

ومن القرن الرابع : أبو اسحاق الزجاج ، والأخفش الأصغر ، وأبو بكر ابن دريد ، وأبو بكر ابن الأنبارى ، وأبو جعفر النحاس ، وأبو عمر الزاهد، وأبو على القالى ، وابن جنى ، وحمزة بن الحسن الأصهانى ..

(د) نصوص نقلها من كتب بعينها ..

(وقد ذكرناها من قبل) .

٤ — ويرتبط بتحديد المصادر .. أمانته فى النقل منها .

فالمرزوقى بعد أن نقل ما ذكره أبو عبد الله المفجع فى كتابه قال : « هذا كلامه فى كتابه ، وقد حكيناه على ما أورده لا زيادة فيه ولانقصان وأظن أنه تذكرّ أبياتا غير هذه، ثم تصرف فى تفسيرها ، وذكر هذه الأبيات فى أثناء تفسير ما ذكره ولم يأت بها ، وقد أحسنت الظن مستطرفاً فعاله »(١) .

وكثيراً ما نقرأ له : « وهذا التفسير .. تفسير القدماء »(٢) .

أو : « وقال بعض المفسرين فى معناه »(٣) .

أو يقول بعد أن ينتهى من ذكر رأى من الآراء « وهذا قول فلان »(٤) .

على أن هنـــاك مجموعة من **السمات الذاتية** الواضحة فى منهجه .. أبرزهـــا :

١ — **التفرد بالآراء، والاستقلال فى التفكير والتعبير** ، ومحاولته الإتيان بما لم يسبق إليه أن تناوله فى الرواية أو فى الشرح ، وهو — من هذه الناحية — موفق فى مواضع كثيرة ، إلا أنه يسرف أحياناً ، ويأتى بوجه مخالف ، فيظن به الخطأ والتكلف(٥) .

---

(١) شرح الحماسة ٣-١٢٢٠ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ١-١٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ١-١٨٦ (حيث أورد رأياً لأبى عبيدة) .

(٥) الدليل على ذلك ما سبق أن قلناه عن موقفه من الحماسية الأولى .

٢ — **وضوح الطابع الجدلي المنطقي .. التحليلي** ، خاصة عند تفنيد مزاعم الشراح السابقين ، وتسفيه آرائهم ، ويظهر هذا الأمر أكثر ما يظهر ، حين يتعرض لابن جني (١) في الحماسة ، ويعرض به ، ويطعن في روايته وشرحه إن تلميحاً أو تصريحاً . (٢) .

٣ — وسمة أخرى - تتصل بما قبلها — وهي أنه حين يزمع التصدي لمناقشة الآراء المخالفة ، يذكر أولا وكاملا ما قاله الآخرون من آراء ، ثم يشرع في الرد عليهم قائلا : « **قال الشيخ** »(٣) **يقصد نفسه** .

٤ — **استغلاله للعامل النفسي** — لدى القارئ — حين يشركه معه في مناقشة القضايا والمشكلات عن طريق الحوار ، وتوجيه الكلام له(٤) .

أما خصائصه الأسلوبية .. فيكفي أن نعرف أن الرجل أديب ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، يمتاز أسلوبه التفسيري بالوضوح والقوة والجمال فسمة الوضوح تبرز عنده إرادة الإفهام ، وسمة القوة تظهر عند إرادة التأثير ، أما سمة الجمال ، فتلمع عندما يستعرض ذلك الأسلوب الأدبي بغية إمتاع القارئين .

استمع إلى قوله بلسان موسى بن جابر ، حين فسر بيته :

ذَهَبْتُمْ فَلُذْتُم بالأمير وقُلْتُمْ
تَرَكْنَا أحَادِيثاً ولَحْماً مُوَضَّعَا

« إلتجأتم إلى الأمير ، وقلتم تركنا قومنا يقولون ولا يفعلون ، وعند

---

(١) كما كان يتعرض للصولي فيما يتصل بشعر أبي تمام ، أنظر مقدمة الدكتور محمد عبده عزام على ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، وانظر ما كتبه السيد طاهر حيروني في بحثه الذي حصل به على درجة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة ص ١٦٦ ، وأنظر شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ١-٢٨٣ ، ١-٢٨٥ .

(٢) أنظر شرح الحماسة ١-٦٤ ، ٨٢ ، ١٥٨ ، ١٩١ ، ٤٥٨ .

(٣) أنظر على سبيل المثال : شرح الحماسة ١-٦٤ ، ١٥٨ .

(٤) أنظر المصدر نفسه ١-١١٨ .

تسلط الأعداء لا يمنعون منهم ولا يدافعون ، فهم كاللحم المُبضَّع على جوَان الجزار ، تمتد الأيدى على توضّعه إليه ، وتتعلق الأطماع بتناوله وأخذه »(١).

إن المرزوقى يهدف من وراء هذا الشرح .. نقل المعانى إلى أذهان متذوقى الفن ، والتأثير فى نفوسهم ، ثم إحساسهم بالمتعة الفنية ، واللذة الأدبية ، من جراء قراءة الشعر فى إطار من تفسيره ..

إن أهم ما يتصل بسمة الوضوح فى أسلوبه ، أنه كان يتخير الألفاظ التى تناسب الموضوع ، يتخير ما هو أدق فى التعبير عنه ، وما هو أسهل وصولا إلى الذهن والقلب والإحساس معاً .. لأنه عالم باللغة وخصائصها وسماتها وما تؤديه من معان .. كل ذلك جعل جمله وعباراته تتسلسل تسلسلا طبيعياً ومنطقياً ، بحيث توصله فى النهاية إلى هدفه .. الإمتاع والإفهام .

وأسلوب المرزوقى مشرق .. مملوء حياة .. هذا ما لمسناه حين يشرح فكرته ، ويدلل عليها ، كان يختار التعبير الرائق الذى يثير فى النفس ذكريات أو يوحى بخيالات تدعم المعنى ، وتثير الشعور ، ويبعث فى النفس أفكاراً تناسب الموضوع تأتى إلى الذهن من قبيل تداعى المعانى . كان يستعمل الكلمات القوية فى المعانى القوية ، والكلمات الرقيقة فى المعانى العاطفية ..

استمع إلى قوله بلسان شأس بن نهان ، حين فسر بيته :

صَحَا عَنْ تَصَابيه الفُؤادُ المُشَوَّق

وحَانَ من الحىِّ الجميـع تَفَـرُّقُ

« أفاق قلبى من غِرَّة التبطل وإتباع الهوى والتَّضَلّل ، وقد قَرُب التفرق بين المجتمعين ، والتباعد من المتقاربَيْن لما دَهمهم من الحال ، ودَعاهم إليه واجب الترحال »(٢) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٢٧٣ .

(٢) شرح المفضليات ص ٨٨٩ (ملحق بشرح المفضليات للأنبارى) وأنظر ٣-١١٠٨ ، مقطوعة المقنع الكندى ، ٣-١٢٠٩ مقطوعة الصلتان العبدى وانظر شروحه على باب الأدب .

ويظهر فى أسلوبه قوة تأثره بعلوم البلاغة وألوانها وظلالها اللفظية والمعنوية وقوة عاطفته ، ورقة إحساسه بالمعانى الشعرية ، كل ذلك أكسب أسلوبه وضوحاً وقوة ، وجعل ذاتيته واضحة ، لأنه كان يؤمن بما يقول .

ولأن المرزوقى كان يلتفت كثيراً إلى تجميل أسلوبه .. فقد كان يتجنب الكلمات الثقيلة على السمع ، الثقيلة على النطق .. ويتجنب التكرار حتى لا يثير الملل ، لذلك فتيار أسلوبه دائم التدفق ، بالأساليب الجميلة ، والمعانى الرقيقة ، وكل ذلك جعل شرحه قريباً من أذهان وأفهام قارئيه ، لما يحس المرء به من متعة ذهنية وفنية ، فإذا عرفنا أنه كان يدعم أسلوبه بمجموعة من الصفات الإيجابية مثل مطابقة الصوت للمعنى ، وتناسب أجزاء الكلام ، وتقطيع الجمل وتقابلها ، وإستيفاء معانيها إلى غير ذلك .. أدركنا أن الرجل فنان حساس ، يُعينُهُ ذوق أدبى رفيع ، نماه كثرة الإطلاع ، وتذوق فنون الأدب ، والتضلع فى علوم البلاغة .. فخرجت عباراته التفسيرية ، جزلة ، رصينة ، قوية ، جلية الأفكار .

والمرزوقى تارة يسجع تمشياً مع التيار الأدبى المتدفق فى عصره(١) .. من مثل قوله فى تفسير بيت موسى بن جابر :

وما خَيْرُ مَالٍ لا يَقِي الذَّمَّ رَبَّهُ
ونَفْس امرىءٍ فى حَقِّها لا يهينُها

(١) يقول فك : (العربية ص ١٥١) عن التأنق فى الأسلوب فى عصر الرجل : (.. كذلك وجد مثل الجمال الأعلى فى الكلام المنثور أعلى درجات كماله فى النثر الفنى ، الذى يصور السجع فيه النقاط الثابتة الهادئة محفوفة بالترصعات وتساوق الألحان ، واللعب بالألفاظ ، وفواصل الكلام وأجزائه المختلفة ، ولهذا علت كلمة النثر المسجوع تدريجياً على الرغم من كل الشبه والمعارضات الدينية وانعقد له إكليل النصر فى كافة العالم الإسلامى فى القرن الرابع ، ومن ذلك العهد لم يتنازل عن السجع كتاب نثرى يريد أن يدعى بحق من الأسلوب الفنى ، وبهذا صار التعبير اللاشعورى الذى كان يوحى به التأثير النفسى العميق ، تعبيراً إرادياً محضاً تصوغه الصنعة والفن الرفيع ، وهنا كان الأدباء خصيبو الذهن الذين ملكوا زمام نثرهم ، وحذقوا صنعتهم ، يصقلون ويقومون ثقاف السجع لنثرهم من تعمد وقصد) . وانظر ما كتبه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عن هذا الموضوع فى كتابه العصر العباسى الثانى ، ص ٥٦١ .

« يقول (الشاعر) : أى خير فى مال لا يصون صاحبه من ذم وعار ولا يحميه من لحوق تهجين وشنار ؟ وأى شىء غناء نفس لا يبتذلها صاحبها فى إستيفاء حقوقها ولا يتعبها فى الدفاع دون حقائقها .. ؟ »(١) .

وتارة أخرى لا يسجع ، وإنما يأتى بعبارات متوازنة متقابلة .

من مثل قوله فى تفسير بيت عروة :

يَنَامُ عِشَاءً ثم يُصْبِحُ نَاعِساً
يَحُتُّ الحَصَى عن جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ

« يقول (الشاعر) : ينام هذا الصعلوك لدناءة همته ، وقماءة معيشته ، وإستيلاء الكسل عن نفسه ومكسبه قُبُل الليل ، لأن همته فى راحته ونومه ، وحرصه على ما يَسُدُّ جوعته به ، ثم يأتى الصباح عليه وهو ناعس بَعْدُ ، غير قاضٍ حاجته من الرُّقاد ، ولا ضجر فى مضجعه بالتساقط والإنجدال ، ينفى عن جنبه ما لصق به من الحصَى والتراب ، ونَشِبَ فيه من دقاق الحصى .. وذلك لأنه نام بلا وِطاءٍ »(٢) .

ويكثر فى كتاباته التفسيرية إستخدام الجمل الإعتراضية .

من مثل قوله فى تفسير قول عروة كذلك :

يَعُدُّ الغِنَى من نَفْسِهِ كلَّ لَيْلَةٍ
أصَابَ قِرَاهَا من صَدِيقٍ مُيَسَّرِ

« يقول (الشاعر) : لِفَرَحِه بما يناله من كسبه الدَّنِىّ ، ورضاه عن أيامه بعيشه اللئيم يَعُدُّ — إذا أصاب القِرى لَدَى صديق وَلَدت له شياهٌ فاتسعَ اللَّبَنُ عنده وفى رَحْلِهِ — الغنى مَحُوزاً له ، ومحصَّلاً عنده ، فلا غضاضة تلحقه ، ولا أنفة تقبضه »(٣) .

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٧٢ وانظر شرح البيتين ٢ ، ٣ من الحماسية ١٠٨ (١-٢٢١) .
(٢) شرح الحماسة ١-٤٢٢ .
(٣) شرح الحماسة ١-٤٢٢ .

كما يكثر فى كتاباته التفاصح(١) ، واستخدام كلمات القرآن الكريم ، وبعض من آيه .

وسمة هامة فى أسلوب الرجل – فى شرحه – وهى الإسهاب ، يعرض المعنى بأكثر من صورة ، ولكن ذلك لا يخل أو يمل ، فعبارته متصلة قوية ، تبين فى وضوح مدى ما يتمتع به الرجل من ثقافة من ناحية ، وطول نَفَسٍ من ناحية أخرى ، خاصة حين يقلب المعانى تقليباً ، مستعرضاً ما يحتمل منها وما يجوز ، أو حين يضع الزيادات اللازمة للمعنى (٢) .

وسمة أخرى هامة فى أسلوبه .. أنه أسلوب الأساتذة المعلمين ، يستخدم فيه أسلوب الخطاب ، يوجه به قارئيه وسامعيه ، كأن يقول :

« وهذا الكلام يجرى منه مجرى الإعتذار فاعلمه »(٣) .

أو يقول : « ألا ترى ... »(٤) .

« وهذا كما تقول ... » . « الأفضل كذا .. » ، « لأنك إذا جعلتها »(٥)

« فاعرف فرق ما بين الموضعين »(٦) .

إلى آخر مثل هذه التعبيرات التى يشرك بها قارئيه معه ، مما يجذبهم – فى قوة – نحوه لمتابعته ، وكأن التأثير الجمالى لأسلوبه لا يكفى ، فيقيم بينه وبينهم مثل هذا الحوار ليستحوذ به على قلوبهم قبل أذهانهم . لكل ذلك – كما قلنا – وصفوه بأنه « عالم بالأدباء »(٧) و« أحد علماء وقته فى الأدب »(٨)

---

(١) قالوا : (إنه يتفاصح فى تصاريفه كابن جنى) معجم الأدباء ٥-٣٤ .

(٢) أنظر على سبيل المثال ، شرح الحماسة ١-٤٦ ، ٤٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦

(٣) شرح الحماسة ١-٤٥ ، ٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٧ .

(٤) شرح الحماسة ١-٥٥ .

(٥) شرح الحماسة ١-٦٥ .

(٦) شرح الحماسة ١-٦١ .

(٧) الأعلام ١-٢٠٥ .

(٨) معجم الأدباء ٥-٣٤ ؛ أنباه الرواه ١-١٠٦ .

(شـــواهده)

وشواهد المرزوقى كثيرة متنوعة .. الشاهد عنده عامل من عوامل توضيح المعنى وتحديد اللغة ، ولقد وضح لنا من دراسة شروح الرجل أن أكثر ما يستشهد به هو الشعر والأرجاز ، ويليه القرآن ثم الحديث فالأمثال ، ثم القراءات ...

والظاهرة التى تلفت إليها النظر حقاً — أن المرزوقى لم يكتف بأشعار الطبقتين اللتين حددهما العلماء(١) ، بل توسع فى شواهده ، توسعاً كبيراً ، فنرى بين شواهده أشعاراً للمحدثين ، الذين لا يحتج بشعرهم ، فقد استشهد بشعر لبشار ، وأبى نواس ، وأبى تمام ، والبحترى ، وابن هرمة ، وأشجع السلمى ، ومسلم بن الوليد .. والمتنبى وغيرهم(٢) . وهو بذلك يخصهم بالثقة ويوسع دائرة استشهاده بضمهم إلى الشعراء المعتمدين ..

وهو لا يقصر شواهده الشعرية على الشعر وحده ، بل لقد استشهد بالأرجاز واتخذ منها مصدراً هاما من مصادره اللغوية ، فقد استشهد بأرجاز لكل من رؤبة ، والعجاج ، وحميد الأرقط ، والأعرج المعنى ، وسحيم ابن وثيل ، والعديل بن الفرخ ، ومجموعة كبيرة من الأعراب(٣) .

أما شواهده القرآنية .. فهى كثيرة كثيرة ، حتى ليصعب حصرها ، وهى تدل على فهمه العميق ، وحفظه الدقيق ، لكل ما جاء فى كتاب الله من معان(٤) . ولقد رأيناه يربط دائماً بين معانى الشعر وألفاظه ، ومعانى القرآن وألفاظه ، ويلتفت إلى تفسيرات مفسرى القرآن ، ويناقشها ، وهو

---

(١) أنظر ما ذكره البغدادى فى خزانته عن طبقات الشعراء الذين يحتج بشعرهم ١-٣وما بعدها.

(٢) أنظر فهرس الأشعار الشواهد ٤-١٩٢٨ وما بعدها .

(٣) أنظر فهرس الأرجاز الشواهد ٤-١٩٨٢ وما بعدها .

(٤) أنظر أمثله من تفسير المرزوقى للقرآن الكريم فى كتابه الأزمنة والأمكنة ص ٢٣ وبعدها وأنظر على سبيل المثال شرح الحماسة ٢-٤٢٤ ، وانظر ما سبق أن قلمناه من ربطه بين معانى الشعر ومعانى القرآن .

لا يكتفى بشاهد واحد ، بل يفرع الأمر ويدلل عليه بالكثير من الشواهد التى توضح وجهة نظره ومفهومه .

ويتصل بالشواهد القرآنية ، ماجاء عنه من إلتفات إلى القراءات وأنواعها(١) وهو بذلك يكون أحد العلماء الذين جعلوا من السماع مصدراً هاما فى الإستشهاد تماماً كما فعل أستاذه أبو على الفارسى (٢) .

وأما الحديث النبوى الشريف — فإنه يتمثل به كثيراً ، إستضاءة وهدى ، فى الأمور المعنوية ، لا لغرض إستنباط القواعد ، وإنما للإستئناس به لفظاً ومعنى (٣) :

وأما الأمثال(٤) فهى كثيرة جداً ، كان يستشهد بها فى بعض الأمور التى تتصل بالمعنى (٥) من ناحية ، أو بأحداث التاريخ من ناحية أخرى(٦) من مثل قوله :

« يقولون : (مَنْ لم تقوِّمه الكرامة قوَّمته الإهانة) »(٧) .

« وكما قيل : (لا يفل الحديد إلا الحديد »(٨) .

« وفى المثل : (إلى أمِّه يلهف اللّهفان) »(٩) .

« والمثل السائر يقول ... ... »(١٠) .

وكثيراً ما يذكر المرزوقى العلاقة التى تربط الشعر بالأمثال السائرة(١١) ،

---

(١) شرح الحماسة ١-٧٩ .

(٢) أنظر ترجمته فى كتاب المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٣) أنظر على سبيل المثال شرح الحماسة ١-٦٢ ، ١-٤٢٥ ، ١-٣٨٧ .

(٤) أنظر فهرس الأمثال ٤-٢٠٦٦ .

(٥) شرح الحماسة ٢-١٤٨ .

(٦) شرح الحماسة ١-١٥٦ .

(٧) شرح الحماسة ١-٣٨ .

(٨) شرح الحماسة ١-٤٣ .

(٩) شرح الحماسة ١-٤٤ .

(١٠) شرح الحماسة ١-٨٣ .

(١١) شرح الحماسة ١-١٧٧ .

وأحياناً يلتفت إلى ما جاء فى الشعر نفسه من أمثال ، من مثل قوله عن بيت الشاعر :

وللقَارِحِ اليَعْبُوبُ خَيْرٌ عُلاَلَةً
من الجذع المُرْخى وأبْعَدُ مَنْزَعَا

« هذا مثل ضربه فى تفضيل نفسه ... »(١) .

بقيت كلمة ..

إن أمانة البحث تحتم على الباحث حين يدرس شخصية ما ، أن يقول ما لها وما عليها ، أمَّا ما للمرزوقى فقد قلناه .. وأما ما عليه فقد آن أوانه .

حقيقة لقد أسعدنا الرجل وأمتعنا ، طيلة المدة التى عايشناه فيها وهى مدة طويلة — رأيناه وقد شمل شروحه بكل عناية ، وحقق لها ما لم يحققه غيره من سابقيه أو لاحقيه .. من مقومات النجاح والكمال ، لولا بعض الأمور التى لو تداركها لكان لعمله هذا شأن أكبر ، وقيمة أعلى .. لقد فات المرزوقى أشياء وتصرف فى أشياء .. ووقع فى بعض الهنات ..

١ — فات المرزوقى الإهتمام بأحداث التاريخ ، وهو عنصر هام مكمل لأحداث الشعر ، موضح لوقائعه ، فالأحداث التاريخية تأتى عنده مقتضبة باهتة(٢) .

٢ — فاته كذلك أن يتناول المناسبات التى قيل فيها الشعر ، أو الدوافع المثيرة لقرائح الشعراء ، فأما إذا كان الأمر يحتم عليه الإشارة إلى المناسبة ، ذكر ذلك بإختصار يبهم الأمر ولا يوضحه(٣) . وأما إذا ارتبط موضوع

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٢٢ (يتحدث عن شيخوخته وقد أدبه الكبر فيقول : « للفرس المتناهى فى القوة والسن ، الذى يجرى جرية الماء سهولة ونفاذاً خير إبقاء وأبعده غاية من ابن سنتين وهو مهمل لم يستغن به فى ركوب ونزول . واليعبوب الفرس كثير الجرى ، والعلالة : البقية من الجرى) .

(٢) أنظر مثلا ١-٢٠٣ .

(٣) أنظر : ١-٨٩ ، ١-١٢٤ .

الشعر بقصة معروفة ، أشار إليها دون أن يذكرها ، إيماناً منه بأن الكل يعرفها(١) .

لكل ذلك فات المرزوقى الكثير من أخبار الشعر ومناسباته ، وتفاصيل أحداثه ، أضف إلى ذلك موضوعاً هاماً — فى رأيى — وهو التعريف بالشعراء وأنسابهم ، وتحديد أسمائهم وعصورهم ، وذكر اشتقاق ما قد يكون غريباً من أسمائهم .. كل ذلك أهمله المرزوقى فأخبار الشعر ، وإشتقاق أسماء الشعراء هما الميزتان اللتان إمتاز بهما عالم آخر ، جاء بعده وهو التبريزى .. رغم أنه ناقل عنه ، منتخب لمعظم آرائه وأقواله ، مستعير لأسلوبه .. فقد أفاد التبريزى — فى الناحية الأولى — من شرح أبى رياش للحماسة ، وفى الناحية الثانية — من شرح أبى هلال العسكرى ، ومن المبهج لإبن جنى(٢) ، وجميعهم معاصرون له ، قريبو العهد به ، ولكن حب التفرد ، والإعتزاز بالنفس ، والثقة فى العلم والثقافة ، والاستقلال فى الرأى والتفكير .. كل ذلك دفعه لأن يتناول الموضوعات التى وجد أنها — فى رأيه — أكثر إفادة ، وأجدى بالمعرفة وهى اللغة والنحو والبلاغة والنقد .

٣ — وفات المرزوقى الإهتمام بتحديد الأوزان .. والإهتمام بموسيقى الشعر — داخلية كانت أم خارجية — فلم نجد عنده إلا تفسيرات قليلة تتعلق بعيوب الشعر ، مثل الإقواء وغيره ، وإن كان يبرز أنها ليست عيوباً ولكنها ضرورات شعرية(٣) .

٤ — وفات المرزوقى — كذلك — الإشارة إلى المواضع أو البلاد أو الأمم الغابرة ، إلا فى القليل النادر (٤) .

بيد أننا نقول الحق — إن هذه الأمور جميعاً ، وإن كانت وجوه ضَعْف —

---

(١) أنظر ١-٨٥ .

(٢) أنظر مقدمة التحقيق على الحماسة .

(٣) أنظر الصفحات ١-٤٤ ، ١-٣٢٩ ، ٢-٨١٨ ، ٨٢٠ .

(٤) انظر على سبيل المثال ١-١٧٠ .

فى شرحه – فإنها تتفق مع منهجه ، الذى يتوخى فيه توصيل المعنى ، ويتفق مع التوازن ، والاعتدال ، وعدم التشعب فى الموضوعات ، وهو الخط الذى رسمه لتحقيق هدفه ، ذلك أن الغاية الأولى والهامة عنده .. شرح الشعر ، وتوصيل معناه ، حسبما تدل عليه اللغة ، وأن كل ما هو خارج عن اللغة يمكن تناوله فى مصادره الأصلية ، فالأنساب لها كتبها ، والتاريخ له كتبه ، والبلدان لها معاجمها .. لذلك لم تدفعه الإشارات الواردة فى الشعر – عن التاريخ والجغرافيا والأنساب – إلى الخوض فى غمارها ، وتركها لأصولها ومراجعها الضخمة التى كانت تملأ الزمان .

ووقع المرزوقى فى بعض الهنات ..

أولها .. أنه أخضع الشرح للعامل النفسى والمزاجى ، فإذا أعجبه نص ، جال وصال وظل يدور حوله ذاكراً أشياء كثيرة وطويلة .. أما إذا لم يعجبه ، فقلما يعره إلتفاتاً وأحيانا لا يفسره(١) وكان يجب عليه أن يتجرد من أهوائه وعواطفه – أمام النص – وأن يكون محايداً ، لأنه عالم .. والعلم يجب أن ينظر إليه بعيداً عن الأهواء .

وثانيها .. شىء آخر يعيبه ، وهو الإستهانة بالعلماء ، ومحاولته تحقيرهم وتسفيه آرائهم ، إرضاءً لنزعة المعارضة عنده ، وكان يجب أن يفهم أن لكل رأيه ، ووجهة نظره ، فما كان يصح منه أن يحمل عليهم مثل هذه الحملات النكراء ، فيقرعهم بعنف ، ويصفعهم بقسوة .. مما يتنافى مع خلق العلماء .

لقد وصل به الأمر – فى شرح الحماسة – إلى تجاهل ابن جنى كلية ، وعدم التصريح بإسمه ، إحتقاراً وإستضعافاً ، وكأنه لا يرى له مكاناً .. مع أن ابن جنى من كبار العلماء ، الذين لهم أياد بيضاء على العلم والعلماء ، تشهد بذلك المكتبة العربية ، وما كان يصح أن يقف منه أو من غيره – كالصولى – مثل هذه المواقف ، فقد وجدنا أن عبارة « وقال بعضهم » تكاد تكون مقصورة على ابن جنى وحده ، كما أنه لا يذكرها إلا فى مقام

---

(١) أنظر على سبيل المثال ١-١٨٢ ، ١-١٩٢ .

الإعتراض .. لتكون بداية للتجريح والطعن ، مع أنه لو كان قد ترك مثل هذه النقائص — وتعمق فى النظر فى مصنفات ابن جنى وآرائه ، لاستفاد منه إستفادة كبيرة ، خاصة فى تحديد الأعلام وإشتقاق أسمائهم .

وثالثها .. وقع المرزوقى كذلك ، فى هاوية الإسراف المفرط ، إن تحليلا أو تأويلا ، تبريراً لروايته وشرحه . مع أن الأمر كان لا يحتاج إلى مثل هذا الجهد وهذا التكلف . إن هذا الإسراف ، جعل البعض يلمزونه ، ويعيبون عليه تعنته ، مع ما قد يجره عليه هذا الإسراف من الخطأ .. أضف إلى ذلك أنه فى كثير من الأحيان — مع هذا الإسراف فى التحليل — ومحاولة إثبات الرأى ، كان لا يصدر رأياً قاطعاً ، بل دائماً يجوز الآراء والمعانى(١) .

ورابعها .. والمرزوقى مع فهمه الجيد للشعر ، وقع أكثر من مرة فى الشطط بسبب تعسفه فى فرض آرائه ، فذكر معانى لا تتصل بقول الشاعر ، ولا يستسيغها العقل ، ولا يقبلها الذوق .. من ذلك قول الشاعر :

وَبَدَتْ لَمِيسُ كأَنَّهَا ... بَدْرُ السَّمَاءِ إذَا تَبَدَّى

فهو يذكر وجه حبيبته الذى لاح له وكأنه بدر الدجى ، ينير له المكان ، ويلقى ظلاله الحميلة على جو المعركة ، فيشيع فى نفسه البهجة ، وفى عزيمته القوة .. أنظر كيف فسره المرزوقى :

قال : (برزت هذه المرأة كاشفة عن وجهها ، سافرة ، كأنها قد أرسلت نقابها . ودل على هذا بقوله : (كأنها بدر السماء إذا تبدّى) ، وإنما فعلت كذلك لأحد وجهين : إما للتشبه بالإماء حتى تأمن السباء ، أو لما تداخلها من الرعب(٢) .

فلا شك أن هذا التفسير وَهْمٌ وشَطَطٌ من المرزوقى نفسه ، وهو الأديب العالم الذى له من الصولات الأدبية والجولات العلمية ما ليس لغيره .

---

(١) انظر على سبيل المثال ١-١٢٠ .

(٢) شرح الحماسة ٢-٧٦٤ وانظر هامش الصفحة ذاتها .

وخامسها .. التسرع أيضاً – كان يوقع المرزوقى فى أخطاء أخرى شكلية إلى جانب الموضوعية .. ففى شرحه لمقطوعة الشاعرة حرقة بنت النعمان .. ورغم حرصه على ذكرها فى صدر الشرح نسى أن يحول كلامه بما يناسب الأنثى ، واعتبرها رجلا فقال فى شرح مقطوعتها « وقوله .. كأنه قال »(١) .

هذا هو المنهج الإبداعى فى شرح الشعر – كما فهمناه – وكما مثّله المرزوقى شرح أدبى فنى تذوقى ، شرح يربط بين الشاعر والقارىء ، بل والشارح أيضاً فى نطاق من المعايشة والمكابدة ، شرح يجعل القارىء يعيش تجارب الشاعر ، ويمس أحاسيسه ، لذلك كان شرحه أقرب الشروح إلى نفس القارئين والسامعين لما يتسم به من فنية التوضيح ، وعمق التحليل ، ولا شك أن مرجع ذلك كله هو الطبع الموهوب ، والأدب المكسوب ، ثم الرغبة الشديدة فى المعرفة ، والحرص على الاطلاع الواسع والعميق على غُرَر الشعر ، وعيون النثر .. ولهذا قلنا أن المرزوقى صاحب المنهج الإبداعى الفنى فى شرح الشعر .

ولسنا ندعى أنه كان وحيد زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، ولكننا نستطيع أن نزعم ، أننا لم نجد فيما وصل إلينا من شروح فنية ، من طغى عليه ، أو زحزحه من مكانه ، أو من تفوق عليه فيه ، لذلك برز فى هذا المجال وتجلى وظهرت عبقريته فى العرض والسرد ، والتحليل والتفسير ، فكان هو النموذج الأوحد المعبر عن هذا المنهج الإبداعى ، القائم أساساً على الدراية وإعمال العقل واعترف الجميع بفضله بوصفه « الإمام المحقق ، الهمام المدقق ، أسوه الأدباء وقدوة العلماء »(٢) .

---

(١) شرح الحماسة ٣ : ١٢٠٣ .

(٢) الأزمنة والأمكنة ، ص ٣٩٤ .

الفصل الثالث

المنهج الإنتخابى التهذيبى

تقديم :

فى الفصل الأول — من هذا الباب — تحدثنا عن المنهج الإلتزامى النقلى ، بوصفه أول المناهج العلمية فى الشروح ، وحددنا خصائصه ، ودرسنا عناصره وعرفنا مدى تمسك الإلتزاميين المحافظين — أتباعه — بكل ما جاء عن الأساتذة الأوائل ، تدويناً وسماعاً ، رواية وشرحاً ، وقدكان ابن السكيت — فى رأينا — خير ممثل لعلماء هذا المنهج التقليدى فى شرح الشعر .

وفى الفصل الثانى ، تحدثنا عن المنهج الإبداعى الفنى ، بوصفه أرقى ما وصل إليه علم الشروح من مناهج تفسيرية ، تعتمد على إعمال العقل ، وكد الفكر ، فى سبيل توضيح المعنى ، ورأينا كيف كان المجددون المجتهدون — أتباع هذا المنهج — يفسرون النص الشعرى حسب فهمهم ورؤيتهم الجديدة المكتسبة من سعة الثقافة ، وحرية الرأى والتعبير ، ويؤولون معانيه تأويلات فنية عديدة ، ويلونونها بألوان زاهية من أجل إمتاع القارئين ،وإفادة الدارسين وقدكان المرزوقى — بحق — زعيماً لهذا المنهج التجديدى فى شرح الشعر .

وفى الحقيقة ، لقدكان هذا المنهج ، آخر ما وصلت إليه حركة الشروح الأدبية من تطور وضع فيه علماؤه عصارة فكرهم ،وخلاصة علمهم وإطلاعهم وجل خبرتهم وثقافتهم ، فى سبيل الكشف عن كل عناصر النص الشعرى ووصلوا بذلك إلى الذروة الفنية من حيث الكمال والجمال ، وأصبح كل علم بين أيديهم وأذهانهم مدروساً محللا ، مشروحاً مذللا .

كان ذلك — كما درسنا — فى أخريات القرن الرابع ، وأوائل القرن

الخامس ، والواضح أن عجلة الإبداع فى العلوم والفنون قد توقفت بعد علماء هذه الفترة ، فلم يتركوا شيئاً يمكن أى يقال ، أو يناقش ، أو يفسر ، كل الأمور طرحت فى مجال البحث والدرس والاجتهاد .

ففى الأدب – مثلا – توقف الشعراء عن الإبداع ، وأصبح ما يقولونه لا يتعدى الموضوعات القديمة ، والمعانى المتداولة ، يحاولون صياغتها من جديد ، كذلك النقد ، توقفت عجلته ، وكأنما العقول أجدبت ، ولم يعد هناك سوى الأفكار القديمة ، والآراء الموروثة المعروفة ، يطرحونها ويدورون حولها من جديد ، حتى لقد عُدّ القرن الخامس فى نظر كثير من العلماء والباحثين مقدمة لعصر الجمود(١) ، « حيث كان الشعراء يعيدون المعانى التى سبقهم إليها شعراء القرن الثالث وما سبقه من قرون ، ولاحظ النقاد ذلك فكتبوا أبحاثاً طويلة فى سرقاتهم ، ومع ذلك فقد كان شاعر القرن الرابع يحاول التجديد ، فهو يأخذ المعنى القديم ، ويعرضه بطريقة جديدة ، فيها لف ودوران ، وفيها فلسفة وصور من التعقيد .. ولا نمضى بعد القرن الرابع للهجرة ، حتى نجد النقد يجمد تبعاً لجمود الأدب ، فقد أصاب الآلة الذهنية التى تنتجه ضرب من العقم ، فلم تعد تنشأ مذاهب جديدة »(٢) .

وإذا كان هذا قد حدث للأدب والنقد ، وهما أبرز صور الحياة الثقافية والعلمية ، فإن ذلك هو ما حدث بالنسبة لحركة الشروح . فقد كان الشراح

---

(١) أكد هذه الحقيقة العلمية مجموعة من الأساتذة الكبار ، فى مقدمتهم أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف ، فى كتابه « النقد » ص ٩٦ . والدكتور محمد زغاول سلام ، حين أرخ للنقد جعل نهاية الحقبة الزمنية التى وقف عندها هى القرن الرابع .
(أنظر كتابه تاريخ النقد الأدبى حتى القرن الرابع الهجرى ص ٥ طبع دار المعارف سنة ١٩٧١) .
وقبله الدكتور طه أحمد إبراهيم ، حين عرض لملامح النقد ، وقف أيضا عند نهاية القرن الرابع الهجرى ، كذلك محاولة الدكتور محمد مندور – فى كتابه النقد المنهجى عند العرب – انتهت عند القرن الرابع . كما ذلك يوحى بأن توقف هؤلاء الباحثين عند القرن الرابع أو بدء الخامس كان نتيجة لإقتناعهم بان النقد الذى يستحق العناية والدرس لا يتعدى هذا التاريخ .

(٢) النقد : ص ٩٦ .

يبذلون جهوداً مضنية ليأتوا بشيء جديد ، غير مألوف ، غير معروف ، دون جدوى ، فلم يجدوا بداً من أن يعيدوا الشروح الماضية ، وإن كانوا قد تصرفوا فيها حتى يميزوا أنفسهم عمن سبقوهم ، فلم يستطيعوا الإستمرار ، كأنما توقفت القوة المحركة التى كانت تدفع العالم منهم إلى التجديد الطبيعى فى الشرح ، فلم يعد — فى مختلف نواحى النشاط الفكرى سوى التقليد والنقل طبق الأصل . حقيقة وُجِدَ شراحٌ يحاولون الإجتهاد ، لكنهم لم يستطيعوا أن يضيفوا جديداً يذكر ، أو يستحدثوا مناهج فنية تتناول شرح معانى الشعر ، بل شعروا كأن الشراح السابقين — وَضْعيِّين وإلتزاميِّين وإبْداعيِّين — قد استنفدوا كل ما يمكن أن يقال ، ولم يعد أمامهم إلا أن يعيدوا مقالتهم ، أو يكرروا شروحهم تكراراً مطابقاً لأصله ، فلم تقدم الشروح جديداً يذكر ، إنما هى ملاحظات وآراء وتفسيرات مأخوذة منقولة من التراث التفسيرى المتوارث عبر العصور سردوها أحيانا كما هى ، وأحيانا أخرى تصرفوا فيها بالتلخيص والتهذيب والتوفيق والتلفيق ، وهو تلخيص حسن .. ولكنه على كل حال تلخيص لا أكثر ولا أقل .

إن شراح الشعر فى القرن الخامس ، لم يجدوا لهم من عمل ، يرضون به أنفسهم ومعاصريهم ، إلا أن يضعوا شروح الشعر الجاهلى ، على اختلاف عصورها ، ومناهج شراحها ، أمام أعينهم ، وبين أيديهم ، يقلبونها ويتدارسونها ، ويتعقبون عناصرها ، لكنهم — كما قلت — لم يجدوا موضوعاً واحداً ، أو نصاً واحداً ، فات من سبقوهم من الملتزمين أو المبدعين ، فلم يكن منهم إلا أن استنوا سنة تميزهم عن السابقين ، واخترعوا منهجاً خاصاً أقاموه على محاولة التقريب بين عناصر الشرح المتباعدة ، والتوفيق بين عناصره المتنافرة ، والتلفيق بين مواده المتوافقة ، وتكميل كل منها من الآخر ، ثم إنتخاب أجمل ما فى هذه الشروح مجتمعة ، ووضعوا هذا المنتخب جنباً إلى جنب فى تآلف وتكامل ، فصارت الشروح بمنهجهم هذا مادة مختارة ، مُنَسَّقَة ، مُهَذَّبة ، مُتَكَامِلَة ، تجمع بين القديم الموغل فى القدم ، والحديث

القريب العهد ، تجمع بين منهج الإلتزاميين ، ومنهج الإبداعيين . هذا ما رأيناه عند أصحاب المنهج الإنتخابى التهذيبي التكميلى .

ولقد حفزهم إلى انتهاج هذا المنهج مجموعة من العوامل أهمها :

١ ــ شروق شمس المدارس النظامية فى الأمصار المختلفة ، وحاجة الدارسين فيها إلى منهج علمى يتناسب مع عقلياتهم من ناحية ، ويفى بالتزاماتهم من ناحية أخرى .

٢ ــ ضعف المستوى العلمى(١) ، بعد أن أنهكت قوى الدولة ، وضعف اللسان العربى ، وانتشر اللحن على الألسنة(٢) .

٣ ــ قلة المهتمين بالمسائل العربية العميقة وحدها(٣) .

٤ ــ حاجة القوم ــ يومئذ ــ إلى التسهيل والتقريب ، فى منهج شامل متكامل دون ما حاجة إلى الرجوع إلى المصادر أو أمهات الكتب .

فلم يكن هناك من بُدّ إلا أن يتوخى الشراح هذا المنهج .. وهنا يقابلنا زعيمهم ــ التبريزى ــ مؤسسه ، المخطط له والمنفذ .

وقبل أن نتحدث عن منهج الرجل .. نود أولا أن نتعرف عليه .

---

(١) فك : العربية ، ص ٢١٢ .

(٢) ونتيجة لذلك ألف الحريرى ــ معاصر التبريزى ــ كتابه « درة الغواص فى أوهام الخواص » أنظر المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٣) أنشئت المدارس النظامية ــ كما قلنا ــ من أجل خدمة الدولة أولا ، أنظر ما كتبه فك فى كتابه « العربية » ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

التــبريزى

(٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ)

اسمه ونسبه :

اتفق المترجمون له ـ جميعاً ـ على اسمه ونسبه ، فهو عندهم(١) : « يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن بِسطام ، الشيبانى ، التبريزى » لكنهم اختلفوا فى الطريقة التى أوردوا بها اسمه ، من حيث الطول أو القصر ، فمنهم من اكتفى بأن أورد اسمه واسم أبيه وجده(٢) ، ومنهم من أورد اسمه واسم أبيه وسلسلة أجداده حتى الجد الأكبر(٣) « بسطام » ، ومنهم من أضاف بعد جده الثانى « الحسن » جدين آخرين زيادة فى التحديد وأمانة البحث فقال(٤) : « يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بِسطام ».

أما نسبته .. فقد أجمعوا على أن التِّبريزى «نسبة إلى تِبْرِيز » أشهر مدن أذربيجان الإقليم الفارسى الخصيب .

وهم يكادون يجمعون على كنيته ولقبه ، فهو عندهم « أبو زكريا الخطيب التبريزى »(٥) . وإن يكن قلة من المترجمين ، وقعوا فى الوهم ، فزعموا أن للرجل كنية أخرى(٦) ، بيد أن جل كتب التراجم والتاريخ والأدب واللغة قد نصت على أن كنيته « أبو زكرياء » حتى لتستغنى أحياناً بذكرها(٧) عن ذكر اسمه ولقبه ، زيادة فى التخصيص والتحديد .

---

(١) الأنساب ص ١٠٣ ، النجوم الزاهرة ٥-١٩٧ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .

(٢) الأعلام ٩-١٩٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٥-١٩٧ ، الفلاكة والمفلوكون ص ٦٦.

(٤) معجم الأدباء ٢٠-٢٥ ، وبغية الوعاة ص ٤١٣ .

(٥) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٥-١٩٧ ، الفلاكة والمفلوكون ص ٦٦

(٦) منهم جورجى زيدان – حين ترجم للتبريزى فى تاريخ آداب اللغة (٣-٤٧) فذكره فى الفهرس (أبو بكر التبريزى) وإن كانت الترجمة تحمل كنيته الأصلية ، ثم تابعه بروكلمان ، حين ترجم له فقال (أبو) بكر (زكرياء) فكأنه جعل للتبريزى كنيتين ، وإن كانت المصادر التى اعتمدها فى ترجمة التبريزى ليس فيها نص أو إشارة إلى أن له هذه الكنية الثانية .

(٧) أنظر على سبيل المثال : شرح أدب الكاتب ص ١٩ ، ٣٩ ، ٤٨ ؛ والمعرب ص ٤١ ، ١٢٠ ، ٢٤٦ .

أما لقبه .. فيكاد ينعقد إجماع المترجمين على أن لقب التبريزى هو « الخطيب » إلا أن ياقوتاً الحموى حين ترجم له قال : « أبو زكريا ابن الخطيب التبريزى ، وربما يقال له الخطيب وهو وهم »(١) ، ووافقه على هذا الزعم القفطى(٢) ، وتابعهما السيوطى(٣) ، إستناداً إلى قول ياقوت .. ولكن الثابت علمياً (٤) ، كما جاء بخط التبريزى نفسه ، أن أبا زكرياء التبريزى كان يحمل لقب « الخطيب » وقد ذكره ياقوت نفسه بهذا اللقب ، حين ترجم له فى معجم البلدان(٥) . بيد أن ذلك لا يمنع أن يكون « الخطيب » لقباً لأبيه أيضاً ، فليس بغريب أن يكون التبريزى قد شارك أباه فى حمل هذا اللقب ، فى هذا العصر الذى كثر فيه من يحمل هذا اللقب(٦) .

مولده ونشأته :

ولد أبو زكرياء الخطيب فى تبريز سنة ٤٢١ هـ(٧) ، وبها نشأ(٨) كأبناء

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٢٥ .

(٢) أنباه الرواه ٤-٢٢ ، ط دار الكتب ، سنة ١٩٧٤ م .

(٣) بغية الوعاة ص ٤١٣ .

(٤) للدكتور فخر الدين قباوة محاولة قيمة فى إثبات ذلك . أنظر مقدمته على شرح الاختيارا وقد جاء فى مقدمة « شرح اختيارات المفضل » التى كتبها التبريزى بنفسه وبقلمه : « « شرح اختيارات المفضل بن محمد الضبى مما صنعه يحيى بن على الخطيب التبريزى » واختتمها بقوله : « آخر الكتاب مع الزيادات التى تقع فيه ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين ، وكتب يحيى بن على الخطيب التبريزى سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة السلام » .

(٥) معجم البلدان ٢-٣٦٢ ، وقال صاحب كتاب الأعلام (٩-١٩٧) وهو بخطه : «يحيى بن على الخطيب » .

(٦) مثل : الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) والخطيب الحصكفى (٥٥١ هـ) وأنظر : بغية الوعاة – الباب الأخير « باب فى الكنى والألقاب والنسب والإضافات ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٧) بغية الوعاة ص ٤١٤ ، والمختصر فى أخبار البشر ٢-٢٣٥ ، وفيات الأعيان ٥-٢٤٣ وانفرد ابن نقطة فى الاستدراك بقوله (ولد سنة ٤٢٠ هـ) أنظر معجم المؤلفين (١٣-٢١٤) لعمر رضا كحالة ، طبع مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٩٦١ م .

(٨) زعم صاحب معجم المؤلفين انه نشأ ببغداد (أنظر ١٣-٢١٤) وكذلك قال الزركلى فى الأعلام أنظر (٩-١٧٩) .

موطنه وعصره فى بيئته المحدودة ، يرتشف رحيق العلم فى الكتاتيب ، وحلقات المساجد ، ومنازل العلماء ، ولسنا نعرف شيئاً مذكوراً عن هذه البداية ، لأن المصادر القديمة لم تتناول ذلك ، لكننا نعرف أن الثقافة الإسلامية كانت مائجة وشائعة فى الأقاليم الإسلامية المتعددة ، التى كان لها ما يشبه الاستقلال الذاتى – فى عصر سيطر السلجوقيون على مقادير الأمور فى الدولة(١) – حيث كان لكل مصر من الأمصار علماؤه وأدباؤه ، الذين يبذلون العلم فى أرجائه ، ويستقبلون الطلاب فى حلقاتهم ومنازلهم .

ويبدو أن هذه البيئة المحدودة – تبريز – لم تكن لترضى طموحه ، أو تطفىء ظمأه ، وهو المتعطش دوماً إلى رحيق العلم ، فنراه ما أن شب واشتد عوده ، حتى أعد العدة يتنقل بين مراكز العلم المختلفة ، المحيطة بمسقط رأسه ، يحاول أن يجد بغيته ، خاصة وقد بهرته هذه الأمصار الإسلامية بأضوائها العلمية ، وجذبته نحو مجامع المحدثين والفقهاء ، واللغويين والأدباء ، وشدته شداً لنهل من ينابيع العلم المتدفقة ، فى بغداد والبصرة وجرجان وغيرها فسرعان ما لبى النداء ، تراوده الأمانى وتستحثه الآمال .

حياته العلمية :

وباستقراء حياة التبريزى العلمية ، نرى أنه يمكن إدراجها فى ثلاث مراحل متميزة :

المرحلة الأولى : مرحلة التكوين والتحصيل ، التكوين لشخصيته ، والتحصيل الثقافى الواسع بكل معانيه ، وفى هذه المرحلة ، زار مراكز العلم القريبة ، المحيطة به ، بغداد والبصرة وجرجان ، ويبدو أنه كان فى هذه المرحلة منقطعاً للدراسة ، وتحصيل شتى العلوم ، عاكفاً على الحفظ والتدوين ، يسجل كل ما يقع تحت يده وبصره من علوم دينية ولغوية وإخبارية ، ولقد ساعدت هذه المرحلة الإعدادية على توسيع مداركه ، وتنوير عقله ،

(١) أنظر ما كتبه فلك عن الدولة الإسلامية فى عصر السلجوقيين ، فى كتابه « العربية ص٢٠٩

ولفتت أنظاره إلى أن طريق العلم طويل وشاق ، يحتاج إلى تجهيز وتدعيم ، فيعود إلى مسقط رأسه حاملا فى جعبته ما سمعه وما سجله من علم وأدب ، ليضعه موضع الدراسة والمذاكرة وكأنه بهذا المجهود المتواضع يرسى بناء نفسه ويعدها لتحمل مشاق الرحلة الكبرى ، حيث عقد العزم على المضى فى الشوط إلى مداه .

المرحلة الثانية : مرحلة التنقل .. الرحلة الكبرى .

لقد كان الرجل من الطموح ، بحيث لم تقف أمامه أى عقبات ، خاصة بعد أن ارتشف رحيق العلم ، وذاق طعمه ، فعقد العزم على متابعة الطريق ، ومواصلة السير قدماً حيث المنابع والمناهل ، فهو لم يقنع بما حصله فى مرحلته الأولى ، لذلك حفزه الأمل على القيام برحلات دراسية طويلة ، يعمق فيها بحثه ، ويتقابل فيها مع أعلام الفكر واللغة والأدب فى الأمصار الإسلامية .

لقد كانت إشارة البدء تشير إلى أن رحلته الجديدة ستكون إلى الشام ، إلى علامة عصره ، وأديب زمانه : أبى العلاء المعرى ، ذلك « أنه حصلت له نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة تأليف أبى منصور الأزهرى ، فى عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فَدُلَّ على المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز (١) إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها البلل »(٢) ، وفى رحاب أبى العلاء (توفى سنة ٤٤٩ هـ) وجد التبريزى كل العناية والتكريم ، حيث قدم له الرجل على مائدته ، كل ما يشبع نهمه العلمى ، ويطفىء ظمأه إلى المعرفة ، وأقرأه بالإضافة إلى كتاب التهذيب —كل

---

(١) هذا نص صريح على أنه خرج من تبريز ، وليس من بغداد — كما زعم الزركلى (٩-١٩٧) وتابعه فى هذا الزعم بعض الباحثين . (أنظر شرح القصائد العشر صفحة ٣٧ من مقدمة الناشر ، طبع المدنى) .

(٢) الفلاكة والمفلوكون ص ٦٦ ، معجم الأدباء ٢٠-٢٦ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

مؤلفاته الشعرية(١) والنثرية ، والكثير من أمهات الكتب الأدبية والمصادر اللغوية . يذكر لنا التبريزى حكاية طريفة عن هذه الفترة فيقول (٢) : « أنه كان قاعداً فى مسجده بمعرة النعمان ، بين يدى أبى العلاء يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، قال : وكنت قد أقمت عنده سنين(٣) ، ولم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد مُغَافَصَة (أى فجأة) بعض جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : « إيش أصابك ؟» فحكيت له أنى رأيت جاراً لى ، بعد أن لم ألق أحداً من أهل بلدى . فقال : قم أنا أنتظر لك ، فقمت وكلمته بلسان الأذربية شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت فلما رجعت وقعدت بين يديه ، قال لى : أى لسان هذا ؟ .. قلت هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ثم أعاد على اللفظ بعينه » .

ومن المهم أن نعرف ، أن فترة تلمذته على أبى العلاء المعرى كانت من أخصب سنين عمره إستيعاباً وتحصيلا ، ففى هذه الفترة تحددت شخصية التبريزى العلمية فى مجال البحث اللغوى والنحوى ، كما أنها وجهت إهتمامه صوب شرح الشعر وتحليله ، إستناداً إلى ما سمعه من أستاذه ، وما نهله من فيوض علمه ، فقد تأثر التبريزى بأبى العلاء أيما تأثر فى كل مجالات حياته العلمية والأدبية ، وسار على منواله حتى لقد حاكاه فى نظم الشعر(٤) ،

---

(١) من المعروف أن التبريزى روى عن أبى العلاء شرحه على ديوان الحماسة ، كما روى عنه ديوان سقط الزند وشرحه .

(٢) معجم الأدباء ٣-١٣١ .

(٣) جاء فى كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء (ص٥٢١)أن التبريزى مكث عند أبى العلاء سنتين فقط ، واستند إلى ذلك الدكتور فخر الدين قباوة ، ولعل ما جاء فى قول التبريزى نفسه ما يوضح هذا الأمر .

(٤) أنظر بعض قصائده فى وفيات الأعيان ٥-٢٤٣ .

وما كان ذلك إلا لتأثره به ، ومحاولته ترسم خطاه ، ونهج سبيله ، حتى ليستطيع الباحث المدقق ، أن يرى بصمات المعرى مطبوعة على كل عمل أدبى أو لغوى تناوله التبريزى .

ويبدو أن الرجل أراد أن يجمع علم العراق — إلى جانب علم الشام ، خاصة بعد أن كبر أستاذه ، وتوقف البث والبذل ، فنراه يحول دفة ركائبه صوب العراق . . وفى بغداد نراه مع ابن الدهان(١) عام ٤٤٧ هـ ، وفى البصرة يجلس إلى أبى الجوائز الحسين بن على بن محمد بن بازى الكاتب(٢) سنة ٤٥٣ هـ فى منزله ، ثم إلى الشيخ أبى القاسم الفضل بن محمد القصبانى النحوى البصرى)(٣) سنة ٤٥٤ هـ . ولكنه سرعان ما يسأم الإقامة بالعراق ، ويحن إلى بلاد الشام ، فينتقل إلى دمشق . يحكى لنا التبريزى انطباعاته عن هذه الفترة فيقول(٤) :

« لما دخلت دمشق فى سنة ست وخمسين (يقصد ٤٥٦ هـ) كان بها إذ ذاك أبو بكر الحافظ ، وكانت له حلقة كبيرة ، يجتمعون فى بكرة كل يوم فيقرأ لهم وكنت أقرأ عليه الكتب الأدبية المسموعة له ، فكان إذا مرّ فى كتابه شىء يحتاج إلى إصلاح يصلحه ، ويقول : أنت تريد منى الرواية ، وأنا أريد منك الدراية .. وكنت أسكن منارة الجامع ، فصعد إلى يوماً وسط النهار ، وقال : أحببت أن أزورك فى بيتك ، وقعد عندى وتحدثنا ساعة ، ثم أخرج قرطاساً فيه شىء ، وقال : الهدية مستحبة ، وأسألك أن تشترى به الأقلام ، ونهض .. ففتحت القرطاس بعد خروجه ، فإذا فيه خمسة دنانير صحاح مصرية »(٥) .

---

(١) شرح ديوان زهير ص ١ ، دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٦٤ .

(٢) الطرائف الأدبية ص ٤٦ — تصحيح عبد العزيز الميمنى ، طبع لجنة التأليف والنشر والترجمة ، سنة ١٩٣٧ م .

(٣) شرح ديوان أبى تمام التبريزى (١-٣) .

(٤) معجم الأدباء ٤-٣٢ . ويقول التبريزى أن الخطيب كان يزوره مراراً ويمده بالمال .

(٥) معجم الأدباء ٤-٣٢ .

وهذا الأمر — وإن كان يشهد بقصة ظمئه إلى المعرفة ، والأخذ من مواطن ومجامع العلوم ، إلا أنه يشهد أيضاً بمدى فقره ، حيث لجأ إلى السكنى فى منارة الجامع الكبير بدمشق ، ومن المهم أن نعرف أنه إذا كان لأبى العلاء فضل الوفادة والتكريم فى معرة النعمان .. وأنه هو الذى حدد وخطط الإرهاصات العلمية فى حياته .. فإن للخطيب البغدادى — كذلك — فضلا كبيراً فى تدعيم ما بناه المعرى ، وإن كان هذا الفضل يتعدى الجانب العلمى ، إلى الجانب المادى الذى أعانه على مواجهة متطلبات الحياة .

ومن دمشق ينتقل التبريزى إلى « صور » ويبدو أنها كانت مجمع المحدّثين ، فنراه يجلس بين يدى مجموعة كبيرة من المحدثين ، يسمع منهم ، ويدوّن مسانيدهم ، من هؤلاء : القاضى أبو الطيب الطبرى ، وأبو القاسم التنوخى ، والفقيه أبو الفتح سليم الرازى ، وأبو القاسم عبد الكريم السّاوِى البغدادى ، وأبو القاسم عبد الله بن على(١) وغيرهم .

ومن الشام ينتقل إلى مصر(٢) .. لتكون خاتمة مطافه ، لا ليكون طالباً للعلم هذه المرة ، بل باذلا له ، بعد أن زوّد نفسه بمحصول وافر من العلم والحديث واللغة والشعر ، هيأه لأن يتصدر مجالس العلم ، ويكون مقصداً لطلابه ، ومرجعاً لهم فى شتّى فروعه ..

حتّى لقد جلس إليه أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوى المصرى ، على الرغم من كبر سنه وعلو قدره ، ليقرأ عليه مصنفات الأدب واللغة(٣) .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٢٦ ؛ وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

(٣) وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ (قال ابن خلكان : وقد كان الخطيب دخل مصر فى عنفوان شبابه ، فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوى شيئاً من اللغة) ، ووافقه على ذلك ياقوت فى معجمه (٢٠-٢٦) بيد أن بعض المصادر مثل تاريخ أبى الفدا (٢-٢٣٥) وغيره — جعل التبريزى تلميذاً لإبن بابشاذ النحوى .. ونحن إذ نؤيد الرأى الأول — فإننا نستند إلى أن الإقليم العراقى كان يسبق فى العلوم المختلفة دينية ولغوية سائر الأقاليم الإسلامية الأخرى بفاصل =

المرحلة الثالثة : مرحلة الأستاذية ..

وهى المرحلة التى تبدأ منذ أن عاد إلى بغداد(١) . بعد أن قضى سنين طويلة متنقلا بين الشام والعراق ومصر ، ليتخذها مقراً ومقاما(٢) . فيتسابق الناس إلى حلقات علمه ، ثم يعين أستاذاً فى المدرسة النظامية وقيماً لخزانة كتبها ويكون ذلك منطلقاً لعكوف الرجل على التدريس من ناحية ، والتأليف والتصنيف من ناحية أخرى ، وتكون حصيلة هذين المنصبين(٣) كتباً وشروحاً ومصنفات جمة تحتفظ بها — فى فخر — المكتبة العربية .

أساتذته :

رأينا أن ثقافة التبريزى كان لها مصدران أساسيان :

المصدر الأول : أساتذة مباشرون ، عاصرهم .. رحل إليهم ، والتقى بهم فى مجالسهم ومنازلهم ، قرأ عليهم ، وأخذ منهم ، وتأثر بإنتاجهم الفكرى ومحصولهم العلمى .

= زمنى كبير . فإذا كانت البصرة قد سبقت الكوفة بنحو قرن من الزمان — فى علم النحو — كما قرر العلماء والباحثون ، فمعنى ذلك أن البصرة قد سبقت مصر بأكثر من ذلك .. ومن هنا جاز أن يجلس مثل هذا الشيخ على كبر سنه بين يدى عالم يصغره سناً ، قادم من المشرق ، لأنه يحمل من العلوم والكتب ما لم يصل بعد إلى مصر أو غيرها من أقاليم المغرب العربى .

(١) معجم الأدباء ٢٠-٢٦ ؛ وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

(٢) الأنساب ص ١٠٣ ، والمختصر فى أخبار البشر ٢-٢٣٥ ، وقال ابن خلكان ٥-٢٣٩ « ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى الممات .. ويبدو أنه ندم على هذه الإقامة الدائمة فى العراق ، لأسباب لا نعرفها » . وقد ترجم هذا الندم فى قوله :

من يسأم من الأسفار يوماً فإنى قد سئمت من المقام
أقمنا بالعراق على رجال لئام ينتمون إلى لئام

(٣) زعم المستشرق بلسنر فى دائرة المعارف الإسلامية (٤-٥٦٧) أن التبريزى (رحل إلى بغداد حيث أصبح قاضياً) واستند فى هذا الرأى إلى ما جاء فى الأنساب) أن التبريزى كان « قاطن بغداد » ، وتأول هذه العبارة وأحالها إلى (قاضى) وادعى أن العبارة مصحفة فاوقعها هو فى التصحيف ، خاصة وأن جميع المراجع حتى التى استند إليها فى كتابه لم تشر إلى هذا المنصب .

المصدر الثانى : أساتذتهغير مباشرين ، لم يعاصرهم ، ولم يقابلهم وجهاً لوجه ، بل التقى بهم على صفحات كتبهم ، وبين ثنايا مصنفاتهم .

أما عن المصدر الأول ، وهم أساتذته المباشرون — فالمطلع على تاريخ حياته يستطيع أن يعرف أنه تتلمذ على كبار اللغويين والنحويين ، والأدباء والمحدثين فى عصره ، لقد ذكرت المصادر له ستة عشر شيخاً ، كان لبعضهم أثر بارز فى حياته التعليمية والعلمية وهم (١) :

١ — القصبانى (ت ٤٤٤ ﻫ)(٢) :

أبو القاسم الفضل بن محمد ، النحوى البصرى ، كان واسع العلم ، غزير الفضل ، إماماً فى العربية ، صنف مجموعة من المصنفات أهمها : حواشى الإيضاح لأبى على الفارسى ، ومقدمة فى النحو .

٢ — ابن الدهان (ت ٤٤٧ ﻫ)(٣) :

أبو محمد الحسن بن محمد بن على بن رجاء ، الفقيه ، كان يدرس الفقه وعلم الكلام والحديث واللغة ، وقد ذكره التبريزى مراراً أثناء شرح الحماسة(٤)

٣ — التنوخى (ت ٤٤٧ ﻫ)(٥) :

أبو القاسم على بن أبى على الحسن البغدادى ، قاضى المدائن .

---

(١) راعينا فى هذا الترتيب أقدمية الوفاة لا غير .

(٢) إرشاد الأريب ٦-١٤٣ ؛ نزهة الألباء ص ٢٣١ . حددت هذه المصادر وفاته كما ذكرنا ، وذكرت أن الوفاة حدثت فى عهد القائم بأمر الله ، فإذا علمنا أن التبريزى قرأ عليه ديوان أبى تمام سنة ٤٥٤ ﻫ ، وأن عهد القائم دام بين سنة ٤٤٢ ﻫ — ٤٦٧ ﻫ ، وضح لدينا خطأ هذه المصادر (أنظر مقدمة شرح ديوان أبى تمام للتبريزى ، ص ٣) .

(٣) أنباه الرواه ١-٣٠٤ ، بغية الوعاة ص ٢٢٩ ، نزهة الألباء ص ٢٣٦ . وقد أخطأ ياقوت الحموى فذكر أنه ولد سنة ٤٩٤ ﻫ ، ومات سنة ٥٦٩ ﻫ ، وأنه أخذ عن الرمانى اللغة ، فإذا عرفنا أن الرمانى ولد سنة ٢٩٦ ﻫ ، ومات سنة ٣٨٤ ﻫ فى خلافة القادر بالله (نزهة الألباء ص ٢١٠) وإذا عرفنا أن التبريزى توفى سنة ٥٠٢ ﻫ حيث كان عمر ابن الدهان — حسب تحديد ياقوت ٨ سنوات — أدركنا مدى الخطأ الذى وقع فيه ياقوت .

(أنظر معجم الأدباء ١١-٢١٩) .

(٤) أنظر ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٥) إرشاد الأريب ٥-٣٠١ ؛ شذرات الذهب ٣-٢٧٦ .

٤ ــ الرازى (ت ٤٤٧ هـ)(١) :

سُلَيم بن أيوب بن سليم ، الفقيه الشافعى ، كان يدرُس التفسير و اللغة و الحديث فى بغداد .

٥ ــ الفــالى (ت ٤٤٨ هـ)(٢) :

أبو الحسن على بن أحمد بن سلك ، كان أديباً ، من بلدة فالة ، انتقل إلى بغداد و استوطنها إلى أن مات ، و دفن بمقبرة جامع المنصور ، كان ثقة شاعراً و قد روى عنه التبريزى بعض شعره(٣) .

٦ ــ الصابى (ت ٤٤٨ هـ)(٤) :

أبو الحسن هلال بن الحسن الحرّانى ، الأديب الكاتب ، كان عالماً باللغة ثقة صدوقاً ، أخذ عن الرمانى و أبى على الفارسى .

٧ ــ المعرى (ت ٤٤٩ هـ)(٥) :

أبو العلاء أحمد بن عبد الله ، الشاعر العالم اللغوى الكبير .

٨ ــ السيارى (ت ٤٤٩ هـ)(٦) :

أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الدّلال ، العالم البغدادى .

٩ ــ الرَّقِّىّ (ت ٤٥٠ هـ)(٧) :

أبو القاسم عبيد الله بن على بن عبيد الله ، العالم اللغوى الأديب .

١٠ ــ الطبرى (ت ٤٥٠ هـ)(٨) :

أبو الطيب طاهر بن عبد الله ، العالم الفقيه المحدث القاضى .

---

(١) طبقات الشافعية ٣-١٦٨ .

(٢) الفلاكة و المفلوكون ص ١١٤ (حيث صحف بالقاف بدل الفاء) .

(٣) أنظر معجم الأدباء ١٢-٢٢٧ .

(٤) إرشاد الأريب ٧-٢٥٥ .

(٥) أنظر : أنباه الرواه ١-٤٦ – ٨٣ و حواشيها .

(٦) تاريخ بغداد ١١-٨١ – ٨٢ ؛ معجم الأدباء ٢٠-٢٦ .

(٧) بغية الوعاة ص ٣٢٠ ، نزهة الألباء ٢٣٤ .

(٨) تاريخ بغداد ٩-٣٥٨ .

١١ – الجوهرى (ت ٤٥٤ هـ)(١) :
أبو محمد الحسن بن على بن محمد ، عاش فى بغداد، وعرف أنه كان كثير السماع للحديث والشعر والأدب .

١٢ – ابن برهان (ت ٤٥٦ هـ)(٢) :
أبو القاسم عبد الواحد بن على العكبرى ، النحوى البصرى ، كان عالماً باللغة والأنساب وأيام العرب والتاريخ .

١٣ – عال بن عثمان بن جنى (ت ٤٥٨ هـ)(٣) :
العالم النحوى الأديب . كان مشهوداً له –كأبيه– بالحفظ وجودة الضبط

١٤ – الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣ هـ)(٤) :
أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ، الفقيه ، المحدث ، المؤرخ ، أحد كبار الحفاظ المتقنين ، والعلماء المتبحرين ، اعترف التبريزى بفضله وكرمه . صنف مجموعة من الكتب أشهرها تاريخ بغداد .

١٥ – الجرجانى (ت ٤٧١ هـ)(٥) :
أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن ، الفقيه ، النحوى ، المتكلم ، كان من كبار أئمة العربية وعلماء البلاغة ، له مؤلفات عديدة تفخر بها المكتبة العربية

هؤلاء هم أساتذته المباشرون ، بيد أن أكثرهم أثراً فى نفس الرجل وفى تحصيله وأبرزهم صورة فى مصنفاته .. المعرى والخطيب البغدادى والرقى وابن برهان وابن الدهان والقصبانى .

أما أساتذته غير المباشرين ، الذين أخذ منهم ، ونقل عنهم ، فهم كثيرون استطاع بذكائه أن يمتص رحيق علمهم من خلال مصنفاتهم ومؤلفاتهم التى

(١) تاريخ بغداد ٧-٣٩٣ .
(٢) أنباه الرواه ٢-٢١٣ ؛ الفلاكة والمفلوكون ص ١١٧ ، نزهة الألباء ص ٢٣٣ .
(٣) تاريخ بغداد ٧-٣٩٣ ؛ وأنظر الطرائف الأدبية ص ٤٦ .
(٤) معجم الأدباء ٤-٣٢ ، وفيات الأعيان ١-٧٦ – ٧٧ .
(٥) أنباه الرواه ٢-١٨٨ – ١٩٠ ؛ بغية الوعاة ص ٤١٣ ؛ نزهة الألباء ص ٢٣٧ .

سجلوا فيها خلاصة أفكارهم، وعصارة سعيهم وكدهم ، وكانوا له المصدر والمرجع .

وسنتناول هذا الأمر بالتفصيل حين نتعرض لمنهجه فى شرح الشعر .

تلاميذه :

وللتبريزى تلاميذ كثيرون ، تخرجوا على يديه ، سواء فى حلقات الدرس ، أو فى المدارس النظامية ، وكان لهم شأنهم فى مجالات العلم المختلفة وهم (١) :

١ — ابن بابشاذ (توفى سنة ٤٦٩ هـ)(٢) :

أبو الحسن طاهر بن أحمد النحوى ، العالم المصرى المشهور ، يقولون أنه قرأ عليه(٣) كتب اللغة فى مصر .

٢ — ابن الهبارية (ت ٥٠٩ هـ)(٤) :

الشريف أبو يعلى محمد بن محمد ، الشاعر البغدادى ، المشهور بكثرة هجائه .

٣ — الجواليقى (ت ٥٣٩ هـ)(٥) :

أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، اللغوى الكبير ، الذى صنف مجموعة من الكتب أهمها شرح أدب الكتاب ، والمعرب وغيرهما.

٤ — ابن الشجرى (ت ٥٤٢ هـ)(٦) :

أبو السعادات هبة الله بن على بن محمد بن حمزة العلوى ، النحوى المشهور

---

(١) راعينا فى هذا الترتيب اقدمية الوفاة لا غير .

(٢) أنباه الرواة ٢-٩٥ — ٩٦ ؛ شذرات الذهب ٣-٣٣٣ .

(٣) هذا ما ذكره ابن خلكان وياقوت ، بيد أن ابن قاضى شهبه — فى طبقاته — خالفهما فجعله أستاذاً للتبريزى ، وتابعه بلسنر فى دائرة المعارف الإسلامية ٤-٥٦٧ .

(٤) إرشاد الأريب ١-١٧٥ ؛ شذرات الذهب ٤-٢٤ ؛ وفيات الأعيان ٤-٧٧ .

(٥) بغية الوعاة ص ٤٠١ ، نزهة الألباء ٢٦١ .

(٦) انباه الرواه ٣-٣٥٦ ؛ بغية الوعاة ص ٤٠٧ ، نزهة الألباء ص ٢٦٨ .

كان فصيحاً حلو الكلام ، حسن البيان والإفهام ، يقولون أنه كان وحيد دهره في علم النحو ، وله فيه مصنفات كثيرة .

٥ — ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ)(١) :

أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبيلي ، الأديب الشاعر ، القاضي الحافظ ، يذكرون أنه رحل إلى المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس بعلم كثير ، لم يدخل به أحد قبله ، وخاصة مؤلفات أبي العلاء المعري ، أخذها عن التبريزي .

٦ — ابن الأشقر (ت ٥٥٠ هـ)(٢) :

أبو الفضل أحمد بن عبد السيد البغدادي ، النحوي ، لازم التبريزي فترة طويلة ، وقرأ عليه كتباً كثيرة .

٧ — الحافظ السلامي (ت ٥٥٠ هـ)(٣) :

أبو الفضل محمد بن ناصر البغدادي ، المحدث الأديب اللغوي .

٨ — الخطيب الحصكفي (ت ٥٥١ هـ)(٤) :

يحي بن سلامة ، الفقيه ، النحوي ، الكاتب ، الشاعر .

٩ — السلفي (ت ٥٧٦ هـ)(٥) :

و أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد الحافظ الأصبهاني ، قدم بغداد أخذ عن التبريزي الأدب والنحو .

هؤلاء هم تلاميذه المعتمدون ، الذين نصت عليهم المصادر ، فإذا عرفنا أنه كان أستاذاً للعربية في المدارس النظامية ، وعرفنا كم كانت تستوعب هذه المدارس وتخرج من طلاب العلم ، استطعنا أن ندرك ضخامة العدد الحقيقي الذي تخرج على يديه .

(١) تذكرة الحفاظ ٤-٨٦ ، الصلة ص ٥٣١ ، فهرست ابن خير ص ٤٢١ .

(٢) إرشاد الأريب ١-٢١٧ ، بغية الوعاة ص ١٤٠ .

(٣) أنباه الرواة ٣-٢٢٢ ، شذرات الذهب ٤-١٥٥ — ١٥٦ .

(٤) إرشاد الأريب ٧-٢٨١ ؛ خريدة القصر ٢-٤٧١ .

(٥) تذكرة الحفاظ ٤-٩٠ ؛ شذرات الذهب ٤-٢٥٥ .

آثاره العلمية :

وللتبريزى مجموعة ضخمة من المصنفات ، تختلف فى موادها وأغراضها وموضوعاتها ، ولا شك أن الذى هيأ له تصنيف كل هذا العدد الوفير من المصنفات : أولا عمله فى الحقل التعليمى ، وما يرتبط به من تحضير وتجهيز وإعداد للمواد الدينية واللغوية والأدبية ، ثم إشتغاله فى مجال التصنيف والترتيب والتبويب فى خزانة كتب هذه المدارس . وإستعانته بمحتوياتها من كتب التراث على اختلاف موضوعاتها ، فى التأليف والتصنيف ، ونظرة فاحصة إلى مصنفاته ، نجد أنها تنقسم إلى عدة أقسام تبعاً لموضوعاتها :

أولا : مصنفات فى العلوم الدينية وتضم :

١ — تفسير القرآن الكريم(١) .
٢ — الملخص فى إعراب القرآن(٢) .
٣ — تهذيب غريب الحديث (٣).

ثانياً : مصنفات فى العلوم اللغوية وتضم :

١ — تهذيب إصلاح المنطق(٤) .
٢ — تهذيب كتاب الألفاظ(٥) .
٣ — تهذيب الغريب المصنف(٦) .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠-٢٧ .

(٢) معجم الأدباء ٢٠-٢٧ ، نزهة الألباء ص ٢٤٣ ، يقول ابن خلكان : (وله كتاب فى إعراب القرآن سماه الملخص ، رأيته فى أربع مجلدات) . أنظر وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ . ونسب إليه حاجى خليفة (فى كشف الظنون ص ١٩٩١) كتاب شرح نهاية الوصول إلى علم الأصول ، وذلك خطأ ظاهر لأن مؤلف علم الأصول توفى سنة ٦٩٤ هـ ، أى بعد وفاة التبريزى بقرنين تقريباً ، أنظر حاشية ناشر كشف الظنون .

(٣) ابن خلكان ٥-٢٣٨ .

(٤) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ . وقد طبع هذا الكتاب بمصر .

(٥) وقد طبع هذا الكتاب ببيروت سنة ١٨٩٧ م .

(٦) نسب إليه فى طبقات النحاة واللغويين ورقة ٣٧١ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .

٤ ـــ تهذيب مقاتل الفرسان(١) .

٥ ـــ شرح اللمـــــع (٢) .

٦ ـــ مقدمة فى النحو (٣) .

٧ ـــ الوافى فى علمى العروض والقوافى(٤) .

ثالثاً : شروح الشعر :

١ ـــ شرح بانت سعاد(٥) .

٢ ـــ شرح ديوان ابى تمام(٦) .

٣ ـــ شرح ديوان امرىء القيس(٧) .

٤ ـــ شرح ديوان الحماسة الصغير (٨) .

٥ ـــ شرح ديوان الحماسة المتوسط (٩) .

٦ ـــ شرح ديوان الحماسة الأكبر (١٠) .

---

(١) هذا هو الصواب كما جاء فى شرح شواهد المغنى ص ٣ . وقد سمى « مقاتل الفرسان » فى نزهة الألباء ص ٢٤٣ .

(٢) وهو كتاب ابن جنى ، معجم الأدباء ٢٠-٢٧ ، نزهة الألباء ص ٢٤٣ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٧٦ – نحو تيمورية .

(٣) معجم الأدباء ٢٠-٢٧ ؛ وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ (يقول ابن خلكان : وله فى النحو مقدمات حسنة ، والمقصود منها أسرار الصنعة ، وهى عزيزة الوجود) ٥-٢٣٨ .

(٤) نزهة الألباء ص ٢٤٣ ؛ وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ ، ويسمى « الكافى فى علمى العروض والقوافى » أنظر كشف الظنون ص ١٣٧٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤-٥٦٧ .

(٥) وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٧٤٨ – ز . وتوجد نسخة أخرى فى ينى جامع تحت رقم ١١٨٧ .

(٦) وقد طبع هذا الشرح بتحقيق الدكتور محمد عبده عزام فى لجنة التاليف والنشر ، سنة ١٩٥١ م ، كما طبع أخيراً فى دار المعارف بمصر .

(٧) يقول بروكلمان : توجد منه نسخة مخطوطة فى مكركوى .

(تاريخ الأدب العربى ١-١٠٠) .

(٨) نزهة الألباء ص ٢٤٣ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

(٩) وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

(١٠) وفيات الأعيان ٥-٢٣٩ .

٧ – شرح ديوان كعب بن زهير(١) .
٨ – شرح ديوان المتنبي (٢) .
٩ – شرح ديوان النابغة الذبياني(٣) .
١٠ – شرح ذيل المعلقات(٤) .
١١ – شرح سقط الزند(٥) .
١٢ – شرح القصائد السبع الطوال(٦) .
١٣ – شرح لامية العرب(٧) .
١٤ – شرح المفضليات(٨).
١٥ – شرح مقصورة ابن دريد(٩) .
١٦ – مقطعات شعرية(١٠) .

---

(١) وتوجد منه نسخ مخطوطة فى برلين ١-٧٤٩٠ ، و ليدن ٥٦٧ ، وفاتيكان ثالث ١ ,٣٦١ أنظر بروكلمان ١-١٥٨ .
(٢) نزهة الألباء ص ٢٤٣ . وتوجد منه نسخة مخطوطة فى باريس أول ٣١٠١ ، ١٣٠٤ . أنظر بروكلمان ٢-٩٠ .
(٣) وتوجد منة نسخة مخطوطة فى فيض الله تحت رقم ١٩٦٢ .
أنظر بروكلمان ١-٨٩ .
(٤) خزانة الأدب ٢-٧٩ . وأنظر ما كتبه الدكتور فخر الدين قباوة فى مقدمة تحقيق لشرح القصائد العشر للتبريزى ص ٩ – ١٠ . طبع حلب ، سنة ١٩٦٩ م .
(٥) زهة الألباء ص ٢٤٣ .
(٦) معجم الأدباء ٢٠-٢٧ ، نزهة الألباء ص ٢٤٣ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .
وقد أضاف التبريزى إلى هذه القصائد السبع ثلاثة قصائد أخرى للنابغة الذبيانى والأعشى وعبيد بن الأبرص ، وسماه « شرح القصائد العشر » أنظر مقدمة التبريزى على شرح هذه القصائد .
(٧) وتوجد منه نسخة مخطوط فى برنستون ، جاريت ٨ ، أنظر بركلمان ١-١٠٩ .
(٨) نزهة لألباء ص ٢٤٣ ، وفيات لأعيان ٥-٢٣٨ . وقد حقق هذ الشرح ونال به درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة القاهرة – الدكتور فخر الدين قباوة ، وقد طبع منه جزءان بدمشق سنة ١٩٧١ م .
(٩) نزهة الألباء ص ٢٤٣ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ . وقد طبع هذا الشرح بدمشق سنة ١٩٦١ م .
(١٠) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .

هذه هى آثار الرجل .. فإذا ما نظرنا إلى أثر هذه المصنفات فى تلاميذه — وفيمن جاءوا بعده ، وجدنا أن لها آثاراً كثيرة فى معظم من تتلمذ عليه ، خاصة الجواليقى وابن الشجرى ، وابن الأشقر ، وابن العربى . على أن ثمة طبقات من العلماء عاشت بعد عصر أبى زكرياء ، أو لم تلقه كان لها تأثر به أظهر منه فى كثير من تلامذته الذين عاصروه ، إنهم أولئك المصنفون الذين شرحوا من الأشعار واللغة ما شرح التبريزى ، فقد اقتبسوا عنه كثيراً من أقواله ، ونقلوا من مؤلفاته إلى مصنفاتهم النصوص بعباراته وألفاظه ، منسوبة أو غير منسوبة ، فقد نقل عنه أمثال :

— ابن المستوفى فى شرح ديوان أبى تمام وشرح ديوان المتنبى .

— وابن السيد البطليوسى فى شرح سقط الزنـــد .

— وابن هشام فى شرح بانت سعاد .

— والخوارزمى فى شرح سقط الزند .

— والخوييّ فى شرح تنوير السقط .

— والسيوطى فى شرح شواهد المغنى ، وفى المزهـــر .

— وعبد العزيز بن محمود بن خليل فى شرح بانت سعاد .

— وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى فى شرح بانت سعاد

— وعبد القادر البغدادى فى الخزانة ، وشرح شواهد المغنى

— والعكبرى فى شرح ديوان المتنبى .

وحسبنا هذا دليلا على أن تلاميذ الخطيب التبريزى لم تنقطع سلسلتهم بوفاته ، وإنما توالت منهم الأجيال بعد الأجيال حتى يومنا هذا(١) . ا

ولعل ذلك كله كان من الأسباب الجوهرية التى من أجلها بلغت شهرته الآفاق، فقد أجمع معاصروه ومترجموه على أنه كان إمام عصره فى علوم

---

(١) فخر الدين قباوة : مقدمة تحقيق شرح اختيارات المفضل للتبريزى ص ٣٢ .

اللسان(١) ، بل شيخ بغداد كلها فى الأدب(٢) ، ووصفوه بأنه « صاحب اللغة »(٣) .. أحد الأئمة فى النحو واللغة والأدب »(٤) كما وثقوه بقولهم أنه « كان ثقة فى العلم ، وفيما ينقله(٥) ، حجة ثبتاً صدوقا(٦) » .

قال ابن العديم(٧) : «كتب إلينا أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز من الإسكندرية أنه سمع أحمد بن محمد الأصبهانى الحافظ يقول : (وأما هذان الإمامان — يعنى أبا زكريا التبريزى ، وأبا المكارم الأبهرى — فمن أجلاء من رأيته من أهل الأدب ، والمتبحرين فى علوم العرب ، وإلى أبى العلاء انتماؤهما ، وفى العربية اعتزاؤهما » .

كل ذلك جعله قبلة لطلاب العلم فى عصره ..

وفاتـــه :

ظل التبريزى يشغل منصب الأستاذية فى المدرسة النظامية ببغداد ، والقيم على إدارة مكتبتها ، يبذل العلم فى سخاء ، ويصنف الكتب ، حتى لبى نداء ربه « يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة ، سنة اثنتين وخمسمائة(٨) (٥٠٢ ﻫ) بعد أن ناهز الثمانين من عمره ، فدفن فى مقبرة باب أبرز »(٩) .

---

(١) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ ، النجوم الزاهرة ٥-١٩٧ ، نزهة الألباء ص ٢٤٣ .

(٢) شذرات الذهب ٤-٥ ، ومرآة الجنان ٣-١٧٢ .

(٣) مرآة الجنان ٣-١٧٢ .

(٤) بغية الوعاة ص ٤١٣ ، وفيات الأعيان ٥-٢٣٧ .

(٥) وفيات الأعيان ٥-٢٣٨ .

(٦) بغية الوعاة ص ٤١٣ .

(٧) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٢١ ، نقلا عن الإنصاف والتحرى .

(٨) هذا ما اتفق على تحديده إجماع المترجمين ، وقالوا : « وكان ذلك فى خلافة ابن العباس أحمد بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله (نزهة الألباء ص ٤٤٨ ، ومعجم الأدباء ٢٠-٢٨) بيد أن صاحب النجوم الزاهرة انفرد بجعل وفاة الخطيب التبريزى فى سنة ٥٠١ ﻫ ، وإن كان قد وقع فى خطأ حسابى حيث قال : « ومات وله إحدى وثمانون سنة » وعلى ذلك يكون التبريزى قد توفى بالفعل فى سنة ٥٠٢ ﻫ ، وليس فى السنة التى حددها ابن تغرى بردى .

(٩) وفيات الأعيان ٥-٢٤٣ . ووافقه على ذلك كل المترجمين إلا السمعانى قال « ودفن بتبريز (الأنساب ص ١٠٣) .

منهجـــه

قلنا أن التبريزى إمام المنهج الانتخابى التهذيبى التكميلى(١) ..

فماذا نقصد بهذا المنهج ؟ ..

— نقصد به ذلك المنهج الذى يعتمد على جمع وتحصيل الشروح السابقة، ثم الإنتخاب منها ، والتنسيق بين العناصر المنتخبة بما يكمل شرحاً من مجموعها يفى بغرضها ، ويغنى عن جميعها ، لإشتماله على جميع العناصر التفسيرية المتاحة التى يتطلبها القوم .

— نقصد به ذلك المنهج الذى لا يظهر فيه مجهود عالم واحد ، بل ينطق بمجهودات علماء كثيرين ، متعددى المناهج ، مختلفى العصور ، متنوعى التخصصات والاهتمامات .

— نقصد به المنهج الإزدواجى المزجى ، الذى يجمع بين إلتزام الملتزمين وإبداع المبدعين ، ويظهر فيه عنصر النقل للتراث الموروث ، وعنصر النقل لاجتهاد المجتهدين .

— نقصد به ذلك المنهج التحصيلى ، الذى لا يدل على تخصص صاحبه ، وإنما يدل على سعة ثقافته ، وكثرة إطلاعه وجمعه ، ثم إنتخابه وتنسيقه .

— نقصد به ذلك المنهج الذى يجمع من كل علم بطرف ، ومن كل فن بلمحة ، ومن كل تخصص بنبذة ، ويوفق بين الجميع توفيقاً تاما ، وينسق بين أجزاء الشرح بإنسجام يشعر بالتكامل والترابط .

— نقصد به ذلك المنهج الذى يحقق ويوثق ويصحح ما توصل إليه العلماء السابقون بعضهم من بعض ، ويمحص ويميز ويقارن ويفاضل بين الآراء جميعاً.

— نقصد به كذلك ، المنهج المتدرج ، غير المتبحر أو المتقعر ، الذى يرضى أكبر قدر ممكن من الدارسين وطلاب العلم .. المنهج الذى يجمع بين

---

(١) أطلق عليه الدكتور فخر الدين قباوة « المنهج التكاملى » أنظر رسالته ، ص ٦٩ .

الشمول والإستقصاء ، بين السرد والعمق ، بين الرواية والدراية بحيث يذوب الشارح فى السابقين ، ولا تظهر صورته فى شرحه ، إنما الذى يظهرآثار يديه وقلمه ..

– نقصد به المنهج الذى تتعادل فيه عناصر الشرح وتتآزر ، بحيث لا يطغى عنصر على آخر ، وإنما توضع العناصر كلها ، جنباً إلى جنب ، وفى مستوى واحد ، تكمل بعضها بعضا .

– نقصد به المنهج الذى تهذب فيه الشروح ، وتشذب الأقوال ، وتختصر منها الأسانيد والاستطرادات ، وتحذف منه التعمقات ..

– وأخيراً .. نقصد به المنهج الذى يقوم على التوفيق بين الآراء المتضاربة والتلفيق بين الشروح المتوافقة ، والتكميل بين أجزائها ، والإنتقاء أحسن ما فى الشروح مجتمعة ، وأكمل ما تضم من آراء وتفاسير .

فى هذا المنهج الإنتخابى التهذيبى .. لا يظهر علم الشارح ، ولا سمة تخصصه ولا تتحدد طبيعة فهمه أو عمق فكره ، إنما الذى يظهر – حصيلة ثقافته ، ومقدار جمعه ، وغزارة تحصيله ، ومقدرته على التوليف والتوفيق ، لإنتخاب أصلح العناصر وأفيدها ، إنتخاب ما هو أمتع وأجدى بالمعرفة والدراسة .

فى هذا المنهج قلما يهتم الشارح بالخلافات النحوية ، أو المناقشات اللغوية ، وإن كان اهتمامه ينصب على الخلافات التى تؤثر فى المعنى .. كالخلاف فى الرواية أو الشرح . لذلك فهو يعرض ما يحس أنه يستحق العرض والإثبات وأولى بالإظهار والتبين ، وأحق بالتسجيل والتدوين .

فى هذا المنهج يثبت الشراح ما يتآلف من الشروح ، بما يظهر مقصد الشاعر ، وموضوع الشعر ، وفقما تواضع عليه جميع السابقين ، دون إطالة أو كثرة استشهادات ، أو تضمين معلومات لا يتعلق بها الشعر ، أو لا يحتاج إليه النص .

فى هذا المنهج يتوخى الشراح – قدر إمكانهم – الإيجاز والاقتصار على ما يعرف به ما فى الشعر من الغريب والإعراب والمعانى ، دون ما يتشعب من اللغة والإعراب ، لئلا يشغل القارىء منه ، والناظر فيه عن الغرض المقصود.

فى هذا المنهج نرى عناصر جمة لأول مرة :

– تحديد اسم الشاعر ، وتحليل اسمه ، وذكر اشتقاقه ووزنه ومعناه .
– تحديد نسب الشاعر وعصره وصلته بمعاصريه ..
– تحديد المناسبة التاريخية التى قيل فيها الشعر ..
– تحديد الروايات ، مهما تعددت واختلفت ، وتفضيل إحداها .
– تحديد وزن الشعر ونوع قافيته .
– ذكر ما فى الشعر من لغة .. صرف .. اشتقاق .. أوزان .
– ذكر ما فى الشعر من نحو وإعراب .
– ذكر ما فى الشعر من أحداث وما قيل فيها من أمثال وأشعار وأخبار .
– التعريف بالأعلام الواردة فى الشعر ، وتحديد صلتهم بالشاعر ..
– ذكر ما قيل من نقد حول الشعر والشاعر .. رواية ومعنى .
– ذكر ما قيل من نقد موجه إلى الشراح والرواة .
– تحديد ما فى الشعر من ألوان بيانية وعلوم بلاغية .

هذه الأمور جميعاً ، تظهر فى هذا المنهج ، وبأشكال متفاوتة ، وهى لم تظهر فيما مضى ، من شروح – فى منهج واحد – إنما هى محصلة جمعية لعدة مناهج معاً .

من هنا قلنا – ونقول : إن هذا المنهج حصرى نقلى مزجى إستقرائى إنتخابى تهذيبى تنسيقى توفيقى تكميلى تحقيقى .. لا يظهر فيه شخصية صاحبه إنما الذى يظهر صنيعه ، جمعه ، سرده ، استحسانه ، إنتخابه ، إنتقاؤه .. ويظهر كذلك سعة صدره ، وطول جلده وصبره . إن صورة الشارح فى هذا المنهج باهتة تماماً .. تكاد تكون غائبة .. فلا يظهر فى شرحه لون تخصصه ،

ولا نوع اهتمامه ، ولا مذهبه العلمى ولا أسلوبه ولا تفكيره – إنما الشارح هنا عارض متصرف ، يعرض ما يراه يستحق العرض ، وما يراه مناسباً لطلاب علمه وقارئيه . وأصحاب هذا المنهج بعلمهم هذا – يمثلون آخر ما وصلت إليه حركة الشروح من مناهج ، إنهم ولدوا وعاشوا فى القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى وصل فيه شرح الشعر إلى منتهاه .. وصل إلى الغاية القصوى .. التشبع .. والذى أصبح الشرح بعده تكراراً أو اختصاراً أو نثراً للمعانى الشعرية.

أنهم .. هم الجماعون المكملون المهذبون المحققون ، المصفون لحصيلة التراث التفسيرى الذى وضع على الشعر الجاهلى .. وهم الملخصون المتصرفون العارضون المازجون لكل اتجاهاته ومناهجه . لذلك غابوا فى جمهرة الشراح السابقين ، وذابوا وسط جموعهم ، ولم تظهر فى شروحهم إلا نتاج السابقين ، فلا إستقلالية فى التعبير ، ولا تفرد فى التفكير ، ولا عبقرية فى الفهم ، لأن عملهم إعادة من أجل الإفادة ، وتكرار لأفكار العلماء الكبار .

والحقيقة إنهم لمعذورون ، فالسابقون العالمون .. لم يتركوا لهم فرصة للإجتهاد ، بعد أن قتلوا موضوعات الشعر الجاهلى – وغير الجاهلى – بحثاً وتمحيصاً ، وتحليلا وتوضيحا ، فلم يجدوا لأنفسهم من عمل ينسب إليهم ويخلدهم إلا الإختيار والتكميل ، والتوفيق والتهذيب .. والترتيب والتعقيب .. لم يجدوا إلا التنسيق بحسن الربط ، وكمال العرض . لذلك ، فعملهم هذا وإن لم يكن من وضعهم وتأليفهم – فهو من جمعهم وتنسيقهم ، وهو وإن لم يُظهر شخصيتهم العلمية ، ولا عبقريتهم العقلية ، فهو يظهر – بحق – سعة ثقافتهم ، وحنكتهم وغزارة حصيلتهم .

هذا هو مفهومنا لهذا المنهج :

التبريزى شارحاً

نستطيع أن نقول .. إن التبريزى إمام هذا المنهج بلا منازع .. فهو يمثل فى شروحه هذا المنهج العلمى أصدق تمثيل ، ونظرة فاحصة فى هذه الشروح ، نجد أن سمات هذا المنهج – وخصائصه – واضحة تماماً ، تكاد تنطق بكل كلمة قلناها .

فالرجل إمام العلماء الجمّاعين ، الذين استوعبوا التراث الشعرى ، على إختلاف عصوره ، واستوعبوا مناهج شراحه ، واستطاع بما له من ذكاء وحسن تصرف ، أن يمارس هوايته هذه ، ويساير التيار السائد فى عصره ، فكان منهجه وافياً بالتزامات الحياة العلمية والتعليمية معاً .

إن المطلع على شروح التبريزى ، يدرك لأول وهلة ، أنه صنف هذه الشروح إستجابة لمجموعة من الدوافع والمتطلبات .

أولا – ظروف العصر وطبيعته :

ولقد تعرضنا لهذا الموضوع من قبل(١) ، حيث ألمحنا إلى أن الظروف البيئية ، والحالة الثقافية كانت تدعو دعوة ملحة ، إلى ترسم خطى العربية فى أجمل صورها ، وأن هذه الظروف هى التى حتمت دراسة اللغة العربية ، خدمة للثقافة الإسلامية من جهة ، وخدمة للدولة من جهة أخرى .. هذا ما عناه السلجوقيون حين حضوا على نشر العلم ، وافتتحوا المدارس النظامية من أجل ذلك .

ويرتبط بهذا العامل الأول – عامل ثان وهو تلبية الحاجة التعليمية فى المدارس . وهذا ما يدعونا إلى القول بأن شروح الشعر – فى هذا الوقت – كانت مرحلية متدرجة ، وليس أدل على ذلك من أن التبريزى نفسه حين تصدى لشرح الحماسة ، وهى أهم كتب الإختيار التى توافق عليها ذوق

---

(١) فى الفصل الثانى من الباب الأول .

العصر(١) — شرحها ثلاث مرات ، وبطرق مختلفة ، وبأحجام متفاوتة ، شرحها شرحاً مستوفى (٢) ، بيد أن هذا الشرح جاء متوسعاً كبيراً ، يتطلب كداً ، وسعياً مجداً ، ولم يجد قبولا أو تجاوباً من الدارسين أو القارئين ..

ثم شرحها شرحاً مجملا موجزاً صغيراً ، فكان هذا الشرح غير مجد — كذلك — لا يفى بإلتزامات القوم التعليمية ، ولا حاجتهم الثقافية ، ولا يجيب على تساؤلاتهم وإستفساراتهم .

فنراه يتصدى لشرحها — مرة ثالثة — شرحاً متوسطاً معتدلا ، يتناول فيه من كل علم بطرف ، ولا يتطرق كثيراً أو يتوسع فى حل المشكلات .. بل يعرض للأمور ببساطة وسهولة ، لعله يقرب من قلوب وعقول قارئيه وطلاب علمه(٣) :

ثالثاً — حاجة القوم إلى تلخيص الشروح السابقة ، وإعادة شرح التراث الشعرى بطريقة جديدة ، عمادها التقريب والتسهيل ، ولعل ذلك — بالإضافة إلى العاملين السابقين — ما دعاه إلى اختصار شرحه على القصائد — وغيره — لأن الشروح .. « قد طالت بإيراد اللغة الكثيرة ، والإستشهادات عليها ، والغرض المقصود منها معرفة الغريب ، والمشكل من الإعراب ، وإيضاح المعنى ، وتصحيح الروايات ، وتبيينها مع جمع الإستشهادات ، التى لابد منها من غير تطويل يمل ، أو تقصير بالغرض يخل »(٤) .

رابعاً — حاجة القوم إلى الإستيفاء والتكميل ، ورغبتهم فى شرح ما أهمل من الأبيات ، وإيضاح المشكلات(٥) .

---

(١) أنظر مقدمته لشرح المفضليات ص ٢ .

(٢) يوجد الجزء الأول من هذا الشرح مخطوطاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٩٥ أدب وبهامشها تقييدات كثيرة ، ويشمل هذا الجزء شرح باب الحماسة فقط .

(٣) أنظر مقدمته على الحماسة ، وأنظر وفيات الأعيان ٥/٢٣٩ .

(٤) شرح القصائد العشر ، ص ٨ .

(٥) شرح لما سقط الزند ، ص ٤ .

خامساً – تمييز ما ذكره العلماء من معنى أو إعراب ، وشرح ما اختلفوا فيه ، وترجيح بعض أقوال العلماء فيه على بعض(١) .

سادساً – تلبية لرغبة علية القوم من عشاق الأدب(٢).

سابع هذه الدوافع وآخرها – دافع ذاتى ، من وجهة نظر التبريزى نفسه وهو إعتقاده بقصور الشروح السابقة عن الوفاء بحاجة القوم العلمية والثقافية ، لأن كثيراً من العلماء الذين شرحوا الأشعار ، لم يستطيعوا أن يوفوها حقها ، فكانت أعمالهم ناقصة ، لابد من السعى لتلافى قصورها ، ويضرب لذلك مثلا بشرَّاح الحماسة : « منهم مَنْ قصرَّ فيه ، ومنهم من شغل بجانب آخر .. »(٣) وشراح المعلقات ، ضَلُّوا الطريق حين ظنوا أن الشرح مشكلات لغوية ونحوية وحشد للشواهد(٤) .

وكان نتيجة لهذا كله ، أن أخذ التبريزى على عاتقه مسئولية تهذيب تلك المؤلفات ليضع مصنفات تتجنب ما إنزلق إليه أسلافه ، وتنسق جهودهم(٥) .

فماذا فعل الرجل ؟ ..

لقد جمع بين يديه تراث الأقدمين شعراً وشرحاً ، وأخذ ينظر فى عناصر الشرح المختلفة ، ليستخرج منها ما يريد أن يضمنه شروحه ، حتى تظهر وكأنها اكتست أثواباً جديدة ، فى نسيجها ، وفى شكلها ، وفى مظهرها :

---

(١) أنظر خطبته على شرح الحماسة ١/٦ ، وخطبته على شرح ديوان أبى تمام ١/٢ .

(٢) يقول فى خطبة شرح سقط الزند (ص ٤) : « ورأيت جماعة من وجوه الكتاب والرؤساء من أهل الأدب وعيون الناس يرغبون شرحه » ، ويقول فى خطبة شرح القصائد العشر (ص ٣) : « سألتنى – أدام الله توفيقك – أن ألخص لك شرح القصائد السبع .. » ويقول فى شرح ديوان أبى تمام (ص ٢) : « .. وإنما حثنى على الإشغال به (أى بالشرح) – مين المولى أبى نصر محمد بن عماد الدين مولى أمير المؤمنين إلى شعره .. » .

(٣) مقدمة شرح الحماسة ١/٦ .

(٤) مقدمة شرح القصائد العشر ص ٨ ؛ وأنظر مقدمته لشرح ديوان أبى تمام .

(٥) فخر الدين قباوة ص ٦٩ من رسالة الدكتوراه .

ثم بدأ منهجه .. فأخذ يؤلف بين محاسن ما قدمه السلف من العناصر التفسيرية ، ويجمع بين ما أنتجته قرائح العلماء من مناهج علمية ، فكان تصنيعه .. تكميل ما نقص ، وتهذيب ما تكاثر ، وتشذيب ما تنافر ، وتلفيق ما توافق .. وكانت النتيجة — أن أخرج لنا مصنفات تفسيرية مصنوعة تشمل كل عناصر الشرح ، وتضم بين أعطافها خلاصة شروح القدماء ..

إن مصنفاته — كما وجدناها — المحصلة الجمعية لشروح السابقين أجمعين ، على إختلاف عصورهم ومناهجهم ، ملخصة مهذبة ، متكاملة منسقة ، منتخبة محققة .. من خلالها نستطيع أن نرى صور الشراح السابقين ، بل نكاد نسمع أصواتهم بألفاظهم وتعبيراتهم .

لهذا قلنا : إن التبريزى جامعٌ منتخِب ، مكمِّل منسِّق ..

وحتى لا نتهم بأننا نضع نتائج بلا مقدمات ، أو نلقى الكلام على عواهنه سنثبت صحة وصدق ما نقول ..

فلننظر أولا فى شرح القصائد العشر ..

فهذه القصائد ، من الثابت علمياً ، أنها شرحت مراراً ، وممن ساهم فى بناء هذا التراث التفسيرى — كبار العلماء كالأصمعى ، وأبى سعيد الضرير ، وأبى الحسن ابن كيسان ، وأبى بكر ابن الأنبارى ، وأبى جعفر النحاس ، وابن درستويه ، وأبى على القالى ، وأبى منصور الأزهرى ، وأبى زيد القرشى وأبى أسامة الأزدى الهروى ، وأبى عبد الله الزوزنى ، وأبى بكر البطليوسى (١) وحين رغب إليه بعض معاصريه أن يصنع شرحاً ملخصاً لها ، إلتقت رغبة هذا المعاصر ، مع منهج التبريزى ، فكان أن شرع فى صنعة كتاب يشرح فيه تلك القصائد ..

ترى كيف شرح التبريزى هذه القصائد ؟ وعلى من كان إعتماده ؟ ..

---

(١) فخر الدين قباوة ، شرح القصائد العشر للتبريزى — مقدمة للتحقيق ص ٨ . وهى النسخة الوحيدة المحققة علمياً . أنظر منهجه فى تحقيقها ص ١٢ وما بعدها .

سنعرض بعض النماذج ــ كاملة ــ ثم نجيب على هذه التساؤلات ..

١ ــ البيت الأول من معلقة امرىء القيس :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

رفع التبريزى نسب الشاعر(١) ، ثم شرح البيت فقال :

« من الضرب الثانى من الطويل ، والقافية متدارك ، «السَّقط » ما تساقط من الرمل(٢) ، وفيه ثلاث لغات : سِقْط وسَقْط وسُقْط ، و« اللِّوى » حيث يسترق الرمل فيخرج منه إلى الجدد ، وقوله : « قفا » فيه ثلاثة أقوال : أحدهما : أن يكون خاطب رفيقين له . والثانى : أن يكون خاطب رفيقاً واحدا ، وثنّى لأن العرب تخاطب الواحد مخاطبة الإثنين ، قال الله تبارك وتعالى مخاطباً لمالكٍ « أَلْقِيَا فى جَهَنَّمْ » .

وقال الشاعر :

فإن تَزْجراني يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ
وإنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عرضاً مُمَنَّعا

أبيتُ علَى بَابِ القَوَافِي كأنَّمَا
أُصَادِي بها سِرباً من الوحش نُزَّعا

وقال آخر :

فقلتُ لِصاحِبِي : لاَ تَحْبِسَا نَا
بِنَزْعِ أصولِهِ ، واجتزَّ شيحَا

والعلة فى هذا ــ أن أقل أعوان الرجل فى إبله وماله إثنان ، وأقل الرفقة ثلاثة ، فجرى كلام الرجل على ما قد ألف من خطابه لصاحِبَيْه(٣) ، قالوا : والدليل على أنه خاطب الواحد قوله :

---

(١) سياقة النسب من ابن الأنبارى .

(٢) من النحاس .

(٣) من ابن الأنبارى .

أصاحِ تَرَى برقاً أريكَ وَميضَهُ

والبصريون ينكرون هذا لأنه إذا خاطب الواحد مخاطبة الإثنين وقع الإشكال ، وذهب المبرد فى قوله تعالى : « ألْقِيَا فى جَهَنَّم » إلى أنه ثَنَّاه للتوكيد ، معناه « أَلْقِ أَلْقِ » ويخالفه الزجاج فقال : « ألقيا » مخاطبة الملكين وكذلك « قفا » إنما هو مخاطبة صاحبيه »(١) .

والقول الثالث : أنه أراد : قِفَن ، بالنون ، فأبدل الألف من النون ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ، وأكثر ما يكون هذا الوقف . و« نَبْكِ » مجزوم لأنه جواب الأمر والجيد أن يقال : « نَبْكِ » جواب شرط مقدر ؛ كأن التقدير : قفا ، إن تقفا نبك ، لأن الأمر لا جواب له فى الحقيقة ، ألا ترى أنك إذا قلت للرجل : أطع الله يدخلك الجنة ، فإنما معناه : أطع الله إن تُطعه يُدْخِلك الجنة ، لأنه لا يدخل الجنة بأمرك ، إنما يدخلها إذا أطاع الله ، و« ذكرى » والذِّكر واحد ، وقوله « من ذكرى » مِنْ تتعلق بـ « نبك » وذكرى جُرَّ بـ « مِنْ » وهى مضافة إلى الحبيب ، و« المنزل » نَسَقٌ على الحبيب ، والباء من قوله « بِسِقْط اللوى » يجوز أن تتعلق بـ « قِفَا » وبـ « نَبْكِ » وبقوله « منزل » . وقوله « بين الدَّخول فحَوْمل » دخول : موضع ، وحَوْمل : موضع آخر(٢) .

وكان الأصمعى يرويه « بين الدَّخُول وحومل » ، ويقول : المالُ بين زيدٍ فعمرو ، وإنما يقال : بين زيد وعمرو ، ومن رواه ، « فحومل » بالفاء ، يقول : إن الدخول موضع يشتمل على مواضع ، وكذلك حومل(٣) .

هذا هو شرح التبريزى على البيت ، ونلاحظ أنه نهج المنهج التالى فى شرحه

١ ـ نقل سياقة النسب من ابن الأنبارى :

---

(١) من النحاس .

(٢) إلى هنا من ابن الأنبارى .

(٣) من النحاس وحتى آخر الشرح .

٢ ـ نقل عروض البيت ونوع قافيته ، وتفسير لفظة « السِّقْط » من النحاس .

٣ ـ نقل تحليل اللغة من أول قوله « وفيه ثلاث لغات .. » حتى قوله : « من خطابه لصاحبيه » بجميع شواهده من ابن الأنبارى .

٤ ـ نقل الشرح ـ من أول قوله : « قالوا والدليل » حتى قوله : « مخاطبة صاحبيه » من النحاس .

٥ ـ نقل القول الثالث من اللغة ، وحتى قوله « موضع آخر » من ابن الأنبارى .

٦ ـ نقل رواية الأصمعى وشروحه اللغوية وحتى آخر الشرح من النحاس .

٢ ـ البيت الأول من معلقة طرفة بن العبد(١) :

لِخَوْلَةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ
تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فى ظاهرِ اليَدِ

رفع التبريزى نسب الشاعر(٢) ، ثم قال فى شرح البيت :

« خولة » امرأة من كلب ، و« الأطلال » واحدها طلل ، وهو ما شخص من آثار الدار ، و« ثَهْمَد » اسم موضع ، و« البرقة » والأبرق والبَرْقاء: كل رابية فيها رمل وطين ، أو حجارة وطين يختلطان(٣) ، فمن أنث ذهب إلى البُقْعة ، وذكرَّ ذهب إلى المكان ، و« أطلال » يرتفع بالإبتداء ، وإن شئت بالظرف(٤) وتعلق الباء إن شئت بـ « أطلال » وإن شئت علقت الباء والكاف بـ « تلوح »(٥) ، و« تلوح » يبدو ، يقال : لاح يلوح إذا ظهر ، وألاَح إذا لَمَع ، وألاح الرجل بثوبه وسيفه إذا لمع بهما ، وإذا علقت الباء بـ « أطلال » كان « تلوح »(٦) فى موضع نصب

---

(١) شرح القصائد العشر ص ٨٥ .

(٢) سياقة النسب من ابن الأنبارى .

(٣) حتى هنا من ابن الأنبارى .

(٤) من النحاس .

(٥) إلى هنا من ابن الأنبارى .

(٦) إلى هنا من النحاس .

على الحال من الذِّكر الذى فى الباء من الأطلال ، والكاف فى قوله : « كباقى الوشم » فى موضع نصب ، و« الوَشْم » : أن يُغَرَّز بالإبر فى الجلد ثم يُذَرّ عليه الكحل والنؤور فيبقى سواده ظاهِراً(١) .

ويروى(٢) : « ظَلِلْتُ بها أبكى وأبكى إلى الغد » يقال(٣) : ظل يفعل كذا ، إذا فعله نهاراً . ويقال : ظَلْتُ وظِلْتُ بمعنى ظَلِلْتُ ، فمن قال : ظَلْتُ بفتح الظاء حذف إحدى اللامين لإلتقاء حرفين من جنس واحد ، ومن قال : « ظِلْتُ » بكسر الظاء حذف إحدى اللامين وكَسَر الظاء ليدل على المحذوفة » .

هذا هو شرح التبريزى لبيت طرفة ، فلننظر كيف تصرف فى شرحه كمقدمة لشرح المعلقة :

١ — نقل سياقة النسب من ابن الأنبارى .

٢ — لم يجد ذكراً لعروض البيت أو نوع قافيته ، فتجاهل أمرهما .

٣ — نقل تفسير ابن الأنبارى من أول الشرح إلى قوله « يختلطان » .

٤ — نقل تفسير النحاس من أول قوله « فمن أنث » إلى « بالظرف » .

٥ — نقل تفسير ابن الأنبارى من أول قوله « وتعلق بالباء » إلى بـ « تلوح » .

٦ — نقل تفسير النحاس من أول قوله « وتلوح » إلى «كان تلوح » .

٧ — نقل تفسير ابن الأنبارى من أول قوله « فى موضع نصب » إلى « ظاهراً » بتقديم وتأخير .

٨ — نقل الرواية الثانية من ابن الأنبارى —وهى روايته العليا .

٩ — نقل تفسير النحاس من أول قوله « يقال : ظل يفعل كذا .. .. » إلى آخر شرح البيت .

---

(١) إلى هنا من ابن الأنبارى بتقديم وتأخير .

(٢) هذه رواية ابن الأنبارى .

(٣) من هنا ولآخر الشرح من النحاس .

٣ ــ مطلع قصيدة زهير بن أبي سلمى المعلقة(١) :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ
بحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ذكر التبريزى اسم الشاعر ورفع نسبه(٢) كمقدمة لشرح المعلقة ، ثم قال فى شرح البيت : « التقدير : أمِنَ دِمَن أمّ أوفى دِمْنَةٌ ، لأن « مِنْ » ها هنا للتبعيض ، فأخرج الدمنة من الدِّمَنْ ، وروى أن بعض المتقدمين وقف على معاهد فقال : أين مَنْ شَقَّ أنهارك ، وغَرَسَ أشجارك وجنى ثمارك ؟ ثم قال : إن لم تتكلم حواراً تكلمت اعتبارا .. وقال أهل النظر فى قول الله عز وجل « فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين » إنه إنما كانت إرادة ، فكانت على ما أراد(٣) و « الدمنة » آثار الناس وما سَوَّدوا بالرّماد وغيره ، فإذا إسوَدَّ المكان قيل : قد دُمِّنْ . والدِّمن ، البَعَرُ والسَّرْجين(٤) . و « الحومانة » المكان الغليظ المُنْقَاد ، وقيل : الحومانة ، القطعة من الرمل ، وجمعها الحَوْمان والحوامين (٥) ، و « الدراج » بفتح الدال وضمها ، وحومانة الدراج والمتَثَلَّم : موضعان بالعالية منقادان »(٦) .

لقد اتبع التبريزى فى شرح هذا البيت الخطوات التالية :

١ ــ نقل التعريف بزهير ونسبه من ابن الأنبارى .

٢ ــ اعتمد الرواية العليا لابن الأنبارى ووضعها فى المتن .

---

(١) شرح القصائد العشر ، ص ١٥٤ .
(٢) التعريف بزهير من ابن الأنبارى .
(٣) من بداية الشرح حتى هاهنا من النحاس .
(٤) حتى هاهنا من ابن الأنبارى .
(٥) حتى هاهنا من النحاس .
(٦) من قوله (والدارج) إلى آخر الشرح من الأنبارى .

٣ – نقل الشرح من أوله وحتى قوله « فكانت على ما أراد » من النحاس

٤ – نقل الشرح من أول قوله « والدمنة » إلى « والسرجين » من ابن الأنبارى .

٥ – نقل الشرح من أول قوله « والحومانة » إلى « الحوامين » من النحاس

٦ – نقل بقية الشرح من ابن الأنبارى .

من هذه النماذج وغيرها – وبعملية إستقرائية – نستطيع أن نخلص إلى أن التبريزى فى شرحه على هذه القصائد – بالإضافة إلى باقى القصائد السبع ، قد نقل من شرح ابن الأنبارى : التعريف بالشعراء ، ورفع أنسابهم ، وكثيرا من اللغة والمعانى ، وقليلا من الإعراب والصرف ، وبعض الأخبار التاريخية .

ونقل من شرح النحاس : بعض اللغة ، وأكثر المعانى الكلية للأبيات ، والتفريعات الإعرابية والصرفية .

هذا عن القصائد التى شرحها كل من ابن الأنبارى والنحاس .

ولكن ابن الأنبارى فى كتابه « شرح القصائد السبع الطوال » لم يشرح معلقة الأعشى (١) أو معلقة النابغة الذبيانى(٢) ، أو معلقة عبيد ابن الأبرص(٣) لذلك لم يجد التبريزى مفرا من الإعتماد على النحاس وحده فى شرح معلقتى الأعشى والنابغة . أما معلقة عبيد بن الأبرص ، فقد تاه التبريزى وحار بين أبياتها لا يجد ما يقوله .

أنظر تفسيره على مطلعها :

أَقْفَرَ مِنْ أَهلِهِ مَلْحُوبُ فالْقُطْبِيّاتُ فالذَّنُوبُ

قال : هذه كلها مواضع .

(١) أنظر شرح القصائد العشر ص ٤٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٧٥ .

أما بقية أبياتها فتكاد تكون عاطلة من الشرح ، ليس عليها سوى تعليقات طفيفة .

والسؤال الآن : لِمَ لَمْ ينقل التبريزى شرح القصائد التسع إلا من شرح ابن الأنبارى والنحاس فقط ؟ .

إن الإجابة الصريحة الواضحة هى .. إنه لم يصل إلى علمه أو إلى يديه شروح على هذه القصائد لعلماء آخرين .

ولننتقل الآن إلى شرح المفضليات ..

هذه القصائد من الثابت علميا أنها شرحت كثيرا(١) قبل التبريزى .

شرحها الأنبارى(٢) – أبو محمد القاسم بن محمد المتوفى سنة ٣٠٥ هـ .

وشرحها الأخفش الأصغر (٣) – على بن سليمان المتوفى سنة ٣١٥ هـ .

وشرحها النحاس(٤) .. كما شرحها المرزوقى(٥) .

وذكر التبريزى أن هذه الشروح فيها المقنع والكفاية ، ولكن معاصره – وهو من مؤثرى الإيجاز والتسهيل – لم يرض عن هذه الشروح السابقة ، لأن بعضها « قد طال لكثرة ما ذكر فيه من اللغة الغريبة ، والإستشهادات عليها ومع طوله فكثير من معانى الشعر غير معلوم منه ، وبعض الشروح يذكر فيه فى البيت ما يتعلق به وما لا تعلق له به ، وإيراد ما لا يحتاج إليه البيت

---

(١) اعترف التبريزى نفسه بذلك ، ونص عليه فى خطبته على الشرح ص ٣ (من الرسالة المخطوطة) .

(٢) نشر هذا الشرح المستشرق لايل سنة ١٩٢٠ م .

(٣) فهرست ابن خير ، ص ٣٤٠ .

(٤) بغية الوعاة ص ١٥٧ ، وكشف الظنون ص ١٠٤٣ .

(٥) ويوجد منه نسخة ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية . وقد نشر لايل جزءاً منه وألحقه بنسخة الأنبارى . وللميدانى – معاصر التبريزى (توفى سنة ٥١٨ هـ) شرح كذلك على المفضليات ، ذكره السيوطى فى بغية الوعاة ص ١٥٥ ، وأنظر إرشاد الأريب ١٠٨/٢ ، وكشف الظنون ص ١٠٤٣ .

يطول به الكتاب . »(١) وألح عليه الإيجاز والإقتصار على ما يعرف به ما فى الشعر دون ما يتشعب من اللغة والإعراب ، لئلا يشغل القارىء منه ، والناظر فيه عن الغرض المقصود ، فأجابه إلى ملتمسه .

كيف شرح التبريزى المفضليات ؟ وما هى مصادره ؟ وما هو منهجه ؟ سنستعرض بعض هذه النماذج من شرحه كاملة ، لنستنطقها بالرد على هذه التساؤلات .

١ – المفضلية الأولى – مفضلية تأبط شرا(٢) :

يا عيدُ ، مالَكَ منْ شوقٍ وإيراقِ

ومرّ طيفٍ على الأَهْوالِ ، طَرّاقِ

قال التبريزى بعد أن عرّف بتأبط شراً ورفع نسبه(٣) :

« قوله (يا عيدُ) يريد (يا أيها المتعادى) مالك من شوق وإيراق ، كما يقول : مالك من فارس قاتلك الله ، وأنت تمدحه(٤) . و (يا عيد) نداء مفرد معرفة ، وذلك أنه بطول الألف له ، واتصال المقاساة له ، صار عنده كالشيء المخصوص المعين ، فكأنه قال : يا أيها العيد ، واشتقاقه من العود الذى هو الرجوع ، إلا أنه جعل الياء منه عوضاً لازما ، فكأنه صار إسما لما اعتاد الإنسان من حزن أو مرض أو شوق ، ومعنى العوض اللازم أن الواو بزوال الكثرة التى قبله ، لا يعود فى تصاريفه ، ولم يجر مجرى واو « ريح » و « قيل » إذا قلت : أرواح وأقوال ، فكأن العيد لا مناسبة للإشتقاق بينه وبين ما يصح الرجوع منهفيجرى عليه . وعلى هذا قيل لليوم الجديد : العيد ، وعادنى عيدى أى عادتى ، وورد لعيده أى لوقته وتوسعوا فيه فقالوا :

---

(١) من خطبة التبريزى على شرح المفضليات ، ص ٣ .

(٢) شرح اختيارات المفضل ص ٤ – ٥ ، الجزء الأول من الرسالة المخطوطة .

(٣) التعريف بتأبط شرا من الأنبارى .

(٤) الشرح من الأنبارى .

هو « معاود عليه » أى مواظب ، وهو معيد له أى : حليق ، وفحل معيد ، أى : معتاد للضراب ، ومثل « العيد » فى لزوم الياء فى قولهم « أعياد » قولهم « العلياء » لأنه من العلو . وليس فيه ما يقتضى قلب الواو ياءً ، لكنهم أرادوا أن يختص بهذه البنية مسماة حتى كأنه ليس من العلو فى شىء فقالوا : « العلياء » .

وقوله « مالك »(١) لفظه استفهام ومعناه التعجب ، وهم يقولون : « يا لك من رجل ورجلا » ، و« ما أنت من رجل » و :

يا فارساً ما أَنْتَ من فارس

و« الطيف » : الخيال ، يقال طاف يطوف ويَطيف طيفاً وطوفاً ، وقيل : أصل طيف : طيّف فخفف ، و« طرّاق » فعّال من الطروق ، لا يكون إلا ليلا ، وهو بناء للمبالغة ، وليس باسم الفاعل لـ « طَرَق » مخففاً ولا لـ « طرّق » مشددا لأن فاعلهما : طارق ، ومطرّق .

وروى بعضهم (٢) « يا عيدَ مالك » على الإضافة ، ويكون « ما » بمعنى الذى ، و« لك » من صلته ، كأنه قال : يا عيدَ الذى لك من شوق ، والمراد : يا عيد شوقك ، على وجه التعظيم ، كما قرىء (يا بُشْرَاى هذا غلام) كأن ما عدده أسباب العيد الذى يأتيه ويقلقه .

ويروى(٣) : « يا هَيْدَ مالك من شوق » وهذا على ما حكى عنهم أنهم يقولون لمن يأتيهم : يا هيدَ مالك ، ويا هَيدَ ما لأصحابك ، ويا هيدَ ما أصحابك ؟ . ويقولون : أتاهم فما قالوا له : هيد مالك ، ويا هيد مالك ؟ أى ما أمرك ؟ والهَيْدُ فى اللغة التحريك والإزعاج ، فيكون المعنى : يا مزعجى ومحركى مالك ؟ . وقوله(٤) : « على الأهوال » أى : على ما

---

(١) الشرح من المرزوقى .

(٢) الرواية والتفسير من المرزوقى .

(٣) الرواية من الأنبارى وهى فى المرزوقى . والشرح من المرزوقى .

(٤) من المرزوقى (بتصرف) .

يعرض فى الطريق من الأهوال . ومعنى البيت على الرواية المشهورة : يا أيها المعتاد أى شيء لك ، أى يجتمع لى بك ، من شوق مزعج ، وسهر مقلق وخيال يأتى ، على ما يعرض له من الأهوال .. » .

إذا نظرنا كيف فسر التبريزى هذا البيت نجده اتبع المنهج التالى :

١ — عرف بالشاعر ورفع نسبه نقلا عن الأنبارى .

٢ — نقل شرح الأنبارى من أوله .. وحتى (وأنت تمدحه) .

٣ — نقل الشرح بعد ذلك بما فيه من تحليلات نحوية ولغوية إلى قوله « العنياء » من المرزوقى .

٤ — نقل الشرح من بداية قوله « وقوله مالك » إلى آخر الشرح من المرزوقى أيضاً .

٥ — ذكر رواية المرزوقى ونقل شرحها فى القسم الأخير من الشرح .

٦ — ذكر رواية الأنبارى ونقل شرحها من المرزوقى .

٧ — نقل شرح (وقوله : على الأهوال) من المرزوقى بتصرف .

٨ — نقل معنى البيت من المرزوقى بتصرف كذلك .

٢ — المفضلية السابعة ، مفضلية الحادرة ، البيت الثالث (١) :

وتَصَدَّفَتْ حَتَّى استَبَتْكَ بِوَاضِحٍ
صَلْتٍ ، كَمُنْتَصَبِ الغَزَالِ الأَتْلَعِ

« تصدّفت : يجوز أن يكون تفعّلت من صادفتُ فلانا إذا لقيتَهُ ، ويكون المعنى : تعرضت لى حتى فتنتنى بمحاسنها ثم تمنّعت . ويجوز أن يكون « تصدفت » بمعنى « أعرضت ، وانحرفت » يقال : صدفت عنى صدوفاً ، والمعنى : أظهرت بتمنعها زهداً فىّ ، والهوى يَلَجُّ بى ويُذلّنى لها حتى ملكتنى بمحاسنها(٢) ، ثم أخذ بعدد تلك المحاسن .

---

(١) شرح اختيارات المفضل ص ٧١ ، من رسالة الدكتوراة المخطوطة — وهى الثامنة فى شرح الأنبارى والثامنة فى شرح المرزوقى .

(٢) الشرح حتى هاهنا من المرزوقى .

وقوله « حتى إستبتك » أى جعلتك سَبِيا لها ، يقال : جاء السيل بعود سَبِىٍّ، أى غريب ، و« حتى » بمعنى : إلى أن ، أى : تعرضت ، أوأعرضت وولّت ، إلى أن إستبتك ثم توقفت ، ولا يمتنع أن يكون « حتى » بمعنى اللام ، والمعنى : تصدفت لتستبياك . و« الواضح » الناصع الخالص ، يعنى : أبيض ، و« الصلت » المشرق الظاهر ، وقوله « كمنتصب الغزال » شبه عنقها لطولها بجيد الغزال .. »(١) .

اتبع التبريزى فى شرح هذا البيت الخطوات التالية :

١ – أولا عرف بالشاعر ورفع نسبه – فى مقدمة المفضلية – من شرح الأنبارى(٢) .

٢ – أخذ برواية المرزوقى على البيت وجعلها الرواية العليا .

٣ – نقل الشرح من المرزوقى حتى قوله « حتى ملكتنى بمحاسنها » .

٤ – نقل بقية الشرح من الأنبارى .

من هذين المثالين – وبقية الشرح – نجد أن المصدر الأساسى للتبريزى – فى شرح المفضليات هما :

الأنبارى والمرزوقى ، ينقل عنهما الرواية والشرح ، وإن كان من أوضح الأمور ، أنه يعتمد على الأنبارى فى التعريف بالشعراء ، ورفع أنسابهم ، وبعض اللغة . وكثيراً ما يعتمد على المرزوقى فى المعانى والتوجيهات النحوية ، والتحليلات الإشتقاقية ، والإشارات البلاغية ، ونقد الشعراء والشراح وغيرهم

هذا هو الأصل العام فى شرح التبريزى على المفضليات ، يستند على هذين العالمين معاً .. رواية وشرحا بجميع عناصرهما . فإذا عرفنا « أنه أحيانا قد

---

(١) الشرح حتى هاهنا من الأنبارى (والتلع إشراق العنق ، وكمنتصب الغزال : يدل على أنه أراد بقوله « واضح صلت » الخد بما وليه من العنق) من الأنبارى .

(٢) ص ٤٩ – ٥١ .

يستوفى شرح مفضلية برمته تقريباً من أحد هذين الشرحين ، كالذى نلقاه فى شروح المفضليات ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٧٣ التى نقلها أو إقتبسها من الأنبارى ، وشروح القصيدتين ٥٥ ، ٨١ التى نقلها أو إقتبسها من المرزوقى (١) » . أدركنا أن الرجل قلما يحيد عن هذين المصدرين ، وقلما يعمل فكره أو يقلب فى شروح غيرهما .

أما فى شرح الحماسة ، فمن الممكن أن نرد شروحه عليها إلى مجموعة كبيرة من العلماء نظراً لإهتمامهم بهذا اللون من الإختيارات . « فديوان الحماسة — شرحه كل من أبى بكر الصولى ، وأبى الندى ، وأبى رياش أحمد بن إبراهيم الشيبانى ، وأبى محمد الديمرتى الأصبهانى ، وأبى القاسم الأموى ، وأبى عبد الله النمرى ، وأبى الفتح ابن جنى ، وأبى هلال العسكرى وأبى المظفر الهروى ، وأبى عبد الله الخطيب الإسكافى ، وأبى على المرزوقى ، وأبى محمد الأعرابى الأسود ، وأبى عبد الله البرقى ، وأبى العلاء المعرى ، وابن سيده ، وأبى القاسم الفسوى ، وأبى الفضل الميكالى ، وعبد الله بن أحمد الشاماتى ، والأعلم الشنتمرى ، وعلى بن محمد البيارى ، وعبد الله بن ابراهيم الحبرى ، وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى »(٢) . لذلك وجد التبريزى بين يديه شروحاً عدة ، مختلفة المناهج ، متنوعة المذاهب ، أخذ ينقلها ويختار منها ما يوافق هواه ، ويفى بمنهجه الذى حدده بنفسه فى صدر الشرح ، وهو إستيفاء حقها فى الشرح ، وتلافى قصورها ، وإستكمال جوانبها المتعددة ، بشرح أبياتها « بيتا بيتا على الولاء ، وتبين أساس شعراء الحماسة وغيرهم ممن يجرى ذكره فى الكتاب ، وتفسير ما فى كل بيت من الغريب والإعراب والمعنى ، وذكر ما اختلف فيه العلماء فى المواضع التى اختلفوا فيها ، وإيراد الأخبار فى أماكنها »(٣) :

---

(١) فخر الدين قباوة — رسالة الدكتوراه ص ١٦٣ .

(٢) فخر الدين قباوة — رسالة الدكتوراة ص ٧٦ .

(٣) شرح الحماسة ١-٥ .

وأظننا لسنا فى حاجة إلى إستعراض الكثير من النماذج والشواهد — كما فعلنا من قبل — لنتعرف على منهج الرجل فى شرح الحماسة ، أو مصادره .. فنحن نستطيع أن نقول نتيجة لما لنا من خبرة طويلة فى معايشة الشروح ومدارستها ، ونتيجة لإستقراء مئات الشواهد ، أن التبريزى كان يستمد تحليل أسماء الشعراء وإشتقاق أسماء الأعلام الواردة فى الشعر من أبى هلال العسكرى وابن جنى ، وأبى العلاء المعرى ، وأبى رياش .

ويعتمد رواية ابن جنى والمرزوقى غالباً ، وكثيرا ما يقارن بينهما .

وينقل أخبار الشعر وأحداثه التاريخية من أبى رياش ، وأبى هلال العسكرى وأبى محمد الأعرابى .

وينقل اللغة والنحو ، والتحليلات والتصريفات من أبى العلاء المعرى وابن جنى .

ويصحح نسبة الشعر إلى قائليه عن طريق أبى رياش .

وينقل معانى الشعر من النمرى والمرزوقى .

ويحدد مفاهيم علوم البلاغة ، ومضامين الكلام ، والقيم التصويرية عن طريق المرزوقى . أما عناصر النقد — المتعددة — فمصدرها الأول المرزوقى ، ثم أبى محمد الأعرابى وأبى هلال .

هذا عن العناصر الأساسية التى وجدناها فى شرح التبريزى على الحماسة ، وليس هذا فحسب ، بل إننا نجد شروحا كثيرة متنوعة ، نقلها من شرح أبى الندى والديمرتى وغيرهما . لذلك كان شرحه على الحماسة أغزر شروحه مادة ، وأكثرها تنوعا ، وأكملها تضمينا للعلوم اللغوية والبلاغية والإخبارية والتاريخية والنقدية ، وأشملها بالأوزان والأنساب وأدلها على منهجه ، لا لشىء إلا لكثرة مصادره ، وغزارة مادة الشروح .. بعكس ما وجدناه فى شرح القصائد العشر ، وشرح المفضليات حيث كان مصدره فى كل منها عالمين فقط .

فهو يجعل من شرحه معرضاً واسعا ، يعرض فيه تفاسير العلماء السابقين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وتخصصاتهم .. يضع هذه التفاسير جنبا

إلى جنب أمام بصر القارىء وعقله دون أن يعلق بكلمة ، أو يدلى برأى ، وكأنه يقول له « إختر ما تحب » أو ما يتراءى لك .. ويوافق ذوقك .

أنظر كيف جمع تفسير أبى رياش والأعرابى الأسود ، والمرزوقى — معاً حول بيت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب :

وَلاَ تَرِدُوا إلاَّ فُضُـــولَ نسائكُمْ
إذا إرْتَمَلَتْ أعْقَابُهُنَّ من الدَّم

قال التبريزى : « **قال أبو رياش** : يقول : إذا قبلتم الدية فلا تأنفوا بعدها من شىء كما تأنف العرب ، واغشوا نساءكم وهن حيض ، والفضول هنا بقايا الحيض ، وسمّى الغشيان وِرْداً مجازاً .

وقال أبو محمد الأعرابى : « معناه : لا تردوا المواسم بعد أخذ الدية إلا وأعراضكم دنسة من العار ، كأنكم نساء حيض .

وقال المرزوقى : إذا فعلتم ذلك فتأخروا فى المواطن كلها والمناجع ، وتخلفوا من المشاهد والموارد ، وإلبسوا الذل راضين به ، **فإن** مآل أمركم مع تضييع دم صاحبكم إلى مثل ذلك »(١) .

وأنظر كيف جمع شرح المرزوقى والنمرى وأبى العلاء وأبى محمد الأعرابى وأبى الندى معاً حول بيت الشاعر :

هِلاَلاَنِ حَمَّالاَنِ فى كُلِّ شَتْوَةٍ
مِنَ الثِّقْلِ ما لاَ تستطيعُ الأباعِـــر

قال التبريزى (٢) : « أى هما فى الإشتهار والإنتفاع بمكانهما بمنزلة هلالين ، ويتكلفان فى كل جدب ومحل ، من الأثقال والأعباء ولو صارت أجراماً لعجز عن النهوض بها وتحمّلها البُعْران ، **هذا قول المرزوقى** :

---

(١) التبريزى : شرح الحماسة ١-١١٨ .
(٢) شرح الحماسة ١-١٩١ .

وقال النمرى: أى هذان الرجلان يحملان من أعباء المغارم وأثقال الصنائع ما لو أنه يوزن لم تستطع حمله الإبل، وهى أثقل الحيوان حملا ، وأكثره صبرا .

وقال أبو العلاء : قد تأول النمرى له معنى قد يجوز مثله ، ولكنه بعيد ، وإنما ينبغى أن يحمل الشىء على ما كثر ، وذلك أنه ذهب إلى أن هذين الممدوحين يحملان من قرى الأضياف ، ومن نحر الإبل ، ما لا تستطيعه الأباعر ، أى أنها لا تقوى عليه لأنه يهلكها ، وهذا مجانس قولهم « بنو فلان ظلامون للجزر » .

قال ابن مقبل :

عَادَ الأذِلَّةُ فى دارٍ وكانَ بهَا

خرسُ الشَّقَاشِقِ ظَلاَّمُونَ للجُزُرِ

وقال أبو محمد الأعرابى: سألت أبا الندى عن قوله (هلالان) من هما؟ فقال : هما مرداس وعامر إبنا شماس بن لأى من بنى أنف الناقة ، أمهما من بنى العنبر ، وهما خالا موسى بن جابر الحنفى .

والملاحظ فى هذه الأمثلة .. أن التبريزى كان أمينا ، فذكر مصادره بعكس ما رأينا فى الأمثلة السابقة ، على أنه فى كثير من الأحيان لا يذكرها ، ولا يشير إليها . يقول فى تفسير قول الشاعر :

أتَنْسَى دِفَاعِى عنكَ إذْ أنتْ مُسْلَمٌ

وقَدْ سَالَ من ذُلٍّ عليك قُرَاقِـــرُ

« قوله : « أتنسى دفاعى » لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار أى لِمَ تُنْسَى مدافعتى عنك حين كنت مخذولا لا ناصر معك ، وقُراقِر : اسم وادٍ ، ومن كلامهم : « سال عليك الذل كما يسيل السيل » ، ولا يمتنع أن يكون لحقه ما لحقه من الذل من ناحية قراقر ، فلذلك خصه .. ويقال : أسلمته وسلمته إذا خليت بينه ، وبين من يريد النكاية فيه ، وقد سال فى موضع الحال .. »(١) .

---

(١) التبريزى : شرح الحماسة ١-١٢٦ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٣٧ .

هذا ما ذكره التبريزى فى شرح البيت ، **وهذا هو كلام المرزوقى نقله محذوفا منه بعض التفسيرات ، دون أن يشير إليه** . والحقيقة أننا إذا أنعمنا النظر فى شروح التبريزى على الشعر الجاهلى وغيره(١) — نجد أن المرزوقى هو القاسم المشترك الأعظم فى معظم شروحه ، إن المرزوقى هو المعتمد الأساسى ، وهو المصدر الأول ، والمعين الذى لا ينضب لما استقاه التبريزى من شروح ضمنها مصنفاته. فالمرزوقى دائما فى حضرته، أقواله وتفسيراته ، وتحليلاته فى خدمته ، يستند إليه فى الرواية والمعانى واللغة وعلوم البلاغة والنقد ويجعل من شروحه نقطة الإنطلاق ، يسير بعده يكمله أو يلخصه أو يختصره ، أو يلفق شرحه مع شروح غيره .. أو ينقده إن ظاهرا أو تمويها ، إن تصريحا وإن تلميحا ، والأمثلة على ذلك كثيرة يصعب حصرها . ولننظر الدليل على ذلك .

١ — بيت الأشتر النخعى (٢) :

خَيْلا كأَمْثَال السَّعَالِى شُزَّباً

تَعْدُو ببيض فى الكريهة شُوس

فسره التبريزى على النحو التالى : «**الشُّزَّب : الضُّمَّر ، والشُّوس : جمع أشْوَس ، ويقال شَاسَ يَشُوس وشَوِسَ يَشْوَسُ : إذا عرف فى نظرة الغضب أو الكبر ، وانتصب « خيلا » على أنه بدل من غارة ، وشبة الخيل فى ضمرها وسرعة** (نفارها بالسَّعَالى وهى الغيلان، وقيل بنات الغيلان)(١) ، **وانتصب شزبا على أنه صفة** (الخيل)(٢) **لأن قوله « كأمثال» أيضا صفة ، ويجوز أن يكون حالاللمضمر فى كأمثال السعالى** (والمعنى : خيلا تشابه السعالى فى حال شزوبها وضمرها)(٣) . **وقوله : « تعدو ببيض » أيضا صفة ، أما قوله شزبا وأما للأول** (أى تعدو برجال كرام متكبرين

---

(١) أنظر شرح التبريزى على شرح ديوان أبى تمام . فسترى كيف اعتمد على المرزوقى كثيراً
(٢) التبريزى : شرح الحماسة ١-٧٦ ؛ المرزوق : شرح الحماسة ١-١٥٠ .

فى الحرب ، ذوى أنفة)(٤) . وإذا جمع بين مفردات وجمل فى الوصف ، فالترتيب المختار تقديم المفردات على الجمل ، وقد جاء البيت على ذلك ، والعرب تجعل البياض كناية عن الكرم ، كأنها تريد نقاء العرض ، على ذلك قوله :

* أمك بيضاء من قضاعة *

وكما فعلوا هذا جعلوا الغر كناية عن الكرام ، وربما قالوا غران

وأما قولهم : «بيض الوجوه» فالمراد أنهم لم يفعلوا شيئا يشينهم ، فيغير لونهم عند ذكره ، وقد قالوا فى ضده « أوجههم كالحمم » و « سود الوجوه » .

(ويجوز أن يعنى بالبيض المشورين ، ويجوز أن يعنى أنه لا تكسف ألوانهم عند الكريهة) (٦) . قوله : « فى الكريهة » الكريهة(٧) للحوق الهاء بها الحق (٧) بباب الأسماء ويستعمل فى نوازل الدهر (وشدائد الأمر)(٩) وهو ظرف إن شئت لما دل عليه قوله « بيض » من الكرم ، وإن شئت لقوله شُوس ، والكرم فى الكرائه نزاهة النفس من لوازم العار .

هذا ما ذكره التبريزى فى شرح البيت ، وكل ما هو مكتوب بخط أسود ثقيل منقول من المرزوقى نقلا مباشراً صريحاً بلفظه ، وقد تصرف التبريزى أثناء النقل كالآتى

١ — غير عبارة المرزوقى (وشبه الخيل فى ضمرها وسرعة نفاذها بالجن) بالعبارة المشار إليها بالرقم ١ .

٢ — غير تعبير المرزوقى : (صفة للخيل) بأن جعلها (صفة الخيل) (٢) .

٣ — حذف المعنى المشار إليه بالرقم ٣ .

٤ — حذف العبارة التفسيرية المشار إليها بالرقم ٤ .

٥ — حذف العبارة المشار إليها بالرقم ٥ ، كما حذف « أما » ونسى أن يحذف الفاء فى جواب الشرط .

٦ — أضاف معنى نقله من مصدر آخر ، وهو المشار إليه بالرقم ٦ .

٧ ــ أضاف لفظ « الكريهة » ٧ .

٨ ــ غير « أُلْحِق » وجعله « لُحِق » ٨ .

٩ ــ حذف عبارة (وشدائد الأمر) ٩ .

٢ ــ بيت معدان بن جواس(١) :

إنْ كانَ ما بُلِّغْتِ عنِّى فلامَني
صَديقِي وَشَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ الأَنامِلُ

قال التبريزى فى شرحه : « **قوله صديقى يجب أن يريد به الكثرة لا الواحد**) ويقال : شَلَّت يده شَلَلاً . وهذا من الجنس الأول فى (١) أن ((٢) **ولفظه لفظ الخبر ، والمعنى معنى الدعاء ، والمراد القسم ، وقوله** (فلامنى)(٣) **لامنى فى موضع رفع على أنه خبرا مبتدأ(٤) محذوف : كأنه قال : فأنا لامنى ، والفاء مع ما بعده جواب إن ، والمعنى إن كان ما أدى إليك عنى حقا ، ففعلت ما استحقت به لوم الصديق ، واسترخت أناملى (٥) ، وخص الأنامل لأن أكثر المنافع بها (٦) . فإن قيل اليمين فى الشرط كيف تصح ، قلت : هذا كلام مُبطِل لما ادعى عليه ، ناف له ، فاليمين تناولت ما أثبت فيه ،** (ودفع ما قُرِف به)(٧) ، **ودل على ذلك فَحْوى الكلام ، ويجوز فى** (أن)(٨) **كان أن تكون كان التامة لا الناقصة فيكتفى بالفاعل ، ولا يحتاج أن يضمر بعده « حقا » والمعنى : أن وقع ما بُلِّغت عنى وحدث .** (وتخصيصه للأنامل لأن أكثر المنافع بها)(٩) **وجاز إضمار خبر كان إذا جعلتها ناقصة ، لأن فى الكلام والحال دليلا عليه ، ولأن دخوله على المبتدأ والخبر ، فكما يحذف الخبر فى ذلك الباب ، يحذف هنا** . (وقوله (١٠) : « وشلت » الشَلَلُ فَعَلٌ ، ولا يجوز فى معناه شل ، يقال شَلِلْتِ يا يدُ . ومصدر « فَعِلَ » فَعَلٌ فى غير المتعدى ، وأما الشَّلُّ فالطرد ، شَلَلْتُ ــ بالفتح ــ إذا طردت) .

---

(١) التبريزى : شرح الحماسة ١-٧٧ ؛ المرزوقى : شرح الحماسة ١-١٥٢ .

هذا هو شرح التبريزى ، وكل ما هو مكتوب بخط أسود ثقيل منقول عن المرزوقى بأسلوبه ، وقد تصرف التبريزى فى الشرح كالآتى :

١ ــ حذف التحليل اللفظى ، وهو ما أثبتناه داخل الأقواس ، وأشرنا إليه بالرقم ١ ، وإن كان قد أضافه فى آخر الشرح بطريقة أخرى ــ وأشرنا إليه بالرقم ١٠ .

٢ ــ أضاف حرف الواو قبل (لفظه) ٢ .

٣ ــ حذف (فلامنى) ٣ .

٤ ــ غير لفظة (ابتداء) إلى مبتدأ ٤ .

٥ ــ غير لفظة (أصابعى) إلى أناملى ٥ .

٦ ــ قدم جملة (وخص الأنامل لأن أكثر المنافع بها) ٦ عن موضعها المشار إليه بالرقم ٩ وإن كانت عبارة المرزوقى (وتخصيصه الأنامل ..) .

٧ ــ حذف جملة (ودفع ما قرف به) ٧ .

٨ ــ حذف (إن) من شرح المرزوقى ٨ .

٩ ــ حذف هذه الجملة من هنا لأنه قدمها كما ذكرنا ٩ .

١٠ ــ أضاف هذا التحليل اللغوى من مصدر آخر ، أو تصرف فى التحليل نفسه الذى وجده فى صدر الشرح .

ونحن وإن كنا قد عرضنا حتى الآن نماذج كاملة ، ورأينا تصرفه ، أو قل : تحايله ، فليس هذا فى نظرى هو المهم . إنما المهم حقيقة أن ننظر كيف كان التبريزى يتصرف فى العناصر التفسيرية ، فى الدقائق الفنية ، فى المواد العلمية التى كان ينقلها أو يقتبسها .

وهنا احترز فأقول ــ أننا هنا لن نقدم شواهد تتناول منهجه ، بل سنقدم نماذج توضح صدق رأينا وصحته .

أولا — المعنى :

فى هذا العنصر يتابع الرَّجلُ المرزوقى كظله ، ينقل عنه نقلا مباشرا ، بلا مواراة ولا مداراة لا يحيد عنه ، ولا يخرج عن رسومه ، وإن كان أحيانا يكتفى بذكر معنى واحد أو اثنين من جملة المعانى التى يجوزها المرزوقى

فقول تأبط شرا :

ولكنْ أخُو الحَزْمِ الذى ليس نَـازِلاً
به الخَطْبُ إلا وهو للقصـد مُبْصِرُ
فذاك قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَـاش حُـوَّلٌ
إذا سُدَّ منهُ مَنْخِرٌ جـاشَ مَنْخِرُ

قال التبريزى فى معنى البيت الثانى :

« قوله : « فذاك » إشارة إلى أخى الحزم ، و« قريع الدهر » يحتمل وجهين : يجوز أن يكون فى معنى مختار الدهر ، ويكون من قرعته أى إخترته يقرعنى ، ويقال هو قَريعُهم وقَرِيعتُهُم وقِرِيعُهم. ويجوز أن يكون من قرعة الدهر بنوائبه حتى جرَّب وتبصر ، ولا يمتنع أن يكون المراد بـ « قريع الدهر » فحل الدهر .. وما تقدم أحسن » .

وهذا كله منقول عن المرزوق بتصرف بالحذف والإختصار (١)

وقول الحارث بن وعلة :

وَزَعَمْتُمُ أنْ لا حُلُـومَ لنَـا
إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِى الحِلْمِ

يقول التبريزى فى معناه (٢) : « والتقدير : زعمتم أن الأمر والشأن لا حلوم لنا(٣) فإن كان الأمر على ما زعمتم فنبهونا أنتم ، فإن عامر بن الظرب

---

(١) أنظر التبريزى : شرح الحماسة ١-٣٨ ؛ وهو فى شرح المرزوقى ١-٧٦ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١-١٠٨ وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٠٥ .
(٣) عبارة المرزوقى « لا عقول لنا » .

كان يقرع له العصا فينبه ، لما كان يزيغ فى الحكم لكبر سنّه(٢) ، وهذا تهكم منهم »(١) .

وهذا منقول من المرزوقى ، ما عدا ما أشرنا إليه فى الهامش

وبيت الشميذر الحارثى :

فإنْ قُلْتُمُ إنَّا ظلمنا فلم نكن
ظَلَمْنَا ولكنّا أسأْنَا التَّقَاضِيَا

فسر التبريزى معناه الآتى(٣) :

« ... وإنما نبه بهذا الكلام على أنه لا يعد ما عوملوا به ظلما مع كون ابتدائه منهم ، ولكنا أسأنا التقاضيا(٤) حين استخرجنا الحق بالعنف والقهر ، فكأنه سمى ما عده أولئك ظلما سُوءَ تَقَاضٍ » .

وهذا كلام المرزوقى بحذافيره ، ما عدا ما أشرنا إليه فى الهامش .

والغريب فى الأمر حقا – أن التبريزى يقتبس مصطلحات المرزوقى المتصلة بالمعنى إقتباسا ، من مثل قوله : « ومضمون الكلام » و« تقدير البيت » و« تحقيق الكلام » أو « تلخيص المعنى » وكأنه ملك زمام الأمر كله ، حتى ترجيح المعانى أو تجويز بعضها ، يذكرها الرجل بلا كلفة ، ودون أن ينسب ذلك إلى المرزوقى . وليست المصطلحات وحدها التى يقتبسها الرجل وإنما يقتبس المضامين نفسها ونوعية الكلام ، وتقديرات المعنى . مثال ذلك قول التبريزى عن البيت الأول من حماسية البُرج بن مُسْهِر :

فَنِعْمَ الحَىُّ كلْبٌ غير أنَّا
رَأَيْنَا فى جِوَارِهِم هَنَاتِ

---

(١) عبارة المرزوقى « لكبرته وسنه » .

(٢) عبارة المرزوقى « هذا الكلام تهكم وسخرية » .

(٣) شرح الحماسة ١-٦٣ وهو فى شرح المرزوقى ١-١٣٩ .

(٤) عبارة المرزوقى « أسأنا تقاضيكم » .

« هذا الكلام تهكم وسخرية ، وجاز أن يأتى به بلفظ المدح لأنه بما بعده تبين الغرض ، فيكون أبلغ فى الهزء »(١) .

ويقول عن بيت العباس بن مرداس :

أَبَعْدَ الإزار مُجْسَداً لك شاهداً
أُتِيتَ به فى الدَّارِ لَمْ يَتَزَيَّلِ

« هذا الكلام وإن كان لفظه لفظ الإستفهام فمعناه ... »(٢) .

ثانياً — علوم اللغة :

ويتابع التبريزى المرزوقى فى آرائه النحوية واللغوية ، ينقلها نقلا مباشرا ، كما يقتبس مناقشاته وتحليلاته .. وهذا الأمر يتضح من النماذج الآتية :

١ — بيت شاعر بنى أسد (٣) :

يَدَيْتُ علىَ ابنْ حَسْحَاسِ ابن وَهْبٍ
بأسْفَلِ ذِى الجِذَاةِ يَدَا الكَرِيم

قال التبريزى : «يديت وأيديت بمعنى واحد، وإنما عُدِّى يَدَيْتُ بعلَى لأنه أجرى مجرى أنعمت ، وهم يحملون النظير على النظير ، كما يحملون النقيض على النقيض ، وأيديت أكثر(٤) ، ويجب أن يكون مصدر يَدَيْتُ يَدْياً ، مثل جريت جرياً ، لكنه وضع اليد مكانه ، فإن قيل : ما تُنْكِر أن يكون اسم الحدث ، وقد حذف لامه كما حذف من إسم العين ؟ ، قلت : اسم الحدث لم يكثر كثرة اسم العين ، وإذا كان حَذْفِ اللام من

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٣٧ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٣٦٠ .
(٢) شرح الحماسة ٢-١٣ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٤٣٥ .
(٣) التبريزى : شرح الحماسة ١-٩٩ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-١٩٣ .
(٤) عبارة المرزوقى « وأيديت أشهر » .

اسم العين(١) لكثرة الاستعمال فيجب أن يكون اسم الحدث الذى لم يكثر استعماله لا يجرى مجراه ... » .

وهذا هو شرح المرزوقى تماما – ما عدا ما أشرنا إليه فى الهامش .

٢ – بيت ربيعة بن مقردم :

أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فأَبْصَرَ قَصْدَهُ
وكَوَيْتُهُ فوقَ النَّواظِرِ مِنْ عَلِ

قال التبريزى(٢) : «ويروى أَرْجَيْتُه وأرجأتَه (٣) والهمز أفصح . ويروى أوجيته عنى وأَزْجَيْتَه ، وكلها تتقارب فى المعنى (٤) . » .

٣ – بيت رجل من بنى تميم :

أبيت اللعن إن سكاب علق
نفيس لا تعار ولا تباع

قال التبريزى فى تحديد لغة « سكاب »(٥) :

« ... وسكاب إذا أعربته منعته الصرف لأنه عَلَمٌ ، فاحصول التعريف فيه ، والتأنيث مع كثرة الحروف يمنع الصرف ، والشاعر تميمى وهذا لغة قومه . وإذا بنيته على الكسر أجريته مجرى حَذَام لأنه مؤنث(٦) ، وهذه اللغة الحجازية » .

٤ – بيت بعض بنى جرم من طيء :

إخَالُكَ موعدى ببنى جُفَيْفٍ
وهَالَةَ أنَّنِى أَنْهَاكَ هَالا

---

(١) حذف التبريزى كلمة « فحذف » من هذا الموضع

(٢) شرح الحماسة ١-٣٤ وهو فى شرح المرزوقى ١-٦٥ .

(٣) حذف التبريزى من هذا الموضع « وهما لغتان » .

(٤) عبارة المرزوقى « والمعانى تتقارب فى الكل » .

(٥) شرح الحماسة ١-١١٢ وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٠٩ .

(٦) حذف التبريزى من هذا الموضع « معدول معرفة » .

قال التبريزى : (١) «يروى أَخالاتُ بفتح الهمزة ، وإِخَالاتُ بكسرها ، وإِخَال طائية ، فكثر استعمالها فى ألسنة غيرها حتى صار أَخَال كالمرفوض ».

٥ — قول قيس بن زهير :

شَرَى وُدِّى وشُكْرِى من بعيد
لِآخِرِ غَالِبٍ أَبَداً رَبِيــعُ

قال التبريزى (٢) فى تفسير شَرَى وتحليلها :

« يقال شريت الشيء بمعنى اشتريته وبعته جميعا ، وكذلك بعت يصلح للأمرين ومن شريت الشروى وهو المثل ، لكن لامه وهو ياء قلبت واوا لأن فعلى إذا كان إسماً ولامه ياءاً يفعل به ذلك ، فرقا بين الإسم والصفة ، وعلى هذا قولهم : « الفَتْوَى » .

٦ — بيت عمرو بن معديكرب :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الحديــ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقاً وقِداًّ

قال التبريزى (٣) : « ... انتصب حَلَقاً على أنه بدل من الحديد ، ويريد به الدروع التى نُسِجَت حلقتين حلقتين ، ويروى (خُلُقاً وقَدًّا) ويكون إنتصاب خُلُقاً على التميز ، أى تَشَبَّهُوا بالنمر فى أخلاقهم وخلقهم ، ودَلَّ على الخلق قوله : (قَدًّا)(» .

٧ — بيت تأبط شرا :

فلَمْ تَرَ مِنْ رأيٍ فتيلاً وحَاذَرَتْ
تأيُّمَهَا مِنْ لابِسِ اللَّيْلِ أرْوَعَا

قال التبريزى أثناء شرحه : « ... وحاذرت فى موضع الحال ، والأجود أن يضمر معها (قد) أى لم تر فتيلا من الرأى محاذرة »(٤) .

---

(١) شرح الحماسة ١-١٣٢ وهو فى شرح المرزوق ١-٢٤٨ .
(٢) شرح الحماسة ٢-١١ وهو فى شرح المرزوق ١-٤٧١ .
(٣) شرح الحماسة ١-٩١ وهو فى شرح المرزوق ١-١٧٦ .
(٤) شرح الحماسة ٢-٢٦ ، وهو فى شرح المرزوق ٢-٤٩٢ .

٨ – قول باعث بن صريم :

سَائِلْ أَسَيِّدَ هَلْ ثَأَرْتَ بِوَائِـلٍ

أَمْ هَلْ شَفَيْتَ النَّفْسَ مِنْ بِلْبَالِهَا

قال التبريزى(١) : « .. وقوله : (أَمْ هَلْ) الاستفهام تام دون (هل) لأن (أمْ) هذه المنقطعة ، ولا تكون العاطفة(٢) ، لأن تلك تجىء عديلة الألف .. » .

ثالثا – علوم البلاغة :

وعناصر علم البلاغة لم تسلم كذلك من إقتباس التبريزى ، لقد نقلها نقلا ، وأعمل قلمه فيها حذفا وإختصارا ، تغييرا وتبديلا ، لبعض الألفاظ ، بقصد التمويه والإيهام ، ومع ذلك وقفت هـذه العناصر لتشهد بعقلية شارحها الأول ومستخرجها المرزوقى .

سنعرض الآن بعض النماذج لتوضح ما نذهب إليه ..

(أ) ما يتصل بعلم المعانى :

١ – قال عقيل بن عُلَّفَة :

وأَبْغَضُ مَنْ وَضَعْتُ إلىَّ فيـه

لِسَانِى مَعْشَرٌ عَنْهُمْ أَذُودُ

قال التبريزى (٣) : « ... وفى هذا البيت تقديم وتأخير وتقديره(٤) : وأبغض من وضعت لسانى فيه إلى معشر عنهم أذود ، فقدم (إلى) قبل أن يتم الكلام الذى هو لها مُقْتَضٍ » .

---

(١) شرح الحماسة ٢-٤٩ ، وهو فى شرح المرزوق ٢-٥٣١ .

(٢) عبارة المرزوقى « ولا يجوز أن تكون العاطفة » .

(٣) شرح الحماسة ١-٢١٠ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٤٠١ .

(٤) عبارة المرزوقى « واصل ترتيبه » .

٢ – بيت البعيث بن حريث :

خَيَالٌ لأمِّ السَّلْسَبِيلِ وَدُونَهَا
مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْبَرِيدِ المُذَبْذَبِ

قال التبريزى(١) : « .. يقول : خيال لهذه المرأة زارنى أو أتانى ، وبينى وبينها مسيرة شهر للبريد المسرع ، فإن قيل : لِمَ نكّر فقال : (خيالٌ لأم السلسبيل) .. قلت : يجوز أن يكون كان يرى خيالها على هيآت مختلفة ، فاعتقد لإختلاف هيآته أنه عدة خيالات ، فلذلك نكّر ، كأنه قصد إلى واحد منها » .

٣ – بيت رجل من بنى كلب :

وَحَنَّتْ نَاقَتِي طَرَباً وشَوْقاً
إِلَيَّ مَنْ بِالحَنِينِ تُشَوِّقِينِي

قال التبريزى(٢) : « ... وأول البيت خبر عن راحلته ، وآخره خطاب لها ، وإنما خاطب الناقة منكر عليها ما ظهر منها فقال تشوقينى بحنينك إلى من أراد أنه مع حصول اليأس لا يجب أن تحن .. و (مَنْ) من قوله : (إليَّ مَنْ) فى هذا الوجه تكون نكره موصوفة ، وإن كان الكلام خبرا ، وفى الأول(٣) تكون استفهاما » .

(ب) ما يتصل بعلم البيان :

١ – بيت ربيعة بن مقروم :

وألَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كأنَّمَا
تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ

---

(١) شرح الحماسة ١-١٩٥ وهو فى شرح المرزوقى ١-٣٧٧ .
(٢) شرح الحماسة ١-١٦٥ وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٩٥ .
(٣) عبارة المرزوقى : « وفى المعنى الأول » .

قال التبريزى (١) : « .. يقول : رب خصم شديد الخصومة ذى غيظ وغضب علىَّ تغلى عداوته فى صدره غليان المرجل بما فيه ، إذا كان على النار — أنا دفعته عن نفسى .. وقد أخرج التشبيه ما لا يدرك من العداوة بالحس إلى ما يدركه من غليان القدر حتى تجلى فصار كالمشاهد » .

٢ — بيت المنخل اليشكرى :

فَدَفَعْتُهَا فتَدَافَعَتْ مشْىَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

قال التبريزى (٢) : « .. وانتصب مَشْىَ على أنه مصدر من غير لفظه ، لأن معنى تدافعت مَشَتْ ، والقصد إلى التشبيه ، وهذه المشية فيما يقال أحسن لأمنها وسرورها بالمورد ، وعجبها بالخيلاء » .

٣ — بيت تأبط شرا :

رَأَيْنَ فتىً لاَصَيْدُ وَحْشٍ يَهُمُّهُ
فلَوْ صَافَحَتْ إنْساً لَصَافَحْنَهُ معَا

قال التبريزى(٣) : « ... والمصافحة أصلها فى مماسة صفحة إحدى اليدين الأخرى عند السلام ، فاستعارها للتمكين والإستسلام » .

٤ — بيت الربيع بن زياد العبسى :

إذَا نَفَرَتْ من بَيَاض السُّيُو فِ قُلْنَا لها أَقْدِى مُقْدَما

قال التبريزى (٤) : « ... ذكر القول ههنا كناية عن الفعل ، وهذا كما يقال : قال برأسه كذا إذا حركه ، وقال بسوطه إذا أشار إليه ، وحقيقة الكلام : إذا نفرت قدمناها تقديما » .

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٤ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٦٤ .
(٢) شرح الحماسة ٢-٤٧ ، وهو فى شرح المرزوقى ٢-٥٢٨ .
(٣) شرح الحماسة ٢-٢٨ ، وهو فى شرح المرزوقى ٢-٤٩٧ .
(٤) شرح الحماسة ٢-٢٣ ، وهو فى شرح المرزوقى ٢-٤٨٧ .

٥ – قول يزيد بن الحكم :

فَلَمَّا بَلَغْنَا الأُمَّهَاتِ وَجَدْتُمُ
بَنِي عَمِّكُمْ كانوا كِرَامَ المضاجِعِ

قال التبريزي (١) : « .. جعل المضاجع كناية عن الأزواج .. » .

٦ – قول ابن زيابة :

نُبِّئْتُ عمراً غَارِزاً رَأْسَهُ   فى سِنَةٍ يُوعِدُ أخْوَالَه

قال التبريزي(٢) : « .. وقوله (غارزاً رأسه) أي مدخلا ، ومنه الغرز بالإبر ، ومعناه ، ثابتاً على ضلالته لجوجاً فيه ، لا يقلع عنه ، وجعل غرز الرأس كناية عن الجهل والذهاب عما عليه ، وانه من التحفظ » .

(ج) ما يتصل بعلم البديع :

١ – قول تابط شرا :

هُمَا خُطَّتَا إمَّا إسَارٌ ومِنَّةٌ
وإمَّا دَمٌ والقتل بالحُرِّ أجْدَرُ
وأخْرَى أُصَادِي النَّفْسَ عَنْهَا وإنَّها
لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إنْ فَعَلْتُ ومصدرُ

قال التبريزي (٣) : « ... وإنما قسم الكلام هذه الأقسام لأنه رآهم يبنون أمره عليها ولأنه نظر إلى جهتي الجبل ، فعلم أنه إن رضى الطريق الذي عليه بنو لحيان لنفسه طريقا ، كان فيها إحدى الحالتين من الأسر أو القتل بزعمهم(٤) ، وإن إحتال للجهة الأخرى .. وقوله (وإنما لمورد حزم) إعتراض أيضاً ، لوقوعه بين قوله :

---

(١) شرح الحماسة ١-١٢٤ وهو فى شرح المرزق ١-٢٣٣ .
(٢) شرح الحماسة ١-٧١ ، وهو فى شرح المرزوق ١-١٤٣ .
وأنظر شرح الحماسة ١-٨٥ ، وهو فى شرح المرزوق ١-١٦٤ .
وأنظر شرح الحماسة ١-٢١٠ ، وهو فى شرح المرزوق ١-٤٠١ .
(٣) شرح الحماسة ١-٤٠ ، وهو فى شرح المرزوق ١-٨١ .
(٤) عبارة المرزوقى « على ماكانوا يزعمون » .

وأخرى أصادى النفس عنها

وبين قوله فى البيت الذى يليه » .

٢ — بيت موسى بن جابر :

ومن الرِّجـال أسنّةٌ مذروبـةٌ
ومُزَنَّدُونَ حُضُورُهُمْ كالغائِبِ

قال التبريزى(١) : « ... وقوله (شهودهم كالغائب) : أى لا غناء عندهم(٢) ، فحضورهم كغيبتهم وأراد بالغائب الكثرة لا التوحيد ، وكان من حق التقسيم أن يقول : (منهم مزندون) ، لكنه اكتفى بمن الأول » .

٣ — قول قريط بن أنيف :

لكن قَوْمى وإن كانُوا ذَوِى عَـدَدٍ
لَيْسُوا من الشَّرِّ فى شئٍ وإنْ هَانَا

قال التبريزى(٣) : « .. وصفهم بأنهم يؤثرون السلامة والعفو عن الجناة ما أمكن ، ولو أرادوا الإنتقام لقدروا بعددهم وعُدَدِهم(٤) . وقد قابل الشرط بالشرط فى الصدر والعجز ، وطابق العدد والكثرة بالهون » .

٤ — قول موسى بن جابر :

فإنْ وَضَعُوا حَرْباً فَضَعْها وإنْ أَبَوْا
فَعُرْضَةُ عَضٍّ الحرب مِثْلُكَ أو مِثْلى
وإن رَفَعُوا الحرب العَوانَ التى تَرَى
فَشَبَّ وقُودَ الحَرْبِ بالحَطَبِ الجَزْلِ

قال التبريزى (٥) : « .. وجعل الرفع فى مقابلة الوضع من البيت الذى قبله .. » .

---

(١) شرح الحماسة ١-١٨٩ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٣٦٤ .

(٢) حذف التبريزى بعد عندهم « ولا دفاع بهم » .

(٣) شرح الحماسة ١-٩١ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٣٠ .

(٤) وعبارة المرزوقى « وعدتهم » .

(٥) شرح الحماسة ١-١٩١ ، وهو شرح فى المرزوقى ١-٣٦٨ .

رابعا — النقد :

وما رأيناه فى العناصر السابقة ، نراه أوضح فيما يتصل بالنقد .. إنه ينقل جزئيات هذا الفن نقلا مباشراً بتعبيراته وتبريراته وتحليلات قضاياه من المرزوقى ، ويضعها كما هى ، حتى لقلما يغير فى الألفاظ • ويتضح هذا الأمر فى النماذج التالية :

١ — قول المساور بن هند :

وَرَأَيْنَ شَيْخاً قد تَحَنَّى ظهرُهُ
يَمْشِي فَيَقْعَسُ أو يُكِبُّ فيَعْثُرُ

عاب التبريزى على الشاعر ترتيب كلامه حيث قال « أو يكب فيعثرُ » . وكان الواجب أن يقول « أو يعثر فيكب » لأن العثار قبل السقوط للوجه ، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب لأمنه من الإلتباس ، وهذا دون ما يجيء فى كلامهم من القلب مثل قوله :

كما أسلمت وحشية وهقا(١)

٢ — قول المثلم بن عمرو :

لا تَحْسَبَنِّي مُحَجِّلاً سَبِطاً ... سَأَقْبَيْنَ أَبْكِي أنْ يَظْلَعَ الجَمَلُ

قال التبريزى (٢) : « ... وقوله (أبكى أن يظلع الجمل) صرف الكلام إلى الإخبار عن نفسه ، ولو قال : (يبكى أن يَظْلَعَ الجمل) لكان الكلام أحسن فى قراءة النظم » .

٣ — قول شاعر بنى أسد :

وما أنا بالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الَّذِي
إذَا صدَّ عَنِّي ذو المَوَدَّةِ أحْرَبُ

---

(١) شرح الحماسة ٢-٥ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٤٦٠ .
(٢) شرح الحماسة ٢-١٩ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٤٨٠

وقال التبريزى : (١) ... يجوز أن يكون معنى أحرب : أغتاظ ، وهذا أسلك فى طريق العربية ، وكان يجب أن يقــول :

(... ... ... ولا الذى إذا صد عنه ذو المودة يحرب)

حتى يكون فى الصلة ما يعود إلى الموصول ، لكنه لما كان القصد فى الأخبار إلى نفسه ، وكان الآخر هو الأول ، لم يبال برد الضمير على الأول ، وحمل الكلام على المعنى لأمنه من الإلتباس ، وهو مع ذلك قبيح عند النحويين » .

٤ – بيت هُدْبة بن خشرم :

ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم
ولكن مِدْرَهُ الحــرب العَــوَانِ

قال التبريزى(٢) : « ... السفساف : ما لا خير فيه من الأفعال والأقوال فإن قيل : أين عجز البيت من صدره فى النظام ، وهلا قال – بعد ما نفى عن نفسه من الشعر الركيك – ولكنى شاعر المتخير الرصين ؟ قلت : إنما أراد التنبيه على فضله فيهم وطوله عليهم ليدخل تحته الأمران جميعا » .

كل هذا من نقد المرزوقى وتحليله ، ونقله التبريزى ونسبه لنفسه ، وإن كان إمعانا فى التمويه قد حذف بعض التوضيحات ..

فإذا انتقلنا إلى نقد الرواة والشراح – أنفسهم – نجد أن صورة المرزوقى أوضح ما يمكن . ومع ذلك فقد حاول التبريزى أن يحجب هذه الصورة .. فهل أفلح ؟ .

لقد رأينا – فيما مضى – كيف كان المرزوقى يهاجم الرواة والمفسرين ، القاصرى الفكر ، البطيئى الفهم ، وينعى عليهم قصورهم ، وسطحية تفكيرهم وضحالة سعيهم وعلمهم ، وكانت له فى هذا المضمار جولات وصولات .. أنظر كيف أخذ التبريزى أقواله وقالها بلسانه ونسبها لنفسه :

---

(١) شرح الحماسة ١-٥٧ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٩٧ .
(٢) شرح الحماسة ٢-١٢ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٤٧٣ .

قال عمرو بن معديكرب :

فَجَاشَتْ إلىَّ النَّفْسُ أوَّلَ مَرَّةٍ

فَرُدَّتْ على مكْرُوها فاسْتَقَرَّتِ

قال التبريزى (١) : « ... واعترض بعضهم فقال : لولا أنه جبان لما جاشت إليه النفس ، وليس الأمر على ما توهم لأن ماذكره عمرو وغيره(٢) من هذا المعنى بيان حال النفس ، ونفس الجبان والشجاع على طريقة واحدة فيما يدهمها عند الوهلة الأولى ثم يختلفان ، فالجبان يركب نفرته ، والشجاع **يدفعها فتثبت** » .

فهذا كله كلام المرزوقى حين رأيناه يعترض على ابن جنى بهذا الاعتراض ثم يبدأ تفسيره بقوله : « **قال الشيخ : (وليس الأمر ...)** » .

بيت حُرَيْثُ بن عناب النبهانى :

تعالَوا أُفَاخِرْكم :أأَعْيَا وفَقْعَسٌ

إلَى المَجْدِ أدْنَى أمْ عَشِيرَةُ حَاتِمِ

قال التبريزى(٣) : « ... وروى بعضهم (أعيار فقعس) ، وزعم أن (أعيا) لا يعرف اسم قبيلة ، وإن هذا تصحيف إستدركه .. فأما إنكاره لأعيا قبيلة فلا وجه له ، لأن بنى أعيا من قبائل سعد بن قيس ، وهو مشهور ذكره النسابون وغيرهم ، ووهب بن أعيا بن طريف الأسدى معروف معدود فى الأعلام .. وأما من طريق النظم ، فلأن تكون القبيلة مقابلة بمثلها ، ومذكورة فى المنافرة معها ، أحسن من أن يقابل الأفراد بالقبيلة ، و(أعيار) إشارة إلى الأفراد يراد بها الرؤساء ، يقال هو عَيْر قومه أى سيدهم » .

وهذا هو هو كلام المرزوقى فى رده على ابن جنى وتضعيف روايته ،

---

(١) شرح الحماسة ١-٨٣ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-١٥٨ .

(٢) الشاعر الثانى هو « عنتر » الذى أشار إليه التبريزى بقوله « وغيره » .

(٣) شرح الحماسة ١-١٣٥ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٥٥ .

وتسفيه رأيه فى الشرح ، نقله التبريزى كما هو وكأن القول قوله ، وكأن الرأى رأيه دون ما إشارة أو تنويه إلى صاحب الرأى .

هذه نماذج جزئية .. تدل على الكل ، وأظن أن الرؤية قد أصبحت واضحة الآن .. وأحب أن أقول : إن ما عرضناه من نماذج تبين مدى نقل التبريزى من المرزوقى – فى شرح الحماسة – يمكن أن نجد له مثيلا فى شرح المفضليات ..

وأحب أن أقول أيضا .. إن ما أثبتناه من سطو على شروح المرزوقى ، أو اقتباس لها ، يمكن أن نجد له ما يماثله بالنسبة لشروح الأنبارى ، وإبنه ، والنحاس وغيرهم فى شروح التبريزى الأخرى . إن متابعتنا لشروح المرزوقى والتبريزى لتوضيح مدى إعتماد ثانيهما على الأول ، يمكن أن نطبقها على ما بين أيدينا من شروح النحاس وابن الأنبارى فى شرح القصائد العشر ، لنؤكد مثل هذا الإعتماد . ويمكن أن نطبقها كذلك على شرح المفضليات ، لنعرف كيف سطا التبريزى على شرح الأنبارى .

فمن الثابت علميا أن المرزوقى لم يرو أو يشرح المفضليات ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٧٣ فكان أن نقل التبريزى شرحها من ابن الأنبارى وحده(١) .

ولكن من المهم أن نسجل أن المرزوقى هو المعتمد الرسمى ، والسند الأول والأقوى للتبريزى ، كان ملاذاً له ، ياوذ به وينقّب عن آثاره ، ويفتش – أولا – فى شروحه وأقواله ، قبل أن يلجأ إلى شروح غيره .. فما وجده عنده ، فهو الشافى الكافى ، فإن لم يجد له شروحا أو أقوالا تاه .. وضل طريقه .. وأخذ يتخبط ، لا يعرف ماذا يقول ، أو كيف يتصرف ، خاصة إذا لم يجد مصدراً آخر يتوجه إليه ليستقى منه .

---

(١) فخر الدين قباوة صفحة ١٦٣ من رسالة الدكتوراه .

ولنضرب مثلا — ببيت جابر بن الثعلب :

وَيُزْرِي بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مالِهِ
وإن كانَ أَسْرَى مِنْ رجالٍ وأَحْوَلا

هذا البيت لم يروه المرزوقى . أنظر كيف شرحه التبريزى :

قال(١) : « .. أحول أى أكثر حيلة ، وأصل الياء فى الحيلة واو ، وإنما صارت ياءاً لإنكسار ما قبلها » .. فأين إذن عضلاته الفكرية التى كان يشمر عنها فى الشروح السابقة .. لقد فقد المصدر والمنبع ففقد القدرة وتاه ..

أنظر أيضاً إلى تفسير بيت الشاعر :

ولا تَبْعَثُوهَا بَعْدَ شَدِّ عِقَالِهَا
ذَمِيمَةُ ذِكْرِ الغيبِ فى المُتَعَقَّبِ

قال التبريزى(٢) : « .. هذا مثل ، أى لا تبعثوا الحرب بعد السلم » .

وهكذا كان التبريزى يعتمد على المرزوقى فى معظم أساسيات الشرح ، وفى الأمور العلمية الجوهرية . ومن هنا قلنا : إنه ناقل ، ولكنه ناقل لا إلتزامى غير مقيد ، ناقل متصرف ، يبدل الأقوال ، ويحذف العبارات والفقرات ، ويختصر الإستطرادات والتفسيرات الجزئية(٣) وكثيرا ما يلجأ إلى الإيهام والتمويه ، فيتصرف أثناء نقله بالتقديم والتأخير .. ويحذف أسماء العلماء ، ويغير الضمائر .. إلى غير ذلك من الأمور التى كان يلجأ إليها إبان العملية الإقتباسية .

ولكنه — مع ذلك — لم يستطع أن يخفى عنا حقيقته .. لقد وجدنا آثار

---

(١) شرح الحماسة ١-١٦١ .

(٢) شرح الحماسة ١-١٦٥ .

(٣) أنظر مثلا شرح الحماسة ١-١٥٧ وقارنه بالأصل فى شرح المرزوقى ١-٢٩٨ .
وانظر شرح الحماسة ١-٩٢ وقارنه بما عند المرزوقى فى شرح الحماسة ١-١٧٧ .
وانظر شرح الحماسة ١-١٤٥ وقارنه بما عند المرزوقى فى شرح الحماسة ١-٢٧٣ .

أقدامه وبصمات أصابعه فى كل موضع إرتاده وأخذ منه ، حتى يمكننا أن نرد كل أثر إلى أصحابه الأصليين وكل قول إلى قائليه الحقيقيين ..

وإذا كنا قد رأينا التبريزى ينقل فقرات ومواد وشروحاً كاملة — فقد كانت له بعض اللمسات الخفيفة أثناء النقل ، يلجأ إليها على سبيل التمويه ، حتى ينسب له الشرح ..

— كان أحيانا ينقل كلام المرزوقى ثم يضيف إليه شاهداً من عنده يوضح المضمون(١) .

— وإذا ذكر المرزوقى بيتا لشاعر ولم يعرفه ، عرفه التبريزى وذكر اسمه ، وربمّا رفع نسبه(٢) .

— قد يذكر المرزوقى شاهداً — بيتا من الشعر — فيأتى التبريزى ليذكر بيتين أو ثلاثة بعده ، ويصحح نسبتها أو ينسبها إلى أحد الشعراء(٣) .

فإذا تحدث المرزوقى بصيغة المتكلم ، حولها التبريزى إلى صيغة المبنى للمجهول .. فمثلا يقول المرزوقى بعد شرح أحد الأبيات : « وإنما قلت هذا لئلا يُتَوَهَّم أنه تعلق بشهدت .. »(٤) فجاء التبريزى بعده ليقول : « وإنما قيل هذا لئلا يتوهم أنه تعلّق بشَهِدَت .. ».

وإذا قال المرزوقى(٥) : « ... سمعت أبا على الفارسى يقول ... » .

قال التبريزى : « ... قال أبو على الفارسى .. » ..

---

(١) أنظر استشهاد ببيت جرير — شرح الحماسة ١-١٥٧ — وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٩٧

(٢) مثال ذلك قال المرزوقى (١-٢٩٨) وقال بعضهم ، فقال التبريزى : هو مسلم بن الوليد (١-٢٥٨) .

(٣) أنظر شرح التبريزى على الحماسة ١-١٥٨ ، وهو فى شرح المرزوقى ١-٢٩٨ .

(٤) المرزوقى : شرح الحماسة ١-١٦٣ وهو فى شرح التبريزى ١-٥٨ وانظر شرح المرزوقى على حماسية عمرو بن معديكرب (١-١٧٤) وقارنه بقول التبريزى عنها (١-٩٠) .

(٥) شرح الحماسة ١-٣٦٤ ، وهو فى شرح التبريزى ١-١٨٩ .

إلى غير ذلك من اللمسات ، وما عدا ذلك فهو منقول من المرزوقى بأسلوبه وبلفظه ، خاصة تحليله للقضايا ، وتجويزه للمعانى . ولكنه نادرا ما يذكره ، مع أنه اعتمد عليه اعتمادا كاملا ، حتى نمكن القول أن شرح الحماسة للتبريزى إذا جردناه مما أخذه من العلماء الآخرين : أبى العلاء المعرى وأبى رياش ، وأبى هلال وغيرهم – وهو ليس كثيراً – إنما هو شرح المرزوقى نفسه .

وأقوى ما نسمع صوت المرزوقى – فى شرح التبريزى – عندما يقدم الشرح الفنى بالأسلوب الأدبى الجميل ، الذى هو ليس من طبع التبريزى ، ولا من مواهبه ، إنه ينقل عنه كثيراً من عباراته الرصينة المتخيرة التى كان يتكلف لها الصنعة حينا ، ويعمد آخر إلى السجع الهين ، ومن عجب أن التبريزى ينقل عباراته هذه ذات الطابع الخاص ، ولا يجهد قلمه ، فى نسبة العبارة إليه ، إلا فى القليل النادر ، بل إنه فى مقدمة كتابه لم يشر إلى إفادته منه. ومن عجب أيضا أن التبريزى مع ذلك ينعى على هؤلاء الذين يهملون نسبة أقوال العلم إلى أصحابها ، فيقول فى تفسير الشطر الثالث من الحماسية رقم (٨٩) « وقال المرزوقى : وذكر بعض المتأخرين – يعنى ابن جنى – ولم ينصفه حيث لم يُسَمِّه فى كتابه ..»(١) . مع أننا كثيراً ما نقرأ له أثناء شرحه : « وذكر بعضهم » دون أن يذكر أسماء العلماء الذين ينقل منهم (٢) .

على أن هذا النقل فى حد ذاته ، كان فى أحيان كثيرة وبالا عليه ، فإلى جانب أنه أظهر قصوره ، واضطرابه ، وضعف آلته الذهنية ، أوقعه فى المئات من الأخطاء الأسلوبية والمنهجية والمعنوية .

---

(١) مقدمة محقق شرح الحماسة للتبريزى ص ١٦ ، والحماسية ص ٨٩ هى الحماسية ٨٨ عند المرزوقى.

(٢) أنظر على سبيل المثال ٢-٣٠ .

١ — فالمرزقى كان فى زحمة إهتمامه وإندماجه فى الشرح ، بين لا يفرق بين المؤنث والمذكر لقائلى الشعر ، يصب كل اهتمامه وفكره على شرح الأبيات وإبراز معانيها ، فكان أحيانا ينسى أن قائل الشعر « شاعرة » ، فيتناوله وكأنه شعر لشاعر ، ويستخدم ضمائر المذكر .

ففى شرحه على حماسية إمرأة من طيىء — وبعد أن أورد بيتها الأول قال فى شرحه : « يقول » بدلا من « تقول » ، و« قوله » بدلا من « قولها » . فجاء التبريزى بعده ينقل منه ، فوقع فى نفس أخطائه(١) »

٢ — وروى المرزوقى بيت عنترة بن الأخرس رواية ضعيفة وشرحها — بينما روى التبريزى الرواية الجيدة التى فضلها المرزوقى ، ومع ذلك نقل التبريزى عنه شرحه على الرواية الضعيفة دون أن يتنبه . فالمرزوقى روى البيت كما يلى :

أَلَمْ تَرَ أن شِعْرَكَ سَارَ عَنِّى وشِعْرِى حَوْلَ بيتك ما يَسِير

وقال فى شرحه (٢) : يقول : ألم تعلم أن شعرك الذى قلته فىّ لم يعلق بى ذمه ، لأنه كان كذبا وزورا ، وشعرى الذى قلته فيك يطوف حول دارك وبيتك لا يفارقك ، لأنه كان صدقا .

فجاء التبريزى وروى البيت كما يلى

ألم تر أن شِعْرِى سَارَ عَنِّى وشِعْرُك حَوْلَ بيتك ما يَسِيرُ

ونقل الشرح السابق نصا ....

٣ — ومثال آخر واضح للأخطاء التى وقع فيها التبريزى نتيجة لنقله من المرزوقى دون أن يتنبه ، ودون أن يفطن لما يريده المرزوقى ، من إستعراضه وإبرازه لحصيلة علمه الضخمة التى يشتمل عليها معجمه اللفظى

---

(١) شرح الحماسة ١-٢١٢ . وانظر أيضاً شرح المرزوقى لحماسية كبشة أخت عمرو (١-٢١٩) وقد نقله التبريزى فى شرحه ، وجعل الشعر لشاعر بدلا من شاعرة (١-١١٨) .

(٢) شرح الحماسة ١-٢٢١ . وقد نقله التبريزى فى شرحه ١-١١٩ .

فبيت الشاعر :

فبَاتَ يُرِيه عِرْسَهُ وبَنَاتِهِ   وَبِتُّ أُرِيه النَّجمَ أيْنَ مخَافِقُهُ

قال المرزوقى(١) فى شرحه : « هذا تَطَنُّزٌ من القول .. » يقصد به السخرية والتهكم .. فجاء التبريزى لينقل عنه هذا الشرح فقال : « هذا تَظَنُّن من القول » .

وفرق كبير بين التطنز والتظنن ...

والآن نكون قد وصلنا إلى هدفنا وغرضنا من كل هذا العرض والتمهيد والتفنيد .

الآن قد وضحت لنا حقيقة الرجل .. ووضح منهجه ..

فهل يمكن أن ندرس هذا المنهج ونحلل عناصره كما فعلنا مع الشراح السابقين ؟ .

إننا إذا فعلنا ذلك اختلط الأمر علينا ، وأعطينا الرجل غير ما يستحقه .. وصورناه صورة أكبر من حجمه الحقيقى .. وهذا ما أوقع الدكتور فخرالدين قباوة فى الوهم حين درس منهج الرجل منفرداً عن غيره ، مستقلا عن سابقيه وظن أن ما وجده فى مصنفاته من شروح هى من نتاج فكره وسعة علمه وكده واجتهاده ..

لقد ضلل التبريزى فخرَ الدين قباوة ، وأغرقه فى الوهم — حيث جعله يعتقد أن الإبداع الفنى كله خليق به ، من جهده ، من فهمه .. والحقيقة أنه وإن كان من صنع يديه ، لكنه ليس من إعمال عقله أو كدّه فكره .. إنما هو لمّام جمّاع عارض سارد ..

ليس له فضل إلا فى ذلك . أما أنه عالم مجتهد ، ذو عقل حصيف ، أو فكر نافذ كما إعتقد قباوة — فهذا محض إختلاق أكثر مما يستحقه التبريزى.

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٠٩ — وقد نقله التبريزى فى شرحه ١-١٦٣ .

كان الواجب – والأمانة العلمية تقتضى ، حين عرف أن الرجل ناقل جامع ، أن يتوقف عن دراسة منهجه ، لأنه فى الحقيقة ليس منهجه وحده ، ولكنه منهج السابقين ممتزجا مجتمعا .. كان يجب عليه أن يرجع إلى مصادره ليعرف ما له وما عليه ، ماذا أضاف ، وكيف تصرّف – لا أن يطلق الكلام على عواهنه ، ويرجع إليه كل الأفضال العلمية ، وكل الفضائل الأدبية ، ولا أن يصوره وهو فى أردية لا يملكها ، أو فى حلل ليست له .

فما جدوى أن أشير إلى شرحه اللغوى ، وأنا أعرف أن هذا الشرح لأبى العلاء وابن جنى والمرزوقى . وما جدوى أن نتناول شرحه النحوى ، على الرغم أن أقواله حول هذا الموضوع هى أقوال المرزوقى نفسه ، وبأساوبه وبضمير المتكلم ، والتبريزى ليس المتكلم .. بل إننا وجدنا كثيراً من الآراء التى ذكرها السابقون أنفسهم ، نسبها الرجل إلى نفسه ، وكأنه هو قائلها وواضعها ، المتوصل إليها ، والأغرب من ذلك كله – أننا وجدنا المشكلات التى اصطنع إثارتها – هى فى الأصل نفس المشكلات التى أثارها المرزوقى ، ورد عليها ..

إننا وجدنا بعض الآراء ، بل جل الآراء النقدية – الواردة فى شرح الحماسة – حول الرواية والرواة ، حول الشعر والشعراء ، حول الشراح أنفسهم ، نقلها الرجل نقلا مباشراً ونسبها لنفسه ، وكأنه هو العالم العلامة ، المتبحر الفهامة ، الناقد الخبير ، المطلع البصير ، الذى أمسكها عليهم .. كذلك العناصر البلاغية ، خاصة فى الحماسة ، رأيناه يتجلى فى عرضها ويتبحبح ، وكأنه هو مكتشف علم البيان ، ومستخرج علم البديع ، ومخترع علم المعانى ، مع أن عباراته وآراءه البلاغية نعرف مصدرها جيداً .. حتى الأسلوب الفريد الذى إخترعه المرزوقى فى تحديد مضمون الكلام ، ومقصود الشاعر ، والذى كان دائما يضعه فى صدر الشرح ، تصنعه التبريزى وطعم به شروحه بلا نسبة ولا تحديد ، ولا حياء .

هل إننا لاحظنا أمراً عجبا – لاحظنا أن شرح القصائد العشر ، قاما تظهر

فيه اللمحات البلاغية — لا لشيء إلا لأن مصدر الشرح فيها كان ابن الأنبارى والنحاس ، وكلاهما لغوى نحوى ، قليل الإهتمام بمثل هذه النواحى ، أو ربما لأن عصرهما لم يكن ليهتم كثيراً بهذه الأمور الجمالية الشكلية فى شرح الشعر ، بل كان أكثر إهتمامهما موجهاً إلى النحو واللغة والصرف والإشتقاق ..

أما شرح المفضليات ، فلأن أبرز شراحها المعتمدين — المرزوقى ، وجدنا هذا الشرح زاخرا باللمحات البلاغية ، والإشارات البيانية ، إستمدها التبريزى من المرزوقى تماما كما إستمد من قبل هذه الإشارات من شرحه على الحماسة .

كذلك لاحظنا أن عناصر النقد — قليلة جداً فى شرح القصائد العشر ، نظرا لعدم إهتمام المرزوقى بشرحها ، أما المفضليات ، فنظرا لأن المرزوقى شارحها ، الذى أوضح الكثير .. والكثير جدا من فنون النقد الأدبى ، فى مقدمتها وبين ثنايا الشرح .. ظهرت كل هذه الجوانب فى شرحه لها .

بعد كل هذا العرض — هل يمكن أن ندرس عناصر الشرح — عند التبريزى فى وضع مستقل عن غيره من السابقين ؟ أظن الإجابة معروفة .

إننا إذا حاولنا أن نتعمق صنيعه فى الرواية مثلا — وجدناه يطبق نفس الأسس والمعايير التى طبقها المرزوقى ، وإن كان قد أضاف إليها بعض ما وجده عند غيره .. من هنا يجد الباحث نفسه فى حرج ، لأنه سيذكر أشياء تناولها من قبل ، أضف إلى ذلك أن مزج التبريزى لهذا العنصر المخدوم المدروس — من المرزوقى — مع ما وجده عند غيره ، وبطريقته التلفيقية الحصرية ، جعله غير متوازن ، لأن عملية الجمع والرص فى حد ذاتها لا تخدم القارىء ، فماذا يفيد القارىء أن يعرض عليه الشارح كل هذه الروايات فى معرض شرحه ؟

إن الذى يهم القارىء أن يعرض عليه رواية ويفضلها ويصححها ويدعمها بالمؤيدات والمبرهنات ، لأن الكثرة والتردد يثيران البلبلة فى أفكار القارئين والدارسين ، ويجعلهم غير واثقين من صحة ما يقال وما يروى ، إن كثرة

الروايات وتضاربها نجعل الشعر بين أذهانهم ألعوبة ، غير جديرة بالثقة لكثرة ما طرأ عليه من تغييرات لفظية فى الرواية .

إن الرواية عند التبريزى أوسع ساحة فى معرض شرحه ، إنها المحصلة الجمعية لكل ما ذكره السابقون من روايات ، ولكن كثرتها غير مجدية فى حد ذاتها ، إنما المجدى – حقاً – تفضيل رواية بعينها ، مع تقديم ما يدعم هذا التفضيل ، إنه فى شرح الحماسة مثلا – وهو أكثر شروحه نقلا ، وأدلها على منهجه – نجد أنه يضع فى إعتباره مجموعة من الروايات ، رواية أبى هلال ، ورواية ابن جنى ، ورواية أبى العلاء ، ورواية المرزوقى ، ثم يختار رواية منها ويقارن بينها وبين الروايات الأخرى ، على أن أهم رواية عنده ، وغالبا ما يأخذ بها هى رواية المرزوقى ، نظراً للمبررات العلمية والمرجحات العقلية والفنية التى قدمها المرزوقى تدعيما لروايته .

من هنا يتضح ما نحن فيه من حرج – لأننا إذا ذكرنا ترجيحه وتفضيله ، فإننا نعلم مسبقا أن هذا الترجيح .. وهذا التفضيل ليس فى صنعه ، ولا من فهمه ، إنما هو ترجيح وتفضيل العالم الذى نقل منه وهو المرزوقى .. كذلك إذا درسنا المبررات العلمية التى إستند إليها ، نجد أنفسنا نعيد ما قلناه من قبل .. وهذا الأمر يمكن أن نطبقه على معظم العناصر التفسيرية .

من هنا نازعتنى النوازع .. ماذا أفعل لكى أدرس عناصر الشرح التى يضمها منهج التبريزى ؟ كيف أدرسه فى وضع مستقل عن المرزوقى خاصة ؟ .

أخيراً استقر رأيى على هدف واحد ، وهو أن أدرس التبريزى من حيث الصورة الشكلية التى وضع عليها شرحه ، وإختلفت عن الصورة التى رأيناها عند سابقه المرزوقى . أن أدرس الإضافات التى جعلت من شرح التبريزى أكمل وأكثر عناصر ، وأوفى لطالبى العلم من الصورة التى رأيناها عند المرزوقى .

وأن أجعل – شرح الحماسة – وهو أبرز شروحه وأشملها وأدلها على

منهجه – مرجعاً أضاهيه بما فى شرح المرزوقى – أو بمعنى آخر – أن أجعل شرح المرزوقى على الحماسة مقياسا للقياس عليه ، حين أتتبع الإضافات والتكملات التى وضعها التبريزى على هذا الشرح ، فميزته بميزات معينة ، وجعلته أوفى لخدمة الدارسين والباحثين – مع إيمانى المطلق وبما هو ثابت علميا بأن هذه العناصر والإضافات منقولة كذلك عن العلماء الآخرين ، ولكنها من تجميعه وتكميله . وهنا يمكن أن نجد بعض العناصر الإيجابية ، إذا صح لنا أن نستخدم – فى هذا التصرف – هذا التعبير .

حدد التبريزى فى خطبة شرحه على الحماسة ، مجموعة من العناصر التى لفتت نظره ، وأثارت انتباهه ، ورأى أن يستكملها فى شرحه ، نظراً لأن الشراح – ممن سبقوه – أغفلوها ، وقصروا فى تناولها وإظهارها .. من هذه العناصر :

١ – التعريف بالشعراء ، وتبيين أساميهم ، وذكر أصلها وإشتقاقها .
٢ – تبيين أسامى – غير الشعراء – من الأعلام الوارد ذكرهم فيها .
٣ – تحديد الأنساب .
٤ – تناول ما فى كل بيت من الغريب :
٥ – ذكر ما اختلف فيه العلماء فى المواضع التى اختلفوا فيها .
٦ – إيراد الأخبار فى أماكنها .

من هذه العناصر يتضح أن الاهتمام الأكبر الذى أولاه الرجل لشرح الحماسة يندرج تحت الجانب التاريخى .

وسنحاول أن نتتبع التبريزى فى تناوله لهذه العناصر التكميلية الإضافية ، لنتعرف على منهجه فى تناولها .

١ – التعريف بالشعراء :

وهذا الجانب أحد الجوانب التحقيقية فى شرح التبريزى ، شاء أن يدعم به شروحه فى محاولة لإثبات وجوده ، وسد النقص ، وتلافى القصور الذى

أحسه فى صنيع الآخرين ، ولا نشك فى أن هذا الجانب كان أحد المزايا التى تميز بها شرحه عن شرح المرزوقى(١) .

فهو يعرف بالشعراء ، ويحدد صحة أسمائهم ، وقد يقتضى الأمر ذكر ما يتصل بهم من أخبار ، « فسعد بن ناشب » هو سعد بن ناشب من بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم(٢) كان أصاب دما ، فهدم بلال داره » .. و« إياس بن قبيصة الطائى » أبوه « قبيصة ملك الحيرة بعد النعمان ، كان كسرى قتل النعمان وولى إياس بن قبيصة على ثغور العرب .. وفى ولاية إياس بعث النبى صلى الله عليه وسلم »(٣) .

والحصين بن الحمام المرى ، مرة غطفان ، وهو مُرَّة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن ريث ، ويقال إن مرة هؤلاء هو مرة بن عوف بن لُؤَىّ ابن غالب من قريش ، وقد دعاهم عمر بن الخطاب إلى الرجوع إلى نسبهم ، ووفدت عليه مشايخهم ، فقالوا له : أتجعلون لنا نصيباً فى الخلافة ، قال : لا ، قالوا : ففى الشورى ، قال : لا ، فقالوا : لا نخرج ونحن أنوف قريش فنكون أذنابا فيكم .. »(٤) .

وفى تعريفه بالشعراء ، نراه يتبع مبدأ التحقيق ، والتوثيق ، فهو يحقق أسماءهم ، ويذكر قبائلهم(٥) ويحدد مواطنها ، وأيامها ، وما ذكره العلماء

---

(١) اعتمد التبريزى فى تناوله لهذا الجانب على مجموعة غير قليلة من المصادر ، ذكر بعضها وأغفل أكثرها ، وهذا الأكثر الذى أغفله نستطيع أن نضع أيدينا على موضعه فى شروح العلماء السابقين مثل أبى رياش وابن الأنبارى وأبى هلال وغيرهم وقد رأينا فيما سبق نماذج كيف كان يعرف بالشعراء ويرفع أنسابهم إعتماداً على ابن الأنبارى وأبيه .

(٢) شرح الحماسة ١-٣٥ .

(٣) شرح الحماسة ١-١١١ .

(٤) شرح الحماسة ١-١٠٢ .

(٥) شرح الحماسة ١-١١٢ ، ١-١١٥ ، ١-١١٨ .

عنها ، فإذا تفرد شاعر باسم معين ، ذكره التبريزى وحققه ، وتحدث عن ندرته(١) كما يهتم التبريزى بتحديد عصره ، كأن يقول : جاهلى .. مخضرم .. إسلامى ..(٢)

على أن أبرز نقطة تثير إهتمامه — حين يعرف بالشعراء — هى تحليل أسمائهم إشتقاقيا ، وتحديد أصلها اللغوى ومعناها . يقول حين تصدى لشرح حماسية معدان بن جواس :

« قال أبو الفتح : معدان اسم مرتجل من معد يمعد إذا أبعد الذهاب . وقال أبو العلاء : معدان يحتمل أن يكون من المعد ، وهو نحو الخطف والإختلاس . يقال : إمتعد الذئب الشاة إذا إختلسها . ويقال معد الرجل إذا صار لِصًّا وهو راجع إلى ذلك المعنى .. ولا يمتنع أن يكون « معدان » من المعد وهو الشيء الغَضّ ، ويقال : معد الدلو إذا نزعها نزعا شديدا .. ويقال : معد معداً إذا خطا خطواً سريعاً ، وهذا كله راجع إلى الخطف »(٣) .

ويقول فى تحليل اسم « ناشب » أبى الشاعر سعد بن ناشب(٤) :

« .. قال أبو العلاء : سمى الرجل ناشب إما من قولهم نَشِبَ فى الشيء إذا علق به ، وإما أن يكون خرج على معنى تَامِرْ ولابِنْ أى ذى تمر ولبن ، فيراد أنه ذو نشب ، أى ذو مال ثابت ، أو أنه ذو نشاب » .

أما عن تحديده لأسامى الأعلام الوارد ذكرهم فى الشعر ، فنستطيع أن نجد مثالا عليه فى قوله عن « ذى الحلم » الذى جاء ذكره فى بيت الحارث بن وعلة :

وزَعَمْتُمُ أَنْ لا حُلُومَ لَنَـــا
إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لذى الحِلْمِ

---

(١) أنظر تحقيقه لاسم الفند الزمانى (١-١١) ، وتحقيقه لاسم « بلعاء بن قيس الكنانى »
(٢) أنظر شرح الحماسة ١-٥٥ .
(٣) شرح الحماسة ١-٧٧ .
(٤) شرح الحماسة ١-٣٥ .

« .. قال :(١) « وذو الحلم الذى قرعت له العصا مختلف فيه :

فاليمن تقول إنه عمرو بن حَمَمَةَ الدَّوسىُّ ، روى ذلك الشعبى عن ابن عباس . ومضر تَدَّعيه فتقول : عامر بن الظرب العدوانى ، وإياه عنى ذو الإصبع فى قوله :

ومنهم حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى

وتدعيه ربيعة ، فتقول : قيس بن خالد الشيبانى ، وهو جِدُّ بِسطام ابن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد . وتدعية بنو قيس بن ثعلبة ، لسعد ابن مالك بن ضبيعة » .

ويفند التبريزى هذه الإدعاءات فيقول : « فأما ما يدعى لعمرو بن حممة فالخبر فيه ، وفى عامر بن الظرب واحد ، وهو أنه كل واحد منهما كان حكما للعرب يتحاكمون إليه فى كل معضلة ،وهولعمرو بن حَمَمَة فى هذا الحديث أشهر .. » .

ثم يدعم قوله هذا بذكر حقيقة الخبر .. فيقول : « يروون أن العرب أتوه يتحاكمون إليه ، فغلط فى حكومته وكان قد أسن ، فقالت له ابنته : إنك قد صرت تهم فى حكمك (أى تغلط) فقال : إذا رأيت ذلك منى فاقرعى العصا ، فكان إذا قرعت العصا فطن .. وأما ما تدعيه بنو قيس ابن ثعلبة ... ... » .

٢ ــ **الاهتمام بتحديد الأنساب :**

وهذه ميزة أخرى ــ ضمنها التبريزى شروحه ــ إذ أخذ على عاتقه إلقاء الضوء على أنساب الأعلام ــ شعراء وغير شعراء ــ ممن ورد ذكرهم فى الشعر ، وكان لهم اتصال وثيق بموضوعاته ، فنراه إذا ذكر علما من الأعلام حقق نسبه ، وصلته بقبيلته ، ودوره فى أحداث الشعر ، وقد يذكر شيئاً من أخباره يعزز كلامه ، ويوضح مرامه .. »(٢).

---

(١) شرح الحماسة ١-١١٠ ، وأنظر تحديده « لأشجع » الوارد ذكره فى بيت المثلم بن رياح (١-١٩٨) .

(٢) أنظر على سبيل المثال : شرح الحماسة ١-١٨٨ ، ١-١٣٥ .

أما إذا كان هناك تضارب فى الآراء حول نسبة علم من الأعلام ، أو شاعر من الشعراء ، ذكر ذلك ، وحلله ، ورجع بسلسلة النسب إلى القبائل الأولى ، وحدد بطونها وأفخاذها(١) .

على أنه فى أغلب هذه المسائل الأنسابية ، يعتمد على النمرى ، وأبى محمد وغيرهما .. وفى أحيان كثيرة — ولكى يخلى مسئوليته — يذكرهم فى صدر أقوالهم .

٣ — إضافة الأخبار التاريخية :

وهذه الإضافة هى الميزة الثالثة التى تميز بها شرح التبريزى (٢) — على الحماسة — عن شرح المرزوقى .. إن هذه المعلومات التاريخية كانت إحدى الأسباب الجوهرية التى رفعت من شأن شرحه هذا ، لأنها قدمت إلى الباحثين والدارسين — فى عصره وبعد عصره — أوفر المعلومات التاريخية والإخبارية — مجتمعة — عن العصر الجاهلى .

من هذه المعلومات التاريخية : مناسبات القصائد . فهو يحرص على تسجيل الأسباب المحركة ، والعوامل المهيجة لقرائح الشعراء ، والتى تجعل الشعر يسيل على ألسنتهم .

فحماسية قيس بن زهير بن جذيمة العبسى ، التى مطلعها :

شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ
وسَيْفِى من حذَيْفَةَ قَدْ شَفَانِى

« .. قالها قيس فى قتله حَمَل بن بدر يوم جعفر الهباءة .. كان حَمَل ابن بدر قتل مالك بن زهير أخا قيس ، فظفر به وبأخيه حذيفة فقتلهما . وهذا ما جرى بين عبس وفزارة بسبب داحس والغبراء »(٣) .

---

(١) أنظر تحقيقه لنسب الشنفرى ٢-٢٥ .

(٢) فاد التبريزى فى هذه الناحية من شرح أبى رياش .

(٣) شرح الحماسة ١-١٠٦ .

وحماسية الحارث بن هشام بن المغيرة(١) ، نظمها الحارث معتذرا لما هرب يوم بدر ، وعيَّره حسَّان بذلك فقال :

إنْ كُنْتِ كاذبةَ الذى حدَّثْتِنى
فنجوْتَ منْجَى الحارثِ بن هشامِ

تركَ الأحبّة أن يُقاتلَ عنهمُ
ونَجَا برأس طِمِرَّةٍ ولجامِ

فاعتذر الحارث من هربه ، وقال :

اللهُ يعْلَمُ ما تركْتُ قتالَهُمْ
حتَّى عَلَوْا فرَسِي بأشْقَرَ مزْبِدِ

ويحرص التبريزى كذلك على توضيح ما يرد بين ثنايا الشعر من أحداث تاريخية . مثال ذلك حديثه عن أسباب حرب البسوس ، وقد أورد ذلك أثناء شرحه على حماسية الفند الزمانى(٢) ، وحديثه عن وقعة كلب وفزارة ، حين تناول تفسير حماسية بعض بنى جهينة(٣) .

أما إذا ارتبط الشعر بقصة ما ، سردها ، وحدد أبعادها وأشخاصها ، وما دار فيها ، وهو فى كل ذلك لا ينسى علاقتها بالشعر الذى يشرحه .

ففى شرحه للبيت الثانى من حماسية معدان بن جواس(٤) ، تذكر التبريزى أن « هذا البيت متعلق بقصة لا يكاد يشفى الغليل فى معرفة معناه إلا بها ، وكان سبب ذلك ... » فيسرد هذه القصة بجميع أحداثها وأشخاصها وما إنتهت إليه .

---

(١) شرح الحماسة ١-٩٧ ، وعنى بالأشقر المزبد ، الدم وزبدة البياض الذى يعلوه . وانظر مناسبة حماسية معقل بن عامر الأسدى ١-١٠١ ، ومناسبة حماسية أبى كبير الهذلى ١-٤٥ .

(٢) شرح الحماسة ١-١١ .

(٣) شرح الحماسة ١-٤١ .

(٤) شرح الحماسة ١-٧٨ .

وكذلك حماسية جحدر بن ضبيعة ، كانت لها علاقة وثيقة بقصة يوم التحالق(١) ذكرها التبريزى وقص أحداثها ووقائعها ..

وعادة يضمن التبريزى أخباره التاريخية بين ثنايا شرحه(٢) ، فإذا لم يكن هناك كبير مجال لإدماج ذلك بين ثنايا الشرح ، أو وجد أن هذا الخبر طويل ، ويحتاج إلى حيز أكبر ، وتفاصيل كثيرة ، قد تشتت أفكار القارىء وتبعده عن مضمون الشعر ، أفرد له حيزاً خاصاً ، ولكن بعد الشرح ،وعادة يُعَنْوِن له بقوله : « خبر هذه الأبيات » . من مثل قوله بعد أن شرح حماسية الشدّاخ ابن يعمر الكنانى : « وخبر هذه الأبيات .. أنه كان بين كنانة وخزاعة حلف على التناصر والتعاضد على سائر الناس ، فإقتتلت خزاعة وبنو أسد ، فاعتانها بنو أسد ، فإستعانت خزاعة ببنى كنانة ، فذكر الشداخ ، قرابة بنى أسد فخذل كنانة عن نصرة خزاعة .. وبهذا السبب انحدرت بنو أسد من تهامة إلى نجد غضبا على بنى كنانة إذلم تنصرهم »(٣) .

وفى هذا الجانب التاريخى ، نراه يحرص حرصاً كبيرا على ربط الشعر بالأحداث الملازمة .. المعاصرة له ،وتحديد العلاقة القائمة بين الشاعر وقبيلته ، أو بينه وبين معاصريه وذويه ، فإذا كان هناك علاقة بين حماسيتين ، جمع بينهما ، وربطهما معاً بسياج من الأحداث ، وحدد علاقة الحماسية الأولى بالثانية .

فالحماسية (٢٣) التى مطلعها :

أيا ابْنَ زيَّابَةَ إن تَلْقَنِى
لاتَلْقَنِى فى النَّعَمِ العَازِبِ

---

(١) شرح الحماسة ٢-٣٤ .

(٢) أنظر شرحه على بيت قيس بن الخطيم حيث أورد الخبر المتصل بهذا البيت بين ثنايا الشرح

(٣) شرح الحماسة ١-١٠٢ ، وانظر خبر الوقبى ١-١٨ ، خبر أبيات القتال الكلابى١-١٠٥ وخبر أبيات رجل من حمير ١-١٧٥ ، وخبر ابن دارة ١-٢٠٣ ، وخبر أبيات مساور ابن هند ١-٢٢٣ .

وتَلْقَنِي يَشْتَدّ بي أَجْرَدٌ
مستقدِمُ البِرْكة كالرّاكِبِ

قالها الحارث بن همام الشيبانى(١) — لابن زيابة — معايراً مفاخراً . فكان أن ردّ ابن زيابة عليه بأبيات أخرى على وزنها وقافيتها ، منافسا فى القوة فقال :

يا لَهْفَ زَيّابَةَ للحارث الصّـ ـابحِ فالغَـانمِ فالآيبِ
والله لَوْ لا قيتُه خاليـاً لآبَ سَيْفانا مع الغَالِبِ

فجمعهما التبريزى معاً ، وجعل الثانية ردا على الأولى مكملة لها(٢) .

ولعلنا قد لاحظنا أن التبريزى فى تفسيره لهذا الجانب التاريخى ، قد خرج على نطاق منهجه التلخيصى ، فقد رأينا أن هذه الأخبار التاريخية ، ومناسبات الشعر وأحداثه ، تشغل حيزاً كبيرا فى شروحه ، نظراً لولوعه بذكر تفاصيلها الدقيقة ، وكل ما يتصل بها من أمور . كل ذلك جعل تفسير هذا العنصر عنده يتسم بالإسهاب والتطويل . فنجد مثلا أن قصة أبيات عروة بن الورد تستغرق ثلاث صفحات(٣) ، وخبر أبيات هدبة بن خشرم يقع فى خمس صفحات(٤) وقصة يوم التحالق تشغل ثلاث صفحات(٥) .

وهنا نحب أن نضيف — أن تناوله لهذه الأخبار وغيرها ، كان مجالا خصبا من المجالات الأدبية والتاريخية معا ، ذلك أنه كان حين يذكر خبر الأبيات يذكر معه الأحداث والوقائع وأنساب الأعلام ، وما قيل من أشعار أو أمثال .. بيد أنه قلما يتعرض لشرح هذا الشعر ، إنما هو تحديد فقط

---

(١) شرح الحماسة ١-٧١ .

(٢) ذكر المرزوقى كل حماسية على حدة ، وكأنه ليس هناك ترابط بينهما . أنظر : ١-١٤٦ — ١٤٧ من شرح الحماسة .

(٣) شرح الحماسة ١-٨ — ١١ .

(٤) شرح الحماسة ٢-١٢ — ١٧ .

(٥) شرح الحماسة ٢-٣٤ .

للوقائع (١) . على أن هذا الإسهاب كان جانباً ثريا فى شرحه ، لأنه يحدد كثيراً من الأمور ، ويفند الأقوال والمزاعم تفنيدا دقيقاً ، كما أنه ألبس هذا التفسير ثوبا قصصيا طريفا مشوقا مما جعله يجتذب إنتباه القارىء أو السامع ، ويمده بالكثير من المعلومات والأخبار التى تضىء جوانب الشعر .

٤ ــ توسيع القاعدة اللغوية والنحوية :

والمتتبع لشرح التبريزى يجد أنه حصر مجموعة لغوية ضخمة ، وعرض إجتهادات وتأويلات وتحليلات كل من ابن جنى وأبى العلاء والمرزوقى وغيرهم حتى ليستطيع الباحث من خلال دراسته لشروح اللغة الغريبة عند التبريزى ، أن يستخرج معجما ضخما لمعانى الألفاظ ــ يختلف بإختلاف آراء العلماء ، ومعجماً ضخما للإشتقاقات اللفظية ، ومحصولا وفيرا للآراء النحوية على إختلاف المذاهب . ولقد استطاع الرجل أن يضيف رصيداً كبيرا من التفسيرات اللفظية اللغوية ، العربية والمعربة ، من مثل قوله فى تفسير بيت الشاعر :

وتَأْخُذُهُ عندَ المكارمِ هـــزّة
كما اهْتَزَّ تَحْتَ البارح الغُصُن الرَّطْبُ

« البَارح : ريح حارة تأتى من قِبَل اليمن ، أخذ من البَرَح ، وهو الأمر الشديد العجب ، وقال أبو هلال : هو فارسى معرب وأصله بره »(٢).

وقد يتطرق به الأمر إبان شرح بعض الألفاظ ــ إلى تناول ألفاظ أخرى قريبة منها فى النطق والمعنى ، ويجعل هذا الأمر فرصة لعرض ما قاله العلماء » .

فحين تصدى لتحليل اسم « جواس » أبى معدان قال :

« .. جواس فعّال من جَاسَ البلاد يجوسها إذا تخللها ، قال الله تعالى : « فجاسوا خلال الديار » ، ثم يجد التبريزى هنا الفرصة للانطلاق فيقول :

---

(١) أنظر على سبيل المثال خبر أبيات ابن سبرة ٢-٢٠ ؛ وخبر أبيات هدبة بن خشرم ٢-١٤

(٢) شرح الحماسة ١-١٤٥ .

« وقرأ أبو السمال «فحاسوا » ، قال أبو زيد : فقلت له إنما هو « جاسوا » فقال : جاسوا وحاسوا واحد ، وهو صفة منقولة كشداد وغلاق . قال أبو الفتح : وأنا أرى أن حاسوا من الحيس وهو الخلط ..»(٢) ويظل التبريزى يتنقل بين آراء العلماء ينقل عنهم ويروى أقوالهم ، فيضيف إلى الشروح اللغوية شروحا أخرى ، وموادكثيرة .

٥ ـ توضيح ما اختلف فيه العلماء :

نص التبريزى فى مقدمة شرحه على أنه سيوضح ما إختلف فيه العلماء .. والحقيقة لقد وعد فأوفى ، ووجدناه يجهد نفسه لاهثاً وراء العلماء يستطلع حقيقة الأمر وصحته ، سواء فى المعنى أو فى الرواية ، أو فى تحديد نسبة الشعر إلى قائليه ، إلى غير ذلك من المسائل .

فقول الأشتر النخعى :

بَقَّيْتُ وَفْرِى وانْحَرَفْتُ عَنِ العُلا
وَلَقِيتُ أضْيَافِى بِوَجْهٍ عَبُوسِ

كان مثاراً للجدل والنقاش بين أبى العلاء والديمرتى ..

قال أبو العلاء : « الذى ينبغى أن يحمل عليه معنى قوله (بقيتُ وَفْرِى) أن الوفر المال ، وذلك المشهور من كلام العرب » .

وذكر أبو محمد الديمرتى : « إن الوفر ههنا الشعَّر » .

يُنصِّب التبريزى نفسه حكماً ، ويتناول الرأيين ، معضدا رأى أستاذه المعرى ، ذاكراً إنكار أكثر أهل العلم لقول الديمرتى . ولكنه يبدو مضطربا مذبذبا حين يقول :

« .. ولا يمتنع فى القياس أن يسمى الشعر وفر ، لأنه كالقوة فى الجسد ، ولأنهم قد سموا شعر الرأس إذا كثر وفره .. وإذا صح ذلك ، لم يحسن أن يحمل البيت عليه ، لأن توفير شعر الرأس ليس من جنس الإنحراف عن معانى الأمور ، ولقاء الضيف بالوجه العابس » .

ثم يعود ليقول : « .. وذكر بعض من إنتصر للديمرتى : أن الوفر فى معنى الشعر ذكره الأصمعى فى بعض ما أملاه من تسمية خلق الإنسان ، وذكر أنه أملاه خمس عشرة مرة ، فكل نسخة من إملائه تخالف سائر النسخ فى نقص أو زيادة .. » .

ورغم هذا المؤيد العامى .. يعود التبريزى إلى تأييد رأى أستاذه أبى العلاء قائلا : « ولا يجوز أن يعدل عن أن الوفر المال الكثير » .

ويوضح التبريزى — كذلك — ما إختلف فيه العلماء حول نسبة الحماسية رقم (١٣٤) ويحقق هذا الأمر تحقيقاً . فهذه الحماسية نسبها أبو تمام إلى بشامة بن الغدير(١) ، وسلم بذلك مجموعة كبيرة من شراح الشعر ، ولكن التبريزى إستنادا إلى رأى أبى هلال العسكرى ، نسبها إلى بشامة بن حزن ، لأن أبا هلال قال عند تفسيرها : « رجلان يقال لهما بشامة ، أحدهما بشامة بن الغدير ، وهو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان . والآخر : بشامة بن حزن النهشلى وهذا الشعر له » . لكن التبريزى عاد لينسب إلى الآمدى قوله : « هو بشامة بن الغدير مؤيداً ما جاء عن أبى تمام نفسه » .

وهنا يظهر الرجل مذبذباً مضطربا — لا يثبت على مبدأ واحد، ولا يعرف إلى أى جناح ينحاز ، وهذا الإضطراب والتذبذب ظاهرة واضحة فى معظم هذه الأمور والخلافات التى تعرض لها .

على أن هذا الشرح المتصل بتوضيح ما إختلف فيه العلماء — إشتمل على مجموعة من المعارضات النقدية الطريفة — أطرافها ثلاثة من العلماء : — أبو الندى ، والنمرى ، وأبو محمد الأعرابى .

---

(١) شرح الحماسة ١-٣٠٦ ، وانظر تعليله لما اختلف فيه العلماء حول اسم « إياس ابن قبيصة » ١-١١١ .

وانظر تحقيقه لنسبة الحماسية (٦٦) لقائلها وتحديد اسمه ١-١٣٢ .

وأنظر تحقيقه للحماسية (٧٧) ١-١٤٥ .

كانوا في حالة شجار دائم ، فما ذكره أي منهم — فهو محل طعن وتجريح وتغليط ومناقضة تحليلية موضوعية ، سواء حول الرواية أو المعنى أو المواقف التاريخية ، أو الأعلام ..

لقد أفسح التبريزي لمعارضاتهم ومناقضاتهم ومناقشاتهم مصنفه « شرح الحماسة » ونقل عنهم كل آرائهم وأقوالهم ، مما أضفى على شرحه مسحة من الطرافة الأدبية ، حتى ليمكننا أن نعد هذا العنصر سمة بارزة مميزة — كذلك — لشرحه .

وإذا كنا في الخلافات السابقة لم نسمع صوت التبريزي ، فإننا في هذه المناقضات أحيانا يصافحنا صوته مفضلا أو مرجحا لأحد الآراء .

روى التبريزي رواية النمري لبيت عمرو بن شأس ، وهي قوله :

وَإلاَّ فَسِيرِي مِثْلَ ما سَارَ رَاكِبٌ
تَجَشَّمَ خِمْساً ليس في سَيْرِهِ أَمَمْ

وذكر تفسيره : « الأمم : القصد ، يقول الرجل للرجل ، لو ظلمتني ظلما أمما أي قصدا .. » . فأنكر أبو محمد الأعرابي هذه الرواية وهذا التفسير وقال : « هذا موضع المثل (أودَى العَيْرُ إلا ضَرْطَه) الصواب : (تَجَشَّم خِمْساً ليس في سيره يتم) ، يقال ما في سيره يُتْمٌ وأُتْمٌ أي إبطاء » يعقب التبريزي على ذلك فيقول : « وهذه الرواية حسنة ، والأولى لا تحيل معنى »(١) رغم أنه جعلها روايته العليا .

وروى التبريزي بيت بلعاء بن قيس ، برواية النمري .. قال :

وفَارِسٍ في غمارِ الموتِ مُنْغَمِسٍ
إذَا تَأَلَّى على مكْرُوهَةٍ صَدَقَا

قال أبو محمد الأعرابي : « لا أعرف هذا البيت في شعر بلعاء ، وأظنه مصنوعا ، والذي أعرفه له :

---

(١) شرح الحماسة ١-١٥٠ .

فإنْ تكُنْ عَبْرَتى طَلَّتْ أكفكفها
فربُّ قِرْنٍ أمَلْتُ الرأسَ والعُنُقا

بضرب لم تكن منى مخالسة .... (البيت)

يقول التبريزى مؤيداً صحة رواية النمرى : « وسائر الناس على غير هذا الذى ذهب إليه فى رده على النمرى »(١) .

وبيت معدان بن جواس :

وكفَّنْتُ وحْدِى مُنْذِراً فى رِدائِهِ
وصَادَفَ حَوْطاً من أعَادِىَّ قاتِلُ

قال النمرى — فيما نقله عنه التبريزى —: « منذر إبنه ، وحوط أخوه .. » .

قال أبو محمد الأعرابى — ردَّاعايه — : هذا موضع المثل :

إذا هَبَطَتْ حَوْرانَ من أرضِ عَالِجٍ
فقُولاَ لها ليسَ الطريقُ كذلكِ

غلط أبو عبد الله (النمرى) فى ثلاثة أوجه(٢) :

أحدها : أنه نسب هذا البيت إلى معدان بن جواس وهو لحجية بن المضرب . والثانى : أنه قال منذر إبنه ، والثالث : أنه قال حوط أخوه .

وإنما المنذر أخوه ، وهو المنذر بن المضرب ،وحوط ابنه ، وبه كان يكتنى حُجَيَّة وفيه يقول معدان بن جواس :

وَرِثتُ أبا حَوْطٍ حُجَيَّةَ شِعْرَهُ
وأوْرَثَنِى شِعْرَ السَّكُون المُضَرِّبُ

(١) شرح الحماسة ١-٣١ .
(٢) شرح الحماسة ١-٧٨ .

ولا يفوت التبريزى أن يسجل فى شروحه الآراء اللاذعة ، والنقود الجارحة ، التى كان يصبها أبو محمد الأعرابى على رأس أبى عبد الله النمرى ، من مثل قوله بعد معارضة من معارضاته :

« ... ولو أن أبا عبد الله عرف علم النسب ، وأيام العرب ، مثل ما عرف من لغاتها ونوادر كلامها لما شق غباره فى إستخراج هذه المعانى نقاب. لكنهقعد به عن إصابة الغرض إن لم يخطم قوسه بوتر .. »(١) .

ويقول فى مناسبة أخرى : « .. ولو عرف أبو عبد الله صحة متن البيت لكان المعنى ينادى على نفسه ، ولم يكن يحتاج إلى تسويد القراطيس بما لا فائدة فيه ، ولا طائل عنده .. »(٢) .

بيد أن أهم ما يتصل بهذا الموضوع عنده ، هو الجزء الذى أفرده لعرض الخلاف القائم بين المرزوقى ومن عارضهم خاصة ابن جنى ، يعرضه من باب التمويه ، ربما ليخفى حقيقة أخذه ونقله لأكثر من نصف شرحه ، إنه يقدم هذا الخلاف فى صورة المتشمت ، وكأنه اصطاد شيئا كبيرا ، يمسكه عليه لينال منه .. لكنه فى تصوير ذلك يبدو — كما رأيناه من قبل — مفتقرا إلى ثقة العالم ، وخبرة المتمكن ، يبدو مهزوزاً مضطرباً ، خاصة حين يحاول أن ينصف ابن جنى بالقول .. بصورة مسطحة ، ليس فيها نفاذ أو عمق وبلا تبرير علمى أو سند .

متال ذلك ، بيت غلاق بن مروان :

فأَضْحَتْ زُهَيْرٌ فى السِّنين التى مَضَت

وما بَعْدُ لا يُدْعَوْنَ إلاَّ الأشائِمـا

قال التبريزى : « .. قال المرزوقى : وذكر بعضهم (يقصد ابن جنى)

---

(١) شرح الحماسة ٤-١٤٤ .

(٢) شرح الحماسة ٢-١٧٩ .

أن « ما » من قوله : « وما بعد » لا يجوز أن تكون إلا صلة وزائدة ، لأن « بعد » لما جعل غاية ، ودخله النقصان بحذف « ما » كان مضافا إليه ، إمتنع من أن يكون مبنيا على شيء ، وخبرا عنه ، وإذا إمتنع من ذلك إمتنع من أن يكون صلة اوصول ، لأن الذى يكون من صلة الظروف والجمل هو ما جاز أن يكون خبر المبتدأ .

وليس الأمر على ما قاله « ثم يقدم المرزوقى أدلته العلمية التى تؤيد صحة رأيه فيقول : «ألا ترى أن قوله عز وجل : (قال كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تعلَمُوا أن أبَاكُمْ قد أخذ عيكم موثقاً من الله ومن قبل ما فَرَّطْتُمْ فى يوسف)، معناه : ومن قبل الذى فرطتم فى يوسف أى قدمتم ، ويجوز أن يراد : (ومن قبل تفريطكم) فيكون « ما » مع الفعل فى تقدير مصدر . وعلى الوجهين جميعا « ما » فى موضع رفع ، و« من قبل » خبره ... » .

ويقدم المرزوقى سنداً علميا — يدل على سعة علمه وأمانته معاً فيقول : « وذكر أبو اسحاق الزجاج فى « ما » من الآية ثلاثة أوجه ، ما ذكرناه أحدها وإذا كان الأمر على هذا فما ذكره هذا القائل غير صحيح » .

قال التبريزى : هذا رد المرزوقى على ابن جنى ، وقد أنحى عليه ولم ينصفه بقوله : وما ذكره هذا القائل (يقصد المرزوقى) غير صحيح ، لأن ما ذهب إليه ابن جنى أحسن من الذى ذهب إليه المرزوقى . ولكنه لم يذكر لماذا هو أحسن.

ثم يقول التبريزى : « .. وأما قوله (وذكر الزجاج فى « ما » من الآية ثلاثة أوجه ، ما ذكرناه إحدها (فغير الزجاج من النحويين ذكر فى الآية الوجه الذى ذكره المرزوقى ، وقال : فيه قبح .. »(١) .

فهذا قول غيره .. ولكن أين قول التبريزى نفسه ؟

---

(١) شرح الحماسة ٢-٤ ، ٥ .

وقول بعض بنى حمير :

كَأَنما الأُسْدُ فى عرينهم

ونحنُ كالليلِ جاشَ فى قتمِهِ

قال التبريزى : « قال المرزوقى : ذكر بعضهم أنه أراد بالقتم ، القتام ، فحذف الألف » .

كما قال غيره ورواه قطرب :

ألا لا بارَكَ اللهُ فى سُهَيْلٍ

إذا ما الله باركَ فى الرِّجالِ

ومصدر (ما) كان على فعِلَ : الفَعَلُ فى الأكثر ، فلا أدرى لم أنكره حتى إعتذر بما ذكره » .

فرد التبريزى عايه بقوله : « والذى ذكره ابن جنى فى أن القتم المراد به القتام هو الوجه .. لأن ذكر الإسم الذى هو القتام فى هذا الموضع أحسن من ذكر المصدر الذى هو القتم »(١) .

ولكن لماذا ذكره أحسن ؟ لم يقدم التبريزى تبريرا لذلك .

أما إذا وجد السند ، نرى صوته عاليا مجلجلا ، خاصة إذا كان الأمر متصلا بالجوانب التاريخية أو الإخبارية التى لم يكن المرزوقى يهتم بها كثيرا ..

ففى شرح بيت شاعرة طيء :

فيَا ضَبْعَةَ الفتيان إذْ يَعْتَلُونَهُ

بِبَطنِ الشَّرَى مِثْلَ الفنيق المُسَدَّم

قال التبريزى : « قال المرزوقى : ذكر بعضهم أن هذا المقتول هو بهدل ابن قرفة أحد بنى نبهان ، وأُخِذَ بسبب دم ابن جعدة المخزومى ، فقتل بالمدينة صبراً ، وما اقتص فى الأبيات يدل على خلافه » .

---

(١) شرح الحماسة ١-١٧٤ .

وهنا صاح التبريزى معترضا قائلا : « بل الذى أقتص فى الأبيات يدل على صحته بدليل ما قرأته على أبى بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب ، عن أبى على ابن شاذان ، عن أبى سهل أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد القطان ، عن أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى فى أخبار اللصوص قال :

« أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، قال : خرج عون بن جعدة بن هبيرة بن أبى وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك حاجا فى خلافة عبد الملك بن مروان فعرض له اللصوص أسفل من زبالة فيهم السمهرى بن بشر العكلى ، وبهدل ومروان ابنا قرفة الطائيان ، وقرفة أمهما ، وأبوهما حيان الطائى ... »(١) .

بقى أمامنا سؤال يحتاج إلى إجابة .. ما هى مصادر التبريزى ؟

هنا نقول .. إن مصادر التبريزى فى شروحه .. هى شروح السابقين أجمعين بمصادرهم .. لأنه لما كان جمَّاعاً لمَّاماً ناقلاً .. فقد كان ينقل النص معزوا إلى مصادره ، ويضعه فى مصنفاته كما هو بشكله وحجمه ومصادره .. فهو لم يرجع مثلا إلى كتب الأصمعى ، أو ابن الأعرابى ، أو سيبويه أو الخليل أو غيرهم ، ليستشيرها ، ولكنه نقل عمن رجع إليها أو إستشارها من السابقين ، ودون ذلك فى شروحه ، فظهر كأنه هو الذى رجع إلى هذه المصادر الأمهات وكأنه هو الذى بحث ..

لذلك لا نستطيع أن نذكر له مصدراً معينا إلا الشروح ، فمصادر الشارحين السابقين هى مصادره بالنقل والتبعية لا بالبحث والموضوعية .

والعجيب — الذى يلفت النظر حقاً .. إن التبريزى لا يذكر العلماء الشارحين — مصادره الحقيقية إلا نادرا ، إنما الذى يحرص عليه هو ذكر العلماء والأساتذة ، من أمثال الأصمعى وطبقته ، وابن السكيت وطبقته ،

---

(١) شرح الحماسة ١-١١٣ ، ١١٤ .

بوصفهم الأصل والثقة والمرجع ، أما العلماء الذين يستمد منهم أقوالهم وشروحهم ، فهم بالنسبة له تحصيل حاصل يذكرهم أو لا يذكرهم حسب حالته النفسية وهواه ، ونوعية الشرح الذى يتناوله . وكأن هذه الأمور مجتمعة مقصود من ورائها التمويه والتعمية ، والتضليل والتغطية حتى لا يظهر أنه آخذ ناقل .. بل باحث مطلع ، محقق منقب .

إننا نستطيع أن نقول ، أنه لولا إطلاعنا الواسع على الشروح ، بحكم طبيعة بحثنا وموضوعنا — لما عرفنا حقيقة هذا التسلسل ، والتطور الطبيعى لظاهرة الشرح حتى وصلت على هذه الصورة عند التبريزى .

إذن فمصادر التبريزى ليست كما حددها الدكتور قباوة وعدّدها — فى بحثه — وإن كان ظاهر الأمر يدل على ذلك — ولكن مصادره منحصره فى عدد الشروح التى يستقى منها مادته ومعلوماته كاملة . وهى فى شرح القصائد العشر — كما قلنا — شروح ابن الأنبارى والنحاس بمصادرهما ، وهى فى شرح المفضليات — لا تزيد عن شروح الأنبارى والمرزوقى بمصادرهما .

وهى فى شرح الحماسة — شروح العلماء السابقين الذى نقل عنهم بمصادرهم . هذه هى مصادره الحقيقية الفعلية — وليست كتب العلماء ومعاجم اللغة وكتب التاريخ والسير كما تخيل البعض ، فأوقعهم هذا الخيال فى غير ما كانوا يتوقعون .

إن المادة التفسيرية التى نقلها التبريزى ووضعها فى مصنفاته .. مادة مخدومة محققة ، مدعمة موثقة .. شقى السابقون فى سبيل الوصول إلى صحتها من مصادرها ، ووضعوها فى مصنفاتهم ، نقلها هو كما هى ، دون تعب أو تنقيب ووضعها فى مصنفاته ، وكأنه الباحث الدارس المحقق المدقق .. وضعها فى صورة توحى — لمن لا يعرف — بأنها من إجتهاده ، ومن كده وعمله أقول باختصار : كان العلماء السابقون يذكرون موادهم التفسيرية منسوبة إلى مصادرها مسندة مستوفاة ، فيأخذها التبريزى ليوجزها ، وينتقى منها

ما يراه ، ويجرد أكثرها من الأسانيد ، وأسماء الرواة ، ويمعن فيها تعديلا وتبديلا ، وإن كان يحتفظ لنفسه بذكر العلماء القدامى – ظاهريا – تمويها – وكأنه رجع إلى مصادرهم واستقى مواده العلمية منها .

هذا فيما يتصل بالمصادر ..

أما شواهده .. فما قلناه عن المصادر ينطبق تماماً على الشواهد ..

فشواهده – فى الشرح – منقولة مع مادتها الأصلية ، الشواهد فى مصنفاته ليست من إنتقائه أو إبداعه ، إنما من حصره وتجميعه ، إنه ينقل الشروح من العلماء السابقين بشواهدها المختلفة ، فليس للتبريزى من فضل فى هذا – إلا الجمع والترتيب والعرض والتبويب .

إن شواهده حصيلة جمعه لشواهد السابقين الذين نقل عنهم ، حصيلة كدهم وتعبهم ، وإستقصائهم وبحثهم ، والدليل على ذلك : أن المرزوقى مثلا إذا ذكر شاهدا بيتا من الشعر ، ذكر التبريزى نفس البيت ، ثم ذكر شواهد أخرى عن علماء آخرين ، وقد يذكر بعد البيت نفسه أبياتا وجدها عند غيره وإن كان ليس لها علاقة بالإستشهاد ، ولكن من أجل التتميم والتمويه معاً .

لذلك لا يحق لنا أن نذكر له شواهد مستقلة ، ونصنفها ونرتبها ونبوبها حسب عصور قائليها كما فعل البعض ، لأنها ليست شواهده ، وإن كانت فى مصنفه ، وإنما هى شواهد الآخرين ، جمعها معاً ، ووفق بينها ..

لقد جمع التبريزى أثناء تصنيفه لشرح القصائد العشر ، كل المواد التى ذكرها ابن الأنبارى والنحاس بشواهدها ، والأمثلة السابقة تدل على ذلك . وجمع فى شرح المفضليات شواهد الأنبارى والمرزوقى التى إستشهدوا بها ، جمعها معا وأدمجها ، ومزج بينها مزجا ليظهر أنه أكثر اطلاعا وأكثر تدقيقاً وأعمق فكراً . وجمع فى شرح الحماسة – الشواهد العلمية التى ذكرها جل العلماء الذين تصدوا لشرحها ، جمعها واختار منها ، ونسق بين ما اختاره ، لتوحى مصنفاته بصفة الشمول والإتساع . من هنا كانت شواهده على الحماسة أكثر من شواهد عالم واحد بعينه حتى أستاذه المعرى ..

لذلك نقول إن شواهد التبريزى : شواهد العلماء الشارحين جميعاً ، ممزوجة مختلطة ، تماما كما أن مصادره إنما هى فى الأصل مصادرهم مجتمعة موفق بين عناصرها .

وإن كان لنا أن نعترف بميزة هنا — فإننا نقول — إنه استطاع أن يعرف بالكثير من الشعراء القدامى المجهولين الذين إستشهد بأشعارهم ، كما إستطاع أن يحقق أسماء الشعراء وينسب الشعر إلى قائليه .

هذا هو التبريزى كما رأيناه ..

وأخشى ما أخشاه أن أقول رأياً فأتهم بالغلو ..

إن التبريزى بمنهجه هذا وبرغم إضافاته وإجتهاداته المتواضعة ، عاد بنا إلى الوراء .. إلى عهد الجيلين الرابع والخامس ، اللذين كانا يجمعان كل شتات الشروح ، وكل عناصر الشروح السابقة ، كل ما قاله السلف العالم من الجامعين المدونين ، والإلتزاميين . فالحقيقة أن التبريزى أعاد إلى أذهاننا ما فعله السابقون حين تضخمت الشروح بين أيديهم ، وكبرت وتعددت مواردها بما يفيد فى شرح الشعر وبما لا يفيد ، وتكدست الشروح بحيث جعلت الناس أنفسهم يتململون ويطالبون بثورة الإختصار والتيسير ..

ومع ذلك فإنه سيبقى للتبريزى حسنات .. ذلك أنه جمع فى نقله بين زبدة الشروح السابقة ، بشروح الإلتزاميين والإبداعيين ، فكانت شروحه ، وإن توسعت وخالفت ما نص عليه هو فى مقدماته ، أحلى مذاقا ، وأتم صحبة ، وأكمل عناصر . أضف إلى ذلك « أنه خلد بعمله هذا كثيرا من المؤلفات التى ضاعت أصولها الأولى ولا نعرف عنها اليوم إلا أسماءها ، فقدم للعلم والعلماء خدمة جلى فى حفظ التراث الأدبى »(١) .

وكون التبريزى غير مبتكر ، لا يعنى أنه خامل . إننا نقول للحق وللعلم إنه كان من أنشط رجال عصره ، من أكابر العلماء المحصلين المطلعين المثقفين جعلته ظروف عصره محصوراً بين أرجائها ، لا يستطيع الفكاك منها .

---

(١) فخر الدين قباوة — رسالة الدكتوراه ، ص ٧٩ .

يكفى أن نعلم أن التبريزى أول من تناول الشرح بطريقته هذه التجميعية الإنتخابية التكميلية ، وأول من إختصر وهذب ، ووفق ولفق.. فإذا كانت طريقته هذه لا تعد فى نظرنا الآن إبتكاراً ، بمعنى أنه لم يأت بجديد ، فإنها كانت تعد قمة الإبتكار فى عصره ، خاصة أنهم لم يكونوا يدركون كنهها وحقيقتها ، ولا شك أن الإختيار والتضمين – فى حد ذاته – عمل شاق فضلا عن أنه يحتاج إلى جهد كبير ، وصبر دائب ، ومثابرة . كل ذلك يرفع من قيمة الرجل .

الخــــاتمة

١ — خلاصة البحث وأهم نتائجه :

قلنا فى مقدمة هذا البحث(١) : إن هدفنا الأساسى دراسة «شروح الشعر الجاهلى فى القرن الخامس الهجرى » ، فى إطار من المناهج العلمية المتباينة التى أحاطت بها . ونريد أن نتبين هنا إلى أى حد تحقق لنا هذا الهدف .

كان منهجنا أن ندرس الشروح أولا دراسة تاريخية تعليلية ، لنتبين نشأتها ونموها وتطورها .. وكان هذا هو موضوع الباب الأول .. وأن ندرس المناهج العلمية التى ضمت هذه الشروح دراسة فنية تحليلية ، توضح الصورة التى وصلت إلينا فيها هذه الشروح دواوين مصنفة مصنعة ، مشروحة محللة ؛ وكان هذا هو مضمون الباب الثانى .

فى مقدمة الباب الأول .. ألمحنا إلى أن حركة شروح الشعر الجاهلى ، كانت جزءاً من الدراسات اللغوية ، التى أوجدتها الحركة العلمية النشطة ، من أجل خدمة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وما تبع ذلك من دراسات دينية . لذلك قلنا : إن حركة شرح الشعر إتحدت فى النشأة مع حركة تفسير القرآن ، وأن الدراسات الدينية ، بشعبها المختلفة ، هى التى لفتت أنظار العلماء ، ووجهت إهتمامهم إلى الشعر الجاهلى بوصفه ديوان العرب ، والمصدر الأساسى لمعرفة ما فى القرآن الكريم من تراكيب ومفردات ، وتعابير نادرة .

ثم وقفنا بعد ذلك فى الفصل الأول — نتحدث عن البيئة الثقافية والعلمية التى انبثقت فيها الدراسات اللغوية عامة ، ثم إحتضنت حركة الشروح ، وحافظت عليها ، وغذتها من روحها ، فأوضحت أنها هى نفسها البيئة العراقية ذلك أن العراق كان مركز حضارة وثقافة توارثهما على مر العصور ، فلما دخل

---

(١) انظر مقدمة الجزء الأول .

أهله فى الإسلام ، فعلوا فى العلوم العربية على قياس أممهم السابقة ، كما كان العراق بحكم موقعه الجغرافى يزخر بالعناصر الأجنبية المختلفة التى إعتنق معظمها الإسلام ، فأحسوا بحاجتهم إلى تعلم العربية ، لغة دينهم الجديد ، ولغة العرب الفاتحين ، ليستطيعوا المواءمة بين ماضيهم الأجنبى ، وحاضرهم الإسلامى. ومن هنا نشأت الحاجة فى العراق إلى جمع اللغة من مصادرها الأولى ، وتدوينها ، ليجدوا أمامهم المادة اللغوية التى تعينهم على الكلام والعبادة معا. وإلى وضع قواعد النحو التى تعينهم وتهديهم إلى صحة التعبير وسلامته ، وإلى رواية الأشعار التى تنير عقولهم ، وتهذب ألسنتهم ، وتصلهم بماضى العرب الفاتحين ، وتزودهم بما يحتاجون إلى معرفته من ذلك التراث العربى الضخم.

وهذا الأمر يعد تفسيرا للسؤال الهام .. **لماذا لم تنشأ هذه الدراسات اللغوية فى غير العراق ؟**

ولقد أوضحنا فى هذا الفصل – أيضا – أن العراق وإن كان أصلح بيئة لمثل هذه الدراسات ، فإن مراكزه المختلفة تنوعت اهتماماتها ، وغلب على كل منها نوع معين ، يتفق مع طبيعتها ، ووضعها الجغرافى ، وتيارها الثقافى. فالبصرة أولت إهتماما خاصا بجمع اللغة وتدوينها ، وتقعيد النحو ، وكانت أسبق المراكز إلى ذلك ، أما الكوفة فقدكانت أكثر إهتماما ، واوسع نشاطا فى رواية الشعر والأخبار.

وعللنا لذلك – بأن البصرة كانت تجتذب العناصر الأجنبية ، نظرا لموقعها الجغرافى على ساحل البحر ، الأمر الذى هيأها لتكون مركز إلتقاء وإستقبال لأخلاط متعددة من العناصر الأجنبية ، ومن هنا كانت الحاجة إلى تعلم اللغة العربية والنحو العربى.

أما الكوفة ، فقدكانت ثغرا من ثغور البادية وهو وضع جغرافى جعلها أكثر إهتماماً برواية الشعر العربى وأخبار العرب :

ثم مضينا بعد ذلك إلى دراسة أبرز مجالات الحياة اللغوية ، التى اتصلت بالشروح ، مجال جمع اللغة وتدوينها ، ثم مجال تقعيد النحو .. وأخيراً مجال رواية الأشعار والأخبار .

وفيما يتصل بالمجال الأول – أوضحنا أن عملية جمع اللغة قامت منذ أواخر القرن الأول ، حيث وجه العلماء ركائبهم إلى القبائل العربية ، التى إشتهرت بالفصاحة وسلامة اللغة ، وبعدها عن التأثيرات الأجنبية ، وأن إهتمامهم إنحصر فى منطقة « عالية السافلة ، وسافلة العالية » لأن سكانها محافظون على لغتهم ، يتوارثون سلامتها ، وأن أشهر القبائل التى أخذ عنها اللسان العربى ، هى : قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولقد وقفنا عند مصدر آخر خصب ، كان يستمد منه اللغويون مادتهم ، وهو رهط الأعراب الذين كانوا يفدون على إقليم العراق ، ليعلموا أهله اللغة العربية ، وليرووا لهم أشعار البادية . وبعد أن بينا أهم الأمور التى تتصل بجمع اللغة ومراحلها ، تعرضنا إلى أهم مسائل الخلاف ، التى قامت بين البصريين ، والكوفيين حول هذا الموضوع – فأوضحنا أن البصريين كانوا ميالين إلى التعمق فى النكات والدقائق ، بينما اتجه الكوفيون إلى واقع الاستعمال اللغوى ، الموجة عناية خاصة إلى تعبيرات أهل البادية ، وأن الفريقين تراشقا الإتهامات نتيجة لإختلاف المصادر ، ودرجة الثقة فى هذه المصادر ، ثم وقفنا عند أهم الأسس التى كانت وراء هذا الإختلاف بين المدرستين **وأرجعنا ذلك إلى الاختلاف فى الشخصية والعقلية بينهما .**

ثم مضينا بعد ذلك إلى دراسة مجال تقعيد النحو ، فأوضحنا أن البيئة العراقية كانت أصلح بيئة لمثل هذا البحث العقلى ، وأن البصرة كانت أسبق من الكوفة فى وضع قواعد النحو ، نظراً لكثرة الموالى فيها ، وشعورهم بالحاجة إلى وضع قواعد علمية يعرفون بها اللغة العربية .

ولقد أرجعنا سبق البصرة للكوفة فى هذا الميدان إلى موقعها ومركزها

التجارى ، **كما أرجعته إلى العامل الاجتماعى** ، نظراً لكثرة العناصر الأجنبية المقيمة بها ، وشدة حاجتهم إلى وضع قواعد تهيء لهم أن يتكلموا اللغة العربية ، وأن يستخدموها إستخداما سليما ، ثم ألمحنا إلى أن علماء المدرستين البصرية والكوفية ، كانوا يفدون إلى بغداد ، حيث كانت تدور المناقشات العلمية ، وتقام المناظرات بين الفريقين ، وأن مثل هذه اللقاءات كانت سببا فى عرض المذهبين ، ونشأة الحوار بينهما ، مما أدى إلى نوع من التقارب . وكان هذا الأمر إيذانا بقيام مدرسة نحوية جديدة ، تقوم على المزج والتقريب بين المدرستين ، هى المدرسة البغدادية .

وأخيراً تعرضنا لفكرة المدارس النحوية .. كيف نشأت ، ومن الذى اسسها ، كما تعرضنا للأصل العام الذى إختلفت فيه مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة ، كما تحدثنا عن خصائص كل منهما .

ومضينا بعد ذلك إلى دراسة المجال الثالث – مجال رواية الأشعار حيث أوضحنا أنه إذا كانت البصرة قد سبقت الكوفة فى مجال اللغة والنحو ، فإن الكوفة قد أحرزت قصب السبق فى هذا المجال ، وإستطاعت أن تمسك بزمام هذا الفن نتيجة للعوامل الجغرافية والاجتماعية . ولقد إستعرضنا فى هذا المجال : أهمية رواية الشعر فى حياة القوم ، ودرسنا البواعث التى دعت إلى ذلك على مر العصور ، ثم تعرضنا لدراسة مراحل الرواية ، وطبقات الرواة ، وميزت بين الرواة الهواة ، والرواة المحترفين ، وحددت مهامهم ووسائلهم فى إذاعة الشعر ، ثم حددنا القواعد التى إلتزموا بها ، وساروا على هديها فى رواية الشعر ، كما حددنا المقاييس التى طبقوها فى نقد الرواية ، وتمييز صحيحها من زائفها ومنحولها . وأخيراً كان لابد من الإشارة إلى أهم أوجه الخلاف التى ثارت بين البصريين والكوفيين حول رواية الشعر ، والأسباب التى جعلت البصريين يشكون فى رواية الكوفيين .. **وقد أرجعت ذلك كله إلى اختلاف المصادر .**

وإذ انتهينا من دراسة البيئة الثقافية .. مضينا فى الفصل الثانى إلى دراسة الحاجة الثقافية التى دعت إلى ظهور الشروح ابتداء من العصر الجاهلى نفسه ، حيث كان الأدب متأثراً بالبيئة والثقافة وطبيعة المجتمع وظروفه الحضارية ، وكان الشاعر وفنه وجمهوره شركاء فى ذلك التأثر ، تربطهم وحدة البيئة ، ووحدة الثقافة واللغة والفن . كان الشاعر واقعيا فى تعبيره ، يستلهم فنه من بيئته ، ويصورها كما يراها ، ويشتق عناصره الخيالية من الطبيعة التى حوله ، لذلك كان نظمه على أسس محددة ، وفى نطاق حدود مرسومة ، وأصول موروثة ، لا يحيد عنها ، يفهمها المحيطون به . لذلك لم تكن هناك حاجة ملحة لشرح الشعر ، لأن وحدة البيئة والثقافة والمجتمع ، ألفت بين العقول ، ووحدت الألسنة ، فاللغة لغتهم ، والشعر شعرهم ، يجرى على ألسنتهم جريان الدم فى عروقهم ، والجمهور الأدبى متحد الثقافة ، يفهم الشعر سليقة وطبعاً ، ويدرك معانيه موهبة وإلهاما ، ويعيش تجارب الشاعر .. كل ذلك جعل حاجة القوم إلى شرح الشعر قليلة إن لم تكن نادرة .

ويكاد يكون الأمر مماثلا — فى عصر صدر الإسلام — حيث كان الشعر مفهوماً لدى القوم ، ليس فيه غموض أو إبهام ، ولأن الجمهور عربى اللسان والبيئة والتفكير ، فقد إستغنى أيضا عن المساءلة ، أو طلب شرح الشعر لذاته . لكن حاجته الملحة ، التى سيطرت عليه ، وإجتذبت إهتمامه هى تفسير القرآن ، وكانت إحدى وسائله لهذا التفسير هو الشعر الجاهلى نفسه ، وهذا ما تطلب الرجوع إلى الشعر لإستجلاء بعض الأمور اللغوية ، وغير اللغوية ، وإتخاذه عاملا وسيطاً فى تفسير القرآن ، **لذلك لم يكن شرح الشعر فى هذا الوقت تلبية لحاجة ثقافية أو غاية فنية مزاجية ، بل لغاية دينية تطلبها الإسلام .**

اما بعد إنطلاق اللغة العربية فى ركاب الفاتحين ، وخروجها من بيئتها البدوية ، وتغلغلها فى الأمصار الإسلامية ، وتعرضها للأخطار نتيجة لإعتناق الشعوب الأعجمية الإسلام ، وإتخاذهم لغته لسانا لهم ، فقد تغير الوضع ، وتعقد الأمر ، وإنفرط العقد العربى الفريد ، عقد الوحدة الأدبية ، الذى

يربط بين الشعر والشاعر والجمهور الأدبى ، فتغير الشعر ، وتبدل الشاعر ، وأصبح الجمهور غير الجمهور القديم ، وإنزلقت الألفاظ الأعجمية على الألسنة ، وفشا اللحن ، فكان على زعماء حركة التنقية اللغوية أن يتدخلوا لوقف هذا الزحف السارى إلى ألسنة العرب عامة ، والشعراء خاصة ، وأن يحافظوا على سلامة اللغة من كل ما يشوبها ، وأن يرتفعوا بأذواق القوم ، ويرجعوا بها إلى عصر النقاء والصفاء .

لقد تتبعنا خط سير هؤلاء العلماء فى سبيلهم إلى الوصول إلى هدفهم المنشود ، وهو محاربة اللحن بأنواعه وظواهره ، وحماية اللغة ، والرجوع بها إلى عهدها الذهبى ، **فوجدنا أن وسيلتهم فى ذلك : الإرشاد والتقويم ، ثم التأليف والتصنيف فيما يقوم اللسان ويصلح المنطق ، وأخيراً التربية والتعليم** وقد اتخذ نشاطهم فى سبيل ذلك مظهرين هامين : **أولهما لغوى والثانى أدبى** . أنتج النشاط اللغوى تقعيداللغةو ضبطها ، وتقنين النحو ووضع أصوله . وفيما يتصل بالنشاط الأدبى ، فقد رأوا أن يضعوا أمام الجمهور الأدبى النماذج العربية الفذة ، بكل عناصرها لتكون المثل الأعلى للفصاحة والبيان .

فجمعوا الأشعار ، وصنفوا الدواوين ، وإختاروا المختارات ، ووضعوا ذلك كله أمام بصر وذوق الجمهور الأدبى ، عربا وغير عرب ، ليكون لهم زاداً ومثلا . بيد آن هذه الأشعار القديمة جاءت إلى بيئة حضرية ، تختلف عن بيئتها البدوية وكانت بعيدة عن الأفهام ، غريبة على الأذهان ، فكان على العلماء أن يذللوا صعبها ، ويحللوا غامضها ، ويشرحوا معانيها ، تارة عن طريق التعليم العام ، فى المجالس والمساجد وحلقات العلم ، وأخرى عن طريق تصنيف الدواوين وتأليف الشروح .. فكانت الحاجة الثقافية إلى شرح الشعر وتقريبه ، مرتبطة بالحاجة التعليمية والتقويمية التى نشأت فى الأمصار نتيجة لضعف السلائق ، وبعد القوم عن أصل اللغة وبيئتها . كل ذلك دفع العلماء إلى تلبية هذه الحاجة ، وحفزهم إلى شرح الشعر . ثم اتسع نشاط علماء حركة التنقية اللغوية ، وتعددت مساراتهم ، بيد أن أهمها ، كان حماية اللغة

من التصحيف والتحريف الذى طرأ على اللغة ، وأدى إلى تغيير معانى الكلام إلى غير المعنى الحقيقي والمقصود ، واتخذوا لذلك مسارين :

الأول : إبراز التصحيف علميا بتحديده .

والثانى : معالجته عمليا بشرحه وتوضيح مدلوله ، وتقديم الشواهد الممكنة من أشعار العرب على وجهه الصحيح .. وشرح هذه الشواهد .

وهكذا برزت حاجة أخرى – بالإضافة إلى ما سبق – تقتضى الشرح والتحليل، فكان شرح التصحيف صورة أخرى من الصور العلمية الهامة التى أوجبتها الحركة العلمية ، للمحافظة على اللغة العربية ،والتى إستهدفت بالضرورة تصويب لغة الشعر ، وتحقيق روايته ، ثم شرحه وتقديمه إلى الناس صحيحاً مذللا دون لبس أو غموض .

ولقد أوضحنا بعد أن إستعرضنا كل هذه الموضوعات السابقة – وغيرها أن الحاجة الثقافية التى دعت إلى نشأة الشروح ، إنما كانت تستهدف أساساً عدة أمور ، أهمها :

- تعريف الشعوب المفتوحة بتراث العرب التايد ، وماضيهم المجيد .
- وربط جمهور السامعين والقارئين من العرب – شعراء وغير شعراء – بتراث أجدادهم وإبراز مفاخرهم وأمجادهم .
- تقديم التراث الثقافى العربى والموروث لهم للرد على الشعوبيين الطاعنين فى العرب وماضيهم .
- تحليل النصوص الشعرية ، وإلقاء الضوء على مواطن الجمال أو القبح ، وتقريب معانيها من المسامعين .
- تفسير الغريب والنادر الذى وقف حجر عثرة أمام القوم ، نتيجة لصعوبة اللغة .
- تقويم الألسنة وتهذيب الأذواق ، بتقديم المستحسن والمستحب من كلام العرب وشعرهم .

– سد الحاجة العلميـــة التى شعرت بها الأمة الإسلامية حتى تقدمت فى دراسة العلوم .

وإذا انتهينا من دراسة الحاجة الثقافية التى دعت إلى نشأة الشروح ، تتبعنا فى الفصل الثالث ظاهرة الشروح نفسها منذ نشأتها ثم تطورها .. فأوضحنا – أن العرب الجاهليين كانوا يتلقون أدبهم الشعرى – فى موطنهم ؛ ومن أفواه شعرائهم صافياً نقيا ، سائغا سهلا ، يفهمون أغراضه ومراميه ، وومضات معانيه ، ويدركون ما ينطوى عليه شعر شاعرهم من إيحاءات فنية ، لأنهم أبناء بيئته ومجتمعه ، يعيشون معه تجاربه ، ويعرفون دوافعه على النظم ، ويندر أن ينقطع هذا الخط الواصل بين الشاعر وجمهوره ..

أما إذا جد جديد .. وخرج الشاعر – لسبب ما – عن نطاق مذهبه التعبيرى أو الفنى المعروف – تطوع هو نفسه ، بوصفه خالق هذا الفن ومبدعه بتوضيح مراميه ، وما قصد إليه .. فإذا غاب الشاعر لسبب أو لآخر ، كان رواته من أبنائه وأبناء قبيلته ، هم الذين يتولون هذه المهمة ، نظراً لأنهم معاصروه ومعايشوه ولأنهم أجدر الناس على فهم معجمه اللغوى ، وتجاربه الشعورية ، وكانت هذه هى البداية .. ساذجة بسيطة ، لا تتعدى تفسير لفظة أو استفسارا عن واقعة .

ثم تتبعنا سير ظاهرة الشروح .. فأوضحنا أن هذه البداية بمرور الزمن تطورت .. فسرعان ما نشأت بواعث عدة ، تقتضى التمسك بالتراث الشعرى والتمثل به ، ومحاولة تقصى عناصره ، خاصة بعد أن مرت السنون على موت الشعراء ، وإفتقدت النصوص كاشفيها الأول . فكان لابد للرواة أن يقوموا بدورهم فى توضيح الأمور التى تضيء جوانب الشعر ، خاصة بعد أن إنتشر الإسلام ، وإتسعت رقعة دولته ، وأظل بظله الظليل بيئات عدة ، ودخل فى ربوعه أجناس وعناصر متباينة ، وإقتضى الأمر بذل الجهد لتقريب الأدب الجاهلى إلى أذهان الجمهور .. لذلك كانت ظاهرة شرح الشعر مرتبطة بروايته

وظل الأمر على هذه الحال ، إلى أن جاء عصر التدوين ، حيث وجدنا أن النشاط العلمى الذى دب فى الأوساط الإسلامية كان له أثر فعال وهادف ، أدى إلى خدمة حركة الشروح ، فبدأت براعمها فى الظهور بين ثنايا الرواية العلمية ، نتيجة لما جد على المجتمع العربى من أحداث ، ودخول الموالى والأجناس المختلفة فى نطاق العروبة والإسلام . ولقد رأينا الرواة العلماء يوجهون دفة ركائبهم صوب البوادى العربية لجمع اللغة والشعر والأخبار ، **وكان لعملية الجمع هذه جانبان : جانب تحصيلى ، وآخر تفسيرى** ، قام بهذه العملية مجموعة كبيرة من هؤلاء العلماء ، كان منهجهم فى ذلك بسيطاً ، يتقارب كثيراً مع ما وجدناه عند الرواة السابقين ، لأنهم كانوا ينقلون عنهم ، ويروون ما سمعوه منهم ، لذلك جاء شرحهم مروياً نقليا ، لا يتعدى تفسير لفظة ، أو ذكر مناسبة ، وإن ظهرت محاولات إجتهادية لوضع المعانى الإجمالية ، إلى جانب بعض البوادر واللمحات النحوية ، والإشارات الصرفية ، والمناسبات التاريخية ، ومن المهم أن نذكر هنا — كما أثبتنا — أنه إذا كانت صلة الشعر برواته لم تنقطع ، فإن صلة الشعر بشراحه لم تنقطع أيضا ، حيث كان الشرح فى بدايته جزءاً لا يتجزأ من عصب الرواية .

ومن الحق أن نسجل ، أن علماء الجيل الأول — أبا عمرو بن العلاء وطبقته — هم رواد هذا الطريق ، وهم أصحاب الفضل فى الجمع والإستقصاء والتدوين ، وهم الذين مهدوا الطريق ، وحثوا تلاميذهم على السير فيه . فلما تسلم تلاميذهم — علماء الجيل الثانى — الأمانة ، وضعوا مجهودات هؤلاء الأساتذة على مائدة البحث ، ثقفوها ودرسوها ، ودفعهم هذا المجهود إلى المزيد من الجمع والتحرى ، فأكملوا العمل العظيم الذى بدأه السابقون . وكان من الطبيعى أن يكون علماء هذا الجيل — جيل الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى ومن فى طبقتهم — أكثر تحصيلا ، وأوسع نشاطاً ، نتيجة لإكتساب خبرة وثقافة الأساتذة ، وما أضافوه إلى ذلك مما توصلوا إليه ، وقد برزت مواهبهم العلمية فى مجال اللغة والشعر والأخبار ، حيث مدوا

أياديهم إلى الأغوار السحيقة ، يتلمسون الجذور ، ويتعرفون الأصول ، فكان صنيعهم توسيع ما ضيقه السابقون ، وكان نشاطهم تكميلا له ، وتدعيما وتمحيصا .

فلما جاء علماء الجيل الثالث — جيل ابن السكيت وطبقته — كان تدوين الشعر قد وصل إلى قمته — ومحصول الشروح بلغ ذروته ، فتسلم علماء هذا الجيل ثروة ضخمة ، تختلف في مصادرها ورواياتها وشروحها ، فأدركوا أن البحث العلمي السليم ، يقتضى تجميع كل ما خلفه الرواة والعلماء السابقون ودراسته دراسة موضوعية مستفيضة ، ولقد كان ما ورثه علماء هذا الجيل من شروح وآراء وخلافات ، هو مادة هذه الدراسة وموضوعها . ولقد لاحظنا أنه بين أيدى هؤلاء العلماء ظهرت ظاهرة هامة — تلك هي الاعتماد على مجهودات وتفسيرات السلف العالم من أساتذتهم ، والإقتداء بهم ، وإتخاذهم مصدرا أساسيا معتمداً ..

فنرى الشارح منهم مقيدا بما سمعه من أساتذته ، ملتزما به ، فما سمعه منهم فهو الحجة ، وهو الكلام الموثق ، وما لم يسمعه فهو منه حريص حذر .

وجاء علماء الجيل الرابع — جيل السكرى وطبقته — فورثوا صنيع العلماء السابقين أجمعين ، فى شكل دواوين ومختارات شعرية ، مجموعة مشروحة ، وقد غلب على هذه الدواوين تعدد الروايات ، وتباين الشروح والآراء ، نتيجة لإختلاف المصادر ، ونوع الثقافة ، ولون الإهتمام ، كما كثرت هذه الدواوين بتكثر رواتها وصانعيها وشارحيها ، فكان هذا التعدد والتكثر فى صناعة الشروح ، ظاهرة علمية هامة ، ترصد لنا ما وراءها من جهد جهيد ، وبرز لنا — فى ذلك كله — عنصر المنافسة العلمية ، وعنصر الأصالة لدى هؤلاء العلماء ، الذين لم يكتفوا بالنقل والتلقى ، وإنما إجتهد كل منهم فى القيام بعمل علمى مستقل يبرر سماته .. فوجهوا عنايتهم نحو تصنيع شروح تجميعية تنسيقية تكميلية ، تجمع بين الآراء المتعددة ، وتنسق بين عناصرها ، وتضيف

إليها ما يكملها ، ويوحدها فى ترابط وانسجام ، فكانت محاولتهم التأليفية هذه أوعى المحاولات التى بذلت فى تصنيع الشروح .

وفى عصر علماء الجيل الخامس — أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع — كانت الأمور قد وضحت ، والعلوم قد وضعت ، وأصبح النشاط العلمى منصرفا إلى التطبيق العملى ، الذى يخرج العلوم من نطاق البحث النظرى إلى واقع التطبيق والإثبات ، وأدى ذلك كله إلى التعمق فى العلوم ، ووضوح منازع العلماء . من هنا وجدنا علماء هذا الجيل ذوى منازع علمية متباينة ، كل برز فى دائرة علمه ، وأصبحت هذه الدائرة مجالا لنشاطه ، ووضحت معالم هذه المنازع فيما ألفوا وصنفوا من مصنفات تحمل ألوان علومهم ، وظهرت شروحهم على الشعر وقد صبغت بألوان هذه العلوم ، ولقد لاحظنا أن علماء هذا الجيل ينتمون أيضا إلى مذهب التصنيع ، الذى أرسى قواعده ، وشيد صرحه ، علماء الجيل السابق ، إلا أن تصنيع الشروح عندهم إختلف من حيث العرض والطريقة ، شكلا وموضوعا ، كما وكيفا . لقد رأوا أن مبدأ التنسيق والإختيار ، الذى سار عليه الشراح السابقون ، يعد تحديدا لا طائل تحته ، وإختصارا يقلل الفائدة ، بل إنه تقصير يجب أن يتلافوه ، ونقصا يجب أن يستدركوه ، لذلك رأوا أنه من واجبهم أن يوسعوا دائرة نشاطهم وأن يحللوا ويدققوا ويسهبوا ويستطردوا لتشمل شروحهم كل ما يتصل بالنص الشعرى من قريب أو بعيد ، وبذلك وضعوا أمام قارىء شروحهم ، وطالب علمهم ، مائدة ضخمة تضم أدسم المواد العلمية ، التى هى حصيلة الجمع والإستيعاب ، والتمحيص ليختار منها ما يلائم ذوقه ، ويشبع نهمه ...

على أن أهم شىء أثبتناه فى صنيع هذا الجيل هو : تحديد المنهج . فقد رأينا كلا منهم يحدد منهجه وخطته فى بداية عمله كما وجدنا أن تصنيع الدواوين عندهم يرتبط لأول مرة بعنصرين هامين هما : عنصر التبويب ، وعنصر الترتيب ، تسهيلا على القارئين .

ثم مضينا إلى دائرة اختصاص علماء الجيل السادس ، فوجدنا أن شروح الشعر عندهم تطورت فنيا ومنهجياً ، فهى وإن كانت تساير أحيانا مواكب سابقيها ، فإنها اتسمت بسمات أخرى مميزة ، ذلك أن هؤلاء الشراح جمعوا بين علوم شتى ، وثقافات عدة ، وكانت حصيلتهم رائعة من مختلف العلوم الدينية والدنيوية ، والأفكار الفلسفية والكلامية ، إلى جانب إهتمامهم الواسع ، وشغفهم العظيم ، بعلوم اللغة والأدب . كل ذلك كان له أثره الواضح فى عقليتهم وتفكيرهم ، وإنعكست أضواؤه على تآليفهم وشروحهم ، التى أظهرت مدى تعمقهم فى الفهم والتفكير من ناحية ، ومن ناحية أخرى : غلبة عنصر المقارنة ، والنقد التطبيقى التعليلى عليها ، وبداية النقد التوجيهى ، الذى يتفق مع سعة علمهم ، وذوقهم المهذب .

ومن هنا قلنا أنه قد وضح فى شرحهم سمتان هامتان :

الأولى التركيز والعمق والموضوعية .

والثانية النقد التطبيقى المعلّل ثم الموجه .

حتى إذا ما وصلنا إلى علماء الجيل السابع ، وجدنا أن الشروح عندهم أصبحت ثقيلة ، نتيجة للإستطراد المتوسع ، الذى رأيناه عند علماء الجيل الخامس ، والطابع العلمى المتعمق فى أغوار اللغة عند علماء الجيل السادس ، حتى لقد أصبحت الشروح وقفا على البعض ، لا يفهمها إلا علية المثقفين ، والعلماء المتخصصون . وكانت سبباً فى وجود فاصل علمى بين مجموعتين من الطبقات : طبقة العلماء المتخصصين ، وطبقة المتعلمين . أما طبقة الجمهور الأدبى ، راغب المتعة الفنية والجمال الأدبى ، فقد تذمروا ، بعد أن أثقلت كواهلهم كل هذه التحميلات ، وهذه المتاهات ، التى نقلهم إليها العلماء أثناء شروحهم ، وناشدوا العلماء أن يسهلوا عنهم الأمر ، ويخففوا عنهم العبء ، وإستحثوهم على الإكتفاء بشرح الجوانب المعنوية والجمالية ، وتوضيح القيم والمثل العربية . وكان إستجابة لذلك — أن اتجه بعض العلماء

إلى الإختصار والتسهيل ، والتخفف من كثرة التنقل ، وقصر الشروح على ما يتصل مباشرة بخدمة المعنى الذى ينطوى عليه النص الشعرى ، فقلت الإستطرادات اللغوية ، والتعليلات النحوية ، وأخذت مثل هذه الملاحظات تدريجيا فى الندرة عند تصنيع الشروح ، وأخذ تفسير الشعر هنا طابع الذوق الأدبى ، الذى لم يكن يصدر فى حكمه بعد — عن القواعد والنحو — بل عن مقاييس الأسلوب بوجه خاص .

ثم إنتقلنا بعد ذلك إلى دراسة الشروح عند علماء الجيل الثامن — جيل المفلسفين — الذين وجدوا أمام أعينهم وبين أيديهم حصيلة أجيال كثيرة ، ومجهودات علماء أفذاذ ، تناولوا كل كبيرة وصغيرة ، فلم يبق من عمل لهم إلا فلسفة هذه الشروح وبلورتها ، ثم محاولة تأويل ما لم يستطع السابقون تفسيره ، وإنارة جوانبه البعيدة ، وقد كان العنصر البارز فى شروحهم هو عنصر المعنى ، فالإهتمام به عندهم قد يطغى على غيره من العناصر الأخرى ، فى إطار محكم من الإيجاز والإختصار ، مع عدم إغفال الجوانب البيانيةو اللغوية ولكن باقتصاد وإعتدال .

وأخيرا وقفنا عند علماء الجيل التاسع — فى القرن الخامس — لنرى أنه الجيل الذى شهد شروق شمس العلم المنهجى المنظم ، وبذل علمه فى المدارس المتخصصة ، التى تخدم أساسا الدولة ، فقد أضافت هذه المدارس النظامية ، التى أقامها السلاجقة ، بعدا جديدا إلى حركة الشروح ، فتحولت الشروح لتندرج فى مناهج علمية متدرجة ، قصد بها إنارة العقول ، وخدمة طالبى العلم . فنجد أن شروح علماء هذا الجيل إنما تصب — فى الغالب الأعم — فى قوالب الغاية التعليمية . ولقد لاحظنا ظاهرة هامة فى تصنيع هؤلاء العلماء ذلك أنهم وجدوا أن العلماء السابقين قد قتلوا الشعر بحثاً وتحقيقاً ، وشرحاً وتحليلا ، لذلك إنتهجوا لأنفسهم **منهجاً خاصا يقوم على حصر للقديم وتجميعه ثم الاختيار منه ، وتهذيبه ، ثم عرضه بطريقة مبسطة متكاملة ، إعتمادا على**

كل مجهودات السابقين . لذلك جاءت شروحهم وكأنها خلاصة معظم الشروح السابقة .

ونحن وإن كنا قد قسمنا هؤلاء العلماء إلى أجيال متعاقبة ، فليس معنى ذلك أن هناك فاصلا طبيعيا ، يفصل بين عقلية هذا الجيل ، والجيل الذى بعده والجيل الذى سبقه ، فقد يكون بين علماء الجيل الواحد من يسير على سنة مخالفة مغايرة ، وقد يكون بين علماء الجيل الثالث من سار على نهج علماء الجيل الثانى ، أو كان إرهاصا لعلماء الجيل الرابع .. وهكذا ، إنما كان إعتمادنا الأساسى فى هذا الأمر على العلاقة التى تربط جيلا بجيل ، وهى علاقة الأستاذية علاقة الأخذ والعطاء ، فكل جيل من هذه الأجيال كانت له علاقة بسابقيه ولاحقيه .

وإذ انتهينا من هذه الدراسة التاريخية — فى الباب الأول — مضينا إلى صلب الدراسة الفنية فى الباب الثانى .. إلى دراسة المناهج العلمية التى ظهرت فيها الشروح .

وفى فاتحة هذا الباب ، عرفت ما المناهج .. وبينت أنها أصول كبرى يندرج تحتها كثير من طرائق التفسير واتجاهاته الجزئية مثل التفسيرات اللغوية والنحوية والتاريخية .. وغير ذلك . وكان فى ذلك تعليل لما رفضناه من دراسة كل اتجاه من هذه الإتجاهات على حدة . ذلك أن المنهج الواحد مجموع أشمل وأرحب ، يضم الكثير من هذه الاتجاهات معاً . كما بينت أن هذه الإتجاهات لم نرها مستقلة بنفسها يوما ، ولم تنفرد بنفسها عند عالم واحد — أياً كان تخصصه ولكنها كانت تجتمع معاً ، متآلفة متآزرة ، متكاملة أو غير متكاملة ، لتندرج تحت منهج علمى من المناهج التفسيرية .

أوصلنا البحث إلى تحديد ثلاثة مناهج واضحة ، خصصت لكل منها فصلا مستقلا :

أولها : المنهج الالتزامى النقلى وقد رأينا أن خير من **يمثله هو ابن السكيت**

وثانيها : المنهج الإبداعى الفنى ، وقد رأينا أن هذا المنهج يتألق بين عقل ولسان المرزوقى تألقاً كبيراً .

وثالثها : المنهج الانتخابى التهذيبى ، وقد كان التبريزى هو الممثل الشخصى لهذا المنهج .

وهكذا كان ابن السكيت والمرزوقى والتبريزى الممثلين الشرعيين لهذه المناهج العلمية . والحقيقة — أن إختيارهم لم يكن خبط عشواء ، ولكن الذى أملى علينا هذا الإختيار هو طبيعة البحث ، ذلك أن أولهم يمثل ظاهرة الشرح فى عصر نضج الرواية العلمية وعصر تقنين العلوم اللغوية والنحوية ، أما ثانيهم فيمثل الذروة الفنية التى وصل عليها علم الشروح بعد أن وصلت الحصيلة التفسيرية ، التى قامت على الشعر إلى ذروتها ، وأصبح الأمر يقوم على الإبداع وحسن التصرف ، ثم النقد التحليلى المعلل — وأما ثالثهم — فقد عاش نهاية الفترة الخصبة فى حياة الشروح ، ثم عاصر عصر التكدس ، عصر ما قبل الجمود ، وأصبح الشرح فى عصره تجميعاً وتكميلا ، ثم اختصارا وتهذيباً ، وتوفيقاً وتلفيقا .

والظاهرة الجديرة بالملاحظة حقاً ، أن ثلاثتهم يجتمعون فى أشياء :

أولها : أنهم جميعاً من الموالى المنتسبين إلى العروبة والإسلام ولاء .

وثانيها : أنهم جميعاً مؤدبون ، كان التعليم والتأديب حرفتهم الأساسية :

وثالثها : أنهم وجهوا إهتمامهم العلمى والأدبى صوب اللغة والشعر ، ولهم فى ذلك يد طولى .

رابعها : أن كلا منهم كان المرجع والمصدر لطلاب العلم وعشاق الأدب فى عصره .

ومن هنا كان إختيارنا لهؤلاء العلماء محدداً واضحاً .

وقفنا فى الفصل الأول عند « المنهج الإلتزامى النقلى » بوصفه أول المناهج العلمية نشأة وأبسطها صورة ، وأقلها عناصر ، وعرفته بأنه المنهج الذى يلتزم فيه الشارح بآراء وأقوال السلف العالم من أساتذته ، يعتمد على المنقول منهم ،

المروى عنهم ، فى جميع العناصر التفسيرية ، فهو يجمع كل ما جاء على ألسنتهم ، أو فى كتبهم من روايات وشروح للمعانى ، وذكر للمناسبات ، ويضع كل ذلك جنباً إلى جنب ، فى معرض شرحه ، دون أدنى تدخل منه أو تنسيق .

ولقد أوضحنا أن هذا المنهج يعد من أوثق المناهج العلمية على الإطلاق ، ذلك أن كل قول أو رأى فيه منسوب إلى صاحبه ، مهما تعددت الآراء أو تضاربت ، فأصحاب هذا المنهج جامعون ناقلون صانعون ، وشروحهم مؤلفة مصنفة من جميع ما وصل إليهم عن أساتذتهم ، سواء بالسماع المباشر أو بالنقل أو بالرواية .

وفى دراستى لابن السكيت – ممثل هذا المنهج – عرفت أولا به : إسمه ونسبه وأسرته ، وشيوخه ، وتلاميذه ، ثم تعرضت لقضية تشيعه ، ثم عرفت بآثاره الموجود منها والمفقود . وبعد أن انتهيت من دراسة هذه الآثار ، مضيت إلى دراسة منهجه وحللته تحليلا دقيقاً ، مبيناً إتجاهه العام ، ثم حددت العناصر الأساسية التى يتكون منها الشرح عنده ، وهى : الرواية ، وشرح المعنى ، ثم علوم اللغة وأخيراً الجانب التاريخى . وفى كل عنصر من هذه العناصر تتبعت الخطوات التى كان يخطوها ، ودعمت كل ذلك بالشواهد الكثيرة ، ثم تحدثت عن مصادره ، وكيف أنه كان ملتزماً بما تواضع عليه أساتذته ، فلم يخرج عن حدود عصر الإحتجاج اللغوى .

وفى الفصل الثانى– وقفنا عند « المنهج الإبداعى الفنى » فى شرح الشعر – كما وضح عند المرزوقى –فحددنا مقوماته ، ومعاييره الفنية ، ثم أوضحنا أن شرح الشعر فى نطاق هذا المنهج ، عملية فنية رائعة ، يرسمها فنان بارع ، له المقدرة العلمية على الإقناع والإمتاع معا ، وله القدرة على التفنن فى توضيح الصور الشعرية التى رسمها الشعراء ، بأكثر من طريقة ، وعرضها بأسلوب شيق جذاب ، بأرق وأعذب وأبلغ ما عرف عن أدباء العربية من أساليب

نثرية فنية ، مما جعل شروحه تجمع إلى جانب غايتها التعليمية والعلمية ، مادة فنية تحرك المشاعر ، وتنعش الوجدان ، وتحمل القارىء معها لكى يعايش الشاعر تجاربه الشعورية ، وحالاته الوجدانية .

ولقد أوضحنا أيضا أن شرح الشعر — هنا — ليس مادة توضيحية تحليلية فحسب ، بل الشرح عامل أساسى من عوامل إكمال اللذة النفسية ، والمتعة الذهنية ، ولولاه ما تذوق القارىء أو السامع هذه اللذة ، وتلك المتعة ، وهذا ما قصدناه بالإبداع .. وهذا ما عنيناه حين قلنا : إن هذا المنهج يقوم على التفنن ، وإعمال العقل ، وإستجلاء القريحة بما امتصته من رحيق الثقافة الأدبية والعلمية معاً .

وفى دراستى للمرزوقى — ممثل هذا المنهج — عرفت أولا به : اسمه ونسبه ، مولده ونشأته ، حياته ، أساتذته ، تلاميذه ، وهل كان الرجل شيعياً أم لا .. ثم تحدثت عن آثاره الموجودة والمفقودة . وبعد أن انتهيت من ذلك ، إنتقلت إلى دراسة منهج الرجل فى شرح الشعر الجاهلى ، وحللته تحليلا دقيقاً ، وتتبعت عناصره التفسيرية ، وهى أغنى عناصر تفسيرية يمكن أن نجدها عند شارح . بعد ذلك عرضت لأهم خصائصه الفنية فى الشرح ، من حيث المنهج والأسلوب ثم تحدثت عن مصادره وشواهده .

وفى خاتمة المطاف ، وقفنا عند « المنهج الإنتخابى التهذيبى » بوصفه آخر المناهج العلمية لشرح الشعر — فى القرن الخامس الهجرى . حددت مفهومى لهذا المنهج ، وذكرت الظروف والعوامل التى حدت بالعلماء إلى إنتهاجه .

ولقد أوضحنا أن هذا المنهج العلمى يعتمد أساساً على تجميع الشروح ، على اختلاف شارحيها ، وإختلاف عصورهم ومناهجهم ، ثم الإنتخاب والتهذيب ، ثم التنسيق والتوفيق ، بين العناصر المنتخبة بما يكمل شرحاً مهذبا متكاملا من مجموعها ، يفى بغرضها ، ويغنى عن جميعها ، لإشتماله على جميع العناصر التفسيرية الهامة ، وقلنا إن هذا المنهج يجمع بين عناصر المنهج

الإلتزامى النقلى ، وعناصر المنهج الإبداعى الفنى ، وإن كان صاحبه لا يشير إلى ذلك ..

لذلك فهو لا يدل على شخصية صاحبه أو منحاه العلمى ، وإنما يدل على كثرة قراءاته ومطالعاته ، ثم صبره وجلده فى عملية الإنتخاب والتنسيق ، والتوفيق والتلفيق .

ولقد أوضحنا كذلك – أن أصحاب هذا المنهج يمثلون آخر ما وصلت إليه حركة الشروح من مناهج ، ذلك أنهم ولدوا وعاشوا فى القرن الخامس الهجرى وهو القرن الذى وصل فيه شرح الشعر إلى منتهاه ، إلى التشبع ، وأصبح ما بعد ذلك إما تكرارا أو إختصارا .

وفى دراستى للتبريزى – ممثل هذا المنهج – عرفت به ، ثم تحدثت عن آثاره اللغوية وشروحه ، ثم حددت خطواته التفسيرية فى مجال شرح الشعر الجاهلى ، وتلمست لذلك الكثير من الشواهد . فعرضت أولا لشرحه على القصائد العشر ، وأوضحت منهجه فى شرحها ، وحددت مصادره فى النقل . ثم عرضت لشرحه على المفضليات ، وأوضحت منهجه ، وحددت مصادره . وأخيراً عرضت لشرحه على الحماسة ، وأوضحت منهجه فى شرحها ، وحددت مصادره التى إستقى منها هذا الشرح .. ثم أثبت ما سبق أن ذكرته ، من أن منهج الرجل يقوم على التجميع ، ثم الإنتخاب ، ثم التهذيب لذلك لم أتعرض لدراسة عناصر الشرح عنده ، لأنه قد وضح لنا أنها ليست له ، وإنما هو ناقل . ودراستها ستجعلنا نكرر ما سبق أن قلناه عن المنهجين السابقين وإنما تتبعنا الإضافات التى أضافها إلى أقرب الشروح إلى نفسه ، وهو شرح المرزوقى .

٢ ــ الجديد فى هذا البحث :

بعد هذه الدراسة الطويلة لشروح الشعر الجاهلى .. ولمناهجها .

وبعد هذا العرض السريع لما توصلنا إليه من نتائج .. يجدر بنا أن نقف لنتساءل .. **ما الجديد الذى توصلنا إليه ؟** .. أو ــ **هل قدم البحث جديداً ؟**

لقد كان من الممكن أن نقول : **إن هذه هى أول مرة فى تاريخ الأدب العربى تدرس فيها شروح الشعر الجاهلى** دراسة **أكاديمية مستقلة** . وكان هذا يكفى لكى نقول ــ ونحن مطمئنون ــ **إن هذا البحث يعد شيئا جديدا فى دراستنا الأدبية** .

ولكننا لا نريد هذا فحسب ، وإنما نريد أن نشير إلى أن هذا البحث ، فى صورته التى تمثلناها ونفذناها ، جديد فى إتجاهه وغايته ، فهو عمل علمى متكامل ، يخضع على الرغم من ضخامته وتشعبه لفكرة واحدة ، هى : **الربط بين الشعر وشروحه ومناهج شارحيه** » ، وهى فكرة سيطرت عليه ــ وعلينا ــ سيطرة تامة منذ البداية حتى النهاية .

فلأول مرة تدرس شروح الشعر الجاهلى ، دراسة تاريخية منهجية ، ليس هدفها تسجيل الظواهر الأدبية فقط ــ كما إحتفظت بها المصادر القديمة ــ وإنما هدفها الربط بين هذه الظواهر ، وبين العوامل التى أوجدتها وطورتها ، والمؤثرات التى أثرت فيها ، فطبعتها بطوابع معينة ، لم يكن من الممكن ، من وجهة النظر العلمية الدقيقة ، أن نفهمها على وجهها الصحيح ، بدون هذا الربط .

ولسنا ننكر أن هذه العوامل والمؤثرات ، قد إحتفظت بأصولها الأولى مصادرنا القديمة ، كما لا ننكر أن بعض الباحثين درسوا شيئا منها ، ولكن أكثر القدماء والمحدثين كان إهتمامهم يتجه إلى **المظهر** ، دون ما عمق أو نفاذ ، للوصول إلى **الأصل والجوهر ، وحتمية التطور** .

لقد حاولنا أن نرسم صورة واضحة لنشأة الشروح وتطورها فى ضوء من الحاجة الثقافية والعلمية التى دعت إلى ذلك ، وفى حدود البيئة العلمية التى وعتها وغذتها ، وما نظن إلا أن **هذه المحاولات لدراسة الشروح فى ضوء من البيئة ، والحاجة الثقافية والعلمية** ، محاولات جديدة فى إتجاهها ونتائجها . ثم أن دراستنا لهذه العناصر الثلاثة : البيئة ، والحاجة الثقافية ، ثم النشأة والتطور والربط بين هذه الأمور جميعاً ، وبين جوانب الحياة العلمية الأخرى ، ووصل الأسباب بالمسببات ، والنظرة الكلية الشاملة التى ترد الجزئيات إلى أصولها الكبرى ، بحيث تبدو هذه الجوانب حلقات متشابكة مترابطة ، لا حلقات مفككة متناثرة ، تعد محاولة علمية جديدة من غير شك .

لقد دفعتنا هذه النظرة الشاملة إلى عرض كل من البيئة الثقافية ، والحاجة الثقافية عرضا جديداً تتناول فيه موضوعاً واحداً ، ثم تتبعه إلى آخر مداه .. كما دفعتنا هذه النظرة نفسها ، إلى الربط بين نشأة الشروح وتطورها ، وبين التيارات العلمية والثقافية ، وأثر ذلك فى جيل بعد جيل ، مع ملاحظة المؤثرات الثقافية والاجتماعية ، والحاجة العلمية ، حتى **لقد أصبحت الشروح تحت أبصارنا وأذهاننا وكأنها كائن حى ، نشهد أثر التطور والزمن على نموه ، ونضجه ، من خلال تطور عقلية الشراح** ، وأثر الثقافة فيها ، ومن خلال أثر البيئة أيضاً ، والحاجة العلمية الداعية إلى الشروح .. وما نحسب هذا العرض والتتبع إلا جديداً فى حد ذاته .

لن أعدد أموراً تناولتها بالبحث أثناء الدراسة ، ولكنى سأكتفى بذكر بعض حقائق علمية ، ما أحسب أن باحثاً توصل إليها قبلى ، استقيتها من معايشتى لحركة الشروح من منبعها إلى مصبها .. وهى :

١ — أن العلماء الأول — علماء الجيلين الأول والثانى — كانوا العمد التى حملت حركة الشروح على إختلاف العصور ، وأن الشرح مهما تعددت صوره وأشكاله ، وتباينت مناهجه ، لم يكن فى يوم من الأيام ، بمستغن عن أقوالهم

وأن تراثهم التفسيرى — وإن تنقل وتنوقل — لم يفقد جوهره ، وإن إختلف مظهره .

٢ — أن علماء المغرب الأقصى من أمثال البرقى والشنتمرى والبطليوسى وغيرهم إنما تتلمذوا وأخذوا ونقلوا عن علماء المشرق الأصليين . إما عن طريق الكتب أو بواسطة العلماء المهاجرين أو الجوالين ، ومن هنا فات كثيراً منهم — قليلا أو كثيرا — التطور العلمى والعقلى الكبير الذى حدث فى أقاليم العراق وما جاورها ، ومن هنا وجدنا فارقاً علمياً واسعا ، بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول — إنه كلما بعدت المسافة عن المصر العراقى ، كلما زاد هذا الفارق العلمى .

٣ — أن الخط البيانى لتطور الشروح — كما رأيناه — سار فى معدل الإرتفاع التدريجى منذ علماء الجيل الثانى ، نتيجة للإضافات العلمية ، والإجتهادات التفسيرية ، التى اجتهد فيها العلماء ، وأملتها عليهم ظروف الحياة العلمية ، وظل هذا الخط فى الارتفاع حتى وصل إلى قمته عند الإبداعيين ، نتيجة لما أعملوا فيه عقولهم ، ونتيجة لما تأولوه واخترعوه وأضافوه من آراء وتفسيرات أمدتهم بها الحركة العلمية ، وظل هذا الخط البيانى متوقفا بعدهم فترة ، ثم أخذ فى الإنحدار التدريجى ، وفى منتصف الطريق تقابل مع المنتخبين المهذبين ، الذين أعادوا إلى الأذهان فكرة الأخذ والنقل — التى أخذ بها الجيل الثالث وما بعده — وإن يكونوا لم يلتزموا ، ولم يقفوا عند عصر معين ، أو عالم معين ، ولكنهم تصرفوا وفق أهوائهم وميولهم ، فكان أن نقلوا من التقليديين .. القديم ، ونقلوا من المبدعين الجديد فظهرت فى شروحهم آراء وشروح العلماء جميعا ، واستطاعوا بما لهم من صبر وجلد ، وذكاء وبراعة ، أن يوفقوا ويلفقوا ، وأن يجمعوا بين المناهج القديمة والمتقدمة ، والمفاهيم الموروثة والمتطورة ، جمعوا بين هؤلاء وهؤلاء . ولكن لم يقف صنيعهم عند الجمع فقط — كما فعل الإلتزاميون ، بل تركوا لأنفسهم العنان فى أن يغيروا ويبدلوا ، ويضيفوا ويحذفوا ، فكان منهجهم

هذا خليطا ، نقليا إجتهاديا ، فيه من المأثور ومن المخترع ، فكانوا بذلك مقلدين لا تقليديين ، إتباعيين لا إبداعيين ، ومن هنا غابت شخصيتهم ، وضاعت ملامحهم ، وتاهوا بين شعاب الشروح .. هذا عن الشروح .

أما فيما يتصل بالمناهج .. فاننا نستطيع أن نزعم .. أن دراستنا لها كانت جديدة فى مجموعها .. ذلك أننا تتبعنا هذه المناهج منذ نشأتها ، وشاهدنا نموها ، وعاصرنا تطورها ولاحظنا معدل التغيير الذى كان يطرأ عليها شيئا فشيئا ، حتى وصلت إلى الذروة الفنية ، ثم رأينا كيف توقفت مسيرتها بعد ذلك ، حين لم يجد الشراح شيئا يمكن أن يضاف أو يقال ..

إننا لن نكرر ما سبق أن قلناه ، ولكننا نحب أن نقف قليلا عند بعض الأمور لنثبت صدق قولنا ..

لقد كان بحثنا أول من حدد مفهوم شرح الشعر .. أهو علم أم لا ؟ وما هى مقوماته . . كما كان بحثنا أول من فرق بين التفسير والشرح — وإن كانا بمعنى واحد — إستنادا إلى نظرة القدماء أنفسهم ، وصنيعهم فى مصنفاتهم ، فجعل التفسير أساساً للقرآن ، والشرح للشعر .

وكان بحثنا أول من حدد **المفهوم العلمى للمنهج** ، من واقع الشروح ، ومن مفهوم القدماء له .. وفرق بين كل منهج ولاحقه وفقاً لعوامل التطور : البيئة والثقافة وطبيعة العصر .

وكان بحثنا أول من أشار إلى أن المناهج العلمية من الأصول الكبرى ، التى يندرج تحتها طرائق التفسير وإتجاهاته .

ويعد بحثنا أول من حدد المناهج العلمية وعددها ، **وأطلق عليها المسميات من واقع الشرح** ، وتصرف الشراح ، كما حدد مقوماتها ومعاييرها . . فعلى سبيل المثال . . أطلقنا على منهج ابن السكيت ، « **المنهج الإلتزامى النقلى** » ، وهذا المسمى من واقع تصرف الرجل نفسه فى الشرح ، وإحساسنا باحترامه الكبير لأقوال وآراء أساتذته من السلف العالم ، والتزامه الواضح والصريح

بهذه الأقوال والآراء . ولقد ألمحنا إلى أن هذا الإلتزام والنقل الصريح من أساتذته لم يفطن إليه بعض الباحثين ، فوقعوا فى الوهم والخطأ والشطط ، حين تساءلوا عن وجود أسماء وروايات وشروح هؤلاء العلماء ، فى شروح ابن السكيت ، واعتقدوا أن هذا الشرح له « ولغيره » ، وأن هذه الشروح « بتمامها » .

كما أطلقنا على منهج المرزوقى : « **المنهج الإبداعى الفنى** » إستنادا أيضا إلى واقع شرحه ومضمونه وعناصره . وكان هذا البحث أول من حدد مفهوم هذا المنهج ، ومقوماته ومعاييره ، وأشار إلى الدعامات الفنية ، والمقومات الأدبية وغير الأدبية ، التى يتركب منها :

وكان بحثنا أول من حدد طريقة المرزوقى فى تناول النص ، وأنها تختلف شكلا ومضمونا ، عما يفعله الشراح الآخرون ، فإذا كان الشراح يبدأون شروحهم بالجزء ليصلوا إلى الكل ، بحيث يكون شرحهم تصاعديا فإن المرزوقى قد خالفهم فى ذلك ، فكان يبدأ بالكل .. بالمعنى ثم يعرج إلى الجزء ، أى شرح العناصر المدعمة لهذا المعنى ، فكان شرحه تنازليا .

وكان بحثنا كذلك — أول من أشار إلى صور المعنى ، وهيئاته المتعددة فى شرحه ، ومن هنا أطلقنا عليه : **رجل المعانى الأول فى شرح الشعر** .

وكان بحثنا أول من درس العناصر التفسيرية ، الرواية واللغة ، والنحو ، والصرف ، وعلوم البلاغة ، والنقد — عند المرزوقى — دراسة تحليلية فنية مستفيضة لإبراز دعائم هذا المنهج . وحسبنا أن نشير هنا إلى عنصرين فقط وهما **الرواية والنقد** ...

أما **الرواية** — فان بحثنا أول من درسها دراسة عميقة ، وأشار إلى كيفية إختياره لها ، وعدد الأسس التى كان يقيم عليها تصويبها ، وحدد المعايير العلمية التى كان المرزوقى يتخذ منها حكماً حين يتتبع هذه الروايات :

وأما النقد – فحسب هذا البحث أنه أول من جمع وتتبع العناصر النقدية فى شرحه وربط بين **نقده النظرى ، ونقده التطبيقى** ، ورد على الزاعمين زعمهم القائل : بأن المرزوقى كان خياليا ، وأنه حين وضع مقدماته النقدية فى صدر شروحه ، كان يتكلم من فراغ ، بدليل أنه لم يأت بشاهد واحد فى مقدمته يؤيد به صحة ما يقول ..

وحسب هذا البحث أيضا أنه دعم كل قول للمرزوقى ، وقدم الأدلة من واقع شرحه ، وأثبت زيف هذا الادعاء ، كما أثبت أن المرزوقى كان يعنى ما يقول ، وأنه كان يتبع القول العمل ، ويقدم الدليل تلو الدليل ، فكان أحد العلماء النقاد القلائل ، الذين أثبتوا أن النقد نظريات ومبادىء وأنه أيضاً تطبيق وعمل .

ولقد أطلقنا على منهج التبريزى « **المنهج الإنتخابى التهذيبى** » وكان ذلك من واقع الشرح ، ونتيجة للمعايشة الطويلة ، والمتابعة الدقيقة ، والمكابدة والمجاهدة فى تتبع أصوله ، ومقارنة شروحه بشروح كل العلماء السابقين .. ونستطيع أن نؤكد أننا حددنا صحة هذا المسمى ، وتطابقه على شرحه تمام الإنطباق .

وحسب هذا البحث أنه أول من بين حقيقة التبريزى ، وشار إلى تمويهه لدارسيه وإيهامه لهم بأنه العالم العلامة ، المتبحر الفهامة ، المحصل لكل جلائل العلوم ، الفاهم لكل دقائق الأمور ، **وهو فى الحقيقة جامع ناقل ، متصرف ، غير ملتزم ، وغير مجتهد** ، ضاعت شخصيته العلمية حين حاول أن يخفى حقيقة تصنيعه وحين وضع توقيعه على ما صنعه غيره .

وحسب هذا البحث أنه حدد حقيقة مصادره وشواهده ، ولم ينخدع بالمظاهر .. بل إنه تابع التبريزى كظله فى مساراته ودهاليزه ، ورفع بصمات أصابعه وآثار أقدامه ، من كل مكان لمسه أو وطئه ، دون أن يشير إليه .

أما ما يتصل بدراسة الشخصيات ، فيكفى أن نقف قليلا عند بعض المسائل :

١ ــ لقد رفضنا ــ مثلا ــ فكرة تشيع ابن السكيت ، كما رفضنا شيعية المرزوقى ، وأثبتنا إستنادا إلى أدق المصادر وأقربها عهداً بهذين العالمين ، أنهما لم يكونا كذلك ، وإنما كان هذا الإدعاء من هوى الشيعة وأفكارهم ، يريدون أن ينسبوا كل مكرمة إليهم ، بما يرفع من قيمة دعوتهم .

٢ ــ نستطيع أن نؤكد إستنادا إلى عشرات المصادر القديمة والحديثة ، أن هذا البحث أول من تعرض لتحديد مولد المرزوقى وعمره ، إعتماداً على صلته بمعاصريه ، وإستناداً إلى أقواله الشخصية .. وهذا الأمر مر عليه المؤرخون القدماء ، والباحثون المحدثون مروراً عابرا ، خشية المزالق ، وتجنباً للمشاكل .

٣ ــ وحسب هذا البحث أنه أول من حدد مفهوم القدماء فى معنى « أخذ عنه » أو « كتب عنه » مما أوقع البعض فى الوهم فظنوا أن معناهما واحد.

٤ ــ وحسب هذا البحث أنه أشار إلى عصامية المرزوقى .. وأن الكتاب لعب دوراً هاما فى حياته العلمية ، إن طالبا للعلم ، أو باذلا له ، لذلك قلنا أنه لم يكن له أستاذ إلا الفارسى ، ولم يكن له تلاميذ إلا أبناء بنى بويه ..

ومع ذلك فإن هذه الدراسة على ضخامتها وتشعبها ، لم تلم بالموضوع من جميع أطرافه ، فمازلنا نشعر أننا لم نقل كل شىء .. وأننا لم نصل بها إلى درجة الكمال الذى ننشده ، وهى كما تتمثل لنا فى وضعها الدقيق .. محاولة حاولناها ، بقدر ما أمدتنا به مصادرنا من معلومات ، وما هيأت لنا من وسائل ، فإن يكن ثمة قصور فهذا لأن الكمال لله وحده ، وفوق كل ذى علم عليم ..

د. أحمد جمال العمرى

فهرست الجزء الثانى

من شروح الشعر الجاهلى

« مناهج الشراح »

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع ٤٢٩٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب